

موسوعة الشخصيات الإسلامية
المجلد السابع

أعلام التصوف

(٦٥٦)

الإمام محمد بن الهاشمي

١٢٩٨ - ١٣٨١ هـ / الموافق ١٨٨١ - ١٩٦١ م

هو سيدي الإمام محمد بن أحمد الهاشمي بن عبد الرحمن التلسماني الجزائري أصلاً، والدمشقي سكناً وهجرة.
شيخ الطريقة الشاذلية في البلاد الشامية في عصره.
ولادته ونشأته :

ولد سماحة الأستاذ المرشد الكبير سيدي محمد بن الهاشمي قدس الله روحه من أبوين صالحين، كلاهما من آل بيت النبوة، يرجع نسبهما إلى الحسن بن علي رضي الله عنهما، ولد يوم السبت ٢٢ شوال ١٢٩٨ هـ الموافق ١٦ أيلول ١٨٨١ م في ضواحي مدينة تلمسان، وهي من أشهر المدن الجزائرية. وكان والده من علمائها وقاضيا فيها، فلما توفي ترك أولادا صغارا، والشيخ أكبرهم سنا.

بقي الشيخ مدة من الزمن ملازماً للعلماء، قد انتظم في سلوكهم جادا في الازدياد من العلم، ثم هاجر بعد شيخه سيدي محمد بن يلس إلى بلاد الشام فارا من ظلم الاستعمار الفرنسي إذ رفضوا التجنيد ضمن الجيش الفرنسي المعتدي، الذي منع الشعب الجزائري من حضور حلقات العلماء وتوجيههم وثورتهم ضد الاحتلال الفرنسي. وكانت هجرتهم في ٢٠ رمضان سنة ١٣٢٩ هـ عن طريق طنجة ومرسيليا، متوجهين على بلاد الشام. فمكثا في دمشق أياما قلائل، وعملت الحكومة التركية على تفريق جميع المغاربة الجزائريين، وكان نصيبه رحمه الله أن ذهب إلى

تركيا وأقام في أضنة، وبقي شيخه ابن يلس في دمشق. وعاد بعد سنتين إلى دمشق، فالتقى بشيخه ابن يلس وصحبه ولازمه.

وفي بلاد الشام تابع أخذ العلم عن اكابر علمائها. ومن أشهرهم المحدث الكبير محمد بدر الدين الحسني، والشيخ أمين سويد، والشيخ محمد بن جعفر الكتاني، والشيخ نجيب كيوان، والشيخ توفيق الأيوبي، والشيخ محمود العطار وأخذ عنه علم أصول الفقه، والشيخ محمد بن يوسف المعروف بالكافي وأخذ عنه الفقه المالكي، وقد اجازه أشتاؤه رحمهم الله بالعلوم العقلية والنقلية.

أما من ناحية التصوف فقد أذن له شيخه محمد بن يلس بالورد العام لما رأى من تفوقه على تلامذته، من حيث العلم والمعرفة والنصح لهم وخدمتهم. ولما قدم المرشد الكبير الشيخ أحمد بن مصطفى العلوي من الجزائر لأداء فريضة الحج، نزل في دمشق بعد وفاة سيدي محمد بن يلس سنة ١٣٥٠ هـ، وأذن له بالورد الخاص (تلقين الاسم الأعظم) والإرشاد العام، علماً أن الثلاثة: سيدي محمد بن بلس والشيخ أحمد بن مصطفى العلوي والشيخ محمد بن الهاشمي كانوا تلاميذ الشيخ محمد بن الحبيب البوزيدي في مستغانم بالجزائر.

أخلاقه وسيرته:

كان رحمه الله تعالى متخلقاً بأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، متابعاً له في جميع أقواله وأحواله وأخلاقه وأفعاله، فقد نال الوراثة الكاملة عن الرسول صلى الله عليه وسلم.

وكان متواضعاً حتى اشتهر بذلك ولم يسبقه أحد من رجال عصره في تواضعه.

وكان يعامل كما يحب ان يعاملوه. دخل عليه رجل فقبل يد الشيخ وأراد الشيخ أن يقبل يده فأمتنع الرجل وقال: استغفر الله يا سيدي أنا لست أهلاً لذلك أنا أقبل رجلكم فقال الشيخ: إذا قبلت رجلنا فنحن نقبل رجلكم، وكان يحب أن يخدم إخوانه بنفسه، فيأتي الزائر، ويأتي التلميذ فيبيت عنده فيقدم له الطعام، ويحمل له الفراش مع ضعف جسمه. وكم جاؤوه في منتصف الليل، وطرقوا بابه، فيفتح لنا الباب وهو بثيابه التي يقابل بها الناس، كأنه جندي مستعد. فما رأي في ثوب نوم أبداً .

وكان حليماً لا يغضب إلا لله. حدث أن جاءه رجل من دمشق إلى بيته وأخذ يتهجم عليه، ويتكلم بكلمات يقشعر لها جلد المسلم، ولكن الشيخ رضي الله عنه لم يزد على قوله له : الله يجزيك الخير ، إنك تبين عيوبنا، وسوف نترك ذلك ونتحلى بالأخلاق الفاضلة. وما ان طال المقام بالرجل إلا وأقبل على الشيخ ، يقبل قدميه ويديه ، ويطلب المعذرة منه.

وكان كريماً لا يرد سائلاً. وكم كان يأتي إليه أشخاص فيعطيههم ويكرمهم، ولاسيما في مواسم الخير؛ حيث يأتي الناس لبيته وترى موائد الطعام يأتيها الناس أفواجا أفواجا يأكلون منها ، ولا تزال ابتسامته في وجهه، وقد بلغ من كرمه أنه بنى داره التي في حي المهاجرين بدمشق قسمين: قسم لأهله ، وقسم لمريديه وتلاميذه.

يذكر أحد أهل الفضل والخير يقول:

ذهبت مرة وأنا صبيٌّ صغيرٌ بصحبة والدي لزيارة سيدي الشيخ
المجاهد محمد الهاشمي رحمه الله في داره،

وكان ذلك ثاني أيام عيد الفطر، والوقت وقت شتاء ومطر، فولجنا بيته
ودخلنا غرفة الاستقبال، فإذا جمعٌ من العلماء وطلاب العلم وأهل
الصلاح جالسون يصيرون من موائد الضيافة والحديث (إن الحديث
جانِب من القِرى)، ويناقدشون بعض المسائل الفقهية، ويخوضون في
أبحاث وموضوعات علمية..

فأخذت أمحّص وجوه الحاضرين أسائل نفسي: أيهم الشيخ الهاشمي يا
ترى؟ وما هي هيئته؟ لما كنت أسمع عن شخصه وهيئته وسمته رحمه
الله...

ولم يثبت عندي خبر ولم يتيقن في نفسي جواب، وبقيت تلك حالي...
ثم ما لبثنا أن غادرنا الغرفة الدافئة ووقفنا على شيخ هرم لطيف الهيئة
حسن الوجه عليه هيبة ووقار يعمل في بعض شأنه، فسلم عليه والدي
وتبادلا الدعوات والتبريكات، ثم سأله الدعاء لي ولإخوتي وانصرفنا...
وما كدنا نغادر البيت وتستوي بنا الطريق حتى سألت والدي رحمه الله
بشوق:

مَنْ مِنَ الجالسين هو الشيخ الهاشمي؟

أهو الشيخ الوقور صاحب العمامة البيضاء في صدر المجلس؟

فتبسم وقال : لا،

قلت: هو إذاً الرجل الكهل عن يمينه الذي انجذبت إليه الأسماع والقلوب

فقال: أيضا لا،

فسألته عن أهل المجلس واحدا تلو الآخر وهو يقول: لا ليس هو،

فقلت بلهفة: فمن هو إذا؟

قال: رأيت الشيخ المسن على باب الغرفة قد أصابه الهواء ونال منه

البرد الذي سلمنا عليه وقت غادرنا؟!!

قلت: نعم، رأيته،

فقال: فذلك هو شيخنا الهاشمي!،

قلت: وما كان يصنع في البرد؟!!

قال: إنه كان ينظف أحذية ضيوفه ومريديه من الطين الذي أصابها!،

لأنه كان لا يحب أن يرى إلا النظافة والترتيب، وكان يقول أبدا في كل

أمر: مشربنا جمالي.

وكان من صفاته رضي الله عنه واسع الصدر وتحمل المشقة والتوجيه،

وشدة الصبر مع بشاشة الوجه، وحين يستغرب الناس ذلك منه يقول: يا

سيدي إن مشربنا هذا جمالي. وكان يأتي إليه الرجل العاصي فلا يرى

إلا البشاشة من وجهه وسعة الصدر، وكم تاب على يديه عصاة

منحرفون ، فانقلبوا بفضل صحبتته مؤمنين عارفين بالله تعالى.

حدث أنه كان سائرا في الطريق بعد انتهاء الدرس ، فمر به سكران ؛

فما كان من الشيخ رحمه الله تعالى إلا أن أزال الغبار عن وجهه ، ودعا

له ونصحه ، وفي اليوم التالي كان ذلك السكران أول رجل يحضر

درس الشيخ ، وتاب بعد ذلك وحسنت توبته.

وكان رحمه الله تعالى يهتم بأحوال المسلمين ويتألم لما يصيبهم، وكان

يحضر جمعية العلماء التي كانت في الجامع الأموي، يبحث في أمور

المسلمين ويحذر من تفرقتهم، وقد طبع رسالة تبين سبب التفرقة

وضررها، وفائدة الاجتماع على الله والاعتصام بحبل الله سماها **(القول الفصل القويم في بيان المراد من وصية الحكيم)**.

وكان رحمه الله يكره الاستعمار بكل أساليبه، ويبحث في توجيهه عن مدى صلة الحوادث مع الاستعمار وكيفية الخلاص من ذلك. ولما ندبت الحكومة الشعب إلى التدريب على الرماية، ونظمت المقاومة الشعبية، سارع الشيخ لتسجيل اسمه بالمقاومة الشعبية، فكان يتدرب على أنواع الأسلحة مع ضعف جسمه ونحوه وكبر سنه. وبهذا ضرب للشعب المثل الأعلى لقوة الإيمان والعقيدة والجهاد في سبيل الله، وذكرنا بمن قبله من المرشدين الكمل الذين جاهدوا الاستعمار وحاربوه؛ أمثال سيدنا عمر المختار والسنوسي والأمير عبد القادر الجزائري. وما المجاهدون الذين قاموا في المغرب، لإخراج الاستعمار وأذئابهم إلا الصوفية.

وكان رحمه الله تعالى حسن السيرة والمعاملة، مما جعل الناس يقبلون عليه ويأخذون عنه التصوف الحقيقي، حتى قيل "لم يشتهر الهاشمي بعلمه مع كونه عالما، ولم يشتهر بكراماته مع إن له كرامات كثيرة، ولكنه اشتهر بأخلاقه، وتواضعه، ومعرفته بالله تعالى" وكفى بها.

وكان رحمه الله تعالى إذا حضرت مجلسه، شعرت كأنك في روضة من رياض الجنة؛ لأن مجلسه ليس فيه ما يشوبه من المكدرات والمنكرات. فكان رحمه الله تعالى يتحاشى أن يذكر في حضرته رجل من غير المسلمين وينقص. ولا يحب أن يذكر في مجلسه الفساق وغيرهم، ويقول: **عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة**.

وبقي رحمه الله دائبا في جهاده مستقيما في توجيهه للمسلمين وإخراجهم مما وقعوا فيه من الضلال والزيغ. فقد كانت حلقاته العلمية متوالية من

الصباح حتى المساء؛ ولا سيما علم التوحيد الذي هو من أصول الدين فيبين العقائد الفاسدة والإلحادية، مع بيان عقيدة أهل السنة والجماعة، والرجوع إلى الله تعالى؛ والتعلق به دون سواه.

منهجه في التربية:

التمسك الشديد بالكتاب والسنة والحرص على تعلم المريدين لعلم العقيدة وإزالة الشبه العالقة بعقول المسلمين.

التخلق بأخلاق المسلمين مع الناس والسير بالسالكين إلى معرفة الله ذوقاً (الخلوة الشاذلية) مع المحافظة على اللسان الشرعي الذي لا يخل بالشرعية باسم المعرفة والحقيقة ولا يشطح شطحاً بمخالفة الكتاب والسنة.

يروى سيدي العلامة العارف بالله تعالى الشيخ عبدالرحمن الشاغوري عليه الرحمة والرضوان أن شيخه وأستاذه العارف بالله تعالى الشيخ محمد الهاشمي التلمساني أستاذ التوحيد في عصره استدعته رابطة علماء الشام التي كان عضوا فخريا وبارزا فيها .

وكان الأمر الذي استدعي لأجله أن أحد تلاميذه قد وقع في محذور شرعي ، وقد طلبت الرابطة من الشيخ طرده من مجالسه، فأطرق الشيخ ثم قال: اخواني كأصابعي ، وأصبعي اذا مرضت أو جرحت أداويها أم أقطعها ؟؟

قالوا: تداويها ، قال فهكذا إخواني .

نشاطه في الدعوة والإرشاد:

كان بيته قبلة للعلماء والمتعلمين والزوار، لا يضجر من مقابلتهم، ويقوم مع ضعف جسمه- حلقات منتظمة دورية للعلم والذكر في المساجد والبيوت، ويطوف في مساجد دمشق يجمع الناس على العلم وذكر الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم. ولم يزل مثابراً على همته ونشاطه ودعوته حتى أيامه الأخيرة.

تتلذذ على يديه نخبة طيبة صالحة من العلماء وطلاب العلم، ومن مختلف طبقات الأمة يهتدون بإرشاداته، ويغترفون من علومه، ويقتبسون من إيمانه ومعارفه الذوقية، ويرجعون إليه في أمورهم. وسئل: لم الناس يرتكبون الحرام مع علمهم بتحريمه فأجاب قدس الله سره: يرتكبون الحرام لجهلهم بالله فلو عرفوا الله ما وقعوا في الحرام. وقد أذن للمستفيدين منهم بالدعوة والإرشاد، وبذا انتشرت هذه الطاقة الروحية في دمشق وحلب وفي مختلف المدن السورية والبلدان الإسلامية.

مؤلفاته:

مفتاح الجنة شرح عقيدة اهل السنة: كتاب نفيس في التوحيد أكثر فيه الشيخ من النقولات العلمية وهو أوسع كتاب له. ويوجد تسجيل لشرحه للإمام الشاغوري رحمه الله أجاب بها الشيخ عن أسئلة الذين درسوا العلوم الكونية العصرية.

الرسالة الموسومة بعقيدة اهل السنة مع نظمها.

البحث الجامع والبرق اللامع والغيث الهامع فيما يتعلق بالصناعة والصانع،

الرسالة الموسومة بسبيل السعادة في معنى كلمتي الشهادة مع نظمها.
الدرة البهية.

الحل السديد لما استشكله المريد من جواز الأخذ عن مرشدين. أجاب فيها عن أسئلة مريديه لمن يدخل في الطريقة.

القول الفصل القويم في بيان المراد من وصية الحكيم. وهي شرح لقصة المهلب بن أبي صفرة مع أولاده لما دعاهم قبل مماته وأعطى كل واحد منهم رمحاً ليكرسه ثم أعطاهم حزمة من الرماح فلم يستطيعوا كسرها ... أخذ الشيخ من هذه القصة عبراً جليلة دونها في هذا الكتاب.

شرح شطرنج العارفين للشيخ محي الدين بن عربي رحمه الله.
شرح نظم عقيدة أهل السنة. شرح مبسط في التوحيد يشرح فيه نظاماً يتألف من ٤٨ بيتاً وهي مختصر لكتاب مفتاح الجنة، وهو مطبوع وقد طبع مؤخراً ثانية.

الأجوبة الوافية الوفيه على الأسئلة الطرقية: أجاب بها الشيخ عن أسئلة مريده الشيخ قاسم القيسي مفتي العراق وتسمى أيضاً (الدرر المنتشرة في الأجوبة العشرة)، وغير ذلك من الرسائل.

وقد أخذ التصوف عن سيدي الهاشمي رحمه الله تعالى كثير من العلماء وغيرهم لا يعلم عددهم إلا الله. ومن أهمهم: الشيخ عبد القادر عيسى – والشيخ محمد سعيد الكردي – والشيخ عبد الرحمن الشاغوري – والشيخ سعيد الحزاوي فقيه الأشراف – الشيخ محمد النبهان من حلب – الشيخ

أحمد الشامي – الشيخ ابراهيم اليعقوبي – الشيخ عبد الوكيل دروبي –
الشيخ قاسم القيسي – الشيخ شكري اللحفي.

وفاته:

وهكذا قضى الشيخ الهاشمي حياته في جهاد وتعليم، يربي النفوس،
ويزكي القلوب الراغبة في التعرف على مولاها، لا يعتريه ملل ولا
كسل. واستقامته على شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً
وعملاً وحالاً، ووصيته في آخر حياته: "عليكم بالكتاب والسنة" تشهد له
بكمال وراثته ومرض مرضاً شديداً منعه عن مواصلة نشاطه فأوصى
الجميع بملازمة مجلس العلم والذكر والتمسك بالكتاب والسنة.

وهكذا رحل الشيخ الكبير إلى رضوان الله تعالى وقربه يوم الثلاثاء ١٢
من رجب ١٣٨١ هـ الموافق ١٩ كانون الأول ١٩٦١ م عن عمر
يناهز الثمانين أمضاها بين علم وتعليم وجهاد في سبيل الله، وصلى
عليه بالجامع الأموي، ثم شيعته دمشق تحمله على الأكتف إلى مقبرة
الدحداح، حيث ووري مثواه وهو معروف ومُزار. ولئن وارى القبر
جسده الطاهر الكريم، فما وارى علمه وفضله ومعارفه وما أسدى
للناس من معروف وإحسان، فلمثل هذا فليعمل العاملون. وهذا من
بعض سيرته الكريمة، وما قدمناه غيضٌ من فيض ونقطة من بحر، وإلا
فسيرة العارفين منطوية في تلامذتهم، ومن أين للإنسان ان يحيط بما
تكنه صدورهم وأسرارهم؟

وبمثل هذه الشخصيات الحية نقّدي وبمثلهم نتشبه:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

وقد قيل:

موت التقي حياة لا انقطاع لها، قد مات قوم وهم في الناس أحياء

مصادر الترجمة:

- حقائق عن التصوف للشيخ عبد القادر عيسى.
- غرر الشام في تراجم آل الخطيب الحسنية ومعاصريهم.
- مشافهة إمام أهل السنة والجماعة الشيخ عبد الرحمن الشاغوري.
- مشافهة الشيخ أسامة الرفاعي ١٩٨٥.

رحمه الله ورحم أشياخه ومحبيهم والمنتسبين إليهم آمين. وجمعنا الله معهم في أعلى عليين.

(٦٥٧)

الإمام أحمد رضا خان

انقضت المئة الأولى الهجرية لرحيل الإمام العلامة
الشيخ أحمد رضا خان رحمه الله...

الإمام أحمد لم يولد في بلده بريلي في الهند فقط ولكنه ولد في العالم كله
سنة ١٨٥٦ وكل العالم بلده وشعت فيه أنواره..

صحيح لم ألتق بالإمام أحمد ولكنني التقيت بمؤلفاته فوقعت محبته في
قلبي فقد مضت على الأمة أقطاب الأئمة العظام وكتب الله لأمتنا أن يأتي
على رأس كل مئة سنة من يجدد لها أمر دينها ونحن اليوم بحضرة إمام
من هؤلاء بل إمام مجاهد سلك درب الإمام أبي حنيفة والإمام مالك
والإمام الشافعي والإمام أحمد والإمام الأشعري والإمام الماتريدي في
تثبيت دعائم الشرع المطهر وعقيدة أهل السنة والجماعة..

امتزج العلم بخلاياه ودمه وأفاض الله عليه من العطايا ببركة أبيه وجدّه
ما أدهش أهل عصره وحفظ القرآن الكريم وهو صغير في مدة وجيزة
وحصلت له علوم شبه طريق الوهب فلم يكن له فيها معلّم إلا الكتاب
ولعلّ مدد أبيه وجدّه العالمين الصالحين قد وصل إليه..

وقد بلغت العلوم التي برع فيها عدداً كبيراً لم يعرف لمثله من قبل حتى
قيل إنه ابتكر عشر قواعد لمعرفة القبلة من أيّ جزء من العالم.. وبرع
بالعلوم العقلية إلى جوار العلوم النقلية: الهندسة، الهيئة، الكيمياء،
الاقتصاد الرياضيات، السياسيات، الطب، الجغرافية، التاريخ، المناظرة،
المنطق، الفلسفة، الجبر، والمقابلة...

حتى أصبح قدوة زمانه رحمه الله.. وأبطل نظريات بعض علماء الفلك
الغربيين بأدلة بلغت سبعة عشر دليلاً..

إلى جوار هذه المعارف والعلوم كان شاعراً مجيداً باللغات الثلاث العربية والفارسية والأوردية حتى تجاوزت مؤلفاته الألف وهذا لا أعلم بمثله عند أهل العلم حتى قال فيه علامة الهند الشاعر محمد إقبال: (إن شبه القارة الهندية من أقصاها إلى أقصاها لم يولد فيها من يشبه الإمام أحمد رضا خان في عبقريته التي لا وجود الزمان على أحد بما يُدانيها). لقد سخر حياته لثلاثة أهداف أسوقها لكم باختصار:

الأول: حماية جانب سيد المرسلين صلوات الله وسلامه عليه ممن يكرهه من كلِّ وهّابي مهين.

الثاني: نكاية بقية المبتدعين ممن يدّعي الدين وما هو إلا من المفسدين..

الثالث: الاقتاء بقدر الاستطاعة على المذهب الحنفي.. والنّاظر في مؤلفات الإمام يرى أنّ الله حقّق له هذه الأهداف لإخلاصه وصدقه ولأضرب لكم ببعض الأمثلة على ذلك:..

عندما اطلع ابن تيمية على كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض رحمه الله وما أكرم الله به نبيّه ومصطفاه قال ابن تيمية قولته الشنيعة: غلا هذا المغربي.. وأفتى:

١- بمنع زيارة النبيّ حتى ادّعى أنّ السفر لزيارة حبيب الله مُحَرَّم بالإجماع.

٢- وأنّ الصلاة لا تُقصر فيه لعصيان المسافرين به.

٣- بل ادّعى أن سائر الأحاديث الواردة في فضل الزيارة موضوعة.

٤- كما أفتى بأنّ النبيّ صَلَّى الله عليه وسلّم لا يُستغاث به.

وذكر ابن حجر في الدرر الكامنة بعض هذه الفتاوة وأنّ فيه تنقيصاً ومنعاً من تعظيم النبيّ صَلَّى الله عليه وسلّم. ولذلك سجن ابن تيمية بإجماع مشايخ المذاهب الأربعة درءاً للفتن التي أثارها.

وبعد أربعمئة عام ينهض في الجزيرة العربية داعية جديد استخرج من علم ابن تيمية هذه الفتاوى وبنى عليها دينه كلّهُ على أساسها ألا وهو ابن

عبد الوهاب النجدي أقام دعوته على أساس أن الأمة قد ارتدت عن الإسلام بسبب توسّلها بالنبي وبالأولياء الصالحين وبسبب زيارتها لقبورهم وقبر نبيها صلى الله عليه وسلم سمي أتباعه بعبّاد القبور..

واعتبر تعظيم النبي إشراكا له في عبادة الله تعالى وراحوا ينتقصون من قدره..

وقد عاصر هذه الفتن السيد أحمد زيني دحلان فقيه الشافعية في البلد الحرام وكتب في الرد على ابن عبد الوهاب كتابه (الدرر السنية). وكيف ان ابن عبد الوهاب جاء بطامات غير صحيحة في الشرع المطهر..

ووصلت هذه الافكار إلى الهند وتبناها شيوخ مدرسته ديوبند أكبر المدارس الهندية في الهند وتصدى لهم ولرجالهم الإمام أحمد رضا خان رحمه الله تعالى

وحاول بادئ ذي بدء

لفت أنظارهم بالحسنى إلى مفاصد هذه الأقوال لعلمهم يرجعون عنها فتخمد نيران الفتنة؛ إلى جوار رده على القاضائية الفرقة الكافرة وصرف حياته رحمه الله في الرد عليهم وقال قولته:

* (أما وقد شاع الباطل وأصبح دعائه يتجرؤون على أهل الحق ويتهمونه بأبشع التهم ويجدون بين الناس من يصدقهم عندئذ يصبح السكوت أو التغاضي

جريمة لا تغتفر فليست المصيبة أن يكتب أهل الباطل ولكن المصيبة في تصديق الناس الطيبين له).

واليوم و بعد مئة عام ماتزال تعاليم الإمام سارية في الوجود تحمل مشاعل نور إلى الأجيال بعده..

الحديث طويل والزمن قصير عن الإمام ومناقبه وحسبي أن ألقبه بقطب القارة الهندية وسيد دعائها

رحم الله الإمام فلولاه لما عرف أهل الهند والباكستان ضلال الديوبندية
والوهابية والقاضيانية
ويشرفني أن يتصل نسبي
إلى الطريقة البريلوية إلى الإمام أحمد رضا خان رضي الله عنه
وارضاه.

العلامة أختر رضا خان

سأحدثكم عن شمس كانت إذا طلعت في أية مدينة أو حفلة أو ندوة علمية اختفت نجوم اهل العلم أمامها وخشعت شخصياتهم لهيبته .
إنه إمامنا وشيخنا الإمام العلامة محمد أختر رضا خان رحمه الله القاضي مفتي الديار الهندية وإمام أهل السنة في الهند الذي توفي عن عمر ناهز ٧٥ عامًا.

والعلامة الراحل كان خريجًا لجامعة الأزهر الشريف عام ١٩٦٦م، وهو من بيت عامر بالعلم والعلماء المعروفين في القارة الهندية منذ أكثر من ٢٠٠ سنة.

ولد قاضي قضاة الهند الشيخ الإمام تاج الشريعة محمد أختر رضا خان الحنفي القادري الأزهري يوم الاثنين ٢٦ من شهر محرم لعام ١٣٦٢هـ الموافق ٢ من شهر فبراير لعام ١٩٤٣م بمدينة بريلي في شمال الهند. والإمام الراحل هو ابن حفيد الشيخ الإمام المجدد لأوائل القرن الرابع عشر الهجري، سيدي أحمد رضا خان الحنفي البريلوي، فهو ابن الشيخ المفسر الأعظم بالهند الشيخ إبراهيم رضا (المكنى جيلاني ميان) ابن حجة الإسلام الشيخ محمد حامد رضا ابن الإمام الشيخ أحمد رضا خان الحنفي البريلوي، .

ومن جهة والدته: فإن جده من والدته هو المفتي الأعظم بالهند الشيخ محمد مصطفى رضا خان القادري الحنفي البركاتي، ابن الشيخ أحمد رضا خان الحنفي البريلوي.

نشأته وتعلمه العلوم وأساتذته:

وبحسب سيرته المنشورة فقد أخذ الشيخ الراحل رحمه الله الدروس الأولية والعلوم الابتدائية العقلية والدينية عن العلماء الأكابر المعروفين في وقته، وعن والده الشيخ إبراهيم وجده من والدته الشيخ محمد مصطفى رضا، وحصل على شهادة خريج العلوم الدينية من دار العلوم منظر الإسلام بمسقط رأسه مدينة بريلي، ثم أكمل رحمه الله تعليمه في

جامعة الأزهر الشريف بالقاهرة في الفترة ما بين ١٩٦٣م إلى ١٩٦٦م درس فيها العلوم المتداولة من التفسير، الحديث، اللغة العربية، وبرع بها والفلسفة الإسلامية وغيره من العلوم وتخصص في الحديث وتخرج من كلية أصول الدين بارعا في الأحاديث وعلومها ومتضلعا بها.

حياته العملية والعلمية:

بعد عودته رحمه الله من القاهرة إلى الهند، انخرط في التدريس بدار العلوم منظر الإسلام.

ولما رأى جده لأمه همته العالية وعلمه ودعوته أجازته واستخلفه. فأسس بعد فترة دار الإفتاء بعد أخذ الإجازة من مرشده ومعلمه المفتي الأعظم بالهند الشيخ محمد مصطفى رضا خان المتوفى سنة ١٤٠٢هـ، وترك التدريس بدار العلوم منظر الإسلام.

وبنى بعد وفاة جده جامعته ومركز الدراسات العلمية. وقضى شطر عمره في عدة ملتقيات علمية وندوات فقهية وظهر فيها كالبدري بين كواكب العلماء وأذعنوا له واعترفوا بفضله. وقد برع الشيخ في الإفتاء وحلّ المسائل المعقدة المتعلقة بالفقه، ورد على الفرق الضالة وأقام الحجة عليها. ولا غرو في ذلك لتعلم الشيخ حفظه الله الطريقة على يد أستاذه عن جده الشيخ أحمد رضا. وكان الشيخ رحمه الله كثير السفر لنشر الدين والتوعية الفكرية والعقدية، إذ رحل في أنحاء الأرض في سبيل الدعوة لتكون كلمة الله هي العليا.

وأسلم على يديه كثيرون من الذين كانوا يتيهون في أودية الكفر وصدق فيه قول سيدنا رسول الله: (لأن يهدي الله بك رجلا خير لك من حمر النعم).

وأذكر أن شيخنا زارنا في دمشق سنة ٢٠٠٨ واستقبله العلماء والشيوخ وأساتذة الجامعات والمفتون وطائفة كبيرة من الدعاة امتلأ بهم المكان وصنع لهم مأدبة عظيمة وألقى الكلمات والأشعار في الترحيب به .

وجرت كرامة للشيخ اختر عزيمة إذ كان حضوره في الشهر الأشد حرارة في الشام وهو شهر آب فتحركت الرياح واعتدل الجو وماهي إلا سحابة امطرت على الشام وعجب الناس كيف ينزل المطر في هذا

الشهر من السنة فأقبلوا على الشيخ يتبركون به ويقبلون يده ويطلبون منه الإجازات وخاصة عندما تكشف لهم قلبه المليء بحب رسول الله والمتخلق بأخلاقه. وكانت ساعات من العمر النادرة.

ثم زار الأولياء وضريح الإمام ابن عربي والإمام عبد الغني النابلسي. وحين غادر دمشق ودعه الطلاب من باكستان والعرب من داخل دمشق في المطار وكأنهم فقدوا أبا لهم من شدة التأثر. وله تلامذة ومحبون منتشرون ليس في الهند فحسب بل في سائر المعمورة، ويعتبر سماحته المربي لهم، وهم ينهلون من علمه ومكانته الروحانية، وقد أعطي الشيخ لقب تاج الشريعة من قبل كبار العلماء. كما أن الشيخ الراحل محمد أختَر رضا خان رحمه الله كان بارعاً في كتابه الشعر والمدائح وإلقائها في المحافل والمناسبات، كان أمة في رجل اكتسب احترام جميع فئات وطبقات الأمة حتى أجمعت على حبه.

وقد تم نشر ديوانه المسمى: "نغمات أختَر" ولاحقاً ديوانه باسم: "سفينة بخشش" بمعنى (سفينة العفو) عام ١٩٨٦م، وتم إصدار طبعة جديدة ومنقحة في أوائل سنة ٢٠٠٦م، والديوان يشتمل على مدائح الشيخ باللغتين العربية والأردنية، كما توجد مدائح وقصائد للشيخ لم تنشر بعد. كما أن له مؤلفات كثيرة باللغات الأوردية والعربية وترجم بعضها إلى الإنجليزية، منها التعليق على البخاري وحكم التصوير وعمليات الفيديو والحق المبين بشمول الإسلام لأصول الرسول الكرام - صيانة القبور قوارع القهار على المجسمة انفجار - الصحابة نجوم الاهتداء بشرح على البردة للبوصيري.

وهذا غير الفتاوى التي بلغت خمسة آلاف فتوى أو يزيد. وقد طبعت في مركز الدراسات الإسلامية جامعة الرضا.

وبعد أن قضى حياته مليئة بالأعمال الجليلة والتأليف النافعة ودافع عن الحق ولم يخف في لومة لائم دعاه مولانا عز وجل إلى رحمته يوم الجمعة ٢٠ يوليو ٢٠١٨ فارتحل إلى جوار ربه عن عمر يناهز الخامسة والسبعين .

وكان لوفاته أثر بالغ في محبيه وتلامذته وخلفائه حتى أحصى الإعلام عدد الذين خرجوا في جنازته فبلغوا ٣٠ مليون وأقيمت صلاة الجنازة الغائب على روحه في المدن التي زارها ومنها دمشق والقاهرة في مسجد الإمام الحسين وعم الحزن الاوساط الدعوية في العالم الإسلامي والغربي في الهند وخارجها وأصبحت الامة بفقده يتيمة في شرقها وغربها.

رحم الله شيخنا ورفع قدره عنده واخلف على المسلمين خلفا مثله.

(٦٥٩)

السيدة رابعة العدوية

(١١٠هـ)

الحمد لله الذي تعرف إلى أوليائه بنعوت الجمال فعرفوه، وأسهروا ليلهم بمناجاته فباهى الله بأحوالهم الملائكة، وكيف لا وقد أحبَّهم وأحبوه ، حمى إقليم قلوبهم من طوارق الغفلة فلا يتركوه، تفقدوا دفتر أعمالهم من غلط الخطأ وصححوه.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خوِّف عباده يوم الحساب فحفظوا الأمانة فيما ائتمنوه، فنالوا المقصود من محبوبهم وفوق ما طلبوه : ﴿يوم تبيض وجوه وتسود وجوه﴾.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، وصفيّه وخليله الكريم ونبيه الجليل العظيم، أعطاه الله العطاء الجزيل والتبجيل والتكريم، أعطاه الخوض وصفاً من جميع الأكراد وتوجه بتاج الوقار ونور به جميع الأقطار، وشرف به البادين والحضار:
أضحى على مولى الكريم كريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً
اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه السادة الأبرار ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

هذه الحلقة عن سيدة، سيدة أثبتت للدنيا منذ قرون أن المرأة يمكن أن تكون أعظم من الرجال وأعبد من الرجال حتى يعتدّوا بها، نحن اليوم مع امرأة خلّفت في التاريخ دويّاً تتناقل أصداءه العصور، لم تتخرّج من الجامعة، فلم يكن في أيامها جامعات، لكنها كانت ولا تزال تدرّس آدابها في كليات الدّين ومعاهد الشرع، كما تدرّس أبلغ النصوص الأدبية، لأنّ عليّة القوم حملوا عنها حكماً كثيرة.

كانت في عصرها مثلاً يحتذى ، ملأت الدنيا بالتوحيد والزهد ومعرفة الله ومقام الإحسان ، وشغلت الناس على ممر الدهور، امرأة علّمت العلماء ، وأدّبت المفتين ، وكانت بليغة بارعة البيان، وكانت لقوة شخصيتها أن أطلق عليها علماء عصرها بالموذّبة وشاعرة المحبة الإلهية.

إننا مع البصرية الزاهدة العابدة سيدتنا أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية رضي الله عنها، ومع الحلقة سبعة وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن السيدة رابعة العدوية :

﴿أَرْضَاهَا وَأَرْضَانَا مَعَهَا﴾

إخوة الإيمان: كانت السيدة أم الخير البنت الرابعة لأبويها، خرجت وهي طفلة هي وأخواتها من شدة الجوع وقت أن نزل القحط في البصرة ، فوجدها رجل باعها بستة دراهم، وكانت تقرض الشعر وتغنيه وتعزف على الناي، ولها مزاج فني رقيق وميل طبعي إلى الحزن، وقد وجد سيدها أن يستعملها للغناء في مجالسه، وكان ذلك يسخطها عليه بسبب اتجاهاتها الدينية القوية حتى إنها شرعت في الهرب ، وناجت ربنا عزّ وجلّ قائلة: إلهي إني غريبة ويتيمة وأرسف في قيود الرّق، ولكن همي الكبير هو أن أعرف أراضٍ أنت عني أم غير راضٍ؟

كانت تخشى أن تبوء بغضب الله بسبب ما كان يجبرها عليه سيدها، مما جعلها تُقبل أكثر على العبادة والابتغال إلى الله أن يقيّلها من عثرتها، وقد تسمّع عليها سيدها في ليلة فوجدها تقول وهي ساجدة: (إلهي أنت تعلم أن قلبي يتمنى طاعتك، ونور عيني في خدمة عبتك، ولو كان الأمر بيدي لما انقطعت لحظة عن خدمتك، لكنك تركتني تحت رحمة هذا المخلوق القاسي من عبدتك) ، فلما كان الصباح طلبها سيدها وأعتقها.

إخوتي في الله: ما أن عَتَقْتُ السيدة رابعة من الرِّق حتى أقبلت بكليتها على العبادة ، وحتى ضرب بعبادتها الأمثال : أعبد من رابعة، كانت إذا انتهت من صلاة العشاء تصعد إلى سطح دارها وتقف للنظر والتأمل في عتمة الليل ، تنظر إلى النجوم وتقول: (إلهي أنارت النجوم، ونامت العيون، وغلقت الملوك أبوابها ، وخلي كل حبيب بحبيبه، وهذا مقامي بين يديك).

وإليكم - أيها الإخوة- المناجاة بعذب الكلام الذي كانت تناجي فيه مولانا عز وجل، قالت له مرة:

أحبك حَبَّ الهوى	وحباً لأنك أهلٌ لذاكا
فأما الذي هو حبُّ الهوى	فَشُغْلِي بذكرك عَمَّن سواكا
وأما الذي أنت أهل له	فكشفك للحجب حتى أراكا

ثم تقف لتصلِّي قيام الليل ، تناجي حبيبها وتقرأ كلامه القرآن ، وتذكره وتدعو ، فإذا كان السحر قالت: إلهي هذا الليل قد أدبر، وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أَقْبَلْتُ مني ليلتي فَأُهْنَأُ أم رددتها عليَّ فَأَعزَى ، فوعزتكَ هذا دأبي ما أحيتني وأعنتني. ثم تهجع هجعة بعد سنة الفجر حتى يسفر، ثم تخاطب نفسها وتقول: يا نفس كم تنامين وإلى كم تقومين، يوشك أن تنامي نومة لا تقومين منها إلى يوم النشور.

معشر السَّادة:

هكذا كان ديدن هذه المرأة الصالحة ، تركت الدنيا وراء ظهرها ، وعزفت عن الزواج ، وكانت تخطب من الصوفية والعلماء والأمراء، خطبها أمير البصرة ووعدا بمئة ألف مهرًا وب عشرة آلاف في كلِّ شهر دخلاً ، فكتبت إليه تقول: (ما يسرني أنك لي عبد وأن كل مالك لي وأنك شغلتنني عن الله طرفة عين) وكانت تقول:

تركت هوى ليلي وسُعدى بمعزل	وعدتُ إلى مصحوب أول منزل
ونادت بي الأشواق مهلاً فهذه	منازل من تهوى رويدك فانزل

حقاً - أيها الإخوة- كانت السيدة رابعة العدوية إمامة العشق الإلهي ، أدبت من طرق بابها من الفقهاء والوعاظ فكشفت خبايا نفوسهم من كلامهم ، حتى كانوا يصرّحون بأنهم كانوا لا يستريحون من الدنيا إلا إذا جلسوا عندها وسمعوا كلامها، دخل عليها سيدنا سفيان الثوري وصاحبه فرأى بيتاً مفروشاً بفرش لا يساوي دراهم ، شن بالي ولبد تصلّي عليه ، وستر تتقي به الرجال، وهنا نادى سيدنا سفيان: واحزنه! فقالت لا تكذب قل: واقلة حزنه، لو كنت محزوناً ما هنّاك العيش، فقال: اللهم إني أسألك السلامة، فبكت سيدتنا رابعة، فقال: ما يبكيك؟ قالت: أنت عرّضتني للبكاء، فقال: وكيف؟ قالت: أما علمت أن السلامة من الدنيا ترك ما فيها، فكيف وأنت متلطخ بها يا سفيان، إنما أنت أيام معدودة فإذا ذهب يوم ذهب بعضك ، ويوشك إذا ذهب البعض أن يذهب الكل، وأنت تعلم فاعمل. وتذاكر القوم ساعة ، وذكروا شيئاً من الدنيا فلما قاموا قالت السيدة رابعة لخادمتها، إذا جاء هذا الشيخ وأصحابه فلا تأذني لهم فإني رأيتهم يحبون الدنيا، وراحت تقول: أستغفر الله من قلة صدقي من قولي أستغفر الله، وسجدت وبكيت، فلما دخلت عليها خادمتها، وأحسّت بمكانها رفعت رأسها فإذا موضع سجودها كهيئة الماء المستنقع من دموعها، وقالت: لا أريد أن أحدث أحداً إلا الله، ونادت من قلب مكلوم:

ولقد جعلتك في الفؤاد محدّثي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للجلّيس مؤانس وحبّيب قلبي في الفؤاد أنيسي

أيها الأحبة والصحب: عاشت السيدة رابعة ثمانين سنة عابدة تقية زاهدة ذاكرة حتى حضرتها الوفاة فقالت لخادمتها: لا تؤذني بموتي أحداً وكفّيني في جبّي هذه (جبة من شعر كانت تقوم الليل فيها إذا هدأت العيون) وتوفيت سنة ثمانين ومئة هجرية ، وكفّنت في تلك الجبة وفي خمار صوف كانت تلبسه، تقول خادمتها عبدة: رأيتهما بعد وفاتها بسنة عليها حلّة من استبرق خضراء وخمار من سندس أخضر لم

أرى شيئاً قط أحسن منه. فقالت لها: يا رابعة ما فعلت الجبة التي كفناك فيها والخمار الصوف؟ قالت: نزعني وأبدلني الله بها هذا الحرير ، وطويت أكفاني وختم عليها ورفعتني عليّين ليثقل بها ميزاني يوم القيامة، قالت عبدة: فمريني بأمر أتقرب به إلى الله عزّ وجلّ، قالت: عليك بكثرة ذكره أو شك أن تغتبطي بذلك في قبرك.

فأكثرُوا . يا إخوة . من ذكر الله عسى الله تعالى أن يجمعنا مع أوليائه هناك كما جمعنا معهم هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله

الصلاة والسلام عليك



• الموسوعة الصوفية ١٧٣ . صفة الصفوة . الرسالة القشيرية ٨٦ - ١٧٣ .

شرح الرسالة القشيرية للأنصاري . شذرات الذهب ١٩٣/١ . الطبقات الكبرى للشعراني

٥٦ . النجوم الزاهرة ٣٣٠/١ . الإحياء للغزالي ٢٦٧/٢ . جامع كرامات الأولياء ٧١ / ٢

(٦٦٠)

الإمام الفضيل بن عياض

توفي ١٨٦ هـ

الحمد لله الذي تفرّد بجمال ملكوته وتوحد بجمال جبروته، وتعزّز بعلو أحديته، وتقّدس بسمو صمديته وتكبر في ذاته عن مضارعة كل نظير ، وتنزّه في صفاته عن كل تناءٍ وتصوير ، له الصفات المختصّة بحقه، والآيات الناطقة بأنه غير مشبه بخلقه ، فسبحانه من عزيز لا حدّ يناله، ولا عدّ يحتاله ولا أمد يحصره، ولا أحد ينصره ، ولا ولد يشفعه ، ولا عدد يجمعه ، ولا مكان يمسكه، ولا زمان يدركه ، ولا فهم يقدره ، ولا هم يصوره. تعالى عن أن يقال كيف هو أو أين هو. أحّمده سبحانه على ما يولي ويصنع ، وأتوكل عليه وأقنع ، وأرضى بما يعطي ويمنع.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة موقن بتوحيده مستجير بحسن تأييده.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وحبّيه المصطفى ، وأمينه المجتبي ، ورسوله المبعوث إلى كافة الورى .

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على سيدنا محمد وعلى آله مصاييح الدجى وأصحابه مفاتيح الهدى ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أقف اليوم بينكم لأبين حقيقة هامة، ولأصحح الزيف وأزيل القشور عن اللباب، فأني أخاف أن تمتد أثواب الباطل فتغطي وجه الحق، أخاف أن تبدل سماء الحقيقة بغيوم الأكاذيب ، أخاف من سحب الترهات أن تحول بين إشراق الحق أو تحجب نوره.

أقف اليوم وبعد حلقات ممتدة زهقت الباطل، رددت فيها بطريق غير مباشر على الذين يقولون إن التصوف يبين الدين أو يغير الإسلام ، وأن له مفهوماً سلبياً يدعو إلى الركون والركود والخمول والخمود، ويهدف إلى العزلة والعكوف والانطواء ، أو أنه دروشه وبهذله ومظاهر تنفر منها الأذواق، وتنبو عنها العيون ، وتعزف عنها النفس الأبية.

نعم- أيها السادة- تبلبلت الفكرة في أذهان الكثير عن التصوف وحقيقته وطقوسه ورسومه فحملوا على التصوف وعلى رجاله ، مدّعين أن هذا الأمر مستحدث في الدين ، وأن الشرع يعارضه ولا يعاضده، والمرء عدو ما جهل (من جهل شيئاً عاداه) إن بين هؤلاء وبين التصوف جفوة أو فجوة، وكنت أود ألا يتسرع هؤلاء في أحكامهم على التصوف، ولو تزود خصوم التصوف بالاطلاع على أمهات كتب التصوف التي أرخت لرواده وتحدثت عن خطوطه واتجاهاته لوجدوا أنهم متحاملون عليه ، وأنهم قد تسرعوا في الحكم من غير أن يتسلحوا بالبرهان، ألا فليعلم الجاهلون- أعداء التصوف، أن المنهج الصوفي الصحيح هو المنهج الإسلامي بعينه ، لا فارق ولا لبس ولا اختلاف ، وأن التصوف في صفائه ونقائه هو الإيمان المتين المكين في عنقه وقوته وإيجابيته، هو الإسلام في سماحته وسموه، هو التدين في أسمى صورته.

لقد عرف التصوف في القرون الثلاثة الأولى التي أخبر عنها رسول الله وشهد لها بالخيرية، فلماذا التحامل على هذه الطائفة؟! لماذا المغالاة والشطط؟! لقد تغير الحق إلى باطل، مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء، زال الورع وطوي بساطه، واشتد الطمع وقوي رباطه، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة.

ولأجل ذلك أردت أن أستعرض حياة هؤلاء الأئمة لأرد الحق إلى نصابه، لأعلنها عالية أن منكر التصوف تنبعث منه روائح الانحراف الديني، هو ينتهك الدين باسم الدفاع عنه، ولو زعم وتشدق أنه هو وحده حافظ الدين وسادته وراعيه.

أيها السادة: إننا ومن خلال استعراض حياة هؤلاء السادة الأعلام نعطيهم بعض حقهم من الإنصاف، وخاصة ونحن نستعرض اليوم الإمام لهؤلاء والمثل، نحن اليوم مع إمام من أئمة التصوف والدين، وعلم من أعلام المسلمين ، شهد له بالفضل والدين من لا يُشَقُّ له غبار، شهد لإمامنا الإمام الذهبي فقال عنه: إنه الإمام القدوة ، الثبت شيخ الإسلام . وقال عنه ابن المبارك: ما رأيت أروع منه. ما بقي على ظهر الأرض عندي أفضل منه.

وحدَّث عن هذا الإمام أئمة أبرار أمثال سيدنا سفيان بن عيينه، وسفيان الثوري، والإمام الشافعي، وبشر الحافي، والسري السقطي.

أُتَعرِفون-أيها الإخوة- من هذا الإمام الذي قلد هذه الأوسمة كلها ، إنه شيخ أهل مكة في عصره تقوى وورعاً ونوراً وهداية سيدنا **الفضيل بن عياض** رضي الله عنه.

ومع الحلقة تسعة وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن هذا الإمام.

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد هذا الإمام ونشأ بسمرقند ، ولما اشتدَّ عوده تداعى مع مجموعة من قطاع الطرق يقطعون الطريق على القوافل والناس آحاداً وجماعات ، حتى خافه أهل المناطق فكانوا لا يخرجون ليلاً ، يقولون: إن فضيلاً على الطريق لا يترك أحداً من شرّه.

لكن الصلحة بلمحة، فقد عشق جارية وصار يرتقي إليها الجدران ليلاً يحادثها، وفيما هو في ذات ليلة في الهزيع الأخير من الليل ارتقى جدار أحد البيوت فسمع صاحب البيت يتلو كتاب الله وسمعه يقرأ ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾. فلما سمعها جمد الدم في عروقه وسالت دموعه على خديّه، وكأن الآية نزلت لأجله، فصار يبكي ويقول: بلى يارب قد آن ، بلى يا رب قد آن ، قد آن ، اللهم إني قد تبت إليك وجعلت توبتي مجاورة البيت الحرام.

معشر الإخوة الكرام: رحل الفضيل من بلاده تائباً طالباً للعلم، فلقى علماء عصره في الكوفة والحجاز، على رأس هؤلاء علم الأئمة سيدنا جعفر الصادق. إن توبة الفضيل الصادقة مع الله جعلته حجة أهل زمانه لذا قال فيه سيدنا ابن المبارك: إن الفضيل بن عياض صدق الله فأجرى الحكمة على لسانه، ولأنه عمل بعلمه، ومن عمل بعلمه استغنى عن ما لا يعلم، ومن عمل بما علم وفقه الله لما لا يعلم، ومن ساء خلقه شان دينه وحسبه ومروءته.

هذه شهادة ابن المبارك، هذه الشهادة أعظم من شهادة الدكتوراه (الفضيل صدق الله تعالى) كانت توبته صادقة فتغيرت حاله من الباطل إلى الحق، أصبح الله في قلبه رهبة وخوف، ألا ينفعه الله بتوبته؟ لذا كان ينصح ولده علياً (ولده ببركة الأب صار أحد أولياء عصره)، الولد لحق والده بالولاية كما شهد له بذلك الإمام الذهبي فقال: كان ابنه علي من كبار الأولياء ومات قبل والده (قبل سنة ١٨٦ هـ)، أتعرفون كيف مات سيدي علي بن الفضيل؟ مات وهو يسمع والده يقرأ آية من كتاب الله، فقد كان صوته بالقرآن رخيماً حزيناً، كانت قراءته حزينة بطيئة مترسلة كأنه يخاطب إنساناً، كان ولده يصلي خلف الأب في صلاة المغرب فقرأ الأب: ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ، كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ. ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ، كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ. عِلْمَ الْيَقِينِ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ فصار الأب يكرر (لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ) حتى سقط الولد مغشياً عليه والأب يبكي ومات الولد. وشهد له علماء عصره ومن أرخوا له فقالوا: كان علي قانتاً لله خاشعاً، رجلاً ربانياً كبير الشأن (الذهبي في السير ٤٤٣/٨).

الشاهد من الكلام أن سيدنا الفضيل كان يوجه ولده ويربيه ويقول له: لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال؟ فقال ابنه علي: يا أبة إن الحلال عزيز. قال: يا بني وإن قليله عند الله كثير، [لا تخف إلا الله] من خاف الله لا يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد. يا بني: إذا لم تقدر على قيام الليل وصيام النهار فاعلم أنك محروم مكبل كبلتك خطيئتك (فإياك والدنيا)، فقد جعل الله

الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا، وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد فيها، يابني: لأعلمنك .

كلمة هي خير من الدنيا وما فيها: والله لئن علم الله فيك إخراج الآدميين من قلبك حتى لا يكون في قلبك سلطان لغيره لم تسأله شيئاً إلا أعطاك.

إخوتي في الله : أتدرون هذه النصائح التي كان ينصحها سيدنا الفضيل لولده، كان بعد ذلك يتوجه سراً إلى الله يدعو لولده ويقول: (اللهم إني اجتهدت أن أؤدب علياً فلم أقدر على تأديبه فأدّبه أنت لي).

ومات الولد بعد أن صار من الأولياء، ولما وسّد الولد في القبر ضحك سيدنا الفضيل، ضحك بعد ثلاثين سنة لم يُر فيها ضاحكاً ولا متبسماً، أتدرون لماذا تكلف الضحك بموت ولده على خلاف عادته؟ لأن الله تعالى يحب من عبده أن يكون راضياً بقضائه وقدره، وهذه مرتبة عالية جداً ، لذلك يقول سيدنا عبد الله بن المبارك: ما بقي في الحجاز أحد من الأبدال إلا فضيل بن عياض وابنه علي.

ابن المبارك يقول عن الصوفية: إنهم من الأبدال، وبعض الناس يدّعون اليوم أن الصوفية يخالفون الشريعة، فأبي شيء في الفضيل وابنه مما يخالف الشريعة. إن الصوفية الحقّة - يا إخوان - لا تسمح لأتباعها بأن يقوموا بأذى حيوان فكيف بإنسان، قال الفضيل لرجل: والله لا يحل لك أن تؤذي كلباً أو خنزيراً بغير حق، فكيف تؤذي مسلماً! (بل)، من أظهر لأخيه الود والصفاء بلسانه وأضر له الغدر والبغضاء لعنه الله فأصمّه وأعمى بصيرة قلبه.

بالله عليكم يا سادة هل تترك أذى المسلمين يخالف الشريعة؟ هل تعظيم الله يخالف الشريعة؟ يقول أحد تلاميذ الإمام الفضيل (إبراهيم بن الأشعث): ما رأيت أحداً كان الله في صدره أعظم من الفضيل ، كان إذا ذكر الله أو ذُكر عنده أو سمع القرآن ظهر به من الخوف والحزن وفاضت عيناه وبكى حتى يرحمه من يحضره، وكان دائم الحزن، شديد الفكرة، ما رأيت رجلاً يريد الله بعلمه وعمله وأخذه وعطائه ومنعه وبذله، وبغضه وحبه وخصاله كلها غيره.

أيها الأحبة والصحب: فماذا بعد هذه الحياة المليئة بالرهبة والحب لله والعلم والعمل ، والمعلوم أن من أطاع الله أطاعه كلُّ شيء ، بعد هذه الحياة المليئة بطاعة الله أوقف الله على باب الفضيل أمير المؤمنين هارون الرشيد، أتى بجلالة قدره يوم حج البيت الحرام ليقف على باب سيدنا الفضيل، فماذا فعل معه؟ أتدرون كيف استقبل الخليفة بأي حرس شرف؟ أدخله إلى داره بعد أن أطفأ السراج وكأنه يدخل إلى قبر، فصار الخليفة يتلمّس في العتمة بيده حتى وقعت يده على الفضيل فقال له: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله عزّ وجل، بهذا الاستقبال الرهيب شعر الخليفة أنه أمام إنسان رباني، وقف شعر الخليفة من هذه الكلمة ، فبماذا وعظ الفضيل الخليفة أعظم حكام الأرض في عصره؟

أيها السادة: لجلالة هذا الموقف أدعوكم جميعاً وفي ختام جلستنا هذه أن أزور معكم مكة حرسها الله تعالى حيث أعظم شخصيتين اجتمعنا على ظهر أظهر بقعة على الأرض ، في أعظم مشهد عرفه التاريخ، رئيس عشرين دولة إسلامية يجلس بين يدي صوفي (أستغفر الله) عظيم من عظماء الصوفية وأين؟ في مكان عاتم مظلم ، فما هي الكلمات التي دارت بين الإمامين إمام المسلمين وإمام الصوفية؟ قال الفضيل وهو يعظه:

● إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك من الموت.
● إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن قلبك كبير المسلمين عندك أباً ،
وأوسطهم عندك أخاً ، وأصغرهم عندك ولداً، فوقّر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

● إن أردت النجاة غداً من عذاب الله عزّ وجلّ فأحب للمسلمين ما تحبه لنفسك واکره لهم ما تكره لنفسك، إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام.
وهنا أخذت الخليفة هارون الرشيد قشعريرة ونوبة من البكاء حتى غشي عليه، فقال له وزيره الفضل بن الربيع: ارفق بأمر المؤمنين، فقال: يا فضل تقتله أنت

وأصحابك وأرفق أنا به! فلما أفاق الخليفة قال للإمام الفضيل: زدني رحمك الله، فقال له: يا أخي أذكرك طولَ سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد.

وتحطل دموع الخليفة وهو يقول: زدني رحمك الله فقال له: يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى جاء إلى النبي فقال يا رسول الله أمّرني على إمارة فقال له النبي: إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميراً فافعل.

والخليفة يبكي لا يرقأ له دمع، والفضيل يقول له: يا حسن الوجه! أنت الذي يسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد رعيتك، فإن النبي قال: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة(خ)

أيها الإخوة لم يخرج الإمام من بيت الفضيل حتى جاءته الجارية وقالت له قد أذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف. فانصرف الخليفة من الدار المتواضعة وهو يقول لوزيره: هذا سيد المسلمين .

وهكذا إخوتي - وقفت معكم مع شخصية من أهل الإيمان والعمل من أهل التصوف، فإياكم أن يفسد أهل البغي عليكم صدوركم، إياكم أن تفسدوا علينا ديننا يا أعداء التصوف، وتذكروا قول الله تعالى: ﴿والله متمُّ نوره ولو كره الكافرون﴾ هنا مدرسة سيدنا محمد، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله، الصلاة والسلام عليك .

• الرسالة القشيرية ٩

شرح الرسالة القشيرية للأ نصاري

الموسوعة الصوفية للخفي

صفة الصفوة ٥٤٣

حلية الأولياء ٢٩٧/٨

تهذيب التهذيب ٣٧٣/٧

(٦٦١)

الإمام معروف الكرخي

(ت ٢٠٠ هـ)

الحمد لله منزل الكتاب ، ومفصل الخطاب، وفاتح أبواب الصواب، ومانح أسباب الثواب، أحمده وهباته تنزل بغير حساب، وأعبدته وإليه المرجع والمآب، وأرجوه وأخافه فيبده الثواب والعقاب.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة مقدمات دلائلها مبيّنة الأسباب، ونتيجة اعتقادها جنة مفتحة الأبواب.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرسله وقد طال زمان الفترة ونسيت الآداب، وبَعَدَ عهد النبوة فزال الحق وانجاب، فمنازل الهدى خراب وللناس بالشهوات والشبهات إعجاب ، حتى أفرد النظر بالدنيا وادّعي تعدد الأرباب، فاختر الله سيدنا محمداً في أشرف الأنساب وخيرة الأحساب نذيراً بين يدي العذاب، وبشيراً لمن أطاع الحق وأجاب.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد صلاة وسلاماً يدخل فيهما الآل والأصحاب والمحبون والأحباب ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أنقل لكم اليوم الأنباء من بغداد فرّج الله عنها بيث خارجي من منطقة الكرخ، حيث نلتقي اليوم بعلم الزهاد وبركة العصر، وحتى لا تضيع بركات إمامنا اليوم، أنزل مع حضراتكم على زائر كريم عزيز وولي مكرم جليل هو سيدنا معروف الكرخي ابن فيروز ، ومع الحلقة ثلاثة وستين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام معروف.

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: ظهرت أمارات اصطفاء الإمام وولايته واجتبايته حال الصبا، فقد كان أبواه نصرانيين أسلماه إلى مؤدب النصارى، فكان يقول له: قل ثالث ثلاثة ، فيقول معروف: بل أحد أحد فيضربه المؤدب ليقولها ، وهو يقول: هو الواحد الأحد، ثم إنه ضربه ضرباً شديداً فهرب على وجهه في الأرض سنين، فكانت أمه تبكي وتقول: لئن ردّ الله عليّ ابني معروفاً لأتبعنّه على أي دين كان، فقدم عليها بعد سنين فقالت له: يا بني على أي دين أنت؟ فقال: على دين الإسلام، قال: فأسلمت أمه ونطقت بالشهادتين وأسلم أهل البيت جميعاً ببركة معروف الكرخي

ﷺ

معشر الإخوة الكرام: سلك الإمام معروف طريق العلم والمجاهدة والزهد والتقوى حتى صار بركة أهل زمانه ، وكان سيدنا سفيان بن عيينة إذا رأى أهل بغداد يسأل فيقول: ما فعل ذلك أكبر الذي قبلكم ببغداد ؟ فيقولون: من هو؟ فيقول أبو محفوظ: معروف، فيقولون: هو بخير، فيقول لهم: لا يزال أهل تلك المدينة بخير ما بقي فيهم.

وكان ﷺ مؤذناً لا يحب أن يصلي بالناس إماماً، وكان إذا أذن استغرق في ذكر الله تعالى، فإذا قال أشهد أن لا إله إلا الله وقف شعر لحيته ورأسه كأنه زرع لشدة حضوره مع الله تعالى.

كان ذاكرةً من الطراز الأول لا يفتر عن الذكر في جميع أوقاته ، حتى لما أراد الحلاق قص شاربه لم يسكت لسانه عن الذكر ، فقال الحلاق: كيف أقص؟ فقال: أنت تعمل وأنا أعمل.

أتعرفون كم مرّة كان ورده؟ يتلو ورده عشرة آلاف مرّة وهو يقول: وا غوثاه يا الله ثم يقرأ قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبِّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ (الأنفال ٩).

لذلك كان الناس يقولون إنه مستجاب الدعوة ، خرجوا مرّة ليستسقوا وكان

فيهم فما بدأوا يقبلون أرديتهم حتى أصابهم المطر بإذن الله تعالى.
وجاءه رجل (خليل الصياد) وقال له: يا أبا محفوظ ابني قد غاب في الأنبار بعيداً
عن بغداد فوجدت أمه وجداً شديداً، قال: فما تشاء؟ قلت: تدعو الله أن يرده
عليها، قال: فرفع كفيه وقال: اللهم إنَّ السماء سماءك والأرض أرضك وما بينهما
لك فأت به، يقول الراوي ياسادة ياكرام: فأتيت باب المدينة فإذا ابني قائم منبهر
فقلت: يا مُجَدِّ، فقال:

يا أبة الساعة كنت بالأنبار [فما أدري من جاء بي إلى بغداد].

إخوتي في الله: ولأدلل لكم على مدى الحكمة العظيمة التي آتاها الله الإمام
معروف، اسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك، إلى بغداد فرّج الله عنها، وأرى بعين
الإيمان سيدنا معروفاً قاعداً على شط نهر دجلة، وإذ بشباب يمرون به في زورق
يضربون الملاهي ويشربون الخمر، فقال له أصحابه: أما ترى أن هؤلاء في هذا الماء
يعصون الله؟! أَدع عليهم، فرفع يده إلى السماء فقال: إلهي وسيدي أسألك أن
تفرّجهم في الجنّة كما فرّجتهم في الدنيا. فقال له أصحابه: إنما قلنا لك أَدع الله
عليهم ولم نقل لك أَدع الله لهم. فقال: إذا فرّجهم في الآخرة تاب عليهم في الدنيا ولم
يضرّكم بشيء.

هذا هو منهج الإصلاح الذي اتبعه سيدنا معروف في حياته، منهج أخلاقي
عظيم، ولا يتم هذا المنهج لصاحبه إلا إذا تحلّى بالصدق والإصلاح والصالح
والتقوى، ولذلك نرى الإمام معروفاً يدعو أصحابه إلى هذا المنهج ويقول: قلوب
الطاهرين تُشرح بالتقوى، وتزهو بالبر، وقلوب الفجّار تظلم بالفجور وتعمى بسوء
النّيّة. إذا كنت لا تحسن أن تتق: أكلت الربا، ولقيت المرأة فلم تغض عنها،
ووضعت سيفك على عاتقك (تركت الجهاد).

وكان يحضّ أصحابه وتلامذته على ترك ما لا يعينهم ويقول: علامة مقت الله
العبد أن تراه مشتغلاً بما لا يعنيه من أمر نفسه. من كابر الله صرعه، ومن نازعه

قمعه، ومن ماكره خدعه، ومن توكل عليه منعه، ومن تواضع له رفعه ، وكلام العبد فيما لا يعنيه خذلان من الله.

أيها الأحبة: كان سيدنا معروف عالماً عاملاً لم يأمر أصحابه بشيء لم يلتزم به، بل زهد بالدنيا وعلّق قلبه ونفسه بالآخرة، كان إذا جاءه رجل بمال يهبه له تصدّق به على سائل يمرّ به، فتبكي نفسه على المال المتصدق به فيقول لها: **يا نفس كم تبكين أخلصي تخُصي.**

كان يعلم أصحابه الزهد في الدنيا بنفسه وبقوله: سُئل مرة بأي شيء قدر الطائعون على طاعة الله تعالى فقال: بإخراج الدنيا من قلوبهم، ولو كانت في قلوبهم ما صحت لهم سجدة. فقال له آخر: فيما تخرج الدنيا من القلب؟ فقال: بصفاء الود وحسن المعاملة.

كان الإمام معروف من العلماء العاملين من الدرجة الأولى، وكان يخفي عبادته وصلاته ويعتبر أن العمل بالشرعية يفضي إلى النهاية السعيدة ، وهو القائل: إذا أراد الله بعبد خيراً فتح عليه باب العمل، وأغلق عليه باب الفترة والكسل، طلب الجنة بلا عمل ذنب من الذنوب، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور، فالعمل أساس بناء الجنّة (دخول الجنّة برحمة الله ولكن بناءك فيها يكون بعملك وأنت وذراعك). ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، الإيمان بلا عمل نقص في المسلم، والعمل هو الصلاة والصيام والحج والزكاة، وقد سأله أحد أصحابه كيف تصوم؟ فغالط السائل وقال له: صوم النبي ﷺ كذا وكذا. فألح عليه السائل وأقسم عليه أن يجيبه فانتفض سيدنا معروف وقال: أصبح دهري صائماً فمن دعائي أكلت ولم أقل إني صائم. ومرّ به وهو صائم سقاء يقول: رحم الله من شرب فشرب رجاء أن يرحمه الله تعالى.

هكذا العلم والعمل صوم بالنهار وقيام بالليل، وحلاوة قيام الليل عنده أنه كان ينشد قبل الفجر في السحر ويقول:

أي شيء تريد مني الذنوب شُغِفْتُ بي فليس عني تغيب
ما تضر الذنوب لو أعتقتني رحمة لي فقد علاني المشيب

معشر السادة: أترون هذه المجاهدات وتلك العبادات مع الإخلاص والتقوى، لقد قرَّبته إلى الله فأعطاه من المكانة والكرامة ما تقرَّر به عينه، قال له مرَّة أحد أصحابه: بلغني أنك تمشي على الماء، قال: ما وقع هذا، ولكن إذا هممت بالعبور جُمع لي طرفا النهر فأتخطاه، كانت تطوى له الأرض كما كانت تطوى لنبي الله سليمان داود، وما كان معجزة لنبي جاز أن تكون كرامة لولي، رؤي مرَّة في وجهه أثر شجَّة (جرح) فقليل له: سل عما يعينك عافاك الله، فأقسم عليه، فتغير وجه سيدنا معروف وقال: صلَّيت البارحة ومضيت فطفت بالبيت العتيق وجئت لأشرب زمزم فزلقت فأصاب وجهي هذا.

أيها الإخوة: مرض الإمام معروف الكرخي قبل أن يودع الدنيا ، فدخل الناس يعودونه في مرض موته ويستوصونه ، قال له أحدهم : أوصني، فقال: توكل على الله حتى يكون جليستك وأنيسك وموضع شكواك، وأكثر من ذكر الموت حتى لا يكون لك جليس غيره، واعلم أن الشفاء لِمَا نزل بك كتمانُه (لا تشكو إلا الله) وأن الناس لا ينفعونك ولا يضرونك ولا يعطونك ولا يمنعونك (إنما يفعل ذلك الله) ثم قيل له: هل توص بشيء؟ فقال: إذا مت فتصدَّقوا بقميصي هذا، فإني أحب أن أخرج من الدنيا كما دخلت إليها عريانا.

أيها السادة: مات سيدنا معروف سنة مئتين للهجرة ببغداد، وإذا كان للناس حاجة إلى الله جاؤوا إلى قبر معروف فدعوا الله تعالى فيستجيب لهم ، لأن البقاع المباركة يستجاب عندها الدعاء، كما أن الدعاء في السحر مرجو الإجابة ، ودبر الصلوات المكتوبات ، وفي المساجد.

وكنـت أريد أن أسدل الستار على حياة الإمام لكن مشهداً آخر أسـرني إذ أن بعض أصحاب الإمام رأوه في المنام (أحمد بن الفتح - وعبد الله بن سعيد الأنصاري)، يقول الراوي: رأيت بشر بن الحارث في منامي وهو قاعد في بستان وبين يديه مائدة وهو يأكل منها، فقلت له: يا أبا نصر ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني وأباحني الجنة بأسرها وقال لي: كل من جميع ثمارها واشرب من أنهارها وتمتع بجميع ما فيها كما كنت تحرم نفسك الشهوات في دار الدنيا. فقلت له: فأين أخوك أحمد بن حنبل؟ فقال: هو قائم على باب الجنة يشفع لأهل السنة، ممن يقول القرآن كلام الله غير مخلوق؟ فقلت له: فما فعل معروف الكرخي؟ فحرك رأسه ثم قال: هيهات حالت بيننا وبينه الحجب، إن معروفاً لم يعبد الله شوقاً إلى جنته ولا خوفاً من ناره، وإنما عبده شوقاً إليه فرفعه الله إلى الرفيق الأعلى ورفع الحجب بينه وبينه وقال: (يباهي به ملائكته: يا ملائكتي من هذا؟ فقالت الملائكة: أنت أعلم هذا معروف الكرخي، قد سكر من حبك لا يفيق إلا بلقائك).

فمن كانت له حاجة هنا فليسأل الله بجاه سيدنا معروف أن يستجيب له وأن يجمعه معه هناك، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك^(١).



(١) المصادر: سير أعلام النبلاء للذهبي . طبقات الصوفية ١/٨٣

(٦٦٢)

الإمام أبو سليمان الداراني

(١٤٠ هـ - ٢٠٤ هـ)

الحمد لله الذي أحاط بحوادث الدنيا والآخرة خيراً، وجعل لكل شيء قدراً،
وأسبل على الخلائق رعاية وستراً، أحمدته على نعمائه شكراً، وأسلم لقضائه صبراً.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أعدّها ليوم القيامة ذخراً،
وأستمدّها على الأعداء نصراً.

وأشهد أنّ سيدنا محمدًا عبده ورسوله، أرسله إلى البرية عذراً ونذراً، فدعا إلى الله
سراً وجهراً، ونشر رحمته على العالمين نشرًا.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على سيدنا ومولانا محمد ﷺ وعلى آله
وأصحابه وأدم لهم يا مولاي أجراً وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أنزل اليوم معكم على ضيف من أهل الشام ، وبالذات على ابن بلدة قريبة من
دمشق، من أهل داريا، وشهرته تغني عن الإكثار فيه، إنه سيدنا أبو سليمان
الداراني عبد الرحمن بن أحمد بن عطية، كان أحد عباد الله الصالحين، اشتهر
بالزهد والعبادة وقيام الليل، قدم بغداد فالتقى بأئمة عصره أمثال: سيدنا سفيان
الثوري ، ولكنه اشتغل بالتعبّد عن الرواية، ثم عاد إلى الشام وأقام بداريا حتى توفي .

كان هذا موجز الأنباء وإليكم الأنباء بالتفصيل، ومع الحلقة أربعة وستين بعد
المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية
هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن سيدنا أبي سليمان لداراني:

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: ولد هذا الإمام في داريا سنة ١٤٠ هـ، وأقبل في شبابه على آلات اللهو والموسيقا يصغي إليها ويجد لذته فيها ، حتى دعي إلى مجلس وعظ في المسجد أثر في قلبه فرجع إلى بيته فكسّر آلات اللهو وتاب إلى الله تعالى حق التوبة، ثم سافر إلى بغداد يتلقى العلم مع العمل ، وزهد في الدنيا وبدأ سبيل المجاهدة مع الله تعالى ووضع نصب عينيه قوله تعالى: ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا﴾، أي أن الذين يعملون بما يعلمون يهديهم الله تعالى إلى ما لا يعلمون، فكيف تكون المجاهدة في الله تعالى!؟

نظر سيدنا أبو سليمان الداراني إلى كتاب الله تعالى وإلى السنة فكان إذا ألهم شيئاً من الخير يعرضه على الكتاب والسنة فإذا وافق ذلك عمل به وكان يقول: ربما يقع في قلبي الإلهام أياماً فلا أقبل منه إلا بشاهدين عدلين الكتاب والسنة، وكان إذا قرأ القرآن في الليل ربما يقوم في الآية الواحدة خمس ليال يتفكر فيها وهو يتلوها، فيستغرب تلميذه الخاص الإمام أحمد بن أبي الحواري ذلك منه فكان يحبيه سيدنا أبو سليمان بقوله: إذا لذت لك القراءة فلا تركع ولا تسجد، وإذا لذت لك السجود فلا تركع ولا تقرأ، والأمر الذي يُفتح لك فيه فالزمه.

وبدأ بتجويع نفسه ، لأنها كانت السبب في معصية الله ، وكان يقول: إذا جاع القلب وعطش صفا ورق، وإذا شبع وروي عمي، مفتاح الدنيا الشبع، ومفتاح الآخرة الجوع، إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وإن الجوع عنده في خزائن مدخرة فلا يعطي إلا من أحبّ خاصة.

قال لتلميذه الإمام أحمد: يا أحمد جوع قليل وعري قليل وفقير قليل وضر قليل وقد انقضت عنك أيام الدنيا. يا أحمد ما أنجب من أنجب إلا بالقبول من مشايخهم كم أقول لك: لا تفتح أصابعك في القصعة وأنت لا تقبل مني، يا أحمد عهدت قوماً من القرّاء وشهدت طوائف من الصوفية يعدون الجوع فيهم غنيمة كما تعد

أنت وأصحابك الشبع غنيمة، أي شيء يزيد الفاسقون عليكم إذا كان كلما اشتهيتم شيئاً أكلتموه وأولئك كلما أرادوا شيئاً فعلوه. يا أحمد: لئن أترك من عشائي لقمة أحب إلي من أن أقوم الليل إلى آخره .

بعبارة أخرى سيدنا أبو سليمان زهد في الدنيا زهداً عجيباً وكان يردد بين طلابه وإخوانه لكل شيء مهر، ومهر الجنة ترك الدنيا بما فيها، ما يسرني أن لي من أول الدنيا إلى الآخرة أنفقه في وجوه البر، وأني أغفل عن الله طرفة عين، من صارع الدنيا صرعته، إذا أحب العبد الدنيا فآثرها يقول الله عز وجل: لأنسينه معرفتي حتى يلغاني وهو لا يعرفني.

وكان يأكل ويشرب خوفاً من أن يضعف عن أداء الفرائض، واسمعوا إلى قاعدته الكلية في الزهد بعد أن تترضوا عنه، يقول: اختلفوا علينا في الزهد بالعراق، فمنهم من قال: الزهد في ترك لقاء الناس، ومنهم من قال: في ترك الشهوات، ومنهم من قال: في ترك الشبع، وأنا أقول: إن الزهد في ترك ما يشغلك عن الله.

إخوتي في الله:

هذه المنهجية الفريدة في المجاهدة في الله تعالى كانت ثمرتها العبادة والالتجاء إلى الله تعالى، والقيام في محراب العبودية، كان إذا انتصف الليل توضأ وقام بين يدي مولاه ، علم وعبادة أسرّ إلى تلميذه الخاص الإمام أحمد بن أبي الحواري فقال: لأهل الطاعة في ليالهم ألد من أهل اللهو بلهوهم، ولولا الليل ما أحببت البقاء.

بات ذات ليلة فلما انتصف الليل قام ليتهيأ فلما أدخل يده في الإناء ليتوضأ بقي واقفاً على حالته لم يشعر بنفسه حتى طلع الصبح وحن وقت الإقامة فخشي تلميذه أن تفوته صلاة الفجر فناده: الصلاة يرحمك الله، فاتبته سيدنا أبو سليمان وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله ثم قال: يا أحمد أدخلت يدي في الإناء فعرض لي عارض من سرّي وهتف بي هاتف من نفسي: هب أنك غسلت بالماء ما ظهر

منك فيما تغسل قلبك، فبقيت متعكراً فألهمت أن أقول: أغسل قلبي بالغموم والأحزان، فكان بعد ذلك يبكي بكاءً مرّاً على ذنوبه.

يقول تلميذه الخاص الإمام أحمد: دخلت على أبي سليمان وهو يبكي فقلت: ما يبكيك؟ فقال: يا أحمد ولم لا أبكي؟! إذا جنّ الليل ونامت العيون وخلا كل حبيب بحبيبي افترش أهل المحبة أقدامهم وجرت دموعهم على خدودهم، وتقطرت في محاريبهم أشرف الجليل سبحانه فنادى: يا جبريل بعيني من تلذذ بكلامي، واستراح إلى ذكرى، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم، أسمع أنينهم، وأرى بكاءهم فلم لا تنادي فيهم يا جبريل؟ ما هذا البكاء؟ هل رأيتم حبيباً يعذب أحباءه؟ أم كيف يجمل بي أن آخذ قوماً إذا جنهم الليل تعلّقوا بيّ (وناجونى)، حلفت إذا وردوا عليّ القيامة لأكشفنّ لهم عن وجهي الكريم حتى ينظروا إلي وأنظر إليهم».

وبكى الإمام أحمد واشتد بكاء سيدنا أبو سليمان، وتوجه إلى الله تعالى يناجيه ويقول: وعزتك وجلالك لأن طالبتني بسريرتي طالبتك بتوحيديك، وإن طالبتني بذنوبي طالبتك بكرمك، وإن جعلتني مع أهل النار أخبرت أهل النار بحبي إياك.

معشر السادة الكرام:

هكذا كانت مجاهدات الإمام أبي سليمان الداراني، عابداً داعياً مولانا في جنبات الليالي صيفاً وشتاء لا يفتر عن الذكر، وفي ليلة باردة جلس في محرابه يدعو، فخبأ إحدى يديه من البرد وبقيت اليد الأخرى ممدودة، فغلبته عيناه فهتف به هاتف: يا أبا سليمان قد وضعنا في يدك الممدودة نصيبتها من الدعاء، ولو كانت اليد الأخرى ممدودة لوضعنا فيها نصيبتها، فانتبه من نومه ومدّ يده الأخرى وآل على نفسه أن لا يدعو إلا ويداه ممدودتان حرّاً كان أو برداً، فكل من يمد

يديه إلى الله يضع الله في يديه ما يسأل والدليل الإمام أبو سليمان الداراني.

إمام العابدين لا يترك قيام الليل أبداً لأنه يعتبره شرف المؤمن، ما رضي عن نفسه مرة ولم ير لها قيمة مذاق حلاوة الخدمة في الليل، بينما هو ساجد ذات ليلة إذ نام في سجوده فإذا به يرى حورية من حوريات الجنة (حوراء) توقظه وتقول له: حبيبي أترقد عيناك والملك يقظان ينظر إلى المتهجدين في تهجدهم، بؤساً لعين آثرت لذة النوم على لذة مناجاة العزيز، قم فقد دنا الفراغ ، ولقي المحبون بعضهم بعضاً فما هذا الرقاد؟ حبيبي وقرة عيني أترقد عيناك وأنا أرى لك في الخدور منذ كذا وكذا.

أيها الأحبة:

بلغ سيدنا أبو سليمان مرتبة عالية بين زهاد وعباد عصره وأقبل الناس يستوصونه، وقد شارف على شاطئ اللقاء مع أهل الجنة، سأله أحدهم: كيف أوتيت هذا العلم وهذه الحكمة؟ فقال: إذا اعتادت النفوس ترك الآثام جالت في الملكوت وعادت بطرائف الحكمة من غير أن يؤدي إليها عالم علماً.

وقال له رجل: أوصني فقال: قال زاهد لزاهد أوصني فقال: لا يراك الله حيث نهاك، ولا يفقدك حيث أمرك. قال: زدني، قال: ما عندي زيادة.

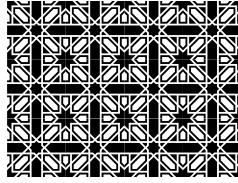
وسأله رجل: ما أقرب ما يتقرب به العبد إلى الله عز وجل، فبكى وقال: مثلك يسأل عن هذا! أفضل ما يتقرب به العبد إلى الله أن يطلع على قلبك وأنت لا تريد من الدنيا والآخرة غيره.

معشر الإخوة الكرام:

وما أن آذنت شمس حياة الإمام بالغروب عام أربع ومئتين للهجرة وخلا الإمام بتلميذه الخاص ليوصيه الوصية الأخيرة، والتلميذ ينظر بشغف إلى سيده وإمامه، قال له: يا أحمد كن كوكباً، فإن لم تكن كوكباً فكن قمرًا، فإن لم تكن قمرًا، فكن شمسًا، فقلت: يا أبا سليمان! القمر أضوأ من الكوكب، والشمس أضوأ من القمر، قال: يا أحمد كن مثل الكوكب طلع أول الليل إلى الفجر، فقم أول الليل إلى آخره

فإن لم تقوى على قيام الليل فكن مثل الشمس تطلع أول النهار إلى آخره، فإن لم تقدر على قيام الليل فلا تعص الله في النهار.

هذه هي النصيحة الغالية التي قدمها لنا اليوم فارس العبادة وزاهد الدنيا ، فهل منا من ينفذ هذه الوصية، إن إمامنا اليوم موجود بيننا في داريا هنا، ونسأل الله أن يجمع بيننا وبينه يوم القيامة هناك، فمن أراد أن يجتمع معه هناك فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك*.



* مصادر أبو سليمان الداراني :

تاريخ ابن عساكر ١٤ / ١٨٧ . سير أعلام النبلاء ١٠ / ١٨٢ . صفة الصفوة ٤ . طبقات الصوفية للسلمي . حلية الأولياء ١٠

(٦٦٣)

الإمام بشر الحافي

(١٥٠ ٢٢٧ هـ)

الحمد لله الذي رفع منازل المخلصين ، وتحلّى بالرضوان على المطيعين والمحسنين ،
وشرح صدور أحبابه بنور اليقين ، وأذاقهم لذة قربهِ فشغلتهم عن الخلق أجمعين .
أحمدُه حمد المنيين إليه ، وأشكره شكر المعتمدين عليه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، قال في كلام موجز المبني واضح
المعنى : ﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا
الزكاة وذلك دين القيمة ﴾

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الصادق الأمين ، المبلغ كلّ ما أمر بتبليغه
من ربّ العالمين .

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على جميع رسل الله المبشرين والمنذرين لئلا
يكون على الله حجةٌ بعد الرسل ولا سيما من ختم الله به الرسالة سيدّ العالمين عبده
ورسوله سيدنا محمداً الأمين وآله وأصحابه وعترته وأنصاره ومن تبعهم بإحسان إلى
يوم الدين ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

نحن اليوم مع إمام عالم رباني ، كان إماماً في الزهد ، إماماً في الورع والإخلاص ،
محدث ثقة جبل لا يروي إلا حديثاً صحيحاً ، كان من أولاد الرؤساء فصحب
الفضيل بن عياض وتلمذ على الإمام مالك وابن المبارك والقاضي أبي يوسف حتى
صار علماً من أعلام المسلمين .

إنه سيدنا أبو نصر بشر الحافي بن الحارث المروزي ثم البغدادي رحمه الله .

ومع الحلقة ستة وستين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربصوا عن الإمام بشر الحافي: عليه السلام وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان تعالوا بنا نسلط الأشعة الكاشفة على حياة إمامنا ، لعل ذلك يكون منا دافعاً نحو العمل في الشريعة ، ونقارن بين حياة الرعيل الأول وبين أحوالنا مع الله تعالى.

ولد سيدنا بشر سنة (١٥٠) وسكن بغداد ، وكانت بغداد قبلة أهل المشرق ترفاً ورفاهية، فلحق بركب الشباب اللاهبي، لكن مع مجونه ولهوه كان طيب القلب شهماً كريماً مع بقية من دين كانت عنده، رأى مرة في الطريق ورقة مكتوب عليها اسم الله عز وجل وقد وطئتها الأقدام فأخذها واشترى بدرهم كان معه طيباً أو مسكاً وماء ورد ، فجعل يتتبع اسم الله تعالى ويطيّب به ثم جعلها في شق حائط.

وشاء الله تعالى أن يختاره من بين أقرانه ، فبعث إليه رجلاً يطرق بابه بعد ليلة صاحبة ففتحت له الجارية ، فسألها عن سيدها وقال لها: يا جارية سيدك حر أم عبد ؟ فقالت له: بل حر. فقال لها: صدقت، لو كان عبداً لذاق طعم العبودية لله تعالى.

وطرقت هذه الكلمات سمع بشر الحافي فنزل من أعلى المنزل حافياً ولحق الرجل في الطريق حتى التقاه وسمع منه وتاب على يديه ، فكان بعد ذلك لا يلبس نعليه ويقول لقد تاب الله علي وأنا حافي القدمين فلن ألبسهما. ورأى فيما يرى النائم في ليلتها وكأن قائلاً يقول له: يا بشر طيب اسمي لأطيين اسمك ، وكما طهرته لأطهر قلبك.

إخوتي في الله: استيقظ سيدنا بشر بعد ذلك بغير الروح التي كان عليها، فقد استيقظ القلب بعد رقوده وعادت روح الإيمان تسري في حناياه ، فترك أصحاب المجنون واللهمو ، وصحب شيخ الصوفية في عصره سيدنا الفضيل بن عياض ،

فتحولت حياته من البذخ والسرف إلى الزهد والتقشف، وبدأ يجوع نفسه الأمانة بالسوء حتى تنصاع له وتنقاد لقلبه.

وارتحل في طلب العلم إلى مكة والكوفة والبصرة ، وسمع من أكابر علماء عصره حتى أصبح محدثاً ثقة مأموناً ، وشهد له علماء عصره فقالوا (إبراهيم الحربي) : ما أخرجت بغداد أتمّ عقلاً من بشر ولا أحفظ للسان، كأن في كل شعرة منه عقل، وطئ الناس عقبه خمسين سنة، ما عرف له غيبة المسلم، وما رؤي أفضل منه، لو قُسم عقله على أهل بغداد صاروا عقلاء.

سافر في المجاهدة والتصوف سيرة أسلافه في قتل النفس الأمانة في السوء، قام بتجويعها

والنفس كالطفل إن تهمله شبَّ على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

اتَّبَعَ سياسة الجوع والصوم، وكان يجد حلاوة في العبادة وهو القائل (لا تجد حلاوة العبادة، حتى تجعل بينك وبين الشهوات حائطا الجوع يصفِّي الفؤاد ، ويميت الهوى ويورث العلم الدقيق، طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعِد غيب لم يره).

معشر السادة: كان لإمامنا بشر في كل يوم رغيْف ، كلما وضعه بين يديه تأتبه هرة تنظر إليه فيأكل ويرمي لها، وهو القائل: ما شبعنا منذ خمسين سنة ، وإني لأشتهي شواء منذ أربعين سنة ما صفا لي ثمنه.

كان فقر الإمام اختيارياً، كان كل الناس يسألون الله تعالى الغنى وهو يسأل الله الفقر ، دخل مرة مصلاًه فصلى أربع ركعات أتمهنّ بالخشوع ، ثم دعا الله تعالى فقال: اللهم إنك تعلم أنّ الذلّ أحبُّ إليّ من العزّ ، وأن الفقر أحبُّ إليّ من الغنى، وأن الموت أحبُّ إليّ من البقاء.

كان زاهداً ويزهّد الناس في الدنيا ويحدّثهم من غرورها ، ويقول لهم : من سأل الله الدنيا فإنما يسأله طول الوقوف بين يديه. واسمحوا لي أن أنقل وجهة نظره

من شعره يقول:

قَطَعُ اللَّيالي مع الأيام في خَلْقِ والنوم تحت رواق الهمّ والقلقِ
أحرى وأعذر لي من أن يقال غداً إني التمسيت الغنى من كف محتلقِ
قالوا فنعت بذا قلت القُنع غنى ليس الغنى كثرة الأموال والورقِ
رضيت بالله في عسري وفي يسري فلست أسلك إلا أوضح الطرق.
هؤلاء هم الرجال الذين اشتروا الآخرة بالدنيا ، باعوا الدنيا لأجل الآخرة ،
بحسبك يا أخي المسلم أقواماً موتى تحيى القلوب بذكرهم ، وأقوام أحياء تعمى
الأبصار بالنظر إليهم.

أيها الأحبة والصحب :

إن إمامنا كان يَحذّر في حياته كلها من شيئين : الدنيا والرياء ، لأن الرياء يحبط
العمل و هو الشرك الخفي الذي حذرنا منه رسول الله ﷺ ، كان يخشى من الشهرة
مخافة الرياء ويقول: لقد شهري ربي في الدنيا فليته لا يفضحني في القيامة ، ما أقبح
بمثلي يُظَنّ في ظنّ وأنا على خلافه ، إنما ينبغي لي أن أكون أكثر مما يظن بي، إني
أكره الموت، وما يكره الموت إلا مريب، ولولا أي مريب لأي شيء أكره الموت ،
غنيمة المؤمن غفلة الناس عنه وإخفاء مكانه عنهم. اللهم استر واجعل تحت السّتر
ما تحب فربما سترت على ما تكره.

أيها الإخوة هذه المنهجية دعت الإمام بشراً أن يمتنع عن التحديث بالأحاديث
التي يحفظها خوف الرياء ، قيل له يوماً: ألا تحدّث؟ فقال: أنا أشتهي أن أحدث،
وإذا أعجبك الكلام فأصمت وإذا أعجبك الصمت فتكلم، ثم التفت لمن حوله
وقال: بي داء ما لم أعالج نفسي لا أتفرغ لغيري فإذا عاجلت نفسي تفرغت لغيري،
ما أبصرني بموضع الداء وموضع الدواء إن أعاني منه بمعونة ثم قال: أنتم الداء، أرى
وجوه قوم لا يخافون ، متهاونين بأمور الآخرة.

هكذا كان الإمام شديد النصح لأصحابه وإخوانه ، لكنه يخاف أن يؤخذ بالرياء عندما يتكلم وينصح ، رفع مرة دعواه إلى الله تعالى يشكو إليه حاله ويقول: اللهم إنك تعلم أنني أخاف أن أتكلم، اللهم إنك تعلم أنني أخاف أن أسكت، اللهم إنك تعلم أنني أخاف أن تأخذني فيما بين السكوت والكلام.

فهو في كل حالاته خائف من الرياء، كان يحب أن يعمل في الخفاء لا يطلع عليه أحد من الخلق ، كان يقول: الصدقة أفضل من الحج والعمرة والجهاد ، فاستغرب أصحابه كلامه وسألوه: لم؟ فقال: الحاج والمعتمر والمجاهد كلّ منهم يركب ويرجع ويراه الناس، وأما المتصدق فيعطي سراً لا يراه إلا الله عز وجل.

الدنيا والرياء كانا يقلقان الإمام أشد القلق ، ويخاف أن يعود إلى حالته الأولى التي كان عليها قبل التوبة ، ويرى أن الله قد أنعم عليه نعمة عظيمة بهدايته ، دخل على أخته في ليلة فوضع إحدى رجليه داخل الدار والأخرى خارج الدار ، وبقي زمناً طويلاً يتفكر فقالت له أخته: بماذا تفكر ؟ فقال: تفكرت في بشر النصراني وبشر اليهودي وبشر المجوسي ونفسي واسمي بشر ، فقلت: ما الذي سبق منك حتى خصك (الله بهدايته) ، ففكرت في تفضله علي وحمده علي أن جعلني من خاصته وألبسني لباس أحبائه(والله يا أختاه) لو علمت أن رضى الله أن أشد في رجلي حرجاً ثم ألقي نفسي في البحر لفعلت.

ثم توجع الإمام من شدة جوعه فقالت له أخته: إئذن لي حتى أصنع قليلاً من الحساء مع كف دقيق تتحساه يرم جوفك ، فقال لها: ويحك أخاف أن يسألني ربي من أين لك الدقيق؟ فلا أدري أي شيء أقول له، فبكى وبكت أخته وبكى من معهما ، وبقيت تبكي عليه الليل والنهار وهو يتوجع حتى رآته يتنفس تنفساً ضعيفاً فقالت له: يا أخي ليت أُمي لم تلدني، فقد والله تقطّع كبدي مما أرى بك فقال لها: وأنا يا ليت أُمك لم تلدني، وإذ قد ولدتني لم يدرّ لها ثدي علي.

وماتت أخت بشر قبله، فلما وقف على قبرها وقد بلغ السبعين قال: إن العبد

إذا قَصَّرَ في طاعة ربه سلبه الله من يؤنسه.

أيها السادة: وصلت المكانة بسيدنا بشر أن استأذن عليه الخليفة المأمون أن يزوره فأبى فقال الخليفة المأمون: لم يبق في هذه الكره أحد يستحي منه غير بشر بن الحارث. ورأى رسول الله في منامه فقال له: يا بشر أتدري لم رفعك الله من بين أقرانك؟ قال: لا يا رسول الله . قال: باتباعك لسنتي وخدمتك للصالحين ونصيحتك لإخوانك ومحبتك لأصحابي وأهل بيتي ، وهو الذي بلغك منازل الأبرار. **أيها الإخوة:** بلغ سيدنا بشر منازل الأبرار بعد أن مات ، ولم يتزوج ، مات وماله في عصره نظير كما قال الإمام أحمد ، مات سنة ٢٢٧ هـ .

وازدحم الناس على صلاة الجنازة صلي عليه بعد صلاة الصبح ، ولشدة الزحام لم يصلوا إلى المقبرة ليدفنوه إلا بعد صلاة العشاء .

وهكذا إخواني قضيت مع حضراتكم مع قمة أخرى من قمم الرجال ، قمة لم يصل إليها أحد إلا من رحم ربك ، فمن أراد أن يصل إلى تلك القمة فليبق معنا هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه ، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله

الصلاة والسلام عليك

• الرسالة القشيرية

شرح الرسالة القشيرية

الموسوعة الصوفية للخفي

صفة الصفوة

طبقات الصوفية للسلمي ٣٩

جامع كرامات الأولياء للنبهاني ٦٠٧ / ١

(٦٦٤)

الإمام ذو النون المصري

(ت ٢٤٥ هـ)

الحمد لله الذي انشق أهل صفوته من طيب محبته نسيما، ونادمهم في الأسحار
بلذيد الأذكار فأصبح لهم نديما، وسقاهم من الكؤوس المصفاة في خلوة المناجاة
شراباً صرفاً قديما، وتجلّى لهم فهاموا وجداً به فهداهم صراطاً مستقيما.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له كان بالمؤمنين رحيمًا، تحيتهم يوم
يلقونه سلامًا، وأعد لهم أجراً كريماً.

إلهي أنا أسير قدرتك فاجعلي طليق رحمتك، لئن مددت يدي إليك داعياً لطالما
كفيتني ساهياً، أقطع منك رجائي بما عملت يداي ، حسبي من سؤالي علمك
بحالي.

وأشهد أن سيدنا مُحَمَّدًا عبده ورسوله نبي شرف الله به زمزم وحطيمًا ، وسمّاه
مولانا باسمين من أسمائه رؤوفاً رحيمًا، فكم جبر كسيراً ، وأغنى فقيراً ، ورحم يتيمًا ،
من صلّى عليه نال رفعة وتقديما وعزّاً وتكريماً.

وافى له الروح الأمين مبشراً نادى به يا خير من وطئ الثرى

أجب المهيمن يا مُحَمَّد كي ترى ملكاً كبيراً في السماء عظيماً

صلّوا عليه وسلّموا تسليماً

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه ما أطلع الرحمن في

ليلة بدرا وسلم تسليماً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام : نحن ننزل اليوم ضيوفاً على مصر فرج الله عنها وبالذات في جنوبها، في بلاد واسعة عريضة تدعى النوبة، وعلى شاطئ النيل بالصعيد نلتقي بعالمها وفصيحها وحكيمها ووليها، كان عالم علماء أهل الحقيقة فيها، والمرجع إليها والمقبول على جميع الألسنة. زهد في الدنيا، وطاف الأرض شرقاً وغرباً ، فدخل بغداد ونزل سرّاً من رأى، وقدم الشام وجبل لبنان، ودخل مدينتنا دمشق فمرحباً به وأهلاً.

معشر الإخوة: .

أرحب باسمكم جميعاً بسيد الزهاد وأمير الصوفية سيدنا ذي النون المصري بن إبراهيم. ليس هو بالنبي سيدنا يونس الملقب بذي النون (أي صاحب الحوت) ولكنه سيد من سادات الأمة عُرف بحبه لله ورسوله فقولوا أهلاً وسهلاً به. ومع الحلقة تسعة وستين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام ذي النون المصري.

ﷺ وأرضانا معه

إخوتي في الله:

كان ذو النون المصري ويلقب بأبي الفيض في مطلع شبابه من أرباب السوابق ثم تاب الله عليه، والصلحة بلمحة - كما يقولون - وكم من تائب نقله الله تعالى من الحمارة إلى الإمارة، نقله من ديوان العاصين إلى ديوان الطائعين، إذا صدقت توبة العبد نقله مولانا من ذل المعصية إلى عز الطاعة، وقد سئل ذو النون عن سبب توبته ف قيل له: يا أبا الفيض ما سبب توبتك؟ فقال: عجب لا تطيقه، ف قيل له: سألتك بمعبودك إلا أخبرني، فقال ذو النون: خرجت من مصر إلى بعض القرى، فلما كنت في صحراء نمت ففتحت عيني، وإذا بطير يُقال له القبره أعمى معلق

بمكان فسقط على الأرض فانشقت الأرض فخرج منها إناءان صغيران إحداها ذهب والآخر فضة، في إحداها سمسم وفي الآخر ماء فجعل يأكل من هذا ويشرب من هذا. فقلت: حسبي قد تبت إلى ربي، ولزمت الباب إلى أن قبلني. (اللهم اقبلنا في ديوان الطائعين).

أيها السادة :

كان إكرام الله لسيدنا ذي النون كبيراً إذ أعطاه الله علماً واسعاً وقلباً خاشعاً وحكمة بليغة «ما اتخذ الله من ولي جاهل ولو شاء أن يتخذ له لعله» العلم الذي أعطي لذي النون كان علماً وهيباً أكثر منه مكتسباً، حتى أصبح ينطق به كما ينطق به علماءه، سئل مرة عن التوحيد ما هو؟ فقال: أن تعلم أن قدرة الله في الأشياء بلا فراج، وصنعتة للأشياء بلا علاج، وعلة كل شيء صنعه ولا علة لصنعه، وليس في السموات العلى ولا في الأراضين السفلى مدبر غير الله، وكل ما تصوّر في وهمك فالله بخلاف ذلك.

قيل له: بما عرفت ربك؟ فقال: عرفت ربي بربي ولولا ربي ما عرفت ربي. من عرف الله رضي بالله وسرّ بما قضى الله.

وكان العلماء بالله يُسألون كيف آتى الله تعالى مثل هذا العلم لسيدنا ذي النون؟ فكانوا يقولون السبب كان استغراقه في ذكر الله تعالى على الحقيقة، وكثرة استغفاره، لذلك كانوا يقولون دائماً: (من ذكر الله ذكراً على الحقيقة، نسي في جنب ذكره كل شيء وحفظ الله عليه كل شيء وكان له عوضاً عن كل شيء) .

ذكر واستغفار على الحقيقة، وليس تكراراً بدون خشوع، إن إمامنا صاحب حال مع الله تعالى عظيم، سئل عن الاستغفار من الذنوب فقال:

إن لله عبداً تركوا الذنوب استحياء من كرمه بعد أن تركوه خوفاً من عقوبته، ولو قال الله لك: اعمل ما شئت فلست آخذك بذنب، كان ينبغي أن يزيدك كرمه

استحياء منه، وتركاً لمعصيته، إن كنت حرّاً كريماً عبداً شكوراً، فكيف وقد حذرك. فقيل نسألك عن التوبة لا عن هذا؟ فقال: توبة العوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من الغفلة. من واصل الذنوب نُحِّي عن باب المحبوب. قيل: فكيف يتوب العبد ويستغفر؟ فقال: الاستغفار اسم جامع لمعانٍ كثيرة: أولهنّ: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك الرجوع إلى الذنوب، والثالث: أداء كل فرض ضيعه فيما بينه وبين الله عزّ وجلّ، والرابع: أداء المظالم إلى المخلوقين في أموالهم وأعراضهم أو مصالحتهم عليها.

الخامس: إذابة كل لحم ودم نبت من الحرام.

السادس: إذاقة البدن ألم الطاعات كما ذاق حلاوة المعصية.

هذا هو العلم، وهؤلاء هم العلماء ، الذكر باب الله الأعظم والاستغفار بابه الثاني، وهذان البابان يوصلان العبد إلى محبة الله تعالى، وقد كان لإمامنا رأي عظيم في محبة الله تعالى، أريد أن أعرضه على حضراتكم لنزن محبتنا لله بميزان دقيق ليس له مثيل، هل نحن نحب الله تعالى حقاً؟ تعالوا بنا لنر كيف هو حب الله تعالى، والأنس به، (بعد أن توحدوا الله).

المحبة: أن تحب ما أحب الله وتبغض ما أبغض الله وتفعل الخير كله، وترفض كل ما يشغل عن الله، وألا تخاف في الله لومة لائم مع العطف للمؤمنين والغلظة على الكافرين واتباع رسول الله في الدين. لأن من علامات المحب لله متابعة حبيب الله في أخلاقه وأفعاله وأمره وسننه.

زدنا يا إمامنا محبة لله تعالى، علّمنا ما علامة المحب لله؟ من علامة المحب لله ترك كل ما يشغله عن الله حتى يكون الشغل بالله وحده. من علامة المحبين لله ألا يأنسوا بسواه ولا يستوحشوا معه، إذا سكن حب الله القلب أنس بالله لأن الله أجلّ في قلوب العارفين من أن يحبّوا سواه.

هذا كلام العاشقين أهل الله أهل وداده ومحبته هؤلاء هم الناس، هؤلاء هم العلماء بالله لهذا كنت تسمعه يقول: الناس كلهم موتى إلا العلماء والعلماء كلهم نيام إلا العاملين، والعاملون كلهم مغترّون إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ الْصَادِقِينَ عَنْ صَدَقِهِمْ﴾.

إخوة الإيمان:

ظنّ بعض الجهلة من أهل عصره أن توبة الإمام كاذبة، وأن كلامه لا معنى له فأرسل رسالة وشاية إلى الخليفة المتوكل في بغداد يدعوه للقضاء على ذي النون واتهمه بالزندقة، فأمر والي مصر بسجنه والتحقيق بشأنه ثم إرساله موجوداً إلى بغداد، فقبض على ذي النون ووضعته الأغلال في يديه ورجليه وسيق إلى السجن والناس حوله يبكون وهو يقول:

لك من قلبي المكان المصون وكل لوم عليّ فيك يهون
لك غرم لأن أكون قتيلاً فيك والصبر عنك ما لا يكون

وحمل سيدنا ذي النون على سفينة الصحراء مع البريد إلى أن وقف بباب الخليفة المتوكل وقد أمر بقتله.

معشر الإخوة الكرام:

أرى لزماً عليّ الآن أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك، إلى بغداد فرّج الله عنها، إلى الخليفة المتوكل، وأرى السيّاف قائماً ويده السيف، كما أرى الشرّ في وجوه القوم حول الخليفة، وأدخل سيدنا ذو النون على الخليفة ورأى حالة القوم فالتجأ إلى الله، ونادى من لا يحيب أحداً فقال وهو يُجر بسلاسل الأغلال:

يا من ليس في السموات قطرات، ولا في البحار قطرات، ولا في الرياح دجّات، ولا في الأرض خبيئات، ولا في قلوب الخلائق خطرات، ولا في أعضائهم حركات، ولا في عيونهم لحظات إلا وهي ساهرات، وعليك والهات، وبربوبيتك معترفات، وفي

قدرتك متحيرات، فبالقدرة التي تحيّر بها من في الأرضين ومن في السموات إلا صليت على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وأخذت قلبه عني.

يقول الراوي يا سادة يا كرام: ما إن أتمّ ذو النون دُعاءه حتى قام المتوكل بخطو واعتنق ذا النون وقال: أتعبناك يا أبا الفيض، إن تشأ أن تقيم عندنا فأقم وإن تشأ أن تنصرف فانصرف.

قال: فآثر الانصراف إلى الله تعالى. لأن الأنس بالله نور ساطع، والأنس بالخلق غمّ واقع.

آثر الإمام جوار الله تعالى على جوار الخلق، تعب من حياته وشقائها، فطلب جوار الله تعالى، ودخلوا عليه وهو يحتضر فقالوا له: أوصنا؟ فقال: لا تشغلوني فيني متعجب من محاسن لطف الله.

وانتقلت روحه إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر سنة خمس وأربعين وميتين، وازدحم الناس على جنازته فلم يستطيعوا أن يجتازوا بها بين الناس، فحملوه في مركب ونقلوه إلى المقابر، وجاء الذين وشوا به إلى الخليفة واتهموه بالزندقة جاؤوا يستغفرون الله تعالى من فعلتهم، أتدرون لماذا جاؤوا وشهدوا جنازته! لأنهم رأوا الطيور تسير فوق جنازته تظلل الموكب المهيب بإذن واحد أحد.

وهكذا - معشر الإخوة - شهدت مع حضراتكم علماً من أعلام الأمة ، من أهل الله ، أهل محبته ووداده، فمن أراد أن يلتقي به هناك فليلتق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .

• الرسالة القشيرية ٨ . شرح الرسالة القشيرية للأنصاري ١/٧٣ . الموسوعة الصوفية للحفني .
صفة الصفوة ٣/٥١٠ . البداية والنهاية ١٠/٣٤٧ . تاريخ بغداد ٨/٣٩٣ . حلية الأولياء
٣٣١/٩ . ٣/١٠ . طبقات الشعراني ١/٨١ . النجوم الزاهرة ٢/٣٢٠ . وفيات الأعيان
٣١٥/١ . طبقات الصوفية للسلمي ١٥

(٦٦٥)

الإمام أبو يزيد البسطامي

(١٨٨ - ٢٦١ هـ)

أحمد الله الواحد في ذاته ، وصفاته الماجد في حلى آياته ، المعروف بالقدم والبقاء قبل إيجاد مخلوقاته، الموصوف بكبرياء ردائه وعظمة إزاره، أستغفرك يا الله وأتوب إليك، وأسأله أن لا يقطع عنا عوائد صلاته ، إلهي أدعوك دعاء من لم ييق له غيرك ، إلهي غلّقت الملوك أبوابها وبابك مفتوح لمن دعاك، يا رب هذا فرحي بك وأنا أخافك ، فكيف فرحي بك إذا غفرت يوم القيامة ، بجرمة اسمك الأعظم فرّج عنا، اقض حوائجنا ، الطف بنا ، أحسن ختامنا ، اجبر كسرنا يا حي يا قيوم.

وأشهد لا إله إلا الله وحده لا شريك له قيل لسيدنا أبي يزيد البسطامي: علمنا الاسم الأعظم. فقال: ليس له حد، إنما هو فراغ قلبك لوحدانيتها، فإذا كنت كذلك فأرفع له أي اسم شئت من أسمائه تعالى.

فيا رب! بأسمائك الحسنی تجلّی علينا بالأنس والرضوان، والعطف والحنان يا ذا الجلال والإكرام.

وأشهد أن سيدنا مُحَمَّدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله

ذاك الذي وقف الملوك ببابه وتزاحمت تيجانها لتُشرف

عين النبيين الكرام وتاجهم ومن الإله لغيره لن يصطفي

برضاه يرضى الله جلّ جلاله ويذكره تحبو الجحيم وتنطفي

صلّى عليه الله يا علم الله

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه وسائر أهل الله

أجمعين ، وسلّم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

نحن اليوم مع سلطان، سلطان عادل ، ليس بملك ولا بأمير ولا حاكم، لكنه سلطان الزاهدين وسلطان العارفين، أشهر من أن يذكر وأعرف من أن يُعرّف، كان نادرة زمانه حالاً وأنفاساً وورعاً وعلماً وزهداً وتقوى، هو أحد المجاهدين في ميادين القتال، جاهد في المجتمع داعياً إلى الله، وجاهد نفسه حتى تتزكى ، وتوكل على الله حق التوكل حتى قال: حسبك من التوكل ألا ترى لك ناصراً غيره، ولا لرزقك رازقاً غيره، ولا لعملك شاهداً غيره.

إننا - معشر السادة - مع قطب زمانه وكوكب أوانه وتلميذ سيدنا جعفر الصادق، مع سلطان العارفين سيدنا أبي يزيد البسطامي واسمه طيفور بن عيسى ، ومع الحلقة واحد وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن هذا الإمام.

إخوتي في الله :

تتجلى عناية الله تعالى بالإمام أبي يزيد البسطامي في أن الله اختار له والدين كريمين ورعين يرعيان الحلال في المطعم والمشرب ، حتى إن التاريخ ليذكر أن والده عندما تزوج بأمه لم يقربها حتى مضى أربعين يوماً حتى علم أن لم يبق في جوفها أثر لما أكلته من قبل، ومن هذين الكريمين ولد سيدنا أبو زيد الذي نشأ باراً بوالديه ، حتى إن أمه مرة طلبت منه كأس ماء في الليل فلما أتى به وجدها نائمة فبقي واقفاً يحمل كأس الماء طيلة ساعات حتى استيقظت فسقاها الماء ، فكان أبو يزيد عندما يحدثه أصحابه عن مكانته يقول: إنما أرى مالي من رضى الأم عليّ، وبدأت علامات استغراقه في الألوهية ، وبدأ الناس يتبركون به وهو بعد ما زال صبيّاً، قال له رجل من أهل الحديث: يا غلام تحسن أن تصلّي؟ فقال نعم! إن شاء الله، فقال له كيف تصلّي؟ قال: أكبّر بالتلبية، وأقرأ بالترتيل وأركع بالتعظيم، وأسجد بالتواضع، وأسلم بالتودع، فقال الرجل: يا غلام إذا كان لك هذا الفهم والفضل والمعرفة فلم

تدع الناس يتمسّحون بك؟ فقال: ليس بي يتمسحون لكن يتمسحون بعلم أعطانيه
ربي عزّ وجلّ.

معشر الإخوة:

ويحدثنا سيدنا أبو يزيد عن نفسه فيقول : أقامني الحق تعالى على أبواب العلماء
وصحبه المتعلمين دهرًا طويلاً فلما استكثرت من أنواع العلوم جعلت نفسي تحثني
أنك علمت وعرفت والعالم والعارف في أعلى المراتب، فأشرف بي الحق تعالى حتى
رأيت ازدحام العلماء والعارفين فلم أرى لنفسي معهم موضع قدم، فقلت : العلم
والمعرفة من غير الحقيقة حجة ، فكان عندي أن الحقيقة في العلم والاجتهاد فعلتُ
في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً عليّ أشد من العلم ومتابعته.

أيها السادة:

فلما بدأ سيدنا أبو يزيد يتكلم في علوم الحقائق والتصوف لم يفهم أهل عصره
كلامه فرموه بالعظام ونفوه من بلدهم سبع مرات ، وهم كلما نفوه أنزل الله بهم
البلاء ، حتى أذعنوا له وأجمعوا على تعظيمه ولقبوه بسلطان العارفين. وحين سئل
عن ذلك قال: ما ينال كبار الصالحين في كل وقت من أذى السفهاء، والله سبحانه
يقول عن أنبيائه وهم أصفى الناس لله، ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من
المجرمين﴾ (الفرقان ٣).

ما من عبد اضطنعه الله لنفسه وشغله بذكره وحماه عن مخالفته وجعل له محادثة
بقلبه إلا سلّط عليه فرعون على كل ذلك ينكره ويؤذيه.
وظهر الإمام أبو يزيد البسطامي كزعيم صوفي كبير ، صوفيته عمادها الكتاب
والسنة ويرافقها ذكر الله لا يفتّر لحظة.

سئل مرة عن الصوفي فقال: هو الذي يأخذ كتاب الله بيمينه وسنة رسوله
بشماله، وينظر بإحدى عينيه إلى الجنة، وبالأخرى إلى النار، ويأترز بالدنيا ويرتدي
بالآخرة ، ويلبي من بينهما للمولى لبيك اللهم لبيك.

هل رأيتم هذه المنهجية الصوفية الصادقة ، هل يعتبر الصوفية بميزان الشرع المطهر لا غير ، وهو القائل: عشرة فريضة على البدن: أداء الفرائض ، واجتناب المحارم ، والتواضع لله ، وكف الأذى عن الإخوان والنصيحة للبر والفاجر ، وطلب المغفرة ، وطلب مرضاة الله في جميع أموره ، وترك الغضب والكبر والبغي والمجادلة من ظهور الخفي ، وأن يكون وصي نفسه يتهياً للموت.

هذا هو العلم ، وهذا هو الصوفي ، وكان يكتشف من هو الصوفي الحقيقي من غير الحقيقي، قال ذات يوم لأحد أصحابه: قم بنا ننظر إلى هذا الرجل الذي قد شهر نفسه بالولاية، وكان رجلاً مشهوراً بالزهد، فمضيا إليه فلما خرج الرجل من بيته ودخل المسجد رمى ببصاقة تجاه القبلة، فانصرف سيدنا أبو يزيد ولم يسلم عليه وقال: هذا رجل غير مأمون على أدب من آداب رسول الله ﷺ فكيف يكون مأموناً على ما يدّعيه).

معشر السادة : ويحدثنا خادمه وابن أخيه وأصحابه عن مجاهدات الإمام وعباداته بأنه كان يقوم الليل من العشاء إلى الفجر ثم يسجد عند السحر ويطيل سجوده وكان من دعائه: (اللهم طلبوا منك فأعطيتهم طي الأرض والمشى على الماء وركوب الهواء وانقلاب الأعيان) وإني أعوذ بك منها فارحمي وارحم حيرتي وأقم بعبدك مقاماً أتقرب به إليك لا ينافسني في ذلك المقام منافس ، ولا يزاحمي فيه مزاحم ، فلقد أشرفت بي على من سبقوني إليك ورأيتني لا أطيق اللحوق بهم.

ولسيدنا أبي يزيد رأي خاص بالكرامات هو يخاف من الكرامة، ويقول: الأولياء لا يفرحون بإجابة الدعوات التي هي عين الكرامات كالمشي على الماء والهواء وطي الأرض وركوب السماء فإن أدعية الكفار تحاب، والأرض تطوى للشياطين والدجال، والهواء مسخر للطير والماء للحوت فمن أنعم عليه بشيء منها فلا يأمن مكر الله تعالى.

وخرج مرة يزور أخاً له ببلخ فلما وصل إلى نهر وأراد عبوره التقت حافتا النهر. فقال: سيدي ومولاي أيش هذا المكر الخفي؟ وعزتك ما عبدتك لهذا، وعزتك ما أردت هذا.

وكان يخفي كراماته كما تخفي المرأة وجهها خشية أن يعرفها الناس، وكان يقول لو نظرتكم إلى رجلٍ أعطي من الكرامات حتى يتربع في الهواء فلا تغتروا به حتى تنظروا كيف تجدوناه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة.

هذا وقد نقل عنه كثير من الأكاذيب مثل قصة الدير والرهبان وغيرها وهو منها بريء، إنما كانت كراماته وقوفه عند الحدود الشرعية، سئل مرة عن العارف وما علامته فقال: ألا يفتر عن ذكر الله ولا يمل من حقه ولا يستأنس بغيره، يقيم على باب ربه ويقبل إليه لا يلتفت إلى شيء يحجبه عنه، ويكون فراره من الخلق إلى الخالق ومن جميع الأسباب إلى ولي الأسباب.

وكان يقول: إن الناس يقولون إن شهادة أن لا إله إلا الله مفتاح الجنة، ولكن لا يفتح المفتاح بغير أسنان، وأسنان مفتاح الجنة أربعة أشياء: لسان بغير كذب ولا غيبة، وقلب بغير مكر ولا خيانة، وبطن بغير حرام ولا شبهة، وعمل بغير هوى ولا بدعة.

علينا أن نعلم أن كرامات سيدنا أبي يزيد كانت وقوفه على حدود الشرع ومعرفته حقوق الربوبية لمولانا، وكان إذا تجاوز آداب الشريعة هتف به هاتف يأذبه، يقول: مددت رجلي في محرابي فهتف بي هاتف: من يجالس الملوك، ينبغي أن يجالسهم بحسن أدب. وقال: رأيت رب العزة في النوم فقلت: يا رب كيف أجذك؟ فقال: فارق نفسك وتعال إلي، خزانتنا مملوءة من الخدمة فإن أردتنا فعليك بالذل والافتقار.

ومرض جاره المجوسي فدخل عليه عائداً فلما بصر المجوسي بأبي يزيد استعظم زيارته وأزال رأسه من فراشه ووضع خده على التراب تعظيماً وإجلالاً لسيدنا أبي يزيد ولبث عنده ساعة، ثم قام منصرفاً وما أن بلغ وسط الدار حتى رفع أبو يزيد

طرفه إلى السماء مستعطفاً رب السماء والأرض فناده صاحب الدار قبل أن يخرج: يا أبا يزيد آمنت بالله ورسوله مُحَمَّد، ثم مات الرجل مكانه، فقام أبو يزيد بأمره حتى دفنه.

قال له رجل : دَلّني على عمل أتقرب به إلى الله، فقال له: أحب أوليائه ليحبوك فإنه ينظر في قلوبهم فلعله ينظر إلى اسمك في قلب وليّه فيغفر لك. وقال له آخر: أوصني؟ فقال: انظر إلى السماء، فنظر الرجل إلى السماء، فقال له سيدنا أبي يزيد: أتدري من خلق هذا؟ قال: الله، قال سيدنا أبو يزيد: إن من خلقها لمطلع عليك حيث كنت فاحذره.

إخوة الإيمان: ولما كانت الليلة التي ودّع فيها الإمام روحه جاءه تلميذ له زائراً من بلدة أخرى، فلما أراد أن ينصرف إلى بلده استأذن على الخروج فقال له الإمام: لا تمش حتى تصلّي الجنازة، ولم يكن يعلم الرجل ما تلك الجنازة إلا أنه علم صدق أستاذه فلم يستخبره علمها حرمة له. فلما أصبح الفجر دقّ المؤذن باب سيدنا أبي يزيد ليخرج إلى الصلاة، فلما لم يرد فتح الباب عليه فوجده قد فارق الحياة فعلم التلميذ أن الجنازة كانت جنازة سيدنا أبي يزيد الذي فارق الدنيا سنة ٢٦١ هـ عن ثلاث وسبعين سنة.

وهكذا قضيت مع حضراتكم مع الإمام الرباني سيدنا أبي يزيد البسطامي في المدرسة هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .

• الرسالة القشيرية ١٣ شرح الرسالة القشيرية للأنصاري ١/١٠٣

الموسوعة الصوفية للحنفي صفة الصفوة ٣/٥٢٢

البداية والنهاية ٣٥/١١ حلية الأولياء ٣٣/١٠

شذرات الذهب ١٤٣/٢ طبقات الصوفية ٦٧

وفيات الأعيان ٢ / ٥٣١ النجوم الزاهرة ٣/٣٥

(٦٦٦)

الإمام الجنيد بن محمد بن الجنيد

(٢٢٠ هـ - ٢٩٧ هـ)

الحمد لله الذي بعث على رأس كل مئة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها،
وأقام في كل عصر من يحوط هذه الملة بتشديد أركانها وتأييد سننها وتبيينها.
أحمده سبحانه وتعالى حمد من اكتسب من النعم سربالها واحتسى زلالها.
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة يزيح ظلام الشكوك صُبح
يقينها.

وأشهد أن سيدنا مُحَمَّدًا عبده ورسوله المبعوث لرفع كلمة الإسلام وتشبيدها،
وخفض كلمة الكفر وتوهينها.
اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله ليوث الغابة وأسد عرينها،
وسلم تسليماً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أزور مع حضراتكم اليوم عظيماً آخر لا تعرفونه ، وما أكثر من لا تعرفون من
عظماء الإسلام إمام آخر كان في سيرته وأحواله مثلاً مضروباً لما ينبغي أن يكون
عليه أئمة المسلمين ، هو حلقة من هذه السلسلة الذهبية التي ضمت حلقاتها سير
الإمام أبي حنيفة والإمام مالك والإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل، سيد لُقّب
بإمام الطائفتين إمام أهل الشريعة وإمام أهل الحقيقة ، رزق من القبول وصواب
القول ما لم يقع لغيره، بحيث إذا مرّ بشارع في بغداد وقف الناس له صفوفاً كالمملوك،
إذا رأيت علمه رجحته على صوفيته وحاله مع الله، وإذا رأيت صوفيته وحاله مع الله
رجحته على علمه، شهد له ابن عربي في الفتوحات أنه سيد أهل الطائفة الصوفية،

ووصفه ابن الأثير صاحب كتاب الكامل في التاريخ أنه: إمام الدنيا في زمانه، وقال عنه من أرخ لحياته بأنه شيخ وقته وفريد عصره.

إننا مع البغدادي ولادة ومنشأ ووفاة مع سيدنا أبي القاسم الإمام الجنيد بن محمد بن الجنيد رحمته الله وأرضاه، ومع اثنان وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن هذا الإمام.

رحمته الله وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد هذا الإمام العلم في بغداد سنة نيف وعشرين ومئتين هجرية، وكان المري الأول له خاله الإمام السري السقطي (أوحد زمانه في الورع والسنة وعلم التوحيد ت ٢٥٧هـ) وكان المري الثاني له الإمام المحاسبي (إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والتوحيد وسمي بالمحاسبي لأنه كان يحاسب نفسه عملاً بقول رسول الله : (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا) ت ٢٤٣هـ).

وظهرت إرهابات المعرفة والنبوغ والفتح عليه وهو ابن سبع، إذ كان بين يدي شيخه السري وهو يلعب فتكلم الجماعة في الشكر وصاروا يناقشون من هو الشاكر فالتفت السري وقال: يا غلام ما الشكر؟ فقال: أن لا يعصى الله بنعمه. وهنا دعا له خاله السري فقال: جعلك الله صاحب حديث صوفياً ولا جعلك صوفياً صاحب حديث. (لأن من حصّل الحديث والعلم ثم تصوف أفلح، ومن تصوف قبل العلم خاطر بنفسه).

إخوتي في الله: استجاب الله لدعوة شيخه فانطلق الفتى ينهل من معين علماء عصره وطبقة أشياخه حتى بلغ عددهم مئة وعشرين رجلاً من عِلْيَةِ القوم، وكان يلزم الإمام أبا ثور في الفقه الشافعي ، وأفتى بحضرته وهو ابن عشرين سنة ، حتى

انتهت إليه الرياسة في العلم. وهو القائل: (ما أخرج الله علماً إلى الأرض وجعل للخلق إليه سبيلاً إلا وجعل لي فيه حظاً ونصيباً).

وبدأ يجاهد نفسه الأمارة بالسوء ويجوعها فكان يقعد الأسبوع لا يأكل إلا أكلة واحدة، واستمر على ذلك عشرين سنة ، حتى انقادت له نفسه ، وكان ورده اليومي ثلاثمائة ركعة إن لم يأت بها في الليل، دخل خلوته نهاراً وأسبل عليه ستراً وصلى نهاره، وكان يروض نفسه ألا تتكبر على أحد فيجلس تحت درجة في بيته يروضها على التواضع ، فرفع الله قدره في الدنيا بين الناس، سئل مرة: من أين استفدت هذا العلم. فقال: من جلوسي بين يدي الله مشتغلاً بإصلاح قلبي وجوارحي ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة (وأوماً إلى درجة في داره) .

وحين رأى منه شيخه أهلية العلم والتعليم أذن له أن يعقد درساً في الجامع، فرأى في المنام في ليلة جمعة سيدنا رسول الله، وهو يقول له: ألق الدروس على الناس فانتبه ليلاً، وقام إلى باب خاله السري قبل أن يصبح فدق عليه الباب ففتح له خاله وقال له: لم تصدّقنا حتى جاءك الأمر من رسول الله.

معشر الإخوة الكرام: وما دام قد جاء من سيدنا النبي الأمر بإقامة درس لسيدنا الجنيد فأرى لزماً علينا أن نكون مع أوائل الحاضرين لدرس الإمام، فإلى بغداد العراق، أدعوكم جميعاً فادخلوها وأنتم تسألون الله الفرج لها، وأرى بعين الإيمان الخلائق يتجهون إلى المسجد الجامع، وقد علموا أن الإمام الجنيد هو شيخ الدرس لكنني أرى عجباً، وأريدكم أن تعجبوا معي من تركيبة طلاب الدرس، فقد حضر الكتبة ومعهم أقلامهم مجلس الإمام ليدونوا ألفاظه، وحضر الفقهاء لتقريراته الفقهية، وحضر الفلاسفة لدقة نظره ومعانيه، وحضر علماء التوحيد لتحقيقاته الاعتقادية، وحضر الصوفية لإشاراته وحقائقه.

هذه تركيبة طلاب الدرس، فكيف كان ترتيب الدرس، هذا هو الأهم وأريدكم اليوم أن تعزموا النية أن تكونوا من تلاميذ سيدنا الإمام الجنيد علّه يشفع لنا يوم القيامة.

اسمحو لي - معشر السادة - أن أذيع على حضراتكم على الموجات الإيمانية بعضاً من درس الإمام ها هو يحمد الله تعالى (فاحمدوه)، ها هو يصلي على سيدنا محمد ﷺ (فصلوا عليه) ، يقول:

علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، من لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء، ويأخذ به عن المتأدين أفسد من اتبعه . من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث (أي لم يفهم أحكامهما) لا يقتدى به في هذا الأمر، فالطريق مسدود إلا عن المقتفين آثار المصطفى: ﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني﴾ .

العبادة على العارفين أحسن من التيجان على رؤوس الملوك، وحسنات الأبرار سيئات المقربين، والتوحيد الخالص أن يرجع العبد إلى أوله فيكون كما كان قبل أن يكون.

(من أراد أن يتعلم فعليه أن يعمل بما يعلم) العلم يوجب لك استعماله، فإن لم تستعمله في مراتبه كان (حجة) عليك لا (حجة) لك. ولو أقبل صادق على الله ألف ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة (التفت إلى الدنيا) كان ما فاتته أكثر مما ناله. ولا يصفو القلب لعمل الآخرة إلا إن تجرد من حب الدنيا.

ثم عرّج الإمام بدرسه على التصوف وخاض فيه فقال: ما أخذنا التصوف عن القيل والقال لكن عن الجوع وترك الدنيا وقطع المألوف والمستحسنات، (لأن التصوف عند كثير من الناس عبارة عن التخلق بأشرف الأخلاق الحميدة من الورع والزهد والتوكل والرضا ونحوها، والبعد عن الأخلاق الذميمة من الرياء والكبر والعُجب والحسد ونحوها، فالإمام لا يبالي بقبيل عن فلان كذا، ولا بقال فلان كذا، مما يأتيه من أفواه الرجال، بل يمارس التصوف عملاً بالجوع والجد في الطاعات) وهو

القائل: طريقنا بني على أربع: لا تتكلم إلا عن وجود، ولا تأكل إلا عن فاقة، ولا تنم إلا عن غلبة، ولا تسكت إلا عن خشية. بالخشوع تذلل القلوب لعلام الغيوب، والإخلاص سر بين العبد وربّه لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده ولا هوى فيهلكه .

ونظر الناس فرأوا بين يدي الإمام سبحة، فقليل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟! فقال طريق به وصلت إلى ربي لا أفارقه. فهو قد وصل إلى الله ليس فقط بالعلم بل أيضاً بالذكر والطاعة.

وسئل: ما بال أصحابك إذا سمعوا القرآن لا يتواجدون بخلاف ما إذا سمعوا الرباعيات (الشعر) فقال: القرآن كلام الله وهو صعب الإدراك، والرباعيات كلام المحبين المخلوقين، وسبب اضطراب القلب عن السماع أنه تعالى لما خاطب الذرّ في الميثاق الأول بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ . استفرغت عذوبة سماع كلامه الأرواح فإذا سمعوا نغمًا طيباً حركهم لذكره. ثم قال: رأيت النبي في المنام فقلت له: ما تقول في السماع الذي نفعل ويحصل منا الحركات فيه، فقال: ما من ليلة إلا وأحضر معكم ولكن أبدؤوا بالقرآن واختموا به.

ثم سأله آخر فقال: إن من أهل المعرفة بالله من إذا وصلوا إلى الله تركوا الصلاة والعبادة فما رأيك بهم؟ فقال الإمام الجنيد: هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال عن بعض المكلفين، وهو عندي هفوة عظيمة والذي يزي ويسرق أحسن حالاً من الذي يقول هذا القول ! ولو أني بقيت ألف عام في الدنيا لم أنتقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بيني وبينها (أي لعجز أو مرض) ومن ثبتت له وصف المحبة يدوم على طرق باب المحبوب، (وها هو النبي مع ما أوتي من النبوة والرسالة والحب في الله وكذا خلفاؤه لم يتركوا الأعمال والعبادة) يقول الراوي يا سادة يا كرام: وكان في طرف المجلس غلام نصراني متنكراً. فقال: أيها الشيخ ما معنى قول رسول الله ﷺ ﴿اتقوا

فراصة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ﷻ قال: فأطرق الإمام أبو القاسم الجنيد ثم رفع رأسه وقال: أسلم فقد حان وقت إسلامك.
فأسلم الغلام.

وهكذا - معشر السادة - قضى الإمام حياته ما بين العلم والولاية، ما بين الشريعة والحقيقة حتى كانت ليلة من إحدى ليالي عام سبعة وتسعين ومئتين هجرية جهد الإمام في هذه الليلة بالعبادة والصلاة وقراءة القرآن، ورآه أصحابه يصلي ويكي ويسجد ويكي حتى ختم القرآن ، فقال له أحدهما: ارفق بنفسك يا أبا القاسم فقال: ما رأيت أحداً أحوج إليه في هذا الوقت، وما هو ذا تطوى صحيفتي ثم بدأ بختمه جديدة فما أن قرأ من البقرة سبعين آية، ما إن وصل الإمام إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ﴾ حتى سكت ونظر إليه تلميذه فرآه قد فارق الحياة.

وضجت بغداد بوفاة سيدها ، وخرج الناس كلٌ يريد أن يتبرك بالإمام وهو يدفن بجوار خاله السري ، وأحصى من خرج بجنائزه فبلغوا ستين ألفاً أو يزيد.
يقول أحد أتباعه (مُحَمَّد بن إبراهيم): رأيت الجنيد في المنام فقلت: ما فعل الله بك. فقال: طاحت تلك الإشارات، وغابت تلك العبارات ، وفنيت تلك العلوم ، ونفدت تلك الرسوم، وما نفعنا إلا ركعات كنا نركعها في الأسحار.
وهكذا إخواني كنت مع حضراتكم مع إمام عاش ستاً وسبعين سنة ، قضيتها مع حضراتكم بنصف ساعة هنا، مع إمام درّس في هذه المدرسة هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى السيد الأعظم وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله:

• الصلاة والسلام عليك •

• مصادر الإمام الجنيد : صفة الصفوة ٢/٦٥٢
شرح الرسالة القشيرية ١/١٣٩

(٦٦٧)

الإمام أبو بكر الشبلي

(٢٤٧ - توفي ٣٣٤ هـ)

الحمد لله المبدئ المعيد، الغني الحميد، ذي العفو الواسع والعقاب الشديد، من هداه فهو السعيد السديد، ومن أضله فهو الطريد البعيد، ومن أرشده إلى سبيل النجاة ووقفه فهو الرشيد كل الرشيد.

أحمد سبحانه وتعالى أن قسّم خلقه قسمين، وجعلهم فريقين، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَاعِلٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ذو العرش المجيد، يعلم ما ظهر وما بطن، وما خفي وما علن، وما هجن وما كمن، وهو أقرب إلى كل مرید من حبل الوريد.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله الداعي إلى التوحيد، الساعي بالنصح للقريب والبعيد، أشرف من أظلت السماء وأقلت البید.
اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه أولي المعونة والتأييد ، صلاة وسلاماً لا تزالان على كَرّ الجديدين في تجديد ، وسلم تسليماً كثيراً.

سير أعلام النبلاء ١٤ / ٦٦

طبقات الحنابلة ١ / ١٢٧

وفيات الأعيان ١ / ٣٧٣

طبقات الصوفية للسلمي ١٥٥

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

نحن اليوم أين؟ إلى أي بلاد الدنيا أسافر بكم؟ نحن اليوم في بغداد فَرَجَ الله عنها، بغداد التي تذخر بالعلماء، نحن قبل ألف ومئتي عام بالضبط، في عام ينتقل فيه موظف كبير من موظفي الدولة إلى داعية، نحن نرى في كل يوم داعية ينتقل ليكون موظفاً في الدولة، أما في الماضي فكانوا يتشرفون بانتقالهم من رجال متنفذين إلى دعاة مخلصين.

نحن اليوم نتحدث عن سيد من هؤلاء، عن تاج من تيجان الإسلام والتصوّف، زهد في الدنيا بعد أن أتت إليه صاغرة، وكان يبالغ في تعظيم الشرع المطهر ويعجب من قلب عبد عرف ربه ثم عصاه، علّمَ اشتهر شرفه، وسمت في جنان المعرفة غرفه، وأضاء كوكب زهده وديانته، ونما فرع ورعه وصيانتته، حتى صار أوحده زمانه علماً وحالاً، صار لا نظير له في مجاهداته ومعاملاته لربه، كان صوفيّاً حقّاً استوت حالاته، سفيراً وحضراً وغيبة ومشهداً.

إننا مع رجل امتزج الحب والتوحيد في نفسه فكان تاجاً على رأسه حتى قال فيه الإمام الجنيد: لكل قوم تاج، وتاج هؤلاء القوم الشبلي، ملك الحب أقطار نفسه، وشغله عن كل شيء سوى محبوبه، وهام في رياض الحب، وتاه في بیدائه، وانغمس في بحاره، وبقي في لجته إلى أن وافاه القدر المحتوم، كان شعاره في ذلك الحب صراط الأولياء. فكيف وصل الشبلي إلى هذا المقام؟

إننا - معشر السادة - مع الإمام أبي بكر الشبلي ومع الحلقة أربعة وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا على هذا الإمام.

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد هذا الإمام ونشأ في بيت عزّ وجاه، وأصله من بلدة شربلة، قرية من قرى سمرقند في بلاد خرسان، وكان والده حاجب الحجاب للخليفة

العباسي، وكان خاله أمير الأمراء بالاسكندرية، فهو ابن موظف كبير في الدولة العباسية.

وبدأ حياته في طلب العلم وحضر دروس العلماء ، وكتب الكثير من الحديث ورواه (السلمي) وتفقه على مذهب الإمام مالك (المنافعي) حتى غدا فقيهاً عالماً (الشذرات) وهو القائل عن نفسه (كتبت الحديث عشرين سنة وجلست الفقهاء عشرين سنة) وغدا حاجب الوالي في منطقته وأصبح له حلقة يدرّس فيها ويعظ حتى قال عنه أحد المؤرخين العلماء (أبو عبد الله الرازي): (لم أر في الصوفية أعلم من الشبلي).

ولأدلل على هذه القضية فإنني أدعوكم جميعاً لنحضر معاً مجلس الإمام الشبلي في بغداد، ها هو يسترسل في العلوم الشرعية ينتقل بينها ، يقتطف زهرة من الحديث الشريف ، وزهرة من التفسير، وزهرة من الفقه، ويمزج بين العلوم بشكل عجيب مما يدل على براعته في العلوم الشرعية، وما أن فتح باب الأسئلة بعد الدرس حتى انهالت عليه الأسئلة من كل صوب، وتظهر براعة الإمام في استحضار الإجابات ودقتها ، فاسمحوا لي أن أذيع على حضراتكم بعض هذه الأسئلة المختلفة:

ها هو رجل يسأل عن معنى قوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ فقال الشبلي: معناه ادعوني بلا غفلة أستجب لكم بلا مهلة.

وسأل آخر ما معنى قوله تعالى: ﴿قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم﴾ فقال: يغضوا من أبصار الرؤوس عما حرّم الله تعالى ويغضوا أبصار القلوب عما سوى الله تعالى.

وسئل عن آية: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ فقال: الرحمن لم يزل (قديماً) والعرش محدث (مخلوق) والعرش بالرحمن استوى (لولا الله لزال العرش والسموات) ﴿وهو الذي يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ .

ها هو آخر يسأله : ما هي أرجى آية في القرآن؟ فقال: هي قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ثم قال: إذا كان الله تعالى أطلق للكفار دخول الجنة بذكر لا إله إلا الله مرة واحدة، أترى من واطب عليها طول عمره كيف يُمنع من دخول الجنة وهو طاهر من نجاسة الشرك؟.

ثم قام آخر وسأله عن التَصَوُّف ما هو؟ فقال: بدء التصوف معرفة الله ، ونهاية التصوف توحيد الله (بدؤه معرفته ونهايته توحيده)، التصوف ضبط حواسك ومراعاة أنفاسك (السلمي).

لكنَّ بعض الناس في عصر الإمام الشبلي كانوا ينكرون على بعض الصوفية أحوالهم ويدَّعون أنهم جهلة في العلم، تركوا العلم والتفتوا للذكر لذلك كانوا يعترضون على الإمام الشبلي، وقد ذكر أنه مرَّ يوماً بإحدى الحلقات في المسجد، فرآه شيخ الحلقة، فقام له وأجلسه بجانبه والمعتضون ينظرون إلى فعل شيخهم، فأرادوا أن يظهروا لشيخهم أن الإمام الذي احترامه لا يفقه من الدين شيئاً ، فوجَّهوا سؤالاً إلى الإمام الشبلي وقالوا : إذا اشتبه على المرأة دم الحيض بدم الاستحاضة كيف تصنع؟ فأجاب الإمام أبو بكر بثمانية عشر جواباً، قام شيخ الحلقة وقبَّل رأسه وقال: يا أبا بكر ؟ أعرف منها اثنتي عشر وستة ما سمعت بها قط. وهنا خاب أمل السائل في أن ينسب العجز إلى الإمام الشبلي.

بل حاول بعض العلماء أن ينهى الناس عن الاجتماع بالإمام الشبلي والاستماع لكلامه، فصدف أن اجتمع بمجلس فيه الإمام، فأراد أن يخرجهم أمام أصحابه فسأله: كم في خمس من الإبل (كم فيها من الزكاة) فلم يردَّ عليه الإمام الشبلي لأنه عرف أن السائل يمتحنه وهو يعرف الجواب، فلما أكثر عليه السؤال قال له الإمام الشبلي: هل تريد أن أجيبك شرعاً أم حقيقة؟ أما في واجب الشرع فيلزم صاحب الإبل الخمسة شاة عنها، وأما عندنا أهل الله فيلزم أن يزكي بالإبل كلها. فقال له السائل: هل لك في ذلك إمام؟ قال: نعم. قال: من؟ قال: أبو بكر الصديق رضي الله عنه

أخرج ماله كله لله، فقال له النبي: ما خلّيت لعيالك؟ فقال: الله ورسوله. يقول الراوي يا سادة يا كرام: فرجع السائل وهو مبهور من علم الإمام الشبلي. والتفت الإمام إلى أصحابه وقال لهم: من خرج عن ماله كله لله فإمامه أبو بكر، ومن خرج عن بعضه وأمسك بعضه فإمامه عمر، ومن أخذ وأعطى وجمع لله فإمامه عثمان، ومن ترك الدنيا لأهلها فإمامه علي، وكل علم لا يؤدي إلى ترك الدنيا فليس بعلم.

أيها السادة: واستمر الإمام الشبلي مندفعاً نحو العلم حديثاً وفقهاً ثم ماذا؟ يقول عنه الإمام المناوي: (تفقه على مذهب الإمام مالك وكتب حديثاً كثيراً ثم شغلته العناية عن الرواية).

أسمعت شغلته العناية عن الرواية، عناية الله وجهته لغير وجهه في طلب المناصب، التقى بولي من أولياء الله يدعى خير النساج وافتتن به وبسلوكه وبحديثه، فقد كان الولي متجرداً إلى الله، وامتلاً قلبه بحبه وانتبه الشبلي إلى أن ما يسعى إليه ظل زائل، وانتفض من أعماقه انتفاضة دفعته مراحل في طريق الأتقياء، ومن الله عليه بجذبة من جذباته، فنزع من قلبه حب الرئاسة واستشرفت نفسه إلى سعادة من نوع آخر، رجع إلى البلدة التي كان حاجب الوالي عليها واعتزل الناس وغير حاشية الملك إلى حاشية أهل الله، فلزم الإمام الجنيد فغرق في المجاهدات والذكر والمحبة الخالصة، تاب على يدي الإمام الجنيد وبايعه على بيع الدنيا وشراء الآخرة، بايعه على ألا يخطر بباله الكون بل يبقى مع المكوّن، حتى قال عنه المؤرخون: (كانت مجاهداته في بدايته فوق الحد)، والمجاهدة تعني الخوف من الله والأمل في القبول والرجاء في الرضا، وصار ينطق بالحكمة لشدة إخلاصه في العبادة، واسمحو لي معشر الإخوة أن أنقل لكم بعض حكمه لعل الله تعالى ينقلنا إلى ديوان الأولياء كما نقل الإمام الشبلي:

يقول: (ذكر الله على الصفاء يُنسي العبد مرارة البلاء)، إن أحدكم يقول: توكلت على الله، وهو يكذب عليه، ولو توكل عليه لرضي بفعله.

لا تأمن على نفسك وإن مشيت على الماء حتى تخرج من دار الغرور إلى دار الأمن، إذا كنت قائماً بما أمرت تاركاً لتكلف ما كفيت فأنت كامل العقل، وإذا كنت بالله متعلقاً لا بأعمالك ، غير ناظر إلى سواه فأنت كامل المعرفة.

حتى إنه تمنى أن يفدي بنفسه أمة سيدنا مُحَمَّد ﷺ من النار، فقال: لو كان لي في يوم القيامة أمر لسألت الله أن يملأ جهنم مني وحدي لئلا يبقى متسع لغيري لأفدي بعض أمة سيدنا مُحَمَّد ﷺ . فرأى في نومه مولانا عز وجل يقول له: أما تستحي أن تقول ما قلت، إن كنت تتكرم على خلقي بما يضرك فأنا خالق الكرم وأولى أن أتكرم عليهم بما لا يضريني. (أتتكرم عليّ وأنا خالق الكرم؟).

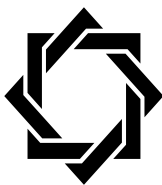
أيها الأحبة: ومشى الشبلي يوماً إلى أن جاء مسجد ابن مجاهد أحد علماء عصره فمرّ الشبلي على حلقتة فقام إليه ابن مجاهد تعظيماً واحتراماً، قال له أصحابه: أنت لم تقم للوزير لما جاءك! أتقوم للشبلي؟ فقال ابن مجاهد: ألا أقوم لمن يعظمه رسول الله؟ رأيت النبي في النوم فقال: يا بن مجاهد: إذا كان في غد فسيدخل عليك رجل من أهل الجنة فإذا جاءك فأكرمه. (وها أنا أكرمه لأن النبي أمرني بذلك).

يقول الراوي **يا سادة يا كرام:** فلما كان بعد شهر رأى ابن مجاهد النبي في المنام ثانية فقال: يا ابن مجاهد أكرمك الله كما أكرمت رجلاً من أهل الجنة، فقلت يا رسول الله: بم استحق الشبلي هذا منك؟ فقال: هذا رجل يصلي كل يوم خمس صلوات يذكرني إثر كل صلاة ويقرأ: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾** أفلا أكرم من يفعل هذا!!
إخوتي في الله:

وهكذا قضى الإمام الشبلي حياته زهداً ورعاً وحباً في الله ورسوله ، وأكبر كرامة له أنه كان مطبقاً للشرعية موافقاً لله في أوامره ونواهيه ، حتى السنن كان لا يتركها ولو كان مريضاً أشد المرض، وقد قام تلميذه يوضئه في مرض وفاته فنسي التلميذ

تخليل لحيته، يقول التلميذ: فقبض على يدي وأدخل أصابعي في لحيته يخللها
فبكيت وقلت: ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من
آداب الشريعة؟

عاش الشبلي سبعاً وثمانين سنة ومات سنة ٣٣٤ هـ ببغداد وقبره ظاهر يُزار.
وهكذا قلبت مع حضراتكم صفحة أخرى من صفحات الخالدين آملاً من الله
أن يجعلني في ميزان حسناتهم يوم القيامة، فمن أراد أن يكون معهم هناك فليبق معنا
هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية
إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك^(١).



(١) المصادر: أبو بكر الشبلي لعبد الحليم محمود. (صفة الصفوة ٢/٦٧٦)

طبقات الصوفية السلمي ٣٣٧.

(٦٦٨)

الإمام محمد الغزالي

(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ)

الحمد لله الذي زحزح همم الأولياء عن السكون إلى العاجلة، وشرح صدور السعداء لإيثار الآجلة، المنفرد بالكمال والكبرياء والجلال والبقاء والعز الذي لانفاذ له، القلوب تعرفه بصنعتة والرقاب خاضعة لعزته، والعقول في تعظيمه حائرة ذاهلة. أحمدته سبحانه وتعالى على ما أسبغ علينا من نعمة الكاملة. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ضمن الربح لمن عامله، وغفر زلات عباده عند المساء له، وقرب أحبابه فعيونهم في خدمته ساهره ، ينجيه كل منهم فيقول:

إلهي بك أستجير ومن يجير سواكا
فأرحم ضعيفاً يحتمي بحماكا
يارب قد أذنبت فاغفر ذلتي
أنت المجيب لكل من نادك
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله إلى أمة غافله، ليدمر حزب الشيطان بالمكافحة والمناضلة، فأوضح كل مشكله ، وبين حكم كل نازله، حتى أضحت شمس الإيمان مشرقه، ونجوم البهتان آفله.
اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه صلاة دائمة متواصلة، وسلم تسليمًا.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أحضر وإياكم اليوم مباراة علمية، ليست مباراة في الرياضة أو الغناء، فهي حرام، تكشف فيه العورات ، ولكنكم لا تعرفون المباريات العلمية التي كانت تسمى المناظرات، ويجتمع لها الناس ويشرف عليها الأمراء وتقام في القصور كالمباريات التي سألحضرها معكم اليوم ، فقد أقيمت في قصر الوزير نظام الملك في منطقة نيسابور.

هذا القصر كان يُدار منه أكثر من نصف بلاد الإسلام، هذه المباريات العلمية أو المناظرات قد تكون في فن من الفنون كالمناظرات النحوية الفقهية وقد تشتمل على أكثر من فن، كما هي اليوم، فمباراتنا اليوم عجيبة حقاً، لأنها مباراة في كل علم.

والمتبارون العلماء جميعاً ضد رجل واحد، أتى هذا القصر للمرة الأولى، حضر العلماء جميعاً ، ووقفوا ضد شاب عمره ثلاث وثلاثون سنة، ولكن اسم هذا الشاب كان قد ملاً الأسماع وسارت بتأليفه الآفاق، كان اليوم الأول للمناظرة في فقه الشافعية أصوله وفروعه، وأوردوا على الشاب غرائب المسائل ، وحضر الوزير نظام الملك وانبهر بأجوبة هذا الشاب، وعجب أكثر عندما أقرّوا للفتى بالإمامة في المذهب ، وبايعوه على رئاسة الشافعية في تلك الديار.

وفي اليوم الثاني ناظر علماء الكلام أي العقيدة، في عصر كان العصر الذهبي في العقيدة، كانت مناظرة هائلة استمرت ساعات انتهت بالإقرار له بأنه إمام في العقيدة، وكان اليوم الثالث موعداً لمناظرة في الفلسفة اليونانية، جاء الفلاسفة الذي قرؤوا كتب أفلاطون وأرسطو متعالين شامخين بأنوفهم كأنهم يترفعون عن الوقوف أمامه ظانين أنه لم يقرأ فلاسفة اليونان ولا شروح فلاسفة الإسلام ، وبدأت المناظرة وما زال الفلاسفة يتضاءلون ويصغرون ويتضاءلون ويصغرون حتى رأوا هذه الفقيه أعرف منهم بمذاهب الفلاسفة وأشد إدراكاً لها، واستمرت المناظرات العامة أياماً قهر فيها هذا الشاب وغلب المناظرين وبويع إماماً على الإطلاق وأعجب به الوزير نظام الملك فقرر تعيينه أستاذاً في الجامعة النظامية الكبرى في بغداد.

لعلكم تسألون من هذا العالم الشاب؟ وهل كانت له هذه المزايا كلها أم أنت

تبالغ وتتهيل! وكيف صارت له هذه المكانة؟

ثقوا - يا إخوتي - إني لا أبالغ ولا أتهيل ، وإنه أكبر مما ما وصفت لكم، وأنه أحد العشرة الكبار جداً من أرباب العلم، وهو أقدر من لخص الفلسفة اليونانية ،

وأقدر من ردّ عليها أيدها وقوّاهـا ثم ضربها ضربة لم تقم لها بعده قائمة أبداً، كيف فعل ذلك؟!!

ألّف كتابه (مقاصد الفلاسفة) ألّخص فيه الفلسفة ووضحها ، فأقبل عليه الفلاسفة ليتلمذوا على يديه، ثم ألّف كتابه (تخافت الفلاسفة) فكان هذا الكتاب كالضربة القاضية في الملائمة ، لا يقوم بعدها الخصم أبداً.

وقد انفرد هذا الإمام بميزة لم تكن لسواه، فقد بلغ في العلوم العقلية مرتبة لا تضاهي وصار مدرّساً في الجامعة النظامية في بغداد، وألّف الكتب العظيمة التي انتشرت في الدنيا وهو ما زال بعد على قيد الحياة، ثم وجد أن ذلك كله لم يرض قلبه عن نفسه فترك كل هذا الجاه العلمي العريض وتفرّغ للعبادة والتأمل والتصوّف وألّف كتابه العظيم إحياء علوم الدين كتاب ليس له نظير في التربية الإسلامية.

أيها السادة:

أعتقد أنكم قد عرفتم من هذا الإمام الشاب، إنه رباني الأمة بالاتفاق، وقطب عصره بلا منازع ، ومجتهد زمانه وأوانه، سيدنا الإمام الغزالي حجة الإسلام ومع الحلقة ثمانية وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً أن تترضوا عن سيدنا الإمام الغزالي:

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: كان اسم الغزالي بركة عليه في كل حياته، إذا أن اسمه هو مُحمَّد بن مُحمَّد بن مُحمَّد الغزالي، ولد بطوس سنة ٤٥٠ هـ، وكان والده يعمل بغزل الصوف وإليه نسب الغزالي، ولم يكن والده عالماً ولكنه كان كلما مرّ على حلقات العلم فيه يتأسّى على حاله وجهله ويسأل الله تعالى أن يرزقه ولدأً فقيهاً، وإن جلس في درس الوعظ يتمنى أن يرزقه الله ولدأً واعظاً.

واستجاب الله له فرزقه ولدين أحدهما : صار أعظم الفقهاء ومجتهد وقته وهو سيدنا الإمام أبو حامد مُحمَّد الغزالي، وآخر : اسمه الإمام أحمد من أكبر الوعاظ والصوفية، طغت عليه شهرة الإمام أبو حامد، لكن والدهما أدركته المنية وهما ما يزالان صغيرين.

وكان له صديق صوفي عهد بهما إليه ، فقام بالإنفاق عليهما من مالهما حتى نفذ، ورأى بنور الإيمان أن للفتين مستقبلاً عظيماً، فقال لهما: قد أنفقت عليكما كل ما كان لكما من مال ، وأنا رجل فقير فأرى أن تلتحقا بمدرسة من هذه المدارس الخيرية لتأويكما وتنفق عليكما، فدخلتا المدرسة لأجل السكنى والنفقة لا لأجل العلم خاصة، وفي ذلك يقول الإمام الغزالي: . أردنا هذا العلم للدنيا فأبى الله إلا أن يجعله للآخرة .

كانت هذه المدارس يا ناس تعلّم طالب العلم العلوم الشرعية كما هي المدارس الشرعية اليوم كمعهدنا التهذيب والتعليم ومعهد الفتح ومعهد الأمانة ودار الحديث وغيرها، هذه المدارس بناها الأخيار من أهل الخير تقدم للطلاب الفراش والطعام والشراب والكسوة والنفقة والكتب المجانية، وتحمل هموم الطالب وتعلّمهم مع العلم الأخلاق، والعلم بلا أخلاق شر على صاحبه، الجهل خير منه.

وهنا - أيها الإخوة - يبدأ سيدنا الإمام الغزالي مرحلة جديدة من أهمها الدراسة على الشيوخ وأول شيخ تأثر به الإمام الغزالي أيما تأثير إمام الحرمين الجويني ، لازمه مدة طويلة وقلّده بعدها وساماً عظيماً بقي حياً ، أبد الدهر للأجيال اللاحقة، قال: الغزالي بحر مغرق .

وبعد سنوات الدراسة الطويلة التي بلغت الثلاثين سنة قام بالمناظرة العلمية التي تولى على أثرها التدريس في الجامعة النظامية حتى ضربت بعلمه الأمثال وشدّت إليه الرحال، ونال لقب حجة الإسلام.

إخوتي في الله:

اكتشف الإمام الغزالي بعد أن أصبح إمام الدنيا أن نيته في التدريس الذي كان يمتننه لم تكن خالصة لوجه الله ، وأدرك أنه هالك إن لم يتدارك نفسه فوقع في صراع بينه وبين التدريس والاعتزال، فأصابه بما يسميه علماء طب النفس بالحبسة الكلامية أو عقال المدرس، وتلك حالة يبلغها المرء حينما يتراوح بين أمرين كلاهما صعب عليه تحقيقه، فأقفل الله عليه لسانه، فكان لسانه لا ينطق بكلمة ، وتداعى بالمرض النفسي فحار به الأطباء، فدبّر السفر إلى الشام وتلطّف بالحيل ليخرج من بغداد، فرحل إلى الشام ودخل مدينتنا دمشق أثناء مروره إلى بيت المقدس ، عكف في قبة الصخرة وأغلق عليه بابها ، ثم عاد إلى دمشق إلى الجامع الأموي وسكن الزاوية الغربية التي سميت باسمه.

اعتزل الناس ولم يعرف بشخصه للناس ، ولازم الخلوة والرياضة والمجاهدة عشر سنوات، يذكر الله ويتعبده كما يفعل الصوفية، وفي هذا المكان الأموي ألف كتابه العظيم إحياء علوم الدين.

وكان يدخل الجامع بزي العوام حتى لا يعرفه أحد، عشر سنوات، ومرة دخل فرأى قروياً يسأل العلماء عن فتوى، ويدور عليهم من حلقة إلى حلقة، فلم يعرفوا جوابها، فناده الإمام الغزالي وسأله: ما مسألتك؟ فنظر إليه الرجل وقال: المفتون لا يعرفوها أفتعرفها أنت؟ قال: هاتما، فألقاها عليه، فأجابه الإمام الغزالي عليها، فطار بها الرجل إلى المفتين ومرّ على الحلقات وقال لهم: العامي يعرف جوابها وأنتم لا تعرفون، فأخبرهم عنه، فقاموا إليه جميعاً وحلفوه ليعرفوا من هو، فقال لهم بتواضع: مُحمّد الغزالي، فقامت قائمة القوم فرحاً واحتفلوا به وسألوه أن يعقد لهم مجلساً من الغد، فبحثوا عنه في الغد فلم يجدوه ، لأنه كان قد هرب في

الليل ليحج إلى بيت الله الحرام ويكتسب من بركات سيدنا مُحمّد ﷺ.

ثم عاد إلى وطنه بغداد، عاد بقلب جديد ونور جديد، عاد ليصرِّح لكل من حوله: أن الصوفية هم السالكون لطريق الله خاصة، وأن طريقهم أقرب الطرق إلى النبي، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، لأن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرها وباطنها مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها تطهير القلب بالكلية عما سوى الله، ومفتاحها هو استغراق القلب بالكلية لذكر الله، وآخرها الفناء بالكلية لله تعالى. يقول الإمام الغزالي في رسالته: أيها الولد: خلاصة العلم أن تعلم أن الطاعة والعبادة ما هي، واعلم أنهما متابعة الشارع في الأوامر والنواهي بالقول والفعل، فالعلم والعمل بلا اقتداء الشرع ضلالة.

كانت أيام الغزالي في الخلوة قد علمته الإخلاص، كانت حاله كحال سيدنا رسول الله ﷺ حين كان يقبل على جبل حراء فيخلو إلى ربه يتعبّد حتى قالت فيه العرب: إنّ مُحمّداً عشق ربه.

عاد الإمام الغزالي بهذه الروح الشفافة لينشر العلم مع الإخلاص ويصلح به نفسه والناس، عقد مجلسه ببغداد وأملى الإحياء على تلامذته، لكنه لم يستمر هذه المرة في بغداد لأنه استقال وعاد إلى بلده طوس، فأنشأ بها تكية ومدرسة وبقي في الذكر والعبادة والتعليم وحفظ الأحاديث الصحاح التي لو قدّر له أن يعيش لأعاد نظره في الإحياء ثانية، لكن تلميذه فوجئ به يوم الاثنين بعد أن صلّى الصبح يقول: إلي بالكفن فأخذه وقبّله ووضع على عينيه وقال: سمعاً وطاعة للدخول على الملك، ثم مدّ رجليه واستقبل القبلة ومات.

مات سنة ٥٠٥ هـ بعد أن صار قطب الوجود. يقول العارف بالله سيدنا أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: رأيت النبي ﷺ في المنام ومعه سيدنا موسى وسيدنا عيسى وهو يباهي بالإمام الغزالي ويقول: أفي أمتكما خبر مثل هذا؟ قالوا: لا.

لا مثيل للإمام الغزالي لا هنا ولا هناك ، لا على الصعيد العربي ولا الغربي، لقد كان نسيج وحده، فمن أراد أن يلتقي به مع الحبيب الأعظم هناك، فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا؟ هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.

صَلَّى
عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ

المصادر

رجال من التاريخ الشيخ الطنطاوي رحمه الله

البداية والنهاية ١٢/١٧٣

اتحاف السادة المتقين ١/٦

سير أعلام النبلاء ج ١٩ /

(٦٦٩)

سيدنا عبد القادر الجيلاني

(٤٧٠هـ - ١١٦٥هـ)

الحمد لله الذي تفرّد بالعرّ والجلال، وتوحد بالكبرياء والكمال، تفضّل على المطيعين بلذيد الإقبال، نعمهم في الدنيا بمعرفته وخدمته، وأكرمهم في العقبى برؤية وجهه ، فلهم النعيم في الحال والمآل.

وأملى للعصاة بإدامة النعم فظنّوا الإمهال إهمال، سبقت قسمته فما يغني الاحتيال ، فتدلّ بين يدي مولك أيها الفقير، واقرع الباب بدوام الابتهاال، فهو الحَكَم الرؤوف الرحيم الذي لا تخيب لديه الآمال.

وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، لا نفاذ لملكه ولا زوال، يعلم ما أضمره العبد من السر وأخفى منه ما لم يخطر على بال.

وأشهد أنّ سيدنا مُحَمَّدًا عبده ورسوله الذي أيّده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة وزينه بأشرف الخصال ، ورفعته إلى المقام الأسنى فكان قاب قوسين أو أدنى وآتاه الجمال.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظم على سيدنا ومولانا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه صلاة دائمة بالغدو والآصال، وسلم تسليما.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

من منا لا يعرف ملك الزمان، وإمام المكان، من منا اليوم لا يعرف القائم بأمر الله والوارث بكتاب الله، من منا لا يعرف نائب سيدنا رسول الله ﷺ ؟ أتعرفون اليوم من نزور؟ سأزور معكم قطب زمانه وسيد أوانه الذي كان درسه ببغداد يحضره سبعون ألف رجل كلهم تابوا على يديه.

سأدخل معكم على مجلس ما دخله عبد إلا جعله الله تقياً نقياً صالحاً مهدياً، فهل أنتم مستعدّون؟ إن لم تكونوا مستعدّين فيني لا أستطيع أن أتأخر عنه، لأنني طالما تمنيت زيارته من صغري عندما كان والدي رحمه الله يحدّثني عنه. تعالوا لنسمع كلمة من فمه الطاهر ما قالها أحد من الأولياء ولا الأبدال ولا النقباء ولا النجباء ولا الأقطاب، ما قالها إلا هو، ها هو يقول: **قدمي هذه على رقبة كل ولي لله.**

أتدرون ماذا فعل الأولياء كلهم في عصره؟ أتدرون ماذا فعل سيدي أحمد الرفاعي، وسيدي الشيخ رسلان الدمشقي وسيدي أبو مدين الغوث أمام مريديهم، لقد مدّ كل منهم عنقه وقال: على رقبتني، فاستغرب المريدون الجالسون مع سيدي أحمد الرفاعي في العراق ، وسيدي الشيخ رسلان بدمشق ، وسيدي أبي مدين الغوث في المغرب، سألو ساداتنا الأولياء هؤلاء فقال كل منهم: الآن ببغداد الشيخ عبد القادر الجيلاني قال:

قدمي هذه على رقبة كل ولي لله، فمددنا أعناقنا تصديقاً لكلامه.

أيها الإخوة الكرام:

أرحب مع حضراتكم بقطب الأولياء الكرام ، وشيخ المسلمين والإسلام ، ركن الشريعة وعلم الطريقة ، وموضح أسرار الحقيقة ، حامل راية علماء المعارف والمفاخر، شيخ الشيوخ، وقدوة الأولياء العارفين الأكابر أستاذ الوجود أرحب بسيدي وجدي الشيخ **عبد القادر الجيلاني** بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن مُحمَّد بن داود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن سيدنا الحسن بن سيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا مُحمَّد ﷺ .

عبدك فوق المعالي رتبة	وله المحاسن والفخار الأفخر
وله الحقائق والطرائق في الهدى	وله المعارف كالكواكب تزهر
وله الفضائل والمكارم والندا	وله المناقب في المحافل تنشر
وله التقدم والمعالي في العلا	وله المراتب في النهاية تكثر
غوث الورى غيث الندى نور الهدى	بدر الدجى شمس الضحى بل أنور
قطع العلوم مع العقول فأصبحت	أطوارها من دونه تتحير
ما في علاه مقالة لمخالف	فمسائل الإجماع فيه تسطر

ومع الحلقة تسعة وسبعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن إماننا سيدي عبد القادر الجيلاني.

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان:

ولد جدي سيدنا عبد القادر بجيلان من طبرستان^(١) سنة ٤٧٠ هـ وقدم بغداد شاباً سنة ٤٨٨ هـ، وتفقه حنبلياً على القاضي أبي سعدة المخرمي (ت ٥١٣ هـ) وغيره حتى أحكم الأصول والفروع والخلاف المذهبي ، ولازم الأدب على أبي زكريا التبريزي والإمام حماداً بن مسلم الدباس (الذي انتهت إليه تربية المريدين ببغداد وانهقد عليه الإجماع ، لأنه من أهل الكشف) لازم عليه الخلوة والرياضة والسياسة والمجاهدة والسهر والمقام في الصحراء، وأخذ عليه علم الطريق.

ثم إن الله تعالى أظهره للخلق وأوقع له القبول العظيم وعقد مجلس درسه سنة ٥٢١ هـ، وأظهر الله الحكمة على لسانه، وبدأ يصنّف في الفروع والأصول.

(١) تحت مدائن كسرى.

وقوي بالاشتغال بالتدريس حتى نقلوا عنه (الطبقات الكبرى للشعراني) فقالوا: "كان يتكلم في ثلاثة عشر علماً وكانوا يقرؤون عليه في مدرسة درساً من التفسير ، ودرساً من الحديث ، ودرساً من المذهب ، ودرساً من الخلاف المذهبي، وكانت القراءة عليه طرقي النهار في التفسير وعلوم الحديث ، والمذهب والأصول والنحو . وكان يقرأ بالقراءات بعد الظهر ، ويفتي على مذهب الإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل وكانت فتواه تُعرض على العلماء بالعراق فتعجبهم أشدّ الإعجاب . رفع إليه مرة سؤال : في رجل حلف بالطلاق الثلاث أنه لا بدّ أن يعبد الله عز وجل عبادة ينفرد بها دون جميع الناس في وقت تلبسه بها ، فماذا يفعل من العبادات ؟! فأجاب على الفور :
- يأتي مكة ويخلّي له المطاف ، ويطوف سبعاً وحده (سبعة أشواط) وينحلّ يمينه.

فأعجب علماء العراق ، وكانوا قد عجزوا عن الجواب عنها . حتى غدا إمام الحنابلة ، وشيخهم في عصره .
يبدأ درسه بحتم القرآن كاملاً بين أصحابه ، ثم يلقي درساً يفهمه مريدوه ، وتزاحم عليه الناس حتى ضاقت عليه مدرسته فخرج منها إلى سور بغداد ، يستند إلى جدار مدرسته ليلقي درسه والناس بين يديه ، فإذا دخل وقت الصلاة صلّى بهم الفريضة إماماً ، أتعرفون ماذا كان يفعل بعد الدرس كل ليلة ، كان ﷺ يأمر كل ليلة بممدّ البساط ، ويأكل مع الأضياف ويجالس الضعفاء ، ويصبر على طلبة العلم، لا يظن جليسه أن أحداً أكرم عليه منه ، ويتفقد من غاب من أصحابه ويسأل عن شأنهم ، ويحفظ ودّهم ، ويعفو عن سيئاتهم ، ويصدّق من حلف له ، ويخفي علمه فيه (قلائد الجواهر) .

يحدّثنا سيدنا عبد القادر فيقول: كانت تأتيني الإلهامات في المنام، كنت أؤمر وأُنهى في النوم واليقظة وكان يغلب عليّ الكلام ويزدحم على قلبي إن لم أتكلّم به،

حتى أكاد أختنق ولا أقدر أن يسكت. وكان يجلس عندي رجلان وثلاثة، وتسامع الناس وازدحم عليّ الخلق حتى صار يحضر مجلسي نحو من سبعين ألفاً.

وكان يقول: أراد الله مني منفعة الخلق، فقد أسلم على يدي أكثر من خمسمئة ، وتاب على يدي أكثر من مئة ألف. ففاق أهل زمانه في علوم الدين وكانت له القدم الراسخة في التصوف حتى عرفت طريقته بالقادرية. وسبب إقبال الناس عليه أن طريقته كانت سهلة على المسلم ومفهومة وتتفق مع روح الإسلام، حتى أشاد به علماء الأمة منهم ابن كثير الدمشقي لقيامه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وزهده ومكاشفاته وورعه وصلاحه، كما تأثر به ابن تيمية (الذي كان يحمل على شطط الصوفية) وقال عن طريقته: إنها الطريقة الشرعية الصحيحة، فما هي هذه الطريقة التي أشاد بها العلماء؟

أريدكم - أيها الإخوة - أن تعرفوا أن سيدنا الشيخ عبد القادر هو أول من نادى بالطرق الصوفية وأسسها وكان يقول: إن التصوّف من الصفاء من أدران النفس الأمّارة بالسوء، وأتّه الصّدق مع الحق وحسن الخُلُق مع الخلق. فعنده التصوف هو الأخلاق، من زاد عليك بالأخلاق فقد زاد عليك بالتصوّف، والصوفي يجب أن يكون في كلّ أحواله على ثلاثة أمور: أمر يمثله، ونهي يجتنبه، وقَدَرٌ يرضى به. فهذه الثلاثة يجب على الصوفي القادري أن ينطبع بها ليزهد في الدنيا ويفنى عنها.

يقول سيدنا الإمام الشعراوي عنه : " كانت طريقته التوحيد وصفاً وحكماً وحالاً وتحقيقه الشرع ظاهراً وباطناً "

والمتصوّف لا ينبغي أن يخترع لنفسه عبادات وصلوات لم يكتبها الله تعالى عليه، يعني باختصار: التصوف عند سيدي عبد القادر أن يلتزم الصوفي الكتاب والسنة

التزاماً حرفياً، فكل حقيقة يتصف بها الصوفي لا تشهد لها الشريعة الغراء فهي زندقة.

واسمعوا إليه وهو يقول " طُرْ إلى الحق عز وجل بجناحي الكتاب والسنة ، ادخل عليه ويدك في يد الرسول ﷺ ، اجعله وزيرك ومعلمك ، دع يده تزينك وتمشطك وتغْرِضُك عليه " . ويقول منكراً على من يعتقد أن التكاليف الشرعية تسقط عن السالك في حال من الأحوال : " ترك العبادات المفروضات زندقة ، وارتكاب المحظورات معصية ، لا تسقط الفرائض عن أحد في حال من الأحوال " (الرباني ١١)

" اتبعوا ولا تبتدعوا ، وأطيعوا ولا تخالفوا " (الطبقات الكبرى للشعراني ١٢٩)
وأريدكم اليوم أن تحفظوا الوصايا السبعة التي كانت تقوم عليها الطريقة القادرية:

- ١ - مجاهدة النفس عن هواها.
- ٢ - التوكل على الله.
- ٣ - حسن الخلق مع الناس.
- ٤ - الذكر لله تعالى.
- ٥ - الصبر على قضائه.
- ٦ - الرضى بقدره.
- ٧ - الصدق في كل أمره.

وأنا أسأل أليست هذه الوصايا السبعة من عيون الشريعة الغراء؟ أليس هذا هو مقام السالكون إلى الله؟ إن سيدنا الشيخ عبد القادر يريد من المريد عنده أن يكون عبد الأمر الإلهي وليس عبد هواه، يريد ما يريده الله تعالى، لا ما تريده نفسه الأماره بالسوء، هذا هو عين التوحيد، لذا كان ﷺ يقول لمريديه: الخلق حجابك عن نفسك، ونفسك حجابك عن ربك، ما دمت ترى الخلق لا ترى

نفسك، وما دمت ترى نفسك لا ترى ربك.

إخوتي في الله:

بهذه الشفافية الشرعية، وبهذه الروح النورانية وصل سيدنا عبد القادر الجيلاني إلى الولاية القطبية ، وظهرت الكرامات على يديه ، والتي قال عنها الفقيه الحنبلي ابن قدامة (٥٤١ - ٦٢٠ هـ) لم أسمع عن أحد يحكى عنه من الكرامات أكثر مما يحكى عن الشيخ عبد القادر، ولا رأيت أحداً يعظمه الناس للدين أكثر منه.

وقال عنه سيدنا العز بن عبد السلام الفقيه الشافعي : "ما نقلت إلينا كرامات أحد بالتواتر إلا الشيخ عبد القادر"

وقال سيدنا الإمام النووي (في كتابه بستان العرفين) : " ما علمنا فيما بلغنا من الثقات الناقلين كرامات الأولياء أكثر مما وصل إلينا من كرامات القطب شيخ بغداد محيي الدين عبد القادر الجيلاني رضى الله عنه ، "

جلس جماعة يتحدثون أن الذباب لا يقع على سيدنا الشيخ عبد القادر، فأتاه واحد منهم يسلم على الشيخ في مجلسه فالتفت إليه مولانا الشيخ عبد القادر وقال له: إيش يعمل عندي الذباب، لا دبس الدنيا عندي ولا غسل الآخرة. وقال آخر: كنت وأنا شاب أقرأ النحو وأسمع الناس يصفون حُسن كلام الشيخ عبد القادر ، فكنت أريد أن أسمع ولا يتسع وقتي فاتفق أني حضرت يوماً مجلسه فلما تكلم لم أستحسن كلامه ولم أفهمه وقلت في نفسي: ضاع اليوم مني، فالتفت إلى ناحيتي فقال: ويلك تفضّل النحو على مجالس الذكر وتختار ذلك؟ اصحبنا نصيرك سيبويه (الله يفتح عليك ببركتنا).

وجاء حفيد الوزير بن هبيرة إلى جدّه الوزير يستأذنه أن يزور مولانا الجيلاني فأذن له وقال: خذ هذا المبلغ من الذهب وأعطه للشيخ، فلما نزل مولانا الجيلاني عن المنبر يوم الجمعة سلّم عليه حفيد الوزير، وتحرّج من دفع الذهب إليه أمام الناس، فقال: هات ما معك ولا عليك من الناس وسلّم لي على الوزير. أمطرت السماء مرة

وهو يعطي الدرس فتفرق بعض أهل المجلس ليتقوا المطر ، فرفع رأسه وقال : أنا أجمع عليك وأنت تفرق علي قال: فسكت المطر عن المجلس وبقي على حاله يقع خارج المدرسة ولا يقطر على المجلس قطرة واحدة .

كان أحد شيوخ الصوفية الكبار وهو الشيخ عمر السهروردي يشتغل بعلم الكلام في شبابه وكان عمه يزجره ، فأتيا يوماً إلى الإمام سيدي عبد القادر فشكى عمه للإمام ابن أخيه وأنه مشتغل بعلم الكلام . فنظر سيدنا عبد القادر إليه وسأله عن الكتب التي قرأها . (فلم تعجبه) قال فمر بيده المباركة على صدر السهروردي ، يقول فوالله مانزعها وأنا أحفظ من الكتب لفظة . وأنساني الله مسائلها وأقر الله في صدري العلم اللدني في الوقت العاجل وقمت بين يديه وأنا أنطق بالحكمة وقال لي: يا عمر أنت آخر المشهورين في العراق .

وقال رجل يدعى الجباني : كنت أسمع كتاب حلية الأولياء على ابن ناصر ، فرق قلبي وقلت في نفسي أشتهي أن أنقطع عن الخلق في زاوية وأشتغل بالعبادة ، ومضيت وصليت خلف الشيخ عبد القادر فلما صلى جلست بين يديه فنظر إلي وقال : إذا أردت الانقطاع فلا تنقطع حتى تتفقه وتجالس الشيوخ وتتأدب بهم ، فحينئذ يصلح لك الانقطاع ، وإلا فتمضي وتنقطع قبل أن تتفقه وأنت فريخ ما ريشت ، فإن أشكل عليك شيء من أمر دينك تخرج من زاويتك وتسأل الناس عن أمر دينك ، ما أحسن صاحب الزاوية أن يكون كالشمعة يستضاء بنورها .

ودخل عليه الإمام علي بن الهيثي فوفاه فوق سطح مدرسته يصلي الضحى فنظر إلى الفضاء فوجد أربعين صفاً من الأولياء واقفين في كل صف سبعون رجلاً ، فقلت لهم: ألا تجلسون؟ فقالوا: لا نجلس حتى يقضي القطب صلاته ويأذن لنا فإن يده فوق يدينا وقدمه على رقابنا ،

ولما سلم الإمام أقبل القوم يسلمون عليه ويقبلون يديه ، يقول: (ابن الهيثي) ما وجد الإمام عبد القادر في مكان إلا و يقول سيدنا عبد

القادر ﷺ : خرجت في بعض سياحتي إلى البرية ومكثت أياماً لا أجد ماءً فاشتدّ بي العطش فإذا بغمامة تظللني وينزل علي منها شيء يشبه الندى حتى ترويت ، ثم رأيت ، نوراً أضاء حولي ، وبدت لي صورة ونويت منها : يا عبد القادر أنا ربك ، وقد حللت لك المحرمات ، فقال سيدنا عبد القادر : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم فإذا بذلك النور ظلام ، وتلك الصورة دخان ، وإذا هو إبليس ، وإذا بإبليس يحبيه : يا عبد القادر نجوت مني بعلمك ، وبحفظ ربك ، وصدقك في أحوال منا زلاتك ، ولقد أغويت بمثل هذه الواقعة سبعين من أهل الطريق .

وسئل الإمام الجبلائي بم عرفته أنه شيطان ، فقال بقوله : قد حللت لك المحرمات .

لكن حدثاً أجلاً وقع للإمام أثناء وجوده في الدرس . فقد اعتدى كافر في الهند على امرأة مسلمة يريد هتك عرضها ، وكانت المرأة تسمع عن كرامات سيدنا الجبلائي ، فنادت : اللهم أنجدي بالجبلائي يا جبلائي الغوث الغوث ، وإذا بالإمام في الدرس يتناول فردة قبقابه فيرمها نحو الهند فيقتله ، وهكذا يثبت لنا حديث البخاري "وما زال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ..."

معشر الإخوة :

عاش جدي الجبلائي تسعين سنة فلما حضره الأجل أوصى ولده ومن حوله فقال : عليك بتقوى الله وطاعته ، ولا تخف أحداً ولا ترجه ، وكل الحوائج كلها إلى الله عز وجل واطلبها منه ، ولا تثق بأحد سوى الله عز وجل ، ولا تعتمد إلا عليه سبحانه : التوحيد . التوحيد . التوحيد . مروا بأخبار الصفات كما جاءت ، الحكم يتغير والعلم لا يتغير ، الحكم ينسخ والعلم لا ينسخ ، لا تبغض علم الله بحكمه .

ثم قال : قد حضر عندي غيركم فوسعوا لهم وتأدبوا معهم ، ههنا زحمة عظيمة ، ولا تضيقوا عليهم المكان ، وصار يمد يده ويرفعها عليكم السلام ورحمة الله وبركاته ،

هو ذا أجي إليكم ، استعنت بلا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله ﷺ ، وانتقل إلى جوار الله سنة ٥٦١ هـ وشيعه أهل بغداد وخلق لا يحصون من الأبدال والأولياء الغائبين والحضار ، ودفن هناك في مدرسته ، فمن أراد أن يجتمع به هناك ، فليبق هنا ، وما أدراك ما هناك ، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ •

صلى الله
عليه
وسلم

• مصادر خطبة سيدنا عبد القادر :

. رجال الفكر والدعوة في الإسلام أبو الحسن الندوي دار ابن كثير ص ٢٣٥

. قلائد الجواهر في مناقب سيدنا عبد القادر الجيلاني مُحَمَّد بن يحيى الشافعي الحنبلي

. طبقات الحنابلة لابن رجب

. إمام الحنابلة وتاج الأولياء مُحَمَّد سليمان الطيب

. سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٤٣٩

(٦٧٠)

الإمام أحمد الرفاعي

(٥١٢ - ٥٧٨ هـ)

الحمد لله الصبور الشكور، العلي الكبير السميع البصير العليم القدير، شملت قدرته كل مخلوق، وجرت مشيئته في خلقه بتصاريف الأمور، قدّر مقادير الخلائق وآجالهم وكتب آثارهم وأعمالهم وقسم بينهم معاشهم وأحوالهم، وجعل منهم الأنبياء والعلماء والأولياء والعامة، وأعطاهم ما يشاؤون ومنحهم ما يريدون فهو (يختص برحمته من يشاء) وهو العزيز الغفور.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله جلّ عن الشبيه والنظير، وتعالى عن الشريك والظهير ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله وخيرته من بريته ، وصفوته من خليقته، وأمينه على وحيه أعرف الخلق به وأعلاهم عنده منزلة وأوسعهم عنده شفاعاة، بعثه إلى الإيمان مناديا، وإلى الجنة داعيا وفي مرضاته ساعيا وبالمعروف آمرا وعن المنكر ناهيا فبلغ رسالاته ربه وصدع بأمره وقام لله بالصبر والشكر حق القيام حتى بلغ رضاه.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على هذا النبي الكريم والسيد السند الرؤوف الرحيم سيدنا ومولانا محمد ، وعلى آله وأصحابه وأتباعه وأنصاره وكل من وحد الله وعرف به ودعا إليه ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر السادة الكرام:

قلما يجتمع المسلم في عصره بالأولياء أو يلتقي بهم، واليوم أدعوكم لا لتلقي بولي، بل بسيد الأولياء بل هو أحد الأقطاب الأربعة الذي أجمعت الأمة على جلالته، وأنهم أركان الولاية العظمى، أدعوكم لتكتحل أعيننا بمراى الإمام القدوة

العابد الزاهد شيخ العارفين، رجل من أحفاد الحبيب الأعظم، نلتقي لنقبل يد سيدنا أبي العباس مولانا تاج الأولياء سيدنا الشيخ أحمد الرفاعي رحمته الله، ومع الحلقة اثنان وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام الشيخ أحمد الرفاعي.

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد مولانا الإمام أحمد بن علي بن أحمد بن رفاعه الرفاعي الحسيني في منطقة واسط في أرض العراق فرّج الله تعالى عنها سنة ٥١٢ هـ، لأن والده قدم به من المغرب وسكن تلك البطائح العراقية، وتزوج بأخت منصور الزاهد، ورزق منها الشيخ أحمد و إخوته لكن والده توفي وأمه حامل به، فرباه خاله الشيخ منصور وكان من مشايخ الصوفية، وهو أوّل شيخ للإمام الرفاعي في سلسلة الشيوخ الرفاعية ، وهي سلسلة تتضمن خمسة عشر إماماً تنتهي بأمر المؤمنين جدي وسيدنا علي كرم الله وجهه.

فلما نشأ تفقه على المذهب الشافعي وقرأ القرآن وظهرت أمارات النجابة والولاية عليه منذ صغره، نشأ يعمل بجمع الحطب ويبيعه للأرامل. مرّ به جماعة من الأولياء في صغره فنظروا إليه وهو يجمع الحطب فقال أحدهم: لا إله إلا الله مُجد رسول الله ظهرت هذه الشجرة المباركة، فقال الثاني: عمّا قليل يكثر ثمرها ويشرق قمرها، فقال الثالث: عما قليل يرى الناس منها العجب ويكثر نحوها الطلب، فقال الرابع: عن قليل يعلو شأنها ويظهر برهانها.

معشر الإخوة الكرام:

صدقت فراسة الأولياء وتحققت بشاراتهم إذ أن الفتى الهاشمي الحسيني أخذ بالزهد والعبادة على يد خاله حتى رقّ قلبه وعلا قدره، وكان ورده الاستغفار والصلاة والسلام على النبي المختار، زهد بالطعام والشراب حتى كان يأكل كل

يومين أكله ، وكان له ثوب واحد إذا اتسخ نزل الشط كما هو وهو يلبسه يغسله ويفركه عليه، ثم يقف في الشمس حتى يجف.

وإذا دعا أصحابه قَدَم له التمر الفاخر، وينقى له التمر الرديء ويقول: أنا أحق بالدون.

يقول لأصحابه: أقرب الطريق إلى الله الانكسار بعد الذل والافتقار، تعظم أمر الله، وتشفق على خلق الله، وتقتدي بسنة رسول الله ﷺ .

وكان لا ينظر إلى الأمراء ولا يقوم لهم ويقول: النظر في وجوههم يقسي القلوب. وكان من رقة قلبه لا يسمح بقتل نملة، يقول أصحابه: إن هرة نامت على كم سيدي أحمد ونودي بإقامة الصلاة فقصّ كمه وما أزعجها فلما انتهت الصلاة وقامت الهرة عاد ووصله ثانية وقال: عاد الكم كما كان.

وكان له ولأصحابه مجالس للسمع يصير لهم فيها أحوال عجيبة ينزلون في التنور وهو يتضرّم ناراً. فإذا قاموا إلى الذكر والإنشاد يذكرون الله تعالى على النار إلى أن تنطفئ. ومرة دعي وهو ما زال شاباً بعد مع شيخه ابن القارئ ومعه إخوانه إلى طعام، فلما أكلوا بدأ الإنشاد مع قرع الدف فلما طاب القوم وتواجدوا وثب سيدنا أحمد بن الرفاعي فجأة وثقب الدف وكسره، فالتفت الناس إلى شيخه ابن القارئ وقالوا: انظر ما فعل تلميذك، فقال لهم الشيخ: اسألوه فإن أجاب بجواب مقنع وإلا ضمنت لكم الدف، فسألوه: لم كسرت الدف؟ فقال: اسألوا المنشد عما خطر ببالي؟ فقال: إني كنت البارحة عند قوم يشربون فسكروا وتمايلوا كتمايل هؤلاء المشايخ فخطر لي أن هؤلاء كهؤلاء، فلم يتم خاطري حتى قام هذا الفتى وكسر الدف، فعند ذلك نهض المشايخ إلى سيدنا أحمد وقبّلوا يده.

إخوتي في الله: لم يؤلف الإمام كتاباً ، ولكن تلاميذه جمعوا أقواله في كتب أربعة، ذكر فيها موضوع الطريقة الرفاعية وآداب المريد وأخلاق الصوفية وخاصة في كتابه البرهان. والتصوف عنده أساسه احترام الشريعة أولاً وأخيراً، والطرق التي تخالف

الشريعة زندقة، ما لم تشرق منهاهجها بنور علم النبي وعمله فهي باطلة. فطريق الحق هو طريق النبي، والصوفي المتبع هو الذي يعظم شأن النبي لأنه الداعي إلى الله، والمخبر عنه، وهو باب الحضرة الرحمانية، ومن اتصل به اتصل، ومن انفصل عنه انفصل .

والتصوف الحق لا يأخذ بالرأي فما هلك من هلك إلا بالرأي، والتصوف لا يحكم فيه بالرأي إلا في المباحات. والأساس في الطريقة الرفاعية المحمدية إحياء السنّة، والصوفي على الدين ما دام على السنّة، فمن حاد عنها ذلّ عن الطريق . والطريق عنده: أن تقول آمنت بالله ووقفت عند حدود الله وعظمت ما عظم الله وانتهيت عمّا نهى الله. والرفاعية يقولون: من لم يعرف أدب الظاهر لا يؤتمن على أدب الباطن، وكل الآداب منحصرة في متابعة النبي قولاً وفعلاً وحالاً وخلقاً.

فالطريقة الرفاعية هي نفسها طريقة الإمام الجنيد يزيد عليها مجلس الذكر والإنشاد بما نعرفه اليوم بالحضرة ، والحضرة أمر من المباحات لا يطلق عليها حلال ولا حرام إلا إذا اقترن بها ما يخالف الشرع المطهر كاختلاط الجنسين والعياذ بالله. أما إذا كان مجلس الذكر ليس فيه محرّم فهو مباح، يقوم فيه الذاكرون بالذكر قياماً متأولين آية من كتاب الله تعالى: ﴿الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم﴾ يذكرون الله بالاسم المفرد ، ويهيّجون الذاكرين بالإنشاد الديني والتوحيد ونبينا ﷺ يقول: ﴿لَمَنْ سَنَّ فِي الْإِسْلَامِ سَنَةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وهذا مجلس لا يغتاب فيه أحد، ولا يذكر فيه أحد إلا الله ورسوله .

ومرّة قام الذاكرون للذكر وإذا بالمجلس طفل لأحدهم نائم، فطاب السماع وأخذ القوم الحال فداس بعضهم على الطفل حتى مات ، فلما انتهى الليل رفع الخادم الغطاء والفرش فوجد الطفل ميتاً ، فأخبروا مولانا الرفاعي الذي قام من فوره إلى الطفل وبسط خرقة وصلى ركعتين ثم مدّ يده يدعو، فلما انتهى نادى على الطفل يا فلان أقعد بإذن الله ثم أمرّ يده المباركة عليه فقام كأن لم يكن به شيء.

لقد سمع أصحابه من الكرامات للإمام بما لم يشك أحد أن الإمام بلغ مبلغاً عظيماً من الولاية. جاءه مرة ضيف فقال له: لي عشرون يوماً لم أذق طعم الأكل، فقال: تمتنى عليّ، فقال: أشتهدني إحدى هذه الإوزات الطائفة، يقول الراوي: رفع سيدنا الإمام أحمد يديه وقال: يا رب عجل بشهوة الرجل، قال: فوقع الإوزة مشوية بين يدي الشيخ بإذن الله تعالى.. ومدّ سيدنا الرفاعي إلى حجرين كانا إلى جانبه فأمسك بهما فإذا هما رغيفان ساخنان بإذن الله تعالى، فأكل الضيف وشرب، ثم أخذ مولانا الرفاعي عظام الأوزة وجمعها مع ريشها وقال: أيتها العظام المتفرقة والأوصال المتقطعة اذهبي وطيري بأمر الله تعالى ببسم الله الرحمن الرحيم، فعادت الإوزة حيّة وطارت في الجو.

وكان بعض أصحاب الإمام يراه في المنام في مقعد صدق، رأى ذلك مراراً ولم يخبره بهذه الرؤية فصدف مرة أن حضر عند مولانا الرفاعي في البيت فسمع امرأته تسفه عليه وتؤذيه، بل رأى الزوجة تضرب الإمام على أكتافه وهو ساكت. فانزعج الرجل وخرج من عنده، وأخبر إخوان الشيخ: أيفعل بالشيخ كذا وأنتم سكوت! فقال بعضهم: مهرها خمسمئة دينار وهو فقير. فمضى الرجل وأحضر الخمسمئة دينار وأتى بها إلى الشيخ الرفاعي فقال: ما هذا؟ قال الرجل: مهر هذه الشقية التي فعلت بك كذا وكذا، فتبسم مولانا الرفاعي وقال: لولا صبري على ضربها ولسانها ما رأيتني في مقعد صدق (عند ملك مقتدر).

أيها الأحبة والصحب: أعظم كرامة لمولانا الرفاعي التقاءه بسيدنا محمد ﷺ في الروضة المطهرة، فقد كان الإمام لا يفتُر عن الصلاة والسلام على سيدنا محمد ﷺ، وكان وهو في العراق يرسلها طيبة عطرة، طاهرة زكية إلى الحبيب الأعظم في المدينة. تحملها ملائكة الله وروح الإمام الذي امتلأ قلبه شوقاً لجده رسول الله، فلما حج وزار المدينة المنورة، وصلى في الروضة وقف أمام جدّه المصطفى ومعه أصحابه وحوله الناس، فسلم بشوق وغاب بحب غامر ملأ كيانه وجوارحه وأنشد بين يديه قائلاً:

في حالة البعد روعي كنت أرسلها تقبل الأرض عني وهي نائتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

وإذا بيد الحبيب الأعظم تمتد من الحجرة الشريفة ويقبلها سيدنا الإمام أحمد الرفاعي أمام الحجيج ثم تعود إلى الحجرة الشريفة، وكبر الناس وكبر الحجيج وكبر الصحب الله أكبر، ونقلت هذه الحادثة عنه بالتواتر، وأمر الشيخ الرفاعي الناس في الحرم ألا يخرج واحد منهم حتى يطأ بقدمه على عنق الشيخ حتى لا تتكبر نفسه، وبويع من الناس إماماً وشيخاً بعد أن زهد الإمام بكل شيء .

بعد هذه المكرمة تمتى لقاء الله تعالى فلقبه سنة ٥٧٨ هـ بعد أن أصبح إماماً هناك وهنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.

اللهم صلّ على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وأصحابه وسلم

المصادر

- إن الأثير في الكامل ٢٠٠/١١
- ابن العماد في شذرات الذهب ٢٥٩/٤
- وفيات الأعيان ١٧١/١
- الموسوعة الصوفية ١٧٨
- ابن كثير في البداية والنهاية ٣١٢/١٢
- جامع كرامات الأولياء ٤٩٠/١
- سير أعلام النبلاء للذهبي ٧٧/٢١

(٦٧١)

الشيخ رسلان الدمشقي

(٤٧٠ - ٥٩٠ هـ)

الحمد لله المرتفع عن إدراك الأبصار الناظره ، المنزه عن التخيلات والأوهام
الخاطره ، العالم تحت أمواج البحار الزاخره كعلمه بحركات خلقه الظاهره ، الذي أيد
الأمه المحمديه بالأولياء والعلماء الصالحين ورجال الآخرة ، خصصهم بأشرف أنواره
وتنفيذ أوامره .

أحمده على آلائه ونعمه المتواتره ، وآياته الباهرة المتظاهره ، حمداً أدفع به حلول
كل فاقرة.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة صادرة عن طوية غير
مرتابة ولا فاتره.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المبعوث بالآيات الباهره ، والمفضل
بالمقامات الفاخره الذي ألف بين القلوب المتنافره.

اللهم صلّ وسلّم وبارك وعظّم على سيدنا محمد وعلى آله وعترته الطاهره ،
وعلى أصحابه الأنجم الزاهره ، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

أزور معكم اليوم الشيخ الشامي ، شيخ لأهل الشام فيه اعتقاد كبير ، ويقولون:
من زار هذا الشيخ ودعا عند قبره استجاب الله تعالى دعاءه ، والأعجب أن اليهود
والنصارى والمجوس يعتقدونه ويأتون إليه بالنذر على سبيل القرية ، مثل الزيت
والشمع والدراهم والدنانير ، حتى ثبت لديهم أن من قصده في مهم أو نازلة وتوسل
به إلى الله تعالى قضيت حاجته.

شيخ مجاهد حق الجهاد، حتى إنه أقام زاويته خارج دمشق يرصد منها أعداء الإسلام من الصليبيين وغيرهم، الصليبيون الذين كانوا في عهده ينظرون بلهفة إلى اغتصاب أرض دمشق لتكون قاعدة لهم يتطلعون منها إلى غزو ثغور الإسلام، إلى باقي المدن الشامية ، ثم الاتجاه إلى مصر ، وبعدها إلى أرض الحجاز إلى بكة التي بكت كل مغتصب حاول الاستيلاء عليها. فكان هذا الإمام لهم بالمرصاد .

قدّم للإسلام هو والأولياء والمجاهدون خدمة جلّى لولاها لتغير وجه تاريخنا، وكان الإسلام سيتعرّض إلى خطر كبير، لذلك كان أهل الشام في عراضاتهم ينادون باسمه عالياً: شيخ رسلان يا شيخ رسلان يا حامي البر والشام، إننا مع العارف بالله الولي المجاهد سيدنا الشيخ رسلان الدمشقي، ومع الحلقة ثلاثة وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربّوا عن الإمام الشيخ رسلان الدمشقي:

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان: ولد سيدنا الشيخ رسلان سنة ٤٧٠ هـ واسمه الصحيح أرسلان بن يعقوب بن عبد الرحمن، كان أباه من المجاهدين، وكلمة أرسلان تعني الأسد بالتركية، نذروا أنفسهم للجهاد في سبيل الله لنشر الإسلام وترسيخه في الأرض. وصحب شيخه أبا عامر المؤدّب، واتخذ حرفة له نشاراً للخشب، وظهرت على شيخنا أرسلان علائم الصلاح والتقوى، إذ كان يقسّم الأجرة التي يأخذها من عمله أثلاثاً: ثلث ينفقه على نفسه وثلث يتصدّق به وثلث لكسوته.

بل إن بعض المترجمين له يقول: إنه كان يأخذ ما كان يحصل له من أجرته فيعطيه شيخه أبا عامر، وليقوم شيخه بالنفقة عليه، كان يتعبد بمسجد صغير داخل باب توما، وحفر بيده البئر التي كانت بالمسجد، وكان أهل تلك الناحية يشربون منها للبركة، بل كان الناس إلى عهد قريب بدمشق يأتون نهر العقرباني الذي يمر بجوار مسجد الشيخ وكانت مياهه نظيفة يتبركون بها ويغتسلون.

إخوتي في الله:

بقي سيدنا الشيخ أرسلان عشرين سنة ينشر الخشب بمنشاره يتعبّد بالليل ويعمل بالنهار ، حتى كان يوم وهو ينشر بالمنشار إذا بالمنشار يخاطب الشيخ أرسلان ويقول له:

يا أرسلان ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، فتوقف سيدنا الشيخ أرسلان عن النشر وكذب أذنيه، ثم عاد للعمل ثانية، وإذا بالمنشار يخاطبه ثانية: يا أرسلان ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت. لا إله إلا الله، ويتلقّت حوله فلا يجد أحداً، فيظن أنه خاطر خطر له، فيعود للعمل فإذا بالمنشار يخاطبه الثالثة: وينكسر المنشار ثلاث قطع.

وهنا ترك سيدنا الشيخ أرسلان العمل ، وجلس في هذا المسجد يتعبّد ويخلو إلى ربه عزّ وجلّ. فاشترى له سيدنا السلطان نور الدين الشهيد داراً مجاورة للمسجد ووسع المسجد وبني له منارة ووقف عليه الأوقاف ينفق منه على المسجد.

الآن هذا المسجد الذي بناه سيدنا نور الدين الشهيد يعرف بمقام سيدنا الشيخ أرسلان الدمشقي، أتعرفون هذا المسجد أين يقع؟ يقع بجوار مكان الخيمة التي كان يجلس فيها سيدنا خالد بن الوليد أثناء حصار دمشق في الفتح الإسلامي، والجميل أن سيدنا نور الدين أراد أن يساعد سيدنا الشيخ أرسلان على البناء فبعث إليه بألف دينار مع مملوك له وقال: إن أخذها منك فأنت حرّ لوجه الله، فجاء بها العبد إليه وهو يبني قال: سيدي أرسل لك السلطان هذه الصرة من الذهب لتستعين بها على البناء، فقال سيدنا الشيخ أرسلان: أما يستحي محمود (أي السلطان) يبعث إلي بهذا وفي عباد الله من لو أشار إلى ما حوله لصار ذهباً وفضة!

يقول الراوي يا سادة يا كرام: وأشار سيدنا الشيخ أرسلان بيده يميناً وشمالاً فصارت الحيطان والطين وما حولهما ذهباً وفضة، فتحير المملوك وقال: يا أستاذي إن

سيدي علّق عتقي على قبولك هذا الذهب، وهنا تناوله منه وصرفه في الحال على المساكين بحضور المملوك.

معشر السادة الكرام:

كانت هذه أول كرامة اشتهر بها هذا الإمام تناقلها العام والخاص وتتابعت بعدها الكرامات، فصار الناس يرونه سائراً في الهواء، وتارة يمشي على الماء غير مرة، ورآه آخر في البرية والأسد يتمرّع على قدمي الشيخ وهو مستغرق في الذكر لا يلوي على الأسد.

وكان مرة ببستان من بساتين دمشق في زمن الصيف ومعه جماعة من أصحابه فقال له أحدهم: ما وصف الولي المشتغل على أحكام التمكين فقال: هو الذي ملكه الله أن يتصرّف في الوجود (أما سمعت قوله تعالى في الحديث القدسي (فكنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولأن سألني لأعطينه) فقال المريد: وما علامة ذلك؟ فأخذ سيدنا الشيخ أرسلان أربعة قضبان أخذ واحداً وقال: هذا هو الصيف، ثم أخذ آخر وقال: هذا الربيع، وأخذ الثالث وقال: هذا الخريف، ورابع قال: هذا الشتاء.

يقول المريدون: فأخذ الغصن الذي سمّاه الصيف بيده وهزّه وقال: هذا الصيف، قال: فاشتد بهم الحر، ثم أخذ الذي سمّاه الربيع وهزّه فاخضرّ وأورق شجر البستان ، وأينعت أغصانه وحضرت نسماته، ثم طرحه، وأخذ الذي سمّاه الخريف وهزّه فجاءت أوصاف فصل الخريف، ثم طرحه، وأخذ الذي سمّاه الشتاء وهزّه فهبت رياح الشتاء واشتد البرد وبيست أوراق شجر البستان.

ثم نظر إلى أطيّار على أشجار البستان: فقام إلى شجرة منهم فهزّها وأشار إلى الطير الذي عليها أن سبّح خالقك، فترنّم الطير بصوت شجي فأطرب السامعين، وراح ينتقل من شجرة إلى شجرة، حتى أشار إلى طائر منهم وأمره أن يعجّد الخالق فلم ينطق بشيء، فقال الشيخ اسكت لا عشت، فوقع الطائر على الأرض.

الأولياء تنقاد لهم الأرض والخلق بإذن الله تعالى، الأولياء بخطوة يصبحون في مكة ، وبخطوة ينتقلون إلى المدينة المنورة، لهذا يسمون بأهل الخطوة، تطوى لهم الأرض كما كانت تطوى لنبي الله سليمان، يقول أحد مريدي الإمام الشيخ أرسلان: حججت مع الشيخ واجتمعت به في غرفة، ثم رأيته في جميع المشاهد، وما أتيت موضعاً من المناسك إلا وجدته سبقني إليه، فلما رجعت إلى دمشق سألت عن الشيخ فقالوا: ما غاب عنا يوماً كاملاً قط، بل بعض يوم عرفة، وبعض يوم النحر وبعض أيام التشريق.

يقول المريدون: كان مولانا الشيخ أرسلان عندما يحضر مجلس السماع (مجلس الإنشاد ومديح النبي ﷺ والذكر) يأخذه الحال فنراه يصعد في الهواء ويدور ثم ينزل إلى الأرض ثم يصعد ، يأخذه حاله مع الله تعالى.

جلس مرة تحت شجرة تين يابسة فما أن أسند ظهره إليها حتى عادت خضراء وحملت التين تلك السنة، وكان تينها من أطيب تين دمشق. جلس مع مرديه في المسجد يذكرون الله تعالى فإذا بهم يرون الشيخ يقوم ويأخذ الحصى من الأرض ويرميه من يده، وإذا بالإفرنج يصل الخبر إليهم أنهم نزلوا إلى الساحل الشامي والمسلمون يتبعونهم ، فكانوا المسلمون المجاهدون يقولون: كنا نرى الحصى تنزل من السماء في الهواء على رؤوس الإفرنج فتهلك الفرس والفارس بإذن الله تعالى ، فكان كالملائكة ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول.

أيها الأحبة والصحب: بقي مولانا الشيخ رسلان متعبداً في مسجده بدمشق حتى أتاه أمر الله سنة تسعين وخمسمئة ، وحُمل نعشه على أعناق الرجال وجاءت طيور خضر ظللت على نعشه، حتى دفن إلى جوار شيخه أبي عامر المؤدب.

غادر فرداً بعد أن ولد فرداً ، وترك رسائل في التوحيد و التصوّف فيها
الشريعة والحقيقة ، غادر وترك لنا من الشعر أربعة أبيات يناجي فيها الحق ﷻ :
يا من علا فرأى ما في الغيوب وما تحت الثرى وظلام الليل منسدل
أنت الغياث لمن ضاقت مذاهبه إنا أنت الدليل لمن حارت به الحيل
قصدناك والآمال واثقة فإن عفوت والكل يدعوك ملهوف ومبتهل
فذو فضل وذو كرم وإن سطوت فأنت الحاكم العدل

فإن عفوت فذو فضل وذو كرم اعفوا عنا، اجبر خاطرنا ،فرج عنا كرمال سيدنا
الشيخ رسلان، اجبر كسرنا هنا كما جبرت كسر المسلمين هناك ، وما أدراك ما
هنا؟ هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك
يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك.

اللهم صلّ على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلّم

المصادر

- الكامل: لابن الأثير ٣٢٩/٨
البداية والنهاية لابن كثير ٢٠٠/١٢
الشيخ أرسلان : عزة حصرية .
الشيخ أرسلان الدمشقي : مُحَمَّد بن طولون الصالحي ت ٩٥٣ هـ
الوافي بالوفيات: صلاح الصفدي ت ٧٦٤ هـ
معجم المؤلفين لكحاله ٢٢٤/٢
الأعلام : للزركلي ٢٨٨/١

(٦٧٢)

الإمام الغوث أبو مدين

(٥١٤ - ٥٩٤ هـ)

الحمد لله المستحق لغاية التحميد ، المتوحد في كبريائه من غير تكييف ولا تحديد، الغني المغني المبدئ المعيد، الذي لا يفنى عطاؤه ولا يبعد. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، خلق الخلائق فجعل منهم أئمة أعلام وسلكهم أحسن الطريق إلى الأمر الرشيد ، وصوّره بأحسن صورهم وبشّره في الجنة بالنعيم والتخليد وبصّره بعين الاعتبار وحذّره من عذاب النار والوعيد. وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله أشرف من أظلت السماء وأقلت البيد. اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أولي المعونة على الطاعة والتأييد صلاة دائمة في كل حين تنمو وتزيد، وسلّم تسليماً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

أزور مع حضراتكم اليوم المغرب العربي الأقصى لنمرغ أرواحنا ونشرح صدورنا ونملاً أعيننا بوليّ من أولياء الله تعالى جمع علم الشريعة والحقيقة، كان وما زال عين أعيان مشايخ الغرب، وصدور المربين ، أستاذ أعظم، وعارف أفخم، عظيم الأكابر، رأس الصوفية في وقته، علم نعتة زاهد، زاهد مراقب مشاهد ، يُقصد ويُزار من جميع الأقطار، وبنيان العرفان إليه يشار، ولد ببجاية ونشأ بها وترقى حتى صار إمام الصديقين في وقته بلا شقاق.

خاض بحار الأحوال، ونال أسرار المعارف، خصوصاً مقام التوكل، سئل عنه سيدنا الخضر فقال عنه: هو إمام الصديقين في وقته، آتاه الله مفتاحاً من السر المصون بحجاب القدس ، ما في وقته أجمع لأسرار المرسلين منه.

كثير مريدوه حتى خاف السلطان على ملكه منه فاستدعاه لتكون منيته في بلدة تلمسان في الجزائر حرسها الله من كل جائر، أندون من هذا الإمام العلم؟ إنه سيدنا أبو مدين الغوث شعيب بن الحسن، ومع الحلقة خمسة وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن سيدنا أبي مدين الغوث:

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : أصل سيدنا أبي مدين من إشبيلية من الأندلس ، ولد سنة ٥١٤ هـ تقريباً ، توفي والده في عهد مبكر، وكان له غنم، وهو أصغر إخوانه فكلفوه برعاية الغنم، وكان يغدو بها ويروح ويرى الفتيان يقرؤون القرآن ، أو يتعبدون بالذكر فيعجبه منظرهم ويخشع له قلبه، فيدنو منهم ويسمع ولا يستطيع أن يحفظ شيئاً من القرآن ، ولا يعرف كيف يصلي ، وحز ذلك في نفسه وجعله يفكر ويطيل التفكير ويقول: إن الغنم لا تدع لي فرصة للتعليم أو للتعبد فيوماً مبدعاً قويت عزيمته على الفرار ليتعلم القرآن والصلاة، لكنه ما إن فرّ حتى أدركه أخوه وهدده إن لم يرجع ليقتلنه، فعاد حزيناً وفي نفسه حسرة، ولكنه بقي مصراً على الهرب، فحانت فرصته الثانية، لكنه في هذه المرة أخذ عصا الغنم وأسرع في الليل، وشعر أخوه أن الهرب سيتكرر فراقب أخاه وأدركه في هذه المرة وحمله الغضب على أن يأخذ سيفاً ليضرب أخاه ، لكن العناية الإلهية تداركته ، رفع أخوه السيف ليضربه فاتقاها سيدنا شعيب بالعصا، وإذا بالكرامة تحدث، وإذا بالسيف ينكسر والعصا باقية، ذهل أخوه وثاب إلى رشده فتحدث مع أخيه شعيب ، ورأى الإصرار في عينيه في الذهاب للتعليم وحفظ القرآن فودّعه قائلاً :

. إذهب حيث شئت.

فسار على وجهه حتى وصل البحر ، فوجد أناساً في خيمة فخرج منها شيخ سألته عن أمره فحدثه وجلس إليه أياماً، فكان إذا جاء رمى بخيط الصنارة إلى

البحر استخرج سمكة فشواها وقدمها للفتى ثم قال له : انصرف إلى المدينة حتى تتعلم العلم ، فإنّ الله تعالى لا يعبد إلا بالعلم.

إخوتي في الله: أصابت هذه الحكمة قلب الفتى شعيب حتى اتخذها شعاراً له ومنهجاً في حياته كلها (إن الله لا يعبد إلا بالعلم)، وما كان الجاهل في يوم من الأيام قدوة ولا مرشداً ولا شيخاً يهدي الآخرين، قدم الفتى إلى فاس وأقام بجامعها فتعلم الوضوء والصلاة ، وكان ذاك في البداية حدثاً ضخماً في حياته وكان أثناءها يدور في الجامع على حلقة حلقة ويجلس إلى الفقهاء والوعاظ، وكان يعجب لأنه كان لا يفهم كلمة مما يقولون، وينظر إلى الجالسين فيراهم يفهمون ويناقشون ويتحدثون فاتهم نفسه بالغباء، حتى جاء إلى حلقة شيخ وقع كلامه في قلبه موقع الفهم والمعرفة، فسأل من هذا؟ فقالوا: إنه الشيخ أبو الحسن بن حرزهم الفقيه النابه، فقال له: إني أفهم ما تقول، فقال له الإمام أبو الحسن: إني قصدت الله بكلامي فخرج من القلب.

كان الإمام أبو الحسن فقيهاً ربانياً صوفياً زاهداً، كان تعليمه أول شمعة أضاءت في حياة سيدنا أبو مدين العلمية، قرأ عليه كتاب الرعاية لحقوق الله الذي ألفه الإمام الحارث المحاسبي، ثم قرأ كتاب الإحياء (إحياء علوم الدين) للإمام الغزالي. وقد قال فيه سيدنا أبو مدين: طالعت كتب التذكير فما رأيت كالأحياء للإمام الغزالي.

ثم درس على يدي شيخه كتاب السنن في الحديث للإمام الترمذي. أما علوم الصوفية فقد درسها على الشيخ الصالح أبي علي الدقاق، وهو من كبار مشايخ الصوفية، بل إمامهم في عصره، وهو أول من أخذ عنه الشيخ أبو مدين التصوف، ثم قرأ الرسالة القشيرية في التصوف وهو كتاب يدرسه كل سالك لطريق التصوف، وكان من الكتب المفضلة عنده.

ولكن التصوف ليس علماً تكفي فيه الدراسة ، بل ممارسة وسلوك وعمل ،
التنزه عن أخلاق النفس المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب
عن ما سوى الله تعالى ، وتخليته بذكر الله ، وإذا كان ﷺ قد درس الراعي والإحياء
وعلموهم التصوف فليس معنى ذلك أنه أصبح صوفياً ، لا ، بل لا بد من الممارسة
والسلوك والأخذ في طريق مقامات الأحوال ، فقيض الله له الشيخ أبا يعزى ، شيخ
له أسلوب قاسٍ في التربية ، ولكنه أسلوب مثمر ، وما إن طرق بابه مع أصحابه حتى
أقبل عليهم دونه ، فلما حضر الطعام منعه من الأكل ، فقعد في ركن الدار ، فكلما
أحضر الطعام وأراد أن يقوم إليه منعه وانتهره ، حتى انقضت ثلاثة أيام وذهب ضوء
عينيه من قلة الطعام ، فصار يبكي طول الليل فما أن أصبح حتى استدعاه الشيخ
أبو يعزى ومسح على عينيه فأبصر بإذن الله ، ثم مسح بيده على صدره وقال
للحاضرين: هذا يكون له شأن عظيم بإذن الله تعالى . يقول سيدنا أبو مدين:
طالعت أخبار الصالحين في زمن أويس القرني إلى زماننا فما رأيت أعجب من أبي
يعزى ، وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي .

معشر الإخوة: كان سيدي أبو مدين الغوث إذا سمع تفسيراً لآية أو حديثاً قنع
بهما وانصرف إلى موضع خال من الناس اتخذه مأوى للعمل فيعمل بالآية
والحديث ، كما كان يفعل الصحابة الكرام ، يحفظون سورة لا يجاوزونها حتى يعملوا
بها ، ومرة كان يمشي على الشط يحفظ ويعمل بما حفظ ، إذ تنزل سفينة للإفرنج فيها
أرقاء مسلمون فاخطفوه وأركبوه السفينة مع الأرقاء المسلمين .

يقول الراوي يا سادة يا كرام: فتوقفت السفينة على أرض الشط لا تتحرك ،
فقال بعضهم: لعل هذا الرجل قسيس أنزلوه ، فرفض سيدنا أبو مدين النزول حتى
ينزل معه الأرقاء فتركوهم جميعاً وسارت السفينة بإذن الله تعالى ، هكذا مضت به
السنون يتعلم ويعمل حتى أصبح عالماً صوفياً وشيخاً مرشداً بتوفيق الله تعالى وعنايته
من المبدأ حتى النهاية .

إذا لم يكن عون من الله للفتى فأول ما يجني عليه اجتهاده

وقد وفق إمامنا للوصول إلى مرتبة فاق أهل زمانه إرشاداً وتوجيهاً وعلماً حتى بلغ مرتبة القطب الغوث ، ولقبه أهل زمانه أبو مدين الغوث ، وذلك بعد أن التقى بسيدنا عبد القادر الجيلاني في مكة المكرمة ونال منه العطاء الإلهي على يديه، ثم إننا نرى إمامنا يستوطن بيجابة ، ويبدأ أهل العلم من شرق وغرب يرحلون إليه حتى حسده بعض العلماء ، فقدموا إليه يحاولون امتحانه وسماعه في درسه العام.

أيها السادة: وإنني والله في شوق لحضور هذا الدرس معكم لننال الفيوضات الربانية التي أفاضها الله تعالى على هذا الإمام ، فاسمحوا لي أن أنتقل بكم إلى هناك إلى بجاية المغربية ، لأن هؤلاء الرهط قد وصلوا إلى بجاية ودخلوا عليه ووجدوه يفيض بالنور ويستخرج الدرر من قيعان البحور، سمعوه يقول:

" شاهد مشاهدته لك، ولا تشاهد مشاهدتك له (وهذا من أركان الإحسان أن تعبد الله كأنك تراك فإن لم تك تراه فإنه يراك)، من خدم الصالحين ارتفع بخدمته، ومن حرم احترام الأولياء ابتلاه الله بالملقت من خلقه، كل فقير (أي صوفي) الأخذ أحب إليه من العطاء لم يشم للتصوف رائحة.

ما لذّة العيش إلا صحبة الفقرا	هم السلاطين والسادات والأمرا وخلّ
فاصحبهم وتأدب في مجالسهم	حظك مهما قدموك ورى واعلم بأن
واستغنم الوقت واحضر دائماً معهم	الرضا يختصّ من حضرا

الله قلّ وذر الوجود وما حوى	إن كنت مرتاداً بلوغ كمال
فالكلّ دون الله إن حققته من لا	عدم على التفصيل والإجمال فوجوده
وجود لذاته من ذاته فالعارفون فتّوا	لولا عین محال شيئاً سوى المتكبر
ولما يشهدوا	المتعالی

هذا هو العلم، وهذه هي ثمرة التصوف، ولا تكون هذه الثمرة إلا عن طريق الشيخ المربي.

الشيخ من هذبك بأخلاقه، وأدبك بإطراقه، وأثار باطنك بإشراقه، إذا شهد الإنسان حقاً أن لا إله إلا الله تحطمت أصنام الشرك في نفسه، الشهوات، الجاه، المنصب، الثراء، الاستعلاء، الغلبة، العجب، الكبرياء فأصبح تسليماً كله وهذا ثمرة التصوف، ثمرة التصوف تسليم كله. أعلنوا بالطاعة حتى تكون كلمة الله هي العليا، كما يعلن هؤلاء بالمعاصي ولا يستحيون من الله، احذروا صحبة المبتدعة إبقاءً على دينكم، واحذروا صحبة النساء إبقاءً على إيمان قلوبكم.

أيها الأحبة والصحب:

وقعت هذه العبارات الإيمانية على رؤوس الحاسدين كالصاعقة، فلم يكونوا يتوقعون أن يسمعوا مثل هذا الكلام، وهالهم أكثر الكم الهائل الذي يحضر عند الشيخ من المعتمين، وطأطأ كل منهم رأسه توقيراً واحتراماً للكلام النابع من القلب، عرفوا صدق الشيخ أبي مدين الغوث، والتفت سيدنا أبو مدين إليهم ورحب بأسمائهم واحداً واحداً مرحباً بالفقيه أبي محمد عبد الحق، وبالفقيه أبي علي المسيلي، رحب بهم دون أن يعرفهم أو يعرفوه، وأقبلوا عليه يضمنونه ويتبون على يديه، كل من كان يأتي معترضاً على الشيخ كان يكشفه بلحظة بإذن الله (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله)، جاء عالم ليعترض عليه في مجلسه فالتفت إليه الشيخ وسأله: لم جئت؟ قال: لأقتبس من أنوارك، فقال: أخرج المصحف الذي في كمك افتحه اقرأ ما في أعلاه فقرأ الرجل فإذا هو: ﴿الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين﴾ (الأعراف)، ألا تكفيك هذه الآية؟ فاعترف الرجل وتاب.

ومرة سافر مع مريديه، ونزلوا في صحراء فسمعوا في الليل أصواتاً فخافوا الأذى، وتمنوا ضوءاً يؤنسهم لشدة الظلمة، فصلى الشيخ تحت شجرة ركعتين ودعا، فأضاءت الشجرة كالصباح إلى الصباح ببركة سيدي أبي مدين. يقول تلميذه سيدنا

الشيخ: محي الدين بن عربي: كان شيخنا أبو مدين إذا خطر له خاطر في نفسه وجد جوابه مكتوباً في جيبه، فخطر له يوماً أن يطلق امرأته، وكان أحد العارفين بالله حاضراً فرأى مخطوطاً في جيب سيدي أبو مدين: (أمسك عليك زوجك).

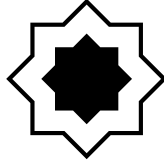
معشر السادة الكرام:

وحين آذن شمس العمر بالرحيل، وأذن الله لشمس الأصيل بالأفول، وكثر أتباع الإمام حتى خاف سلطان مراکش على ملكه منه، فاستدعاه معزراً مكرماً عن طريق عامله ببجاية فخاف تلامذته عليه، فقال لهم سيدي أبو مدين الغوث: شعيب شيخ كبير ضعيف لا يقوى على المشي، وقدّر الله له منيته بغير هذا المكان، ولا بد للوصول إلى موضع المنية، ومع ذلك لن يصل إلينا السلطان بشيء لأنني سأمت قبل الوصول إليه! فسكت القوم وودّعوا شيخهم الوداع الأخير.

وسار ركب الإمام الغوث إلى أن وصل إلى مشارف تلمسان في الجزائر، فنظر الإمام إليها وقال: لا بأس بالنوم والرقاد في المكان، يقول تلميذه (أبو علي الصواف): وضع مولانا الغوث طرفه على الأرض عندما حط الرحال، وسمعته يقول: الله الله الله حتى رقّ صوته وغادر إلى الله تعالى.

غادرنا بجسده عام ٥٩٤ هـ أربعة وتسعين وخمسمئة في مشهد عظيم لم ير أهل تلمسان مثله، وبني على قبره مزاراً وقبة، يقول أحد تلامذته: رأيت الشيخ أبا مدين (في المنام)، فقلت: ما فعل الله بك؟ فقال: أوقفني ربي عز وجل بين يديه وقال لي: يا شعيب ماذا عن يمينك؟ قلت: عطاؤك، قال: وماذا عن شمالك؟ قلت: يارب قضاؤك، قال: يا شعيب قد ضاعفت لك هذا، وغفرت لك هذا، طوبى لمن رآك أو رأى من رآك.

وهكذا قضيت مع حضراتكم في رحاب القطب الرباني الغوث أبي مدين ، وزرناه
معاً في فاس وبجابه وتلمسان، رأيناه هنا وهناك، وما أرداك ما هنا،؟ هنا مدرسة
سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك ياسيدي يا
رسول الله الصلاة والسلام عليك^١



^١ المصادر: سيدنا أبو مدين الغوث: الشيخ عبد الحليم محمود

سير أعلام النبلاء : للذهبي

الأعلام : للزركلي

الموسوعة الصوفية للحفني ٥٩٤

جامع كرامات الأولياء : للنبهاني ٥١٤/٨٠

(٦٧٣)

سيدنا ابن الفارض جـ

(٥٧٦-٦٣٢ هـ)

الحمد لله الذي أورد أوليائه مناهل الصفا، وهداهم بلطفه إلى سلوك سبيل المودة والصفا، وجعل صبا الغرام تهبّ على رياض أسرارهم، وتسري فتسري لقلوبهم أحاديث أخبارهم.

فسبحانه لا نحصي ثناءً عليه هو كما أثنى على نفسه وهو ولي كل إنعام .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يصطفي من الملائكة رسلاً ومن خاصة الناس أنبياء ومن عامتهم أولياء وأصفياء يحبهم ويحبونه.

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله سيد الأنبياء، وإمام الأصفياء، وتاج من مشى تحت أديم السماء أبرأ بهدايته مرض القلوب، وأزال بإشراق حكمته عن الأفئدة غيوب الغيوب

أرى كل مدح في النبي مقصراً وإن بالغ المثنى عليه وأكثر
إذا الله أثنى بالذي هو أهله عليه فما مقدار ما تمدح الورى
صلى عليك الله يا علم الهدى

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على هذا النبي الكريم، والسيد السند الرؤوف الرحيم، سيدنا ومولانا محمد وعلى آله أشرف الأنام، وأصحابه السادة الكرام، ما أطرب سجع الحمام ، وفاح نشر البشام صلاة وسلاماً دائمين إلى يوم القيام وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

أفتح اليوم لكم صفحة في الحب، فلا تقولوا : يا عجباً شيخ ودكتور في الشريعة يتكلم عن الحب، ومن هو الذي حرّم على المشايخ القول في الحب، ذلك أن حب

الشيخوخ ليس فيه عشق امرأة، كما يفهم شباب اليوم قبل الزواج ، ولكنه حب شريف، حب طاهر، حب يصل الأرض بالسماء، حب يحبك من تحت التراب .
وإن خطرت يوماً على خاطر امرئ أقامت به الأفراح وارتحل الهم
ولوعبت في الشرق أنفاس طيها وفي الغرب مزكوم لعاد له الشم
ولو جليت سراً على أكمه غدا بصيراً ومن راووقها تسمع الصم
ولو رسم الراقي حروف اسمها على جبين مصاب جن أبرأه الرسم
صفاء ولا ماء ولطف ولا هوى ونور ولا نار وروح ولا جسم
على نفسه فليبك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

ستسمعون اليوم حديثاً بلا حروف ولا كلمات ، ذلك أن عالمنا اليوم عالم شاعر، والشعراء خالدون، وسأعلو بكم ما استطعت إلى جوه وأدخل بكم إلى عالمه، فإن للشعراء عالماً لا يحيط به عالم الناس، ولن نفهم شعره تماماً حتى أفتح لكم إلى الماضي كوة الذكريات، وحتى نكون مستغرقين بذكر الله في هدهات الأسحار، وعندها فقط تفهم النفس المؤمنة شعره العجيب الغريب .

كان شاعرنا يمسي ويصبح، وينام ويستيقظ ، يغيب ويحضر تحت تأثير حبه لله تعالى وحبه لرسوله الكريم، وهل هناك أعظم من حب الله وحب رسول الله.

نسخت بحبي آية العشق من قبلي فأهل الهوى جندي وحكمي على الكل
كل فتى يهوى فإني إمامه وإني بريء من فتى سامع العذل

دارت حياته حول محور واحد هو حب الله ورسوله، اتصل بهما، وتقرب إليهما في حال اليقظة عن طريق الوجد والذكر، والله تعالى يقول «أنا جليس من ذكرني»، وفي حال النوم عن طريق الحلم ، والنبي يقول « من رآني في المنام فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي »

غاب شاعرنا في الحب عن كل من حوله وفني في ذات الله حتى لقب بحق لقب سلطان المحبين والعاشقين، وعدّ رأس شعراء الصوفية من العرب ، بل هو

الأول في نظر المصريين بلا منازع .

تسامى بحبه عن الجمال الإنساني المعين إلى الجمال الإلهي المطلق، وجد فيه عزاء قلبه وراحة روحه وسعادته التي لا تعدلها سعادة ، ثم أخذ نفسه بالمجاهدة والرياضة النفسية حتى خلص شيئاً فشيئاً من سلطان النفس الأمارة بالسوء، وانتقل بها إلى الراضية المرضية، زهد في كل شيء إلا في شيء واحد هو حبه للذات العلية، حتى وصل إلى ما يسمى بمقام وحدة الشهود.

فلم يشهد إلا الله خالقاً ورازقاً ومعيناً وسميعاً وبصيراً وعالمأً وحياً وقادراً ومريداً يقول :

ولقد خلوت مع الحبيب وبيننا	سر أرق من النسيم إذا سرى
وأباح طرفي نظرةً أملتُها	فغدوت معروفاً وكنت منكراً
فدهشت بين جماله وجلاله	وغدا لسان الحال عنى مخبراً
فأدر لحاظك في محاسن وجهه	تلق جميع الحسن فيه مصوراً
قل للذين تقدّموا قبلي ومن	بعدي ومن أضحي لأشجاني
عنى خذوا وبى اقتدوا	وتحدثوا بصباقي بين الورى

حفل ديوانه بأناشيد الحب الإلهي، فصار بها تحفةً أدبية تزهو به العربية على آداب الأمم، وتراثاً روحياً عريقاً تشرف به الصوفية، هو أرق الدواوين شعراً، وأنفسها درراً، براً وبحراً، وأسرعها للقلوب جرحاً، وأكثرها على الطلول نوحاً، إذ هو صادر عن نفثة مصدور، وعاشقٍ مهجور، وقلبٍ بحرٍ النوى مكسور، والناس يلهجون بقوافيه، وما أودع من القوى فيه، تراه ينشد فيه:

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم

سكر من خمرة المحبة الإلهية التي هي أصل الوجود والخلق، والسكر هنا حالة من الفناء تعتري الذاكر فيغيب عن الوجود في الله كما يغيب السكران بشرب الخمرة، ولكن شتان من غاب عن الوجود بالله وبين من غاب عن الله وغفل عنه بالدنيا، ألا ترى قوله (سكرنا بها من قبل أن يخلق الكرم) من قبل أن يخلق العنب، إنها إذاً

خمرة المحبة الإلهية التي قال عنها رب العزة ﴿لِيُحِبَّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ ولعمري ماذا فقد من وجد الله وماذا وجد من فقد الله؟!

الفناء في الله إيثار إرادة الله وأوامره على رغبات النفس وشهواتها ، أما الفناء بمفهوم الكفار فهو اجتهد العبد في الزهد والتقشف حتى ترق مشاعره فيستأهل به حينئذ أن يحل الله فيه كما حل في مريم العذراء فأصبح بعضها بشراً وبعضها إلهاً، وهذا ما يسمى بالحلول : وهو أن يحل الله في بعض عباده ويدوب في مخلوقاته كما يدوب السكر في الشراب، هذا كفر وزندقة ، وهذا يوصلنا إلى قضية وحدة الوجود وهي في الإسلام تعني لا وجود إلا لله ووجود سائر الكائنات وجود مجازي غير حقيقي ، مادامت ستبقى ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام فوجودها مجازي : أما الوجود الحق فهو الله ، أما في المفهوم الفلسفي وهو كفر: فالصانع هو نفسه المصنوع ، والخالق هو المخلوق البحر هو الله ، والجبل هو الله ، والإنسان هو الله : هذا كفر وزندقة وخروج عن مبادئ الإسلام.

إذا أيها السادة : كان في عصر شاعرنا تياران في التصوف

أحدهما : تيار متمشٍ مع أصول الدين محافظاً على تعاليم الكتاب والسنة .
و ثانيهما : تيار خرج أصحابه على الشرع فلم يتقيدوا بأصوله ومبادئه، بل أباحوا لأنفسهم حرية واحدة النطاق انتهت بهم إلى مذاهب منافية للدين.
ويمثل شاعرنا التيار الأول فهو الذي يقول مخاطباً ربّ العزة والجلال :

أنتم فروضي و نفلي	أنتم حديثي و شغلي
يا قبلتي في صلاتي	إذا وقفت أصلي
جمالكم نصب عيني	إليه وجهت كلي
وسرّكم في ضميري	والقلب طور التجلّي

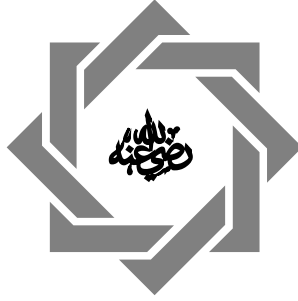
كانت قصائده مبنية على قواعد العلم والعرفان، منبئة عن نتائج الكشف والوجدان، مشيرةً إلى ما أطلع الله شاعرنا عليه ، ووصل قدمه إليه من حقائق التوحيد ودقائق التفريد .

ولم يحظ ديوان بمثل الشروح التي حظي بها ديوانه، تنشد أشعاره في مجالس الذكر ومديح سيدنا محمد ﷺ لإثارة الوجدان، حتى ترجمت قصائده إلى مختلف اللغات . انبرى له ابن تيمية وأمعن في نقده وتجيحه لأنه لم يفهم لغة شعره، كما تصدى له بعض الفقهاء يتهمونونه بالكفر والزندقة، لأن شعره حفل بالرموز والإشارات التي لم يطلعوا عليها ولم يعرفوها ، ونسوا أو تناسوا أنها تعبيرات عن حياة روحية راقية وحالات نفسية رائعة، وأنها لغة الشعر والعاطفة ، فكما أن للعقل منطقاً فكذا للعاطفة منطقها ولغتها. ولا ينبغي لمن لم يعرف هذه اللغة أن يعترض على صاحبها، لذا انبرى لهم الأئمة الأعلام أمثال شيخ الإسلام القاضي زكريا الأنصاري، والإمام ابن حجر الهيتمي والإمام السيوطي والإمام عبد الوهاب الشعراني والشيخ عبد الغني النابلسي وغيرهم فدافعوا عنه ونصروه وجعلوه شاعر الحب الأول، لأنه جعل حبه لله تعالى دينه ومذهبه فقال :

وعن مذهبي في الحب مالي مذهب	وإن ملت يوماً عنه فارقت ملتي
ولو خطرت لي في سواك إرادة	على خاطري سهواً قضيت بردي
ولي في أتم الرؤيتين إشارة	تنزه عن رأي الحلول عقيدتي
وفي الذكر ذكر اللبس ليس بمنكر	ولم أعد عن حكمي كتاب وسنة

فمذهبه مذهب الكتاب والسنة وهو لا يقول بالحلول و الاتحاد كما يقوله الكفرة والزنادقة، وهذه القصيدة (التائية) قصيدة هام فيها الشاعر في الله حباً وبقي في حالة الشهود مع الله أياماً طويلة وهو ينظم وينظم وينظم فيها حتى بلغت أبياتها (٧٦١ بيتاً) فسميت بالتائية الكبرى في كيفية الوصول إلى الله تعالى ورأى الشاعر النبي

ﷺ في المنام وسأله ماذا ستسمي هذه القصيدة ؟ فأجابه : لوائح الجنان وروائح الجنان. فقال سيدنا النبي : لا ، بل سمها نظم السلوك .
أيها السادة : يبدو أن الوقت قد أدركنا وعقارب الساعة لا ترحم أحداً ،
وأخاف أن أطيل عليكم، لذا أدعوكم لأن أتوقف معكم عند هذه الحلقة الرابعة
والخمسين، لأخبركم من هو شاعرنا العظيم في الجمعة القادمة بإذن الله ، وأدعوكم
جميعاً لتتوضوا عنه وتستغفروا ربكم عز وجل.



المصادر :

- شذرات الذهب ٢٦١/٧
الموسوعة الصوفية للحفني ٣١١
وفيات الأعيان لابن خلكان
النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ١٢٩/٣
جامع كرامات الأولياء للنبهاني ٤١٢/٢
سير أعلام النبلاء ١٢٩/٢٢
ابن الفارض والحب الإلهي محمد مصطفى حلمي
ديوان الشاعر شرح النابلسي .

(٦٧٤)

سيدنا عمر ابن الفارض - ج ٢

(٥٧٦ - ٦٣٢ هـ)

الحمد لله الذي اختص حبيبه الأسنى بمقام قاب قوسين أو أدنى، وقرن اسم سيدنا محمد الشريف بأعظم أسمائه الحسنی .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولي عباده وحبيب عباده .
وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله وحبيبه وخليله، أرسله رحمة للعالمين، وخاتماً للنبيين، وحرزاً للأمينين، وإماماً للمتقين، بأوضح دليل، وأفصح تنزيل وأفسح سبيل، وأنفس تبيان وأبدع برهان (ابن الفارض) :

وعلى تفنن واصفيه بمدحه يفنى الزمان وفيه مالم يوصف
فمبلغ العلم فيه أنه بشر وأنه خير خلق الله كلهم

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على هذا النبي الكريم والسيد السند الرؤوف
الرحيم سيدنا ومولانا محمد وعلى آله الشرفاء وأصحابه الخلفاء، وعلى إخوانه
الأنبياء، ومن اتبعه من الأولياء، صلاة تنشر نفحاتها على أرواحهم الطاهرة، وتسبغ
نعمها عليهم باطنة وظاهرة ، وسلم تسليماً تحمله الملائكة، وتبلغه إلى روضاتها
الطيبة المباركة .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

قبل أن أعرفكم بشاعرنا اليوم أريد أن أجيب عن سؤال وجه لي على إثر خطبة
الجمعة الماضية، والتي شعر فيها بعض الإخوة أن إمامنا الشاعر قد ذكر كثيراً من
ألفاظ الحب والهيام، وألفاظ النشوة والخمرة، سألني : ماسبب استعارة هذه الألفاظ
في الشعر الصوفي ؟

سؤال وجيه لا بد من الإجابة عليه حتى تتم قضية احترام الشعراء الصوفيين .

وللإجابة عن هذا السؤال أريدكم أن تعرفوا شيئين هامين :

الأول : أن التصوف ليس فلسفة ولا عقيدة، بل هو شعور وتذوق ، التصوف رياضة روحية ومجاهدة نفسية للتقرب من رب البرية والفوز برضاه ومحبته الأبدية، ليس التصوف إخراج الدنيا من اليد بل إخراجها من القلب، إذ لا رهبانية في الإسلام .

لذلك (وهو الثاني) ارتقى المتصوفة إلى معارج عالية من الشعور والتذوق، ولم يجدوا ألفاظاً تعبر عن مواجدهم الشفافة ، وأشواقهم الملهبة في المعجم الديني .
(إذ لكل غرض شعري ألفاظه) فأغاروا على شعر الغزل ليعبروا عن حبهم لله وشوقهم إليه، وخاصة بعد أن عبر مولانا عن الحب في كتابه فقال ﴿ **يحبهم ويحبونه** ﴾ وأغاروا على شعر الخمريات ليعبروا عن نشوتهم ولذاتهم في طاعتهم وذكرهم .

وهل للشاعر أن يستعمل هذا التعبير (السُّكر) مقابل لذته ونشوته ؟ .
أقول : نعم يجوز ، لأن القرآن الكريم استعمل هذا التعبير في مواضع من الكتاب العزيز ليدل على أن صاحبه كأنه شرب الخمر فسكر، هو لم يشربها، لكنه كأنه فعل فسكر بها .

أين هذا في كتاب الله تعالى ؟

في ثلاث سور منه في ق، وسورة سيدنا محمد ﷺ ، والحج .
فعلى موجات سورة ق (١٩) : ﴿ **وجاءت سكرة الموت بالحق** ﴾
وعلى موجات سورة سيدنا محمد (١٥) : ﴿ **وأَنهَارٌ مِنْ خَمِرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ** ﴾
وعلى موجات سورة الحج (٢) : ﴿ **وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد** ﴾ .

وهنا يصح أن نقول عن شعراء الحب إنهم سكارى وما هم بسكارى (على

الحقيقة بشرب الخمر والعياذ بالله) ولكن حبّ الله تعالى في قلوبهم وجوارحهم كبير .
قال الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدَّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ هذا هو لسان حال
الشعراء الإسلاميين وقلت لكم ولا أزال أقول : إن كبار الصوفية ملتزمون بالقرآن
والسنة، والتصوف عندهم هو شدة التمسك بالكتاب والسنة .

أيها السادة : بعد هذه المقدمة البسيطة أستطيع أن أنتقل بحضراتكم الآن إلى
حماء إلى سنة ٥٦٥ هـ حيث خرج أهلها منها لأن زلزالاً أتى عليها وضرب بعض
مدنها وقراها، ومن هؤلاء الذين خرجوا رجل يسمى الشيخ علي بن المرشد، ترك
حماء وتوجّه إلى مصر، في عصر الدولة الأيوبية بعد أن قضى القائد صلاح الدين
الأيوبي على دولة الفاطميين وقام بنشر مذهب أهل السنة والجماعة في مصر
والشام، كان الشيخ علي هذا . أيها الإخوة . من العلماء الفرضيين أي عالماً بعلم
الفرائض (المواريث) فغلب عليه التلقيب بالفارض، وكان نائب الحاكم أيضاً في
مصر، ثم سئل أن يكون قاضي القضاة أي (وزيراً للعدل بمفهوم العصر) فرفض
واعتزل القضاء والناس وآثر الانقطاع إلى الدنيا بقاعة الخطابة في الجامع الأزهر .

ومن هذا العالم أرسل الله إمامنا وشاعرنا الذي حدثتكم عنه في الجمعة الماضية
وهو : سيدنا عمر ابن الفارض .

ومع الحلقة ثمانية وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من
جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام ابن
الفارض .

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد الشاعر بمصر سنة ٥٧٦ هـ الموافق لسنة ١١٨١ م ، وكان
والده أول من ألقى بذور العلم والزهد في قلب الفتى النبيل الذي كان يهتم ببيئته
وملبسه ويتكلم بالعبارات الفصيحة فلما شب وترعرع اشتغل بفقه الشافعية، وهياً
الله له بعد والده أكابر عصره من العلماء الصوفية وأصحاب المكاشفات والكرامات

كبرهان الدين الجعبري (ت ٦٨٧ هـ) والإمام شهاب الدين عمر السهروردي (٥٣٩ . ٦٣٢ هـ) الذي انتهت إليه تربية المريدين ، والمحدث الثقة القاسم بن علي بن عساكر الشافعي (٥٢٧ . ٦٠٠ هـ) . ولكن أقوى الشخصيات الفكرية الصوفية التي تأثر بها عمر بن الفارض هي شخصية سيدنا الشيخ محيي الدين بن عربي (ت ٦٣٨ هـ) الذي عاصر ابن الفارض وكان مذهبه أقوى المذاهب أثراً في نفسه .

هذه التلمذة جعلته ينهج منهج الصوفية بما يسمى بالخلوة والعزلة عن الناس، فكان يستأذن والده ليبست بوادٍ في منطقة المقطم، يقضي فيه سواد الليل وبياض النهار، ذاكرًا لله تعالى متفكرًا في آلائه، ثم يعود إلى والده يلزم درسه ومجالسه في علوم الشريعة لغاية وفاة والده، وحتى التقى برجل يدعى الشيخ البقال فنصحه أن يقصد مكة المكرمة وقال له: « سيكون بها الفتح الأكبر عليك إن شاء الله تعالى » لم يتأخر ابن الفارض في المغادرة ، فقصده مكة سياحة كانت سبيله إلى الفتح الإلهي ، فأقام بوادٍ بينه وبين مكة عشرة أيام للراكب المجدد، فكان كل يوم يأتي إلى الحرم المكي يصلّي الصلوات الخمس في وقتها (وكأن بيته داخل الحرم) وانقطع خلالها عن الناس فكان لا يتصل بهم إلا وقت الصلاة في الحرم الشريف ليصلي ويطوف ، حتى ألفه الوحش والطير وتسامع به أهل مكة والبطحاء وبشعره الفذ فصار بعض العلماء يصحبونه من داخل الحرم إلى خارجه ويجهزون له دابة ليركبها أمام الحرم، وإذا بهم يرون أسداً عظيماً يظهر لهم عند الحرم يأتي إلى الإمام ابن الفارض وينخ له كما ينخ الجمل ويقول : يا سيدي اركب .

وحين رأى أهل مكة مكانة الإمام عند الله إذ سخر له الوحش والطير تسارعوا يحفظون قصائده وينشدونها في الأسفار وعلى المآذن، وخصوصاً القصيدة التي فيها أسماء المشاعر في مكة والتي يقول في مطلعها :

أبرق بدا من جانب الغور لامع أم ارتفعت عن وجه ليلي البراقع

(ليلي اسم الكعبة)

وقصيدته :

قلبي يحدثني بأنك متلفي روعي فداك عرفت أم لم تعرف
(جازيت عليه أم لم تجاز)

وقصيدته :

ته دلالاً فأنت أهل لذاكا وتحكم فالحسن قد أعطاك
وبما شئت في هواك اختبرني فاختاري ماكان فيه رضاكا
إخوتي في الله : قضى ابن الفارض في مكة خمسة عشر عاماً فيها الفتح الإلهي
المبين له، وبقي فيها حتى أواخر سنة ٦٢٩ هـ حيث استدعاه البقال بطريق الاتصال
الروحي ليحضر وفاته ودفنه ويجهزه ويصلي عليه .
فعاد الإمام إلى مصر وقد بلغ صيته كل قاص ودان، وأصبح موضع تقدير عليه
القوم ، وأقام بالأزهر في غرفة والده الراحل، عاد ليملي ديوانه بعد أن نظمه ونسقه
وقدمه للناس بجلته القشبية وتلقاه الناس بالقبول وأقبلوا عليه فلم ينكروا عليه شيئاً
من حالاته ولا نظمه .

وظفر في آخر حياته بإعجاب الملك الكامل به وإقبال الناس عليه، ولا أدل على
ذلك من أنه كان حيث يمشي في المدينة وقد ناهز الخامسة والستين يلتفون حوله
ويتهافتون عليه ويريد كل منهم أن يقبل يده، فلا يمكن أحداً من ذلك ، بل كان
يكتفي بمصافحتهم ووضع يده في أيديهم .

وكان الملك الكامل في مصر عاقداً مجلسه من أهل العلم والأدب، وكانوا
يتذاكرون أصعب القوافي فقال الملك : من أصعبها الياء الساكنة، وطلب من
الحاضرين أن يذكر كل منهم ما يحفظ من هذه القافية فلم يتجاوز أحدهم عشرة
أبيات، وهنا قال الملك إنه يحفظ خمسين بيتاً من قصيدة واحدة، وإذا بالقاضي

شرف الدين كاتب الملك يقول : أنا أحفظ منها مئة وخمسين بيتاً من قصيدة واحدة

وأنشد يقول :

سائق الأظعان يطوي البيد طي منعماً عرّج على كثنان طي .

فقال الملك : لمن هي ؟ قال القاضي : لعمر بن الفارض . فأمر الملك له بألف دينار تقدم له برسم الفقراء الواردين عليه ، فتردد القاضي وطلب من الملك إعفاءه من هذه المهمة متحججاً بأن ابن الفارض لن يقبل الذهب ، وأمام إلحاح الملك قصد القاضي إلى الأزهر وترك الذهب مع شخص كان يصحبه ، وما كاد يصل إلى بابه حتى وجد ابن الفارض ينتظره ويتندره ويقول : « يا شرف الدين مالك ولذكري في مجلس السلطان ردّ الذهب إليه ولا ترجع إلي سنة » .

فلما عاد القاضي إلى الملك وأخبره قال الملك : « مثل هذا الشيخ يكون في زماني ولا أزوره ، لا بدّ لي من زيارته ورؤيته » ، ثم قام ومعه خواص الأمراء إلى الأزهر ، لكن ابن الفارض لم يكذبهم بقدمهم حتى خرج من الباب الآخر الذي بالجامع ، وسافر إلى الإسكندرية وأقام برأس منارة تدعى المرقب .

يتعبد فيها الليالي ذوات العدد ويخلو مع حبيبته عز وجل يناجيه ويقول :

زدني بفرط الحب فيك تحيراً وارحم حشى بلظى هواك تسعراً
وإذا سألتك أن أراك حقيقة فاسمح ولا تجعل جوابي لن ترى
ياقلب أنت وعدتني في حبهم صبراً فحاذر أن تضيق وتضجراً

وأحياناً يضج إلى الله تعالى أن يطيل الليل حتى يبقى الناس بعيدين عنه ويبقى هو صابراً على العبادة لله تعالى قال مرة :

غيري على السلوان قادر وسوي في العشاق غادر
لي في الغرام سريرة والله أعلم بالسرائر
يا ليل طل يا شوق دم إني على الحالين صابر

هكذا شعراء الحب الإلهي همهم إرضاء محبوبهم وهو الله تعالى
أيها الأحبة والصحب : عاد الإمام ابن الفارض إلى الجامع الأزهر متوعداً من
مبيته بالمرقب، مرض شاعرنا، وكان يغيب عن الوجود فتتمثل له في غيبوبته الجنة
أمام عينيه وما أعد الله له من ثمرة حبه له، فيتأوه ويصرخ صرخة عظيمة ويبكي بكاء
شديداً ويتغير لونه ويسمعونه يقول :

إن كان منزلتي في الحب عندكم ما قد رأيت فقد ضيعت أيامي
أمنية ظفرت روحي بها زمناً واليوم أحسبها أضغاث أحلام
ثم يصحو ويحدث من حوله بما رآه ، فيقول له الإمام الجعبري : إن هذا مقام
عظيم، فيردّ عليه ابن الفارض . يا إبراهيم رابعة العدوية تقول وهي امرأة :
« وعزتك ما عبدتك خوفاً من نارك، ولا رغبة في جنتك، بل كرامة لوجهك الكريم،
ومحبةً فيك » أليس هذا المقام الذي كنت أطلبه وقضيت عمري في السلوك إليه، فسمع
الجعبري صوتاً حوله يقول :

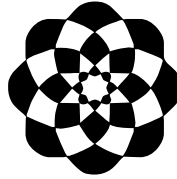
. يا عمر فما تروم ؟ فقال ابن الفارض :

أروم وقد طال المدى منك نظرةً وكم من دماء دون مرماي طُلت
وغاب ابن الفارض عن الوجود ثانية، فرأى الجعبري ابن الفارض وقد تحلل
وجهه وابتسم ، لكنه بعد هذه المرة لم يفق لأنه غاب في حضرة الموجود الحق جلّ جلاله .

توفي الإمام الشاعر سنة ٦٣٢هـ ، وغسله شيخه وحضر جنازته التي لم ير أهل مصر أعظم منها ، وتهاافت الناس على حمل نعشه حتى دفن بمقبرة العارض وقال فيه سبطه :

وقل السلام عليك يا ابن الفارض	جز بالقرافة تحت ذيل العارض
وكشفت عن سر مصون غامض	أبرزت في نظم السلوك عجائباً
فرويت من بحر محيط فائض	وشربت من بحر المحبة والولا

فرحمك الله يا ابن الفارض، وجمعنا بك في مستقر رحمته هناك كما جمعنا بك بروحك هنا، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ ، الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي .



إضافة إلى المصادر الأولى :

بدائع الزهور ٨١ / ١

(٦٧٥)

الشيخ محي الدين بن عربي

(٥٦٠ - ٦٣٨ هـ)

الحمد لله ذي العزّ المجيد، والبطش الشديد، المبدئ المعيد، الفعّال لما يريد، الذي أمر بتكريم العلماء وأكرمهم بدار لهم فيها من خير مزيد. فسبحان من قسم خلقه قسمين، وجعله فريقين، فمنهم شقي وسعيد، وغوي ورشيد: ﴿من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد﴾.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا كفء له ولا عدل ولا ضد ولا نديد.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله الداعي إلى التوحيد، الساعي بالنصح للقريب والبعيد، المحذّر للعصاة من نار تلظى بدوام الوقيد، المبشّر للمؤمنين بدار لا ينفد نعيمها ولا يبيد.

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمد صلاة وسلاماً لا يزالان على كرّ الجديدين في تجديد ، وسلّم تسليمًا.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام:

هل تعلمون عظيماً في الأمة له من المناصرين مثلما له من المناوئين؟! هل سمعتم برجل شغل بآرائه وأفكاره العقول والأذهان وأثار ثائرة قوم وإعجاب آخرين؟!

إننا اليوم مع هذا النمط من هؤلاء الرجال، مع سيد وضع مناهج تتناول التصوّف والصوفي في جميع درجاته، وكان هو مدرسة عبر القرون، وشهد له أعظم الصوفيين في عصره بأنه سلطان العارفين، كما لقّبه به شيخه سيدنا أبو مدين الغوث، وأطلق عليه آخرون لقب الشيخ الأكبر، فقال عنه الإمام السهروردي في بغداد: إنه بحر الحقائق. أعتقد أنكم عرفتم الشخصية الفذة التي ملكت عقول

المفكرين المشرقين والغربيين، إنه سيدنا الشيخ محيي الدين بن عربي واسمه سيدنا مُحَمَّد بن علي بن مُحَمَّد، حبيب أهل الشام من الصالحين، ومع الحلقة تسعة وثمانين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام الشيخ محيي الدين بن عربي:

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان:

ولد سيدنا ابن عربي في السبع عشر من رمضان سنة ستين وخمسمئة (٥٦٠ هـ) في مدينة مرسية بالأندلس، في ظل أسرة اشتهرت بالكرم والصلاح والتقوى، فأبوه كان رجلاً صالحاً مواظباً على تلاوة القرآن محباً وصاحباً لسورة يس خاصة، عندما دنت ولادته قال لولده ابن عربي:

. اليوم سيكون الرحيل واللقاء.

فقال له سيدنا ابن عربي: كتب الله سلامتك في سفرك وبارك لك في لقاءك. فرح الأب من جواب ولده وظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون بشرته من غير سوء، لها نور يتألأ فشعر بها الولد ثم انتشرت في وجهه حتى عمت بدنه، ثم مات، ودفنوه، والنور يتألأ منه.

وكانت أمه وأخواله من أهل الصلاح والزهد، منهم ملك تلمسان زهد وترك ملكه، وله عموم لهم قدم ثابتة في طريق التصوف، وهو من قبيلة طيء المشهورة بالكرم، وتزوج من سيدة لها أثر كبير في دفعه إلى طريق الهدى والنور، فهو ابن هذه البيئة الطيبة الصالحة، وصدق الله العظيم: ﴿وَالْبَلَدُ الصَّالِحُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبِثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا﴾.

إخوتي في الله: تحولت الأسرة سنة ٥٦٨ هـ إلى أشبيلية، وهناك تفتحت عبقرية الإمام على التعلم والتفقه والتأدب، فقرأ القرآن وجمعه على القراءات السبع المتواترة،

وكان لتوجهات شيوخه الأثر الفعال في صقل موهبته الشعرية ، وله منهج عظيم في أنه لم يخرج عن الكتاب والسنة والإجماع ، وفي ذلك يقول: إن عربي في شعره:

نسبوني إلى ابن حزم وإني لست ممن يقول قال ابن حزم
لا ولا غيره فإن مقالي قال نص الكتاب ذلك علمي
أو يقول الرسول أو أجمع الخلق على ما أقول ذلك حكمي

ويؤكد هذا المعنى في كتابه العظيم الفتوحات المكية فيقول: وليس عندنا بحمد الله تعالى تقليد إلا للشارع ﷺ.

ولقد بعدت همته في طلب العلوم وكانت عزيمته لا تعرف الكلل ، فهو كالنحلة دائب الانتقال من روض إلى روض، حتى أجازته مشايخه في العلوم والمعارف ، منهم ابن عساكر وابن الجوزي وحتى وبلغ مرتبة الاجتهاد ، ثم انقطع عن الناس وعاش بين المقابر ، فقال عنه الناس: إن ابن عربي ترك مجالسة الأحياء وراح يجالس الموتى. وجاء الفتح المبين لمغاليق العلوم وأعطاه الله ما غمض من أسرارها. وجعله كعبة القصد.

وتباركت أرض الأندلس وخارجها برحلات الإمام ولقاء شيوخ العالم الإسلامي في المشرق والمغرب، فغرف من بحارهم وفهم إشاراتهم، رسم على ضوء لقائهم طريقه ومذهبه، وكان له اجتماع بسيدنا الخضر ، يوجهه عند وجود الخلاف في الرأي بينه وبين أشياخه، ومرة اختلف في شيء مع شيخه أبي العباس العريني فأتاه سيدنا الخضر : يقول له: إن الحق مع أبي العباس، فعاد ليخبر شيخه بما حدث له، فقال له الشيخ: يا مُجد أحتاج معك في كل مسألة اختلف فيها معك أن يقول لك الخضر : صدق أبا العباس؟

طاف سيدنا ابن عربي الأرض ، والتقى بشيوخ عصره حتى بلغوا خمساً وخمسين شيخاً من العمالة في وقتهم ، درس عليهم التصوّف العملي والتبحر بعلوم الشريعة، وحج ومكث في مكة معتكفاً يدرس في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ،

قبل أن يؤلف بعده كتابه العظيم الفتوحات المكية، وعندما ألفه وضعه فوق الكعبة
عاماً كاملاً ثم تناوله فوجده بالحالة التي وضعها عليها لم يؤثر فيه شمس ولا رياح ولا
أمطار ، حتى أيقن أن الله تعالى تقبله بقبول حسن إن شاء الله تعالى .
وقد نظم سيدنا ابن عربي في فنون التصوف دعا فيها إلى الأخلاق والزهد وإيثار
الآخرة على الدنيا، والتشويق إلى سيدنا النبي ﷺ، وهو القائل:

لا تندمن على خير تجود به وإن أغاظك من يقطعه واقترا

فالله يرزق من يعطيه نعمته سواء أنكرها كفراً أو اعترفا

واسمعوا معي إلى هذه الأبيات التي يدعو فيها إلى الإخلاص:

إن كنت لي أكون لك ما أنت لي ما أنا لك

فاصغ إلى قولي تجد صحة ما قلت لك

ولتلتزم طريقتي واجهد وخلص عملك

تل بما جئت به من كل خير أملك

وقد ظهر سيدنا الشيخ الأكبر كأكبر أديب بين أدباء المشرق والمغرب، وحين
طال تجواله ما بين فاس والأندلس ومصر ومكة وبغداد وتركيا وحلب ، كان طلابه
وتلاميذه ومريدوه يكثرون ويكثرون ويستقبله الملوك والأمراء عندما يدخل مدنها ،
ويتعلمون منه التصوف العملي والزهد والكرم الذي لا مثيل له، فحين دخل قونية
من أرض الروم استقبله ملكها وأهداه داراً تساوي مئة ألف درهم، فما نزل بها وأقام
بها ، مرّ به سائل: فقال له: شيء لله، فقال: مالي غير هذه الدار خذها فهي لك.
بعد هذا التجوال في العالم شاء الله تعالى مع دوام الزهد وملازمة العباد أن وجد
ابن عربي نفسه يتوجه إلى مدينتنا دمشق ، فرحبوا به وقولوا ﷺ .

دخل بلدتنا المباركة هذه واقتنى داراً بجوار ملكها الملك شرف الدين عيسى سنة
٦٢٠ هـ، الذي كان يجلس سيدنا ابن عربي ، وينظر إليه نظره إلى أستاذه، وكان يكثّر
سيدنا ابن عربي الجلوس في زاوية الإمام الغزالي بالجامع الأموي، ومرة غاب المدرّس

الشافعي والشيخ محيي الدين حاضر، فقال الفقهاء: يا سيدي اذكر لنا درساً وألحوا، قال: أنا مالكي المذهب، ولكن ما الدرس؟ فأخبروه الدرس، وقام الإمام ابن عربي يشرح الدرس ولأهمية هذا الدرس أدعوكم جميعاً لحضوره، ولن أبعد بكم المزار فالجامع الأموي على بعد أمتار منا، فهلموا وأنتم تترضون عن الإمام ابن عربي، يقول سيدنا ابن عربي في بحث الصلاة: (انظروا كيف يتوضأ سيدنا ابن عربي وكيف يصلي) قال: إذا توضأت فاسع في الخروج من الخلاف وتوضأ أسبغ وضوء، وسم الله في بدء كل حركة، واغسل يديك بترك الدنيا منهما، ومضمض بالذكر والتلاوة، واستنشق بشم الروائح الإلهية، واستبري بالخضوع وترك الكبر، واغسل وجهك بالحياء، وذراعيك بالتوكل، وامسح رأسك بالمذلة والافتقار والاعتراف، وامسح أذنيك باستماع القول واتباع أحسنه، واغسل قدميك لإيطاء كثيب المشاهدة، ثم اثن على الله بما هو أهله، وصل على رسوله الذي أوضح لك سنن الهدى، وقف في مصلاك بين يدي ربك من غير تحديد ولا تشبيه، وواجهه بقلبك كما تواجه الكعبة بوجهك، كبره بالتعظيم ومشاهدة عبوديتك، وإذا تلوت فكن على حسب الآية المتلوة، فإن كانت ثناء عليه فكن أنت المحدث وهو الذي يتلو كتابه عليك، فيعلمك الثناء عليه فيما يثني به على نفسه، وكذلك في آية الأمر والنهي، وغير ذلك لتقف عند حدوده وتعرف ما وجه عليك سيدك من الحقوق فتحضرها في قلبك لأدائها والمحافظة عليها، والحظ ناصيتك بيده في ركوعك ورفعك وسجودك وجميع حركاتك، فتسقط لك الدعوى في هذه الملاحظة حتى تسلم، فإذا سلّمت فسلم باللفظ على من أمرك، فإن سلامك على نفسك.

ذهل الحاضرون من هذه الكيفية الجديدة في تدريس بحث الصلاة، وسمعوا بأذانهم تلك المرتبة التي بوأها الله لابن عربي، ورأوا ينايع الحكمة كيف تتفجر من قلبه على لسانه، ويذكر لنا ابن عربي نفسه كيف صار يرى الرؤيا الصادقة فتتحقق في اليقظة كما رآها، وكان يرى أثناء ذكره أنواراً تنبعث من باطنه حتى يبدد ظلام الحجرة التي

يذكر فيها، وبدأ يلتقي بأرواح الأنبياء والأولياء يحاورهم ويحاوروه ، وبقي في ترقٍ دائم حتى ارتقت روحه إلى هناك سنة ٦٣٨ هـ ، ودفن في مرقدته في منطقة الصالحية، ثم بنى السلطان سليم إلى جواره مسجد الشيخ محيي الدين.
يا أحباب رسول الله :

إن حياة الشيخ الأكبر على مدى ثمانين عاماً ما زال أثرها حياً باقياً بما تركه من مؤلفات ومعارف، وما زال الدعاء عند قبره مستجاباً، فمن كان يريد من الله شيئاً فليدع هناك كما يدعو هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك



• المصادر: الشيخ محي الدين بن عربي عبد العظيم فرغلي علي القرني

سير أعلام النبلاء للذهبي ٢١

الموسوعة الصوفية . للحفني .

جامع كرامات الأولياء : للنبهاني

(٦٧٦)

الإمام أبو الحسن الشاذلي

(٥٩٣ - ٦٥٦ هـ)

الحمد لله الذي جعل جنة الفردوس لعباده المؤمنين نزلاً ، ويسّرهم للأعمال الصالحة الموصلة إليها فلم يتخذوا سواها شغلاً ، خلقها لهم قبل أن يخلقهم وأسكنهم إياها قبل أن يوجدتهم ، وحققها بالملكاه ، وأخرجهم إلى دار الامتحان ليلوهم أيهم أحسن عملاً .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تبليغ القاصد من فضله سوله وأمله ، وتنيله من بحر جوده ما قصده وأمله .

وأشهد أن سيدنا وحبينا وأميرنا وقائدنا ووسيلتنا إلى ربنا سيدنا محمد عبده ورسوله وصفيه وحببيه ، وخليله المؤيد بأنواع المعجزات الباهرة ، الذي لا تحصى نعوته الشريفة ومناقبه ولا تعد ولا تحصر آياته المنيفة ومواهبه ،

فاق النبيين في خلق وفي خلق ولم يدانوه في علم ولا كرم
فإن فضل رسول الله ليس له حدّ فيعرب عنه ناطق بقم
لا طيب يعدل تراباً ضمّ أعظمه طوبى لمن تشق منه وملثم
صلى عليك الله يا علم الهدى

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم تسليمًا كثيرًا .
أما بعد: فيا معشر الأخوة الكرام:

هذه قصة رجل سما إلى سماء العز ، وبلغ من السعادة ما لم يكن يبلغ مثله أحد ، كان قطب الزمان وقدوة الأنام وعلم الهداية والمشار إليه بالولاية ، طلع من المغرب هلالاً بل بدرًا ، ونزل بالإسكندرية فعان أهلها منه على البر بحرًا ، وكان وافر الزهد والعبادة ، لائذًا بالمشيئة والإرادة ، ذا معارف وأسرار ، وأوراد وأذكار ، ومواعظ

وأقوال، وكرامات وأحوال، منفرداً عن الناس، معرضاً عن ساد وساس، يلازم الخلوة والذكر ويقطع أوقاته بالمراقبة والفكر، كان من أعظم العارفين وأكابر المحققين، ساس المريدين سياسة طهر بها قلوبهم ، ورباهم تربية محابها عيوبهم، يأتيه الضال صباحاً فلا يمسي إلا وقد أوصله إلى الله.

وطريقته لاتزال من وقته إلى الآن أوسع الطرق الصوفية وأشهرها، وأكثرها عدداً من الأتباع والمريدين، هو سيد شريف من ذرية سيدنا محمد بن الحسن بن سيدنا علي، وهو زعيم الطريقة الشاذلية، وإمام الأولياء والصوفية، وأحد مفاخر الملة المحمدية، إنه سيدنا وشيخنا ومرشدنا إلى الله سيدي أبو الحسن الشاذلي (واسمه علي بن عبد الله بن عبد الجبار) رحمته الله.

ومع الحلقة تسعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام أبي الحسن الشاذلي .

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان:

ولد سيدنا الإمام أبو الحسن في المغرب بغماره سنة ٥٩٣ هـ، ثم انتقل إلى شاذلة إحدى قرى تونس ودرس العلوم الشرعية في تونس، حتى أتقنها وصار يناظر عليها مع كونه ضريباً، ثم سلك منهاج التصوف وجدّ واجتهد وتربى على يد شيخه سيدنا عبد السلام بن مشيش (ومقامه في المغرب كمقام الإمام الشاذلي بمصر).

فاعتزل الناس وصحب الحياة إلى الصحاري والقصار وعلى الهضاب وفوق قمم الجبال، يقول سيدنا أبو الحسن الشاذلي: تنسكت ببعض الجبال فألقي في سري من سكن خوف قلبه لم يرفع له عمل، فضقت ذرعاً وأقمت على ذلك عاماً حتى رأيت المصطفى ﷺ وهو يقول: يا مبارك أهلكك نفسك فترق ما بين سكن وخطر فالمؤمن يخطر به ولا يسكن ، فسكن ما بي.

ساح وجاع ثمانين يوماً فظن أن هذا يكفي ليصبح صوفياً على طريق القوم ، فإذا
بامرأة خارجة من مغارة كأن وجهها ضياء الشمس حسناً وهي تقول: منحوس
منحوس، جاع ثمانين يوماً فأخذ يدل على الله بعمله، وأنا لي ستة أشهر لم أذق فيها
طعاماً.

إخوتي في الله:

كان لتربية ابن مشيش أثر بالغ في حياة الشاذلي، رباه على الكرامة وعدم مد
يده إلى أحد ، فعمل في التجارة وشارك في الزرع والحراث والحصاد وتربية الماشية.
كان كالأئمة الكبار يحب أن يأخذ زينته عند كل مسجد ، ويتحلّى دائماً
بalthياب الحسنة، ويقول: اعرف الله وكن كيف شئت، ومن عرف الله فلا عليه أيضاً
إن أكل هنيئاً مريئاً.

وكان عليه السلام يأمر غلامه فيقول: يا بني برّد الماء فإنك إذا شربت الماء السّخن فقلت
الحمد لله تقولها بكرارة، وإذا شربت الماء البارد فقلت الحمد لله استجاب كل عضو
منك بالحمد لله.

كان سيدنا الشاذلي كشيوخ الطرق الباقين يركب الخيل الجياد ويقول: لاتسرف
بترك الدنيا فتغشاك ظلمتها ، و تنحل أعضاؤك لها فترجع لمعانقتها بعد الخروج
منها.

كان الناس ينتفعون بحديثه الحسن وكلامه المطرب الذي يدخل القلب، تحول إلى
مصر وقدم الإسكندرية وكان بها سيدنا أبو الفتح الواسطي ، فوقف بظاهر البلدة
وعلى حدودها واستأذنه بروحه ليدخل الإسكندرية ، فسمع صوت الإمام أبا الفتح
يقول: طاقية لاتسع راسين، فمات أبو الفتح تلك الليلة، ودخلها سيدنا أبو الحسن
ونشر بها سيرته وطريقته وأحزابه، واعتقده الخاص والعام وكان يعلم أصحابه سر
الطريقة فيقول ليس هذا الطريق بالرهبانية ولا بأكل الشعير والنخالة، ولا ببقية
الصناعة، وإنما هو بالصبر على الأوامر واليقين في الهداية. ويكره من المريد أن يكون

متعطلاً وأن يسأل الناس، ويقول: إذا أردت أن تكون من أصحابي فلا تسأل أحداً شيئاً، وإن أتاك شيء من غير مسألة فلا تقبله، وإن كنت مقتدياً بالرسول في الأخذ فكن مقتدياً به كيف يأخذ، كان ﷺ لا يأخذ شيئاً إلا ليشب عليه من يعطيه ويعوضه عليه، فإن تطهّرت نفسك وتقدّست هكذا فاقبل وإلا فلا.

أيها الأحبة والصحب:

كان تصوف الإمام الشاذلي وأصحابه ومنهم تلميذه الأول أبو العباس المرسي وبعده سيدنا ابن عطاء السكندري ، وهم أركان الطريقة الشاذلية، كان تصوفهم سنياً، ابتعدوا فيه عن الفلسفة واقتربوا جداً من الإمام الغزالي وطلبوا من مريديهم أن يتخذوه قدوة، ويقول الشاذلي لهم: إذا عرضت لكم إلى الله حاجة فتوسلوا إليه بالإمام أبي حامد الغزالي، وكتابه الإحياء يورث العلم، وكتاب قوت القلوب للمكي يورث النور.

وكان يطلق شعاره في التصوف ويقول: التصوف تدريب النفس على العبودية وردّها إلى لأحكام الربوبية.

هكذا هو التصوف الشرعي، تصوف مرتبط بالكتاب والسنة، ولكن بعض المغرضين شوشوا على طريقة الشيخ ، وأرسلوا إلى سلطان الإسكندرية بأنه سيفسد عليه الناس ، وربما يستولي أصحابه على ملكك والإسكندرية لكثرة أتباعه، فبعث إليه السلطان رجاله ليغلظ عليه، وهنا عرف مقصد السلطان فقال لخدمته: بل على هذا الحجر الكبير، فبال عليه فانقلب الحجر ذهباً، فقال لرجال السلطان خذوا هذا للسلطان يضعه في بيت المال، فلما وصل الحجر للسلطان رجع عما فيه من سوء الاعتقاد بالإمام، ثم نزل لزيارته وواصله وعرض عليه الأموال فأبى وقال: الذي يبول خادمه على الحجر فيصير ذهباً بإذن الله تعالى لا يحتاج لأحد من الخلق.

ومرّة كان الإمام أبو الحسن الشاذلي يتكلم في الزهد وهو يلبس تلك الثياب الفاخرة، وكان في المجلس فقير عليه أثواب رثة، فقال الفقير في نفسه: كيف يتكلم

الشيخ في الزهد وعليه هذه الكسوة؟ أنا الزاهد في هذه الدنيا، فالتفت إليه سيدنا أبو الحسن وقال: ثيابك هذه ثياب الرغبة في الدنيا، لأنها تقول للناس أنا فقير، أنا فقير، وثيابنا هذه تنادي علينا بلسان الغنى وتقول صاحبها غني متعفف، فقام الفقير على رؤوس الناس وقال: أستغفر الله وأتوب إليه، السماح السماح ياسيدي، وهنا كساه الإمام كسوة جيدة.

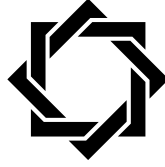
معشر الأخوة الكرام:

حج سيدنا أبو الحسن مراراً، فلما كان سنة وفاته ٦٥٦ هـ توفاه الله تعالى على طريق الحج بالصحراء في مصر ودفن حيث مات، يقول تلميذه أبو العباس المرسى: جلست في الملكوت فرأيت أبا مدين متعلقاً بساق العرش، فقلت: ما علومك؟ قال: أحد وسبعون، قلت ما مقامك؟ قال: رابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال، قلت فما تقول في الشاذلي؟ قال: زاد علي بأربعين علماً، هو البحر الذي لا يحاط به.

واليوم في تونس يتباركون بسيدنا أبي الحسن الشاذلي ومن عظيم ما ذكر أنهم إذا أجروا مباريات في الرياضة بين الفريق التونسي وغيره ويكاد الفريق الآخر يغلب الفريق التونسي ، يقوم الجمهور بإنشاد أنشودة تذكر مناقب الشاذلي وتتوسل به إلى الله ، فيدب الحماس بالفريق التونسي وينتصر على خصمه بإذن الله تعالى .

أيها الأخوة:

إليكم الحدث الأخير في سيدنا أبي الحسن، كان الماء في المنطقة الصحراوية التي دفن فيها الإمام أبو الحسن أجاجاً، كان الماء لا يستطيع أن يشربه الشارب إلا بصعوبة، فما دفن سيدنا الإمام أبو الحسن بجواره حتى انقلب الماء عذباً فراتاً ببركة سيدنا أبي الحسن، كان أجاجاً هناك قبل أن يدفن، فلما دفن بجواره أصبح عذباً هنا، عذب بذكر سيدنا مُحَمَّد هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك^(١)



١. الشعر الصوفي في مصر - علي صافي حسين ص ٦٠ .

. شذرات الذهب في أخبار من ذهب - عبد الحي العكري الحنبلي الدمشقي ٤٨/٧ .

. جامع كرامات الأولياء للنبيهاني ٣٤١/٢ .

. الموسوعة الصوفية .

(٦٧٧)

الإمام إبراهيم الدسوقي

(٦٥٣-٦٩٦ هـ)

الحمد لله الذي أيد الإسلام بمبعث سيد الأنام، وجعل مدده لكل خليفة وإمام، فهم ظل الله في أرضه يأوي إليه كل ملهوف ، والزعماء القائمون بنهي كل منكر وأمر كل معروف، جعل قصصهم عبرة لأولي الألباب، وتذكرة في كل خبر وكتاب، فمن عدل منهم كان أول السبعة، ومن ظلم كان في أخباره شنعاء

أحمدته حمداً كثيراً على أن عرفنا من صلح منهم ومن فسد، ومن هو في الوغى مدد، وبين الأنام عدد، ونشكره على أن أخرجنا عن كل الأمم، وهذا والله من أعظم الإحسان وأسبغ النعم، لنعين ممن تقدّم آثارهم ونشاهد منازلهم وديارهم ، ونسمع كل ما وقعت وجرت أخبارهم، أعظم بها من منة جليلة وكرامة وفضيلة. وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة لا ينقص قدر إيمانها بعد تأكده ، ولا يخفض مجد اتقانها بعد تشييده.

وأشهد أنّ سيدنا محمد عبده ورسوله الذي كان لقوى الحق أهلاً، ومن جعل بتشريعه طريق الفلاح لسالك سننه سهلاً . اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذريته وأتباعه، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

تكاملت صورة التصوف الإسلامي في القرنين الخامس والسادس من الهجرة النبوية، بعد أن عُرف في القرن الثالث الهجري كعلم مدوّن لأول مرة، وبدأ يأخذ طريقة كمنهج إصلاحية منظم عن طريق الدعوة الروحية والمجاهدات النفسية والخلقية في مواجهة تيار الترف والانحلال الذي أخذ يدبّ في المجتمع الإسلامي .

والتصوف . أيها الإخوة . كمنهج ثلث الدين الإسلامي ذلك أن الدِّين له ثلاثة أركان :

الإسلام أعمال الجوارح ، والإيمان هو العقيدة، والإحسان هو التصوف : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك (مشاهدة ومراقبة) مراقبة الله في سلوكنا و أخلاقنا .

ولذلك نجد في القرآن الكريم في مواضع عدّة يأمرنا مولانا أن نكون ربّانيين، والربّانية نسبة إلى الرّب وهم العلماء الأتقياء والفقهاء العابدون . فعلى موجات آل عمران :

﴿ كونوا ربّانيين (علماء عاملين) بما كنتم تعلّمون الكتاب ﴾ (آل عمران ٧٩) وعلى موجات سورة المائدة (٤٤) ﴿ يحكم بها التّبين الذين أسلموا للذين هادوا والربّانيون (العلماء) والأحبار ﴾ (الفقهاء) .

فالعالم الرباني هو المتخلّق بأخلاق الله تعالى .
التصوف ليس رسماً وعلماً ولكنه خُلُق، لأنه لو كان رسماً لحصل بالمجاهدة، ولو كان علماً لحصل بالتعلّم، وتستطيع أن تقول : إن التصوف كبج جماع النفس ومحاربة الأهواء لأنّ طبيعتها أمانة بالسوء، وإن شئت قلت : هو صفاء الضمير، والزهد في الدنيا والجاه والمتاع، واتباع سنة المصطفى ﷺ والانقطاع إلى الله تعالى ودوام التفكير والتأمّل.

وجاء علماء القرن الثالث الهجري فأطلقوا على هذه المعاني اسم التصوف اصطلاحاً (ولا مشاخّة في الاصطلاح) لك أن تسميه ربّانية ، أو تصوفاً أو مقام الإحسان ، صحيح لم يعرف هذا المصطلح في القرن الأول، لكنّ الصحابة الكرام كانوا أئمّة في الزهد وكبح جماح نفوسهم عن الآثام، وضربوا لنا الأمثال بالأخلاق والمعاملة، وكانوا قمماً في الزهد والتقشف والذكر والعبادة.

وعلى منهجهم سار من بعدهم من التابعين وتابع التابعين من الأئمّة الأولياء والأقطاب والأبدال.

ونحن اليوم مع قطب كبير حمل هذا المنهج بين جوانحه، لم يكن علماً من أعلام التصوف فحسب بل كان عالماً متحققاً بالشرعية حتى عُرضت عليه مشيخه الأزهر فأبأها، ومع أنه لم يعمر سوى ثلاث وأربعين سنة لكنه ترك لنا كثيراً من المحاضرات التي ألفها وألقاها على أتباعه .

كتب تبين أنه كان عالماً لا يشق له غبار، وبحر لا يدرك له قرار، حتى لقب بالأستاذ ، ألف في الفقه والتصوف والمواظ مما جعله في مصاف كبار الأولياء والعلماء .

وطريقته تسمى البرهانية لأن لقبه برهان الدين، و الإبراهيمية نسبة إلى اسمه، والدسوقية نسبة إلى بلدته .

إننا مع حفيد من أحفاد رسول الله ﷺ ، حسني النسب ، وقطب من كبار الأولياء في عصره سيدنا :

برهان الدين أبو العينين إبراهيم بن أبي المجد القرشي الدسوقي .

ومع الحلقة ثلاثة وتسعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام إبراهيم الدسوقي .

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد الإمام في شعبان سنة ٦٥٣ هـ ثلاث وخمسين وستمئة هجرية، من أبوين كريمين، أما والده فكان يحظى باحترام كبير من قبل أحد العارفين (محمد بن هارون) إذا دخل يجله ويحترمه، حتى عجب أتباعه من ذلك فسألوه فقال:

- إن في ظهره ولياً يبلغ صيته المشرق والمغرب .

وكانت والدته ابنة أحد خلفاء سيدنا الإمام أحمد الرفاعي (أبو الفتح بن أبي الغنائم الواسطي) على درجة كبيرة من الصلاح حدثت عن والدها فقالت : كان إذا دخل رمضان امتنع عن الرضاعة من الفجر إلى غروب الشمس، حتى إنهم شكوا

في رمضان الثاني هل دخل أم لا ؟ فقالت أمه : نعم قد دخل رمضان وهذا أول يوم منه ، فقالوا : وكيف عرفت ؟ قالت : امتنع ولدي إبراهيم عن الارتضاع .

وشبَّ شباباً دلَّ على أنَّ له شأنًا أي شأن كان يقوم الليل ويتقي المحارم، شجاعاً مقاتلاً يضرب بالسيف ويطعن في الرمح ويجيد القتال ، وجميع أتباعه شجعان مجاهدون، وطريقتهم قامت على الجهاد والمجاهدة.

والعجيب أنَّ علمه كان وهيباً، إذ نشأ في قرية لا فقيه فيها ولا معلّم، وكل ما آتاه الله تعالى كان ببركة القرآن الكريم والصلاة على النبي ﷺ.

ودرس الفقه الشافعي من الكتب، ولكثرة الصلاة على النبي ﷺ كان يراه في المنام واليقظة ، ويكشف له عن الأمور ويفتح له أقفال الحجب، لذلك صرح هذا القطب الرباني مرة فقال : « أنا لا منة لأحدٍ عليّ إلا رسولُ الله ﷺ » ليس له شيخ ولا قدوة إلا خير البرية.

ورجل هذا حالة يقول عنه العارفون : إنه يكون متّصفاً بالعلم الدقيق بالكتاب والسنة والسير على هدي المصطفى واتباع سنته القولية والفعلية والإخلاص والخشية من ربِّ البرية.

فهل صدق هؤلاء العارفون فيما قالوه ؟

إخوتي في الله :

إنَّ المطلع على سيرة القطب سيدي إبراهيم الدسوقي ليجد أنَّ الإمام كان يركّز على أنَّ طريقته : شريعة وحقيقة، ويدعو للحفاظ على شعائر الإسلام لمن أراد أن يفوز باليقين.

لذا أيها السادة . اسمحوا لي أن أبادر فوراً بالانتقال بحضراتكم على أجنحة الإيمان ونور اليقين إلى هناك، إلى دسوق حيث القطب الرباني يلخّص منهجيته لمريديه، فلندخل عليه ونحن نترضى عنه، هاهو يقول لهم : « إذا حقّق الرجل إسلامه، وأتقن إيمانه فاز باليقين، لأنَّ المقرّ بالشهادتين بلا إثبات فروض الدّين مسكين، فإذا أتى بالإسلام والشريعة الأعمال المطهرة بالإيمان وأدّى الفرائض

المفروضات من الصلاة والصوم والزكاة والحج والحلال وضبط الدين في الأعمال والأقوال كان هو المسلم المؤمن .

بالله عليكم يا سادة أليس هذا القول من منهل الشريعة، الشريعة التي تثمر بالحقيقة، وقد عرفنا الشريعة، فما هي الحقيقة عند أهل الله ؟

الحقيقة عند العارفين بالله هي الاستغراق في أداء الفرض، بالاندماج بالكلية في العبادة، حتى يشعر الإنسان بلذّة القرب في حضرة الخالق، وهذا ما يسمى عند الفقهاء بالخشوع في الصلاة.

وهذه الحقيقة (أي التحقق بأداء العبادة) ذكرها القطب الدسوقي.

أيها السادة : ما زلت معكم واقفين على الأعتاب، ونحن نسمع الدرر التي يتكلم بها الإمام، ولالإمام كلام بالعبرية والسريانية والأعجمية، فهو يتكلم بجميع اللغات ولجميع الأمم وهذا يعدّ من كراماته، اسمعوه وهو يقول : «من لم يكن متشرّعاً ولا متحقّقاً عفيفاً فليس من أولادي ولو كان ابني لصلي، وكل من كان من المريدين ملازماً للشريعة والحقيقة والطريقة والديانة والصيانة والزهد والورع وقلة الطمع، عاملاً بما علم فهو ولدي وإن كان من أقصى البلاد.

يا ولدي ما دام لسانك يذوق الحرام فلا تطمع أن تذوق من الحكم والمعارف شيئاً ، أتروم أن تتذوق أسرار معاني كلام الله عزّ وجل وأنّت في الشهوات غارق؟! أم تروم ذلك وقد تذكّرت كل شيء سواه فلا تتلذّد إلا بما يحجبك عنه، حاشا لله فإنّ كلام الله عزّ وجل أعزّ وأجلّ من أن يدركه المنصرفون عنه.

لا يجوز لحامل القرآن أن يدنّس فمه بأكل حرام ولا بكلام حرام، مثال من ينطق بالقرآن مع تدنّس فمه بغيبة أو نسيمة أو بهتان مثّل من وضع المصحف في القدر، وقد قال العلماء بكفره .

أيها الأحبة والصحب: هذا درس واحد من دروس عدّة من هذا المنهج الفريد الذي أعده رجل من سادات الأمة، سيد ضرب بنفسه المثل ليقّتي به أتباعه،

وكان على درجة كبيرة من علو النفس وارتفاع الهمة، يستر عيوب إخوانه، ويغيث الملهوف، ويجير من احتذى به ولاذ ببابه، وهو القائل :

فإننا لنحمي الذي قد أتى لنا إذا قال غثني يا دسوقي بنية
إذا كان في شرق أو الغرب قال لي أغثني أغثه من سيوف صقلية

وهذا لا يقوله إلا من لا يغفل عن الله طرفه عين، ولا يشهد فاعلاً في الكون إلا الله، وحقاً كان القطب الدسوقي كذلك، اسمعوا إليه وهو يناجي مولانا عزوجل فيقول :

ولقد جعلتك في الفؤاد مؤانسي وأبحت جسمي من أراد جلوسي
فالجسم مني للحبيب مؤانس وحبیب قلبي في الفؤاد جليسي

إنَّ القطب رحمته الله أقبل على الله تعالى بكليته بالذكر والعبادة حتى سقاه الله كأس المحبة الإلهية، والله تعالى يقول في الحديث القدسي (فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها ولئن سألتني لأعطيته ولئن استعاذني لأعيذته) (خ)
شرب القطب الدسوقي من كأس المحبة الإلهية، فحكّمه الله تعالى بكل ما في هذا الكون، يقول رضي الله تعالى عنه :

سقائي محبوي بكأس المحبة	فتهت عن العشاق سكرًا بخلوتي
ولاح لنا نورُ الجلالة لو أضأ	لصمُ الجبال الراسيات لدكتِ
ونادمي سرّاً بسرٍ وحكمة	وإنّ رسول الله شيخي وقدوتي
وعاهدني عهداً حفظتُ لعهد	وعشتُ وثيقاً صادقاً بمحبتي
وحكمي في سائر الأرض كلها	وفي الجن والأشباح ربُّ البرية

معشر الإخوة المسلمين:

كان اتصال القطب الدسوقي بالله تعالى عظيماً أورثه كل شيء، ومن كان مع الله كان الله معه، ومن أطاع الله أطاعه كلّ شيء، وهو القائل : « لي الآن أربعون سنة ما حجبت عن الله طرفة عين » .

وقد حاول بعض ضعاف القلوب أن يتحدثوه في علمه فقبل التحدي، جاؤوا إليه وهم يخططون للإيقاع به علمياً، وما إن جلسوا إليه وقال لهم : (هاتوا ما عندكم) حتى تبخر ما كان في عقولهم من إعجاز (وكأنهم فقدوا الذاكرة) وراحوا يسخرون من أنفسهم واعترفوا بأنهم أمام ولي عارف بالله ربّاني وصاروا من أتباعه ومريديه فقال فيهم :

فكم من عاقل قد جاءنا وهو منكر فردّ بفضل الله من أهل خرقتي

حتى السلاطين والأمراء الذين كانوا في عصره رضخوا لأمره وانقادوا إليه واتبعوه لما رأوا من إخلاصه وتقواه وعلمه، إذ استنجد الناس بالإمام القطب من الظلم الذي تعرضوا إليه من بعض المماليك المستبدّين بمقدرات البلاد، وكان السلطان آنذاك الأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣ هـ) فكتب إليه القطب أن يكفّ رجال الحكم في دولته عن ظلم الناس لأنه مسؤول أمام الله عن رعيته، فبماذا أجاب السلطان ؟

انظروا إلى بطانة السوء عندما تحيط بالملوك والحكام، إنّ بعض حاشية السلطان أوغروا صدره عليه، وأفهموه أنّ هيبة الحكم وسطوة السلطان تقتضي أن يضرب هذا الرجل المجترئ على الدولة، ومازالوا به حتى أرسل فرقة الجند بقيادة الأمير عزّ الدين إلى دسوق، ونزل تحت خيمة ضربت له هناك على النيل، وأرسل يستدعي القطب أبا العينين الدسوقي رحمته الله فرفض الإمام المجيء إليه وقال للرسول : ارجع فإنّ صاحبك قد أصابه الله بالشلل لتعديه على أهل الله.

فعاد الرسول فوجده لا يستطيع القيام، وعاد الجنود حاملين الأمير وقد باؤوا بالفشل، ولكن بطانة السوء جعلت السلطان يرسل إليه كوكبة من الجند ومعهم

وحوش وسباع ضارية، وما أن برز إليهم الإمام حتى هاجت السباع وماجت وتحولت إلى الجند تريد أن تفتك بهم بقدرة قادر.

عندها فقط تبين للسلطان خليل أن الإمام الدسوقي من الأولياء وليس كما صوره الوشاة، فقرر أن يذهب إليه بنفسه معتذراً يطلب صفحه وبركته، سار من القاهرة إلى دسوق ليقبل يد الإمام الذي بلغ من العمر ثلاثاً وأربعين سنة، وأهل الله يعجل الله تعالى بهم (إنما يعجل الله بالأخير)، اختار الإمام ما عند الله بعد أن أحبه أهل الأرض وأهل السماء (سنة ٦٩٦ هـ) استقبلته السماء بعرس سار فيه الذاكرون يحملون القطب إلى هناك، حيث لا هناك هناك، فمن أراد أن يلتقي به هناك فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى النبي الأعظم ﷺ وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله هي الصلاة والسلام عليك.

المصادر:

جوهرة الدسوقي

الموسوعة الصوفية ١٥٧

الطبقات الكبرى للشعراني ج ١/١٦٥

شذرات الذهب لابن العماد

الإمام أبو العيين الدسوقي (عبد العال كحيل)

(٦٧٨)

الإمام عبد الوهّاب الشعراني - ج ١

(٨٩٧ - ٩٧٣ هـ)

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت ، بيده مقاليد الأرض
والسماوات ومصاير جميع المخلوقات، (ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو فاعبدوه وهو
على كل شيء وكيل) .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إله تنزه عن الوزير و النظير والمشير
في سائر الحالات.

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله وصفيه وخليله أزاح الله بنور وجوده ظلم
الجهالات، وأيده بالمعجزات الباهرات، وختم به النبوة والرسالات، وهياً له أبطالاً
حملوا هذا العلم بأمانة وبلغوه في نواحي الأرض في كل الأوقات، ولم يخافوا في الله
لومة لائم من جميع البريات .

اللهم صل وسلم وبارك على هذا النبي الكريم والسيد السند العظيم سيدنا
ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه الذين توكلوا على مدبر أمرهم فأحاطهم بعونه في
الحياة ونعيمه بعد الممات ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام : أقف اليوم مع حضراتكم أمام قمة سامقة
علمية صوفية عالية، قمة عاشت في القرن العاشر الهجري وكان صورة مثالية
للسوفية في عصره، ومناراً وحجة للسالكين إلى الله تعالى .

لأن بعض الناس في هذه الأيام يحاولون تشويه الوجه الحقيقي للتصوف ويتبعون
سقطات المتأخرين لتنفير الناس من التصوف بحجة التمسك بالكتاب والسنة .
وما الصوفي الحق إلا ابن الكتاب والسنة وخادمهما .

اليوم أثبت لكم بما لا يدع مجالاً للشك ما هو موقف الصوفي بالحديث عن إمامنا المجاهد على بصيرة ومعرفة بالكتاب والسنة، فهابه الملوك لأنه لم يذل نفسه لهم، بل اعتز بعزة الله الذي وهبهم العلم والمعرفة ، فصان بذلك حق العلم ورفع من مكانة العلماء وتخلق بأخلاق النبي ﷺ التي يعتز بها الصوفية ، فكان مثلاً كاملاً في الورع والتواضع والزهد والكرم والحياء .

وأعطاه الله تعالى فهماً ثاقباً فتنبه لما يحيط به من خرافات وأوهام ، فجهر بكلمة الحق وأعطى للناس صورة حقيقية للتصوف الحق حتى يفلق الطريق أمام أدعيائه ومستغليه ومشوهي صورته.

ووضع بتأليفه المتعددة وآرائه الثابتة منهجاً صحيحاً يوفق فيه بين آراء الفقهاء والصوفية.

فتحن اليوم في زيارة إمام عامل ، وعابد زاهد ، وفقه شافعي محدث ، ومربي مسلك من ذرية الإمام محمد بن الحنفية بن سيدنا علي بن أبي طالب .

مع سيدنا الإمام القطب الرباني سيدي عبد الوهاب الشعراني رحمته الله
ومع الحلقة ستة وتسعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام الشعراني:
ﷺ وأرضاه ورضي عنا معه

إخوة الإيمان: في ظل دولتين متعاقبتين دولة المماليك الشراكسة ودولة العثمانيين، وفي القرن السادس عشر الميلادي الذي يقابل القرن العاشر الهجري وفي عام ٨٩٧ هـ وُلد سيدنا عبد الوهاب بن أحمد بن علي الشعراني.

ولد من أسرة علمية صوفية ، وله سبعة أجداد كلهم سلاطين، وجده السلطان أحمد كان معاصراً للصوفي الكبير سيدنا أبي مدين الغوث أحد أساتذة الشيخ الأكبر سيدنا الشيخ محي الدين بن عربي ، وتتلذذ ابنه موسى عليه وصار من أتباعه الذين أخلصوا له وتفانوا في خدمته ، فلما أراد أن ينشر دعوته، أرسل جماعة من أصحابه

في الأرض وأرسل موسى هذا إلى صعيد مصر قائلاً له : عينك أهل الله في صعيد مصر تعيش فيها وتموت فيها. فكان كما قال.

فأسرة الإمام الشعراي في مصر عريقة ، وهذه العراقة كفلت لها الاعتزاز بالدين اعتزازاً جعلها تتجه إلى التصوف على اعتبار أنه جوهر الدين ولُبّه ، والتصوف في حقيقته كما يقول أهله العارفون : علم انقذ في القلوب بعد استنارتها بالعمل بالكتاب والسنة .

وقد ضمّى جد الشعراي بالملك في سبيل التصوف، لأن شيخه أبا مدين أخبره أن التصوف مع السلطة لا يجتمعان، فاختار التصوف وزهد في السلطنة. وأما والده فتذكر الكتب أنه كان عالماً فقيهاً مؤلفاً حافظاً للقرآن الكريم قال لولده سيدي عبد الوهّاب : جمعت من العلوم ما لو اجتمع على سائر العلماء بالجامع الأزهر لقطعتهم بالحجج الواضحة الصحيحة .

معشر الإخوة الكرام :

لكن الإمام الشعراي لم ينعم بوالده كثيراً ، إذ توفي والده في أول سن المراهقة، فنشأ يتيم الأبوين وتولى كفالته أخوه الشيخ عبد القادر وكان عالماً ورعاً، له مناقب كثيرة في الزهد والفقه .

فتولى كفالة الفتى الذي ما أن بلغ سن الثامنة حتى حفظ القرآن الكريم وقرأ متون العلم واطلع على قدر غير يسير من شروحها ، ثم التحق بالأزهر شأن طلاب العلم، ومكث فيه خمس سنين طالباً مجداً يدرس العلوم بشغف ونهم ويحفظ المختصرات، حتى حفظ مختصراً كبيراً في الفقه الشافعي هو (الروض) مختصر (الروضة) ولم يكتف بالأزهر بل راح يقرأ على المحدثين والفقهاء وكبار العلماء ، حتى بلغ شيوخه خمسين شيخاً من أجلاء العلماء الذين كانوا يعجبون به ويدهشون لقوة حافظته وشدة فهمه وكان من أعظمهم شيخ الإسلام في وقته القاضي الإمام الشيخ زكريا الأنصاري، كل ذلك يكتب ما سمعه من التعليقات

على طرف كتبه .

وقيض له من شفق عليه وقدم له المأكل والملبس والمأوى . يقول سيدنا الإمام الشعراي في كتابه (لواقح الأنوار القدسية) : كان جدي الشيخ نور الدين يشفق على الأيتام فببركته قبيض الله لي الشيخ خضر الذي رباني وزوجته فعشت معهما في أرغد عيش وأرفهه من المأكل والملبس حتى ماتا .

أيها الأحبة والصحب : لم يكتف سيدنا الشعراي بالعلم بل كان العمل والعبادة ديدنه في حياته كلها، إذ لا بد من العلم مع الذكر ليكون أدعى إلى تثبته وتحقيقه وجمعه بين علمي الشريعة والحقيقة. لذا كنت تراه يكثر من الصوم وكف النفس عن التطلع إلى الشهوات، وحين أقبل على طريق التصوف أقبل عليها بهمة لا تعرف الكلل، بدأها بقطع نفسه عن الدنيا، ومكث سنين لا يضطجع على الأرض لا ليلاً ولا نهاراً، بل اتخذ له حبلاً بسقف غرفته أو خلوته يجعله في عنقه ليلاً حتى لا يسقط، وكان يديم الصوم ويفطر على أوقية من الخبز ثم اعتزل الناس وسكن في أحد الأبراج الخربة مدة سنة .

أعرفون . أيها الإخوة . ماذا أنتجت هذه المجاهدات ؟

لقد قويت روحانية الإمام، وغلبت على جسديته فصار يطير من صحن الجامع إلى سطحه ، وصارت روحه تعشق العلو، تطيعه في الصعود وتستعصي عليه في الهبوط .

وكان يتعاهده في فترة المجاهدات الأولياء والعارفون بالله لما رأوه مقبلاً على العلم منهمكاً به ، ورأوا أمارات النجاة والرئاسة عليه، قال له أحدهم : « أقبل على الله، ويكفيك من العلم ماتعلمته » ، فبدأ يدرس التصوف ويقرأ كتبه ويتبحر بها . ثم لقيه آخر فقال له :

إن أردت حياة قلبك الحياة التي لا موت بعدها، فاخرج عن الركون إلى الخلق وممت عن هواك وإرادتك، وتوجه إلى المسجد الغمري .

فسكن هذا المسجد وكان معهداً علمياً عتيداً خاصاً بالطلاب أقام فيه مدة طويلة تقدر بحوالي سبعة عشر عاماً . وقبض الله له إمام المسجد وأسرته ، ورسم في هذا المسجد مستقبله الروحي الزاهر .

إذ أقبل عليه الناس من كل فج عميق، وقدموا إليه الهدايا والأموال وهو يأبأها، وكلما أبأها ارتفع في أعين الناس ، وكان ذلك يرفعه أيضاً في عين الله لأن إقباله عليه كان صادقاً في الوصول إلى الله .

وفي هذا المسجد اجتمع بسيدنا الخضر على سطح الجامع وكلمه، ودله سيدنا الخضر على الميزان الذي يرى فيه أقوال الأئمة والمجتهدين مستمدة من عين الشريعة. فألف كتابه العظيم (الميزان) .

ثم هياً الله له زوجة صالحة بطريقة عجيبة لم تحدث لأحد. جاءه أحد الأولياء وسأله : هل أنت متزوج ؟

قال الإمام الشعراني : لا

قال الولي : ولم ؟

قال الإمام الشعراني : لأني فقير لا أملك المهر

قال الولي : امدد يدك فقبض يده ثم قال له : زوجتك وأنكحتك زينب بنت خليل القصبي وأقبضت عنك المهر ثلاثين ديناراً وأخدمتك إخوتها الثلاثة وأعطيتك البيت المسجل باسمها، قل: قبلت نكاحها لنفسي، فقال الشعراني : قبلت، وانصرف الولي.

وما إن حل المساء حتى طرق الباب طارق.

قال الشعراني : من ؟

قال : أنا خليل القصبي . وفتح للرجل فقال للشعراني : أريد أن أصاهرک وأزوجك ابنتي. وأطرق الشعراني محتاراً ثم قال : أنا فقير، فإذا برجل يسمع تحاورها عن بعد فقال : أنا عندي ثلاثون ديناراً أدفعها عن الشيخ مهراً، وأصبر عليه حتى

يأذن الله بالفرج. ويقبض القضي المهر ويقول : ولها بيت على اسمها أعطيه لكما،
ولها ثلاثة إخوة هم خدمك يتعلمون على يديك. (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)
ويتحقق قول الولي ، وتكون زينب هذه أولى زوجاته ويتبعها بعدها بثلاث، ويعد
الشعراني من نعم الله عليه إصلاح زوجاته ، فقد كن طائعات قانتات صابرات ،
ومن زوجته فاطمة أعقب ولده عبد الرحمن ومات بقية أولاده.

معشر السادة: وحين بلغ سيدنا الإمام الشعراني سن السادسة والعشرين أي
سنة ٩٢٣ هـ افتتح السلطان سليم مصر وأقام قلعة الجبل، ووفدت عليه الوفود
للسلام عليه، وحين أراد الرحيل سأل : هل بقي أحد من العلماء أو الأولياء لم نره؟
فقالوا : ما بقي إلا رجل واحد صغير السن لم تجر عاداته أن يقابل أحداً من الولاة،
فقال السلطان سليم : أنا أذهب إليه، وقام السلطان وحاشيته إلى جامع الغمري
فقابل الإمام الشعراني ودخل حبه إلى قلبه واعتقده.

وهكذا نرى . أيها الإخوة . من خلال هذا الفصل الأول من حياة الإمام أن من
أقبل على الله أقبل عليه كل شيء، ومن أعرض عن الله أعرض عنه كل شيء.
احفظوا هذه القاعدة التليدة من خلال الحلقة الأولى من حياة الإمام الشعراني:
من أطاع الله أطاعه كل شيء هنا أو هناك .

وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية
إلى الحبيب وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله هي الصلاة والسلام عليك

صلى الله
عليه
وسلم

الإمام عبد الوهاب الشعراني - ج ٢ -

الحمد لله الذي لا يخيب لديه أمل من أمله، ولا يغيب عن بساط قربه من رضىه وقبله، الأول من غير بداية، الآخر من غير نهاية ، الغني الذي لا شريك له في فعله، استوى على العرش من غير تكيف ولا تشبيه، وقد ضلّ من شبهه ومثله، العرش لا يمسكه، والعقل لا يدركه والوهم لا يصوره، والفكر لا يقدره .

أحمده على ما أسدى من خير وأجزله ، وأبدى من بر فأكمّله .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له إله علم الأشياء مجملّة ومفصّلة.
وأشهد أن سيدنا محمّداً عبده وصفيه الذي أرسله، وحبيبه الذي أنزل عليه الكتاب فجمع فيه علوم الكتب المنزلة، وهياً له رجالاً وأئمة كشفوا ببرهانه كل مفصّلة، وأوضحوا بيان كل مشكلة.

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على سيدنا ومولانا محمّد وعلى آله وأصحابه
كما جعله بالخير أجود من الريح المرسلة، وسلم تسليمًا .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هيا الله للإمام الشعراني شيوخاً في حياته عرّفوه الطريق إلى الله تعالى علماً وذوقاً ، فكراً وحالاً تعلم منهم أن العلم إذا لم يثمر العمل لا قيمة له، وأن العلم إن لم يكن وسيلة لتحصيل المكارم فالجهل خير منه، وأمروه بثلاثة أركان هي الأولى للوصول إلى الله تعالى وهي : الاستغفار، والصلاة على النبي المختار، والذكر بلا إله إلا الله .

دلّه شيخه علي الشوني إلى الصلاة على النبي ﷺ وقال له : إنّها تورث المصلي الفيوضات الروحية والإلهامات النورانية، وتشعره بلذة روحية كلما تردد اسم النبي ﷺ بالتعظيم والتكريم، وبها تكون معايير الحب والتعلق برسول الله ، وتقوم مقام الشيخ في الإرشاد والتوجيه، ذلك أن النبي هو الرحمة المهداة وبواسطته أنعم الله علينا بنعمة

الإسلام ، وعن طريقه عرف الناس أسس الهداية والنور، لذا أمرنا الله تعالى بالصلاة عليه .

دخلت هذه التوجيهات سويداء قلب الإمام وعجن ذاته بها، واتخذ زاوية لمريديه أقام فيها مجلساً للصلاة على النبي كل ليلة من عام ٩١٨ هـ وحتى فراقه للحياة لسنة ٩٧٣ أي ما يزيد على نصف قرن.

وتأثر بشيخه ابن عنان في كثرة العبادة ودوام السهر وملازمة التهجد وقيام الليل حتى قال الشعراني: كنا ونحن شباب في ليالي الشتاء نراه وهو واقف يصلي على سطح الجامع الغمري ثم ننام ونقوم فنجدّه قائماً يصلي وهو متلفح بحرامه . حتى تعرف على الشيخ علي الخواص سنة ٩٤٥ هـ ليبدأ مرحلة جديدة كانت زهرة حياته ومرحلته الذهبية.

إننا . معشر الإخوة . مع الحلقة سبعة وتسعين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع الحلقة المتممة لسيرة الإمام الشعراني أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام .

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان:

سيدنا علي الخواص رجل أُمي لا يقرأ ولا يكتب، ومع أن الشعراني كان حجة في العلوم والفنون لكنه تلقن على يدي هذا الإمام الرباني فنون الحكمة العالية التي لم يكن علمه سبق إلى قطرة من قطراتها.

ولأنه تحول هام في حياة الإمام سمحوا لي أن أدعو حضراتكم لأطير بكم على جناح السرعة إلى هناك، إلى مصر لألتقي معكم بروح هذين الإمامين الجليلين والبحرين العظيمين بحر الشريعة وبحر الحقيقة واسمعوا معي إلى المحاورة الأولى بينهما :

قال له الخواص : إلى من تنتسب ؟

قال الشعراني : إلى السلطان أحمد سلطان المغرب نسباً ، وإلى مُحَمَّد بن الحنفية شرفاً .

قال الخواص : ما عملك ؟

قال الشعراني : العلم ، أقرؤه وأطلبه وأعلمه .

قال الخواص : سلطنة وشرف وعلم مع فقر (تصوف) لا يجتمعان ، فإن أردت مصاحبتي فاختر الفقر على ما عداه .

واختار الإمام الشعراني ، اختار الفقر (التصوف) وصحبة الإمام الخواص .

إنني اليوم أيها السادة وللمرة الأولى أستعرض مع حضراتكم المجاهدات التي يتعرض إليها الصوفيون في الوصول إلى الله تعالى .

ولا تنسوا أن عمدة الطريق إلى الله كثرة الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ .

أول درس أخذه الإمام الشعراني من شيخه الأخير : كيف يجب على العالم ألا يغتر بعلمه ، أو يعتقد في نفسه مهما أوتي من شهادات أو حصل على إجازات أنه وصل إلى نهاية المطاف .

علّمه أن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها ، وألا يأنف من اليد التي تقدمها ، ولا يتعالى على الله من الذي يلقنه ، ولا يتسامى على الإنسان الذي يجلس بين يديه .

كان اجتماع الإمام الشعراني بالإمام الخواص إشارة كريمة إلى المعنى الذي يفهم من قصة سيدنا موسى وسيدنا الخضر ، وقد تعلم سيدنا موسى وهو من أولي العزم على يدي سيدنا الخضر النبي علماً لم يدركه ، وحكمة لم يكن يعرفها .

ثاني مجاهدة مرّ بها الإمام أُمّ شيخه له ببيع كتبه كلها والتصدق بثلثها على الفقراء . تصوروا كتب عليها التعليقات والخواشي والشروح بخط يده وتعب أربعين أو خمسين سنة ، لو وزنت بمداد الذهب لرجحت ، لكن الإمام امتثل وباعها كلها وتصدق بثلثها على الفقراء .

يقول الإمام الشعراني : وشعرت كأني سُلبت العلم .
ثم أعطاه شيخه دواءً ثالثاً قال له : اعمل على قطع التفاتك إليها بكثرة ذكر الله تعالى ، فإنهم قالوا : **ملتفت لا يصل** . فصار يكثر من الذكر لينسى كتبه .
وبعد مدة أعطاه جرعة دواء رابعة إذا أمره بالعزلة عن الناس مدة حتى صفا وقته وكان يهرب منهم ويرى نفسه خيراً منهم ، فكشفه الشيخ وأعطاه جرعة خامسة وقال : اعمل على قطع أنك خير منهم ، فجاهد بالذكر حتى صار يرى نفسه أدنى من كل فقير .

ثم نقله إلى مقام أعلى : أمره أن يختلط بالناس ويصبر على أذاهم ولا يقابلهم بالمثل ، فعمل على ذلك وقام على خدمتهم والصبر عليهم ، حتى رأى نفسه خيراً منهم ، فكشفه الشيخ وقال : اعمل على قطع هذا الخاطر أيضاً فقطعه بالكلية .
وراح الإمام الخواص ينقله من مقام إلى مقام .

ويرقيه بالذكر سراً وعلانية حتى لا يخطر على باله شيء سوى الله تعالى .
ثم أمره بترك الشهوات مطلقاً، فتركها واكتفى بما يسدّ الرمق وزهد في الدنيا حتى صار شعاره حب الظهور يقصم الظهور ، واستوى بنظره الذهب والتراب، وصارت نفسه تتطلع لتطير في الهواء وصارت العلوم النقلية تزاحم العلوم الوهبية في صدره ،
ثم أمره بالتوجه إلى الله تعالى في أن يطلعه على أدلتها الشرعية، ومازال الإمام الخواص يرقيه ويرقيه حتى فتح الله عليه بعلوم نورانية لم ير مثلها سطرها في كتاب الأنوار القدسية في بيان آداب العبودية .

واغتترف من بحار علوم شيخه والأسرار الروحية مالا يحيط به حصر ولا يدركه عقل، وكان في كل مقام يعطيه مفتاحاً من أسرار الذكر وماحتويه من أسماء الله الحسنى من معان، وما تفيض به من فيوضات لأن الذكر بالنسبة للطرق الصوفية أحد أعمدة الطريق بل هو روحها، وبدونه لا يتمكن المريد من أن ينال شيئاً من الطريق. ويحدثنا إمامنا عن أنوار المجاهدات مع شيخه الخواص فيقول :

غطست في بحر علوم شيخي خمس مرات، فلما أردت أن أغطس السادسة استحال البحر حجراً، وفي كل مرة كنت أغطس فيها كنت أجد صيداً من خزائن علومه (رأى خمس خزائن كل خزانة عليها قفل).

يقول : ففتحت أول قفل بلا إله إلا الله ، ورأيت علوماً برزت من اللوح المحفوظ إلى هذا العالم على اختلاف طبقاته

ثم فتحت قفل الخزانة الثانية باسم الله فرأى تفسير آيات من القرآن بمعان وعبارات لا تدركها العقول.

ثم الخزانة الثالثة فتحت قفلها بالرحمن الرحيم فرأى علوم الحديث .

ثم الخزانة الرابعة بحسبنا الله ونعم الوكيل ، فرأيت علم التأويل .

وفتح القفل الخامس بسبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم ، فرأى جملة من الحقائق النورانية .

أيها الأحبة والصحب:

أهم شيء يجب أن نعرفه عن إمامنا أنه لم يطرق باب التصوف إلا بعد أن صار طالب علم من الدرجة الأولى، وانه التقى بعالم عصره الخواص بعد أن صار إماماً لا يبارى لأن تحكم الشريعة هو الأساس في حياة الصوفي، حتى لا تدخل عليه الخرافات والأوهام .

أستطيع أن أقول إن سيدنا الشعرائي أعجب بشيخه الخواص أيما إعجاب، فعلى الرغم من أميته فإنه كان يتكلم على معاني القرآن العظيم والسنة المشرفة كلاماً نفيساً يتحير فيه العلماء.

حتى وصفه بقوله : الخواص رجل غلب عليه الخفاء فلا يكاد يعرفه بالولاية والعلم إلا العلماء العاملون، لأنه رجل كامل عندنا بلا شك، والكامل إذا بلغ الكمال في العرفان صار غريباً في الأكوان، لقد كان فطامي على يد الخواص .

أتعرفون أيها الأخوة ماذا فعل الشعرائي بالعلوم التي تلقاها من شيخه الخواص؟

لقد أودعها في كتابه الجواهر والدرر، أندرون بعد هذه الرحلة الطويلة إلى الله تعالى ماذا فعل الإمام الشعراي؟ قام بتأليف كتاب قل نظيره سماه (اليواقيت والجواهر)، وفق فيه بين أقوال أهل الشريعة وأهل الحقيقة، وكان يردد الشريعة والحقيقة وجهان لشيء واحد هو الشرع الحنيف .

لا يكمل العالم في مقام العلم حتى يصبح المشرع هو الله تعالى مشهوداً له في كل عمل مشروع .

وَألف كتاباً عظيماً من أعمدة كتب الأخلاق هو كتاب لطائف المنن والأخلاق.

معشر السادة الكرام:

كان تصوف الشعراي تصوفاً أسَّسه على الكتاب والسنة، وصحح مسار الطريق الصوفي المشوه في عصره، وأفرد كتاباً سماه (تنبيه المغترين) أوضح فيه أخلاق الصوفيين الحقيقيين وأنها متلازمة مع ما يدعوا إليه الشرع الشريف، وأوضح أن الاستقامة عين الكرامة، أكبر كرامة للولي الاستقامة على طريق الشريعة.

هكذا كانت حياة الإمام في خدمة الشريعة والدعوة ، يقصده في زاويته آلاف المريدين والفقراء وأصبح من المفكرين ، بل أطلق عليه مجدد القرن العاشر حتى وافته منيته بعد أن أصيب بفالج سنة ثلاث وسبعين وتسعمئة .

وحملوه على الأعناق في مشهد لم ير المصريون مثله ، يتقدم الجنازة نائب السلطان وأعيان مصر وأمرأؤها وقوادها وقضاها وعلمائها وفقهاؤها ومتصوفوها ثم آخرهم عامة الناس، فما بقي أحد في داره إلا جاء أو أرسل ولده لعجزه عن المجيء. لقد كان الإمام عبد الوهاب الشعراي بحق أمةً وحده، ولئن فقدته العالم الإسلامي فإنه ترك لنا تراثاً ضخماً عظيماً من مؤلفاته وخلاصة حياته العلمية و الصوفية بلغت (٣٠٨) مؤلفاً لقد كان تلميذاً صادقاً من تلاميذ سيدنا محمد ﷺ . فمن أراد أن يتعرف عليه حق المعرفة هناك فليقرأ كتبه هنا ، وما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة

سيدنا مُحَمَّد ﷺ الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية للحبيب، وتحيتنا إليك يا سيدي
يا رسول الله هي الصلاة والسلام عليك.

صَلَّى
عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ

المصادر :

- . الموسوعة الصوفية عبد المنعم الحفاجي .
- . جامع كرامات الأولياء للنبهاني .
- . شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد .
- . عبد الوهاب الشعراني عبد الحفيظ القرني .

(٦٨٠)

الإمام عبد الرحمن الشاذلي

(١٩١٢ - ٢٠٠٤ م)

الحمد لله الذي تفرد بالبقاء ، وحكم على عباده بالموت والفناء ، وكتب لكل
نفس أجلاً لا تجاوزه عند الانقضاء ، وسوّى فيه بين الشريف والمشروف والأقوياء
والضعفاء

أحمده سبحانه وتعالى على سوابغ النعم وضوافي الآلاء حمد معترف بالقصور عن
إدراك أقلّ مراتب الشناء

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة مخلص في جميع الآناء ، راجٍ
رحمة ربه في الإصباح والإمساء

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أفضل الأنبياء وأكرم الأصفياء ، والداعي
إلى سلوك المحجّة البيضاء ، من أحبه كان من السعداء ، ومن أبغضه كان من
الأشقياء :

حبّ النبي المصطفى لقلوبنا غسل مذاب

حب النبي المصطفى يحبك من تحت التراب

ياسيدي ومحمّدي

أصبحت أغنى واحد في الكون فيك بلا حساب

أنت الخلايا في دمي لكنها بك تحتمي بك لاتصاب

صلى عليك الله يا علم الهدى

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على هذا النبي الكريم السيد السند الرؤوف

الرحيم سيدنا ومولانا محمّد وعلى آله وأصحابه وعترته وأنصاره ، وسلم تسليماً كثيراً

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

غادرنا إلى جوار ربه العزيز يوم الثلاثاء الثامن من حزيران عام ٢٠٠٤م سيد أهل التوحيد في عصره ، إمام أهل السنة والجماعة ، شيخ الطرق الصوفية جميعاً مولانا وقدوتنا إلى الله تعالى العارف بالله العلامة الجليل

الشيخ عبد الرحمن الشاغوري الحمصي مولداً والدمشقي إقامة ، والأشعري عقيدة ، والشافعي مذهباً ، والشاذلي مشرباً رحمه الله تعالى ورضي عنه ورضي عنا معه .

ولد الشيخ رحمه الله تعالى سنة ١٩١٢ في حمص ، وقضى عمره الذي بلغ سبعاً وتسعين سنة تدريساً وتوجيهاً وتربية وخدمة لإخوانه في الطريق الشاذلي وكان ابن مجالس الذكر ، ابن الحضرة ، ابن العلم ، لم ينته لسانه عن الذكر والصلاة على النبي ﷺ ، ومن سعادة العبد أن يطول عمره ويرزقه الله تعالى العمل الصالح فرحمك الله أيها الشيخ الجليل .

إخوة الإيمان : لا يعلم إلا الله ما أصابنا وأصاب المسلمين ، ولم يخص الأقربين حتى عمّ جميع الموحدين ، ولم يمَسَّ الأرحام حتى زعزع رجال الإسلام ، قد سار بروحه الشريفة من عالم الفناء إلى ما أعد الله له من الكرامة في دارالبقاء:

وما الدهر إلا كما ترى رزية حر أو فرق حبيب

قضاء مبرم يشترك فيه جميع الناس ، يمتحن الله به صبرنا ويبتلي به إيماننا ، رحل عنا كما يرحل الأخيار ، والموت سبيل تراحم عليه السابقون واللاحقون ، ومورد ينهل منه الخلائق أجمعون ، إنَّ الدهر لم يلاقنا إلا بما ألفناه ، وما أنكرنا عليه شيئاً عرفناه ، وعزاؤنا أنَّ الموت ليس حُكماً بالإعدام وإنما هو بداية انتقال إلى دار أخرى، من دار الباطل إلى دار الحق ، من دار الفناء إلى دار البقاء من جوار الخلق إلى رحاب الحق ﷻ ، وما بينهما برزخ هو أول منازل الآخرة، إن نجا منه العبد فما بعده أهون منه :

القبر باب وكلُّ الناس داخله ياليت علمي بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بها يرضي الإله وإن خالفت فالنار
هما محلان ما للمرء غيرهما فانظر لنفسك أيّ الدار تختار
ما للعباد سوى الفردوس إن عملوا وإن هفوا هفوة فالربّ غفار

وأهل الله أيها السادة هم الناجون عند الله ، أهل الله لا يهابون الموت ، وإذا جاءهم استقبلوه بالترحاب ، مرحباً بالموت حبيب جاء على شوق ، لا أفلح من ندم ، غداً نلقى الأحبة مُجدداً وصحبه ، ولذلك اسمعوا ماذا يقول سيدنا رسول الله ﷺ : ((ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا منشرهم)) .

إخوة الإيمان :

إذا مات المؤمن انكشف له عقب موته من سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالنسبة إليه كالسجن الضيق ويكون مثاله كالمحبوس في بيت مظلم فتح له باب إلى بستان واسع فلا يشتهي العودة إلى السجن المظلم ، وقد ضرب لنا سيدنا رسول الله ﷺ مثلاً عن رجل مات فقال : أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فإن كان قد رضي فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه .

أيها السادة :

تسعون عاماً قضاها مولانا الإمام الشاغوري أستطيع أن أقسمها إلى ثلاثة أطوار:

الطور الأول : طور النشأة والاكتمال لأجل المعيشة وهي ثلث قرن .

الطور الثاني :

طور التلمذة على أيدي الشيوخ واكتساب ملكة العلم وأهم شيوخه فيها الشيخ علي الدقر عن طريق شيخ حلقتة وهو الشيخ حسني البغال تلميذ الشيخ الدقر

المباشر . ثم الشيخ مُحَمَّد بركات والد الشيخ عبد الرحمن بركات المعروف من قريب والشيخ الثالث الهام والذي تأثر فيه أشد التأثير وسلك على يديه الشيخ مُحَمَّد الهاشمي . رحمهم الله جميعاً .

الطور الثالث :

طور المشيخة والعطاء والتدريس وهي الثلث الثالث من التسعين عاماً التي قدرها الله للشيخ أن يحياها وهذه الفترة الثالثة هي التي عاصرنا فيها الشيخ رحمه الله تعالى فنهلنا من علومه وأدبه وطريقته وأحواله ، ثلث قرن . أيها الأخوة الكرام . ونحن بين يدي الشيخ الإمام نعرف من معينه وبراعته في فني التوحيد والتصوف ، أستطيع أن أجزم بأن مولانا الإمام قد قرأ علينا كل الكتب التي قرأها على أسياد الكرام ، وكان يتوّج هذا الدرس براحة نفسية وأريحية شعرية ونسمات ربانية من الأناشيد الدينية التوحيدية ، تارة من نظمه وألحانه ، وتارة من كلام القوم فقد أوتي الشيخ ذوقاً رفيعاً في انتقاء القصائد أخذها عنه أهل هذا الفن ، ومما قاله ﷺ بعد خروجه من الخلوة: يا واحداً في بديع الحسن لم يزل عطفاً على مغرم يهوى من الأزل ويا فريداً غدا قلبي له سكناً مع التنزه مالي عنك من بدل ياراحة الروح ياروح الفؤاد أرح صباً بوصل غدا بالهجر ذا وجل إن كان موتي حياقي في هواه فقد أرسلت روحي له قبل انقضا أجلي

كان ﷺ يعلمنا حب سيدنا النبي مُحَمَّد ﷺ والتخلق بأخلاقه الشريفة صلى الله عليه وسلم وقال في مدحه ﷺ :

أوميض برق بان من ذاك اللوى	أم بدر تم لاح والليل انطوى
أم ذاك نور المصطفى طه الذي	حقاً على عرش الجمال قد استوى
ياأيها المختار يا باهي السنا	من ذا الذي للحسن مثلك قد حوى
بعض المحاسن منك قد منح الورى	أيصح إثبات المحاسن للسوى

ماذا أقول بوصفك الباهي فقد عجز اللسان وزال من فكري القوى

أيها السادة :

كان الوارث المحمدي ﷺ ذا أخلاق عالية ، وتواضع عظيم ، كان لا يرد سائلاً أو طارقاً كان رحمه الله شجرة مثمرة قطوفها دانية ، يقطف من ثمارها الخاص والعام ، يذكرنا بالعلماء الربانيين من السلف الصالح الكرام الذين إذا رؤوا ذكر الله تعالى ، كسيدنا يزيد بن هارون الواسطي ، فإنه بعدما توفي رؤي في المنام وسئل عن حقيقة منكر ونكير فقال أي والله لقد أجلساني وأقعداني وجعلنا يسألان من ربك ما دينك ماذا كنت تقول في هذا الذي أرسل إليك؟ ، فقلت : أمثلي يسأل ، أنا يزيد بن هارون الواسطي ، علّمت الناس دينهم زهاء ستين سنة أمثلي يسأل ؟ قال فقال الملك للملك : صدق هذا يزيد بن هارون الواسطي ، نم يا يزيد نومة العروس هنيئاً لا يوقظك إلا أحب الخلق إليك .

فرحمك الله يا شيخنا الجليل ، نشهد أنك كنت هادياً مهدياً ، أدّيت رسالتك على أكمل وجه ، فعليك رحمت الله حسبنا الله على هذه الصحيفة المشرقة التي طويت من صفحات تاريخنا الزاهر، هاهو نجم آخر يغيب ، نجم سطع في سماء البشرية فأضاء ما بين المشرق والمغرب :

لوترانا عند الوداع حيارى نسكب الدمع من فراق الحبيب
كيف يحيى الفؤاد بعد حبيب كان يرعاه بالجمال العجيب
أنت يا نفس هل ترومين صفواً بعد بُعد الحبيب أم هل تطيبي
قالت النفس فالحياة ظلام حيث مال الحبيب نحو للمغيب

أسأل الله أن يجمعنا معك في مستقر رحمته أيها الحبيب الطيب

أيها الأحبة والصحب :

هذه حقيقة الحقائق ، نودع بعضنا بعضاً كل يوم ، ونواري أحبابنا التراب ليعودوا إلى الطينة التي جُبلوا منها ، هذا هو قدر الله ينفذ فيهم عندما قال مولانا ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾
هذه البشارة ، سيعيد الله الأبرار إليه ، لنلتقي بهم تحت لواء سيد المرسلين

ﷺ

نعم لقد غادرنا الإمام ، وهو إن لم يترك إلا ديوان شعر كتبه بيده ، لكنه ترك خلفه رجالاً حملوا عنه هذا العلم ، صدقوني - يا إخوة - ما كتب عبد العزيز الخطيب الحسني مؤلفاً إلا وكان فضل الشيخ عبد الرحمن الشاغوري عليه بعد فضل الله تعالى ، تذكرون خطب القضايا الإيمانية كان شيخنا ﷺ يتابعها بشغف ، وكان أثناء دخوله إلى جامع نور الدين الشهيد يوقف السيارة ليسمع إلى بعض الخطب ليطمئن على تلميذه وهو يلقي القضايا على المنبر هذا كله مع ما كان يحمل من صفاء في قلبه وإخلاص في عمله ، لم يحمل حقداً على أحد ، وكان له بعد نظر إلى عشر سنوات كيف لي أن أترجم الشيخ الإمام في ثلاثين دقيقة وقد عشت معه ثلاثين سنة، أذكر لكم مثلاً واحداً على بعد نظره .

بعد حوالي ١٥ سنة من تلمذتي على الشيخ، وكنت معيد الدرس عنده ، دخل على الخط رجل نافسي على المشيخة ورأيته متشوّفاً ليكون خليفة الشيخ ، وكنا في درس يوم الأحد ، وكان الدرس عن الإيثار إيثار الصوفية المستمد من الكتاب والسنة ، فقال هذا الرجل سائلاً الشيخ رحمه الله : وهل أؤثر غيري إن نافسني على المشيخة أيضاً (ولو على المشيخة) ؟ فقال الشيخ على البديهة : دعها له ييؤء بإثمها عند الله .

اعتبرت كلمة الشيخ وإن كانت موجهة لهذا الرجل اعتبرتها موجهة لي ، وكان الشيخ يرينا بالإشارة فكيف بالعبرة ، أتعرفون ماذا فعلتُ ؟ صرت أغيب عن

الدرس ، ويقوم ذلك الرجل بقراءة الدرس عني حتى مضت ثلاث سنوات أخذ فيها الإجازة من الشيخ وصار خليفته في دمشق.

وأصابته دعوة الشيخ ، فباء بإثم المشيخة ، أتعرفون ماذا فعل به ؟ وكان قد أجزى في الطريق والخلافة ، والله سَحَب منه الإجازة والخلافة ، وأمر إخواننا في الطريق بعدم حضور مجالس ذلك الرجل ، وعلى أثرها مرض مولانا الشيخ رحمه الله تعالى ومازال مرضه يزداد ودرجته تعلو في الجنات ، وأبقى الله مع ضعف جسده ، ذاكرته وفكره حتى آخر لحظة وإخواننا يزورونه في بيته حتى غط في نوم عميق شهراً أو يزيد، ووافته منيته مؤمناً مخلصاً محسناً ﷺ.

أيها الإخوة هذا غيض من فيض ، حياة تسعين سنة لا أستطيع أن أوفيها بنصف ساعة ، ولكننا ونحن في هذه الساعة المباركة المستجابة نرفع أكفنا إلى الله تعالى أن يجعل مأواه في أعلى عليين ، في جنان الخلد يا شيخنا مع الذين أنعم الله عليهم ، فإلى رحمة الله يا شيخنا ، سلم لنا على رسول الله ﷺ.

((سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار))



● غرر الشام في تراجم آل الخطيب ومعاصيهم د. عبد العزيز الخطيب الحسني

(٦٨١)

الإمام جلال الدين الرومي

٦٠٤ - ٦٧٢ هـ

الحمد لله مظهر الحق ومبديه ، ومبطل الباطل ومنفيه ، ومنجز الوعد وموفيه ،
ومسعد العبد ومشقيه ، الذي تعرّف على خلقه فحارت الخليفة فيه .
أحمدته سبحانه وتعالى وأشكره على نعمة نور الإيمان الذي
﴿كلما أضاء لهم مشوا فيه﴾ .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، العظيم في رفعة تعاليه ، الذي
حار العقل فيه ، فأشار العقل إلى عرشه : هل أنت بقربك تليه ، أم بدنوك تدانيه ؟
فناداهم العرش من سكرة تغاشيه وحيرة تلاشيه :
لست بالمحيط به فأدرية ، ولا بالحامل له فأحكيه ، ولا بالمتصل به فأحاذيه ولا
بالمنفصل عنه فأقصيه ، ولقد سألت . ياعقل . عن أمر لا أدرية ، وكشفت عن سرّ
ما برحت أتمليه وأستجليه فما وقعت منه إلا على الحيرة والتهيه .

وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله وصفيه وخليله أعطاه الله لسان الحق
وموفيه ، وقال لنا : ﴿إن هو إلا وحي﴾ يوحيه ، فهو السيد المطاع ، وصاحب
البيت أدرى بالذي فيه ، إن صافيته سقاك من كأس صفوته صافيه ، وإن شربت
بكأس محبته فالكأس هو ساقيه ،

أضحى على المولى الكريم كريما صلوا عليه وسلموا تسليما
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وعترته وأنصاره
وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هبت عاصفة عقليه جامحة في القرن السابع الهجري بعثها علم الكلام (العقيدة) الذي كان الشغل الشاغل للمسلمين في القرون الأخيرة ، وكانت هذه العاصفة ضد المعتزلة والفلاسفة ، انطفأت بها مجامر القلوب فأصبحت رماداً وركاماً بشرياً ، انتصر في هذه المعركة الكلامية : الأشاعرة أهل السنة والجماعة ، وفقد الاعتزال والفلسفة شيئاً كثيراً من سيطرتهم ونفوذهما ، وجاء العلامة فخر الدين الرازي (٦٠٦ هـ) فجدد دولة علم الكلام ووسعها بشخصيته القوية ومؤلفاته العظيمة وبحوثه الدقيقة ، ولم يتم ذلك إلا بعد حروب كلامية في العقيدة ، وجدل مستفيض حوّل العالم الإسلامي إلى مدرسة فيها القيل والقال ، والنقاش والجدال ، بعيداً عن العاطفة وصار عند الناس جفاف عاطفي رهيب .

وفي هذا الجو العقلي كان العالم بحاجة إلى شخصية قوية عبقرية تملأ القلوب عاطفة تعادل كفة الطغيان العقلي ، في وسط هذه العاصفة هتف هاتف بالحب والعاطفة ، فهب العالم الإسلامي من نومه العميق ودبت فيه الحياة ، إنه إمامنا اليوم ، إمامنا اليوم . يا سادة . أعاد للعالم توازنه ، وكان ديوانه الشعري المثنوي ثورة على المعتزلة والفلاسفة الذين بالغوا في تقدير الحواس وتقديس العقل

خاطب العالم أجمع بلغة الحب والعاطفة ، الحب الذي يحوّل المرء حلواً والتراب تبراً ، والكدر صفاء ، والألم شفاء ، والسجن روضة ، والسقم نعمة ، والقهر رحمة ، خاطبهم بلغة الأحاب التي تلين الحديد وتذيب الحجر ، وتبعث الميت وتنفخ فيه الحياة

والحب . يا إخوة . إذا سرى في الجبال الراسيات ترنحت ورقصت طرباً

﴿ فلما تجلّى ربّه للجبل جعله دكاً و خرّ موسى صعبقاً ﴾ الأعراف ١٤٣

الحب يطير بالعبد بجناحه من المادة إلى عالم الروح .

بهذه اللغة خاطب أهل القرن السابع ، ناداهم : إن الحب شعلة تحرق كل ما سوى المحبوب ، وقال لهم : لقد رأينا كثيراً ممن يحسنون السباحة قد غرقوا في هذا البحر اللجي ، ولكن ما رأينا سفينة الإيمان والحب تَغْرَق " إن مكانة الحب لا تنتهي ، لأن الحب وصف من لا يفنى ولا يموت " .

إننا اليوم نزور معاً سيداً بقي حياته في شعره الرنان يتغنى بالعاطفة والحب حتى دبَّ في مجتمعه ديب الحياة ، وترنح بهذا الرجز والحداء القوي الأدب الإسلامي كله ، ردَّده الشعراء وضربوا على وتره ، وانطلقت في عالم التصوف موجةٌ جديدةٌ تستحق أن تسمّى الاعتزاز بالإنسانية ، أو تكريم الإنسان .

كان يقول لمريديه هل وُجِّه قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ (الإسراء ٧٠) (هذا التكريم هل وُجِّه إلى السموات والأرض ؟ إنه لم يوجه إلا لهذا الإنسان الذي يستهين بقيمته ويجهل مكانته

إن الإنسان . أيها الناس . مظهر لصفات الله تعالى وأثر من قدرته ، وهو المرأة الصادقة التي تجلت فيها آياته ، ناداه إمامنا (نادى هذا الإنسان فقال له) : (يا من من عبده العقل والحكمة والمقدرة كيف تبيع نفسك رخيصة ، إن الله اشتراك وخلصك من المساومات والمقاولات إلى آخر الأبد، فالشيء لا يباع مرتين) .

(فهل أنت من الرجال أم من أشباه الرجال ولا رجال ، هل أنت فريسة شهوتك، لا تعرف من إنسانيتك سوى الشبع والري والشهوة)، ثم قال لهم : (إن هؤلاء ليسوا رجالاً إنما هم صور الرجال ، هؤلاء الذين يُحْكَمُ عليهم الخبز وقتلت الشهوات فيهم الإنسانية) .

معشر السادة : لعلكم اشتقتم معي لمعرفة من هذا الإمام الذي جاء يزورنا اليوم إنه سيدنا جلال الدين الرومي (مُحَمَّد بن مُحَمَّد) ومع الحلقة الثامنة والثمانين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام جلال الدين الرومي :

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد سيدنا جلال الدين (مُحَمَّد بن مُحَمَّد) الرومي في بلخ من أعمال أفغانستان سنة (٦٠٤ هـ) وعكف والده منذ نشأته على تربيته تربية إسلامية ، وكان والده من كبار علماء بلاده يلقب بسلطان العلماء ، وينتهي نسبه إلى الصديق أبي بكر ﷺ ، وكان والده ينتقد علماء عصره لعكوفهم على دراسة العلوم العقلية وتعلمها وانصرافهم عن علوم القرآن والسنة ، ولاقى من الناس قبولاً ، والتفّ حوله الرجال والمريدون ونبغوا على يديه ، فسلمهم تربية ولده جلال الدين ليعتنوا به خاصة ، فنبغ هذا الفتى على أيديهم وتعلم علوم الكتاب والسنة ، ولكنه فوجئ بأبيه يترك (بلخ) وينتقل إلى تركيا عبر البلاد ، مهاجراً من بلد إلى بلد حتى استقرّ بقونية ، واستقبله سلطان الروم واحتفى به وبالغ في إكرامه .

عاش الفتى في العز والعلم ، ولم يمنعه الجاه العريض من أن يسافر لأجل التبحر في العلوم ، فقدم بلاد الشام سنة (٦٣٠ هـ) ومكث بحلب والتقى بعلاّماتها ابن العديم ، ثم توجه إلى دمشق ودخلها (فقولوا ﷺ) ، هنا في الشام الشريف التقى بعلماء عصره الأفذاذ أمثال سيدنا الشيخ محيي الدين بن عربي ، والشيخ صدر الدين القونوي ، وكانت بينهما مسامرات لطيفة . عاد بعدها الإمام جلال الدين من رحلته عالماً من الدرجة الأولى ، وصار مدرّساً تحت أنظار أبيه الذي توفي سنة ٦٣٨ هـ فحلّقه ولده جلال الدين ، وبني له أستاذ السلطان مدرسة ولاه رئاستها ،

حتى التفّ عليه الطلاب من كل صوب ، فكَبُرُوا على يديه وصاروا علماء معلّمين ، تعلموا منه العلم والعبادة والسلوك ، يقول أحد مريديه : كان الإمام شديد الرياضة والمجاهدة والتعب ، لم نره قط في لباس النوم ، ولم نر عنده وسادة ولا فراشاً ، فإذا غلبه النوم نام جالساً .

وقال آخر : رأيته مراراً دخل الصلاة وقت العشاء وقضى الليل كله في ركعة " وقد بكى مرة في الصلاة فابتلّ وجهه ولحيته بالدموع الغزار ، وكان الزمن شتاءً (والبرد في قونية شديد) فجمدت الدموع على الخد واللحية وهو في صلاته .

كان يفرح إذا أصابته فاقة أو جوع ، ويقول : الآن أشم رائحة التجرد والافتقار إلى الله تعالى . ومع ذلك كنا نراه إذا جاءه سائل وليس عنده شيء خلع له قميصه أو عباءته وأعطاه إياها .

أيها الأحبة والصحب : أستطيع أن أقول إن أخلاق الإمام المحمدية فاق بها أهل زمانه جميعاً ، ولأدلل لكم على هذه القضية أعرض لحضرتكم هذا المشهد الفريد :

إذ مرَّ يوماً برجلين يتسابان يقول أحدهما للآخر :

. إنك إذا أسمعني واحدة أسمعك عشرة .

فقال لهما : . دونكما نفسي فإن أسمعتماني ألفاً لم أسمعكما واحدة .

فخر الرجلان على قدميه يتصالحان .

إخوتي في الله :

لكنَّ الفتح الأكبر للإمام الذي قلب تيار حياته واتجاهه وفتح قريحته وأشعل مواهبه وكان سبب شهرته وتأثيره هو حادثة حصلت له سنة (٦٤٢ هـ) حين وصل إلى قونية رجل من كبار الصوفية من تبريز اسمه مُجَّد بن علي التبريزي ويعرف بشمس الدين .

ولأن الموقف عظيم والخطب جلل اسمحوا لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك إلى القرن السابع الهجري ، المكان : قونية في تركيا ، الحدث التقاء بحرين عظيمين بحر الشريعة وبحر الحقيقة ، إذ نظر الإمام شمس الدين التبريزي إلى موكب الإمام جلال الدين يخرج من المسجد وحوله المريدون والعلماء والناس يتبركون به فتقدم الإمام شمس الدين وسأله : ما المقصود من الرياضيات والعلوم ؟

قال الإمام جلال الدين : . الإطلاع على آداب الشرع .
قال الإمام شمس الدين في هدوء وثقة : . لا ، بل الوصول إلى المعلوم ، إن العلم إذا لم يجردك من نفسك فالجهل خير منه " .

وقف الإمام جلال الدين متحيراً ، وأصاب شمس الدين هدفه في كلمة واحدة
معاشر المسلمين :

كان الإمام جلال الدين في وسط الأشاعرة ومدرستهم الفكرية وفي وسط الجدل مع المعتزلة والفلاسفة ، وحين قابل أستاذه شمس الدين جذبته الجاذبة الربانية ، وانتقل من القيل والقال إلى حقيقة الحال ، ومن الخبر إلى النظر ، ومن الألفاظ إلى المعاني ، ومن القضايا الحسية إلى القضايا الغيبية .
رجع الإمام جلال الدين الرومي إلى بيته ، ولكنه هذه المرة رجع مع أستاذه الجديد في التربية ، أتدرون ماذا فعل به أستاذه ؟:

أدخله الخلوة ، وجعله يعتزل الناس في حجرة أربعين يوماً يلقيه الذكر والمعارف فكان لا يخرج إلا إلى الجمعة ، والذكر . يا إخوة . يجلو القلب ، والقلب إذا لم تكن مرآته صافية لا تنطبع فيه العلوم الإلهية .

إن الإمام جلال الدين بخلوته تلك امتلاً بروح جديدة ، وانكشف له عالم جديد من الحقائق والأذواق حتى قال مرة : إن الشمس التبريزي هو الذي أراني طريق الحقيقة ، وهو الذي أدين له في إيماني و يقيني " .

غاب الإمام جلال الدين ، عن تلامذته ، فكانوا كلما حضروا الدرس لم يجدوه ، ووجدوا أنفسهم بلا شيخ ، فضجوا لغياب شيخهم ، وكبر عليهم هذا التشاغل بشيخه ، فقالوا : صرفنا أعمارنا في خدمة الشيخ ثم جاء رجل غريب مجهول وقطعه عنا ، وأوقف الدروس والمحاضرات ، فلا شك أنه رجل ساحر أو داهية فاشتدت عداوتهم لشمس الدين ، وعزموا على إقصائه عن قونية ليخلو لهم وجه أستاذهم ويكونوا من بعده قوماً صالحين ، وتحمل الإمام شمس الدين كيدهم بصبر وحلم ، لكنه خاف في النهاية الفتنة فخرج مستخفياً دون إعلام أحد .

وحزن الإمام جلال الدين ، واعتزل تلاميذه ومريديه ، وأقصى من مجلسه من كان سبباً في غياب شيخه ، وصار يكتب شعراً في الشوق إليه ، وكانت غيبة شيخه عنه فيها الخير ، إذ تفتحت معارفه ، وبدأ منهجه الجديد في الاستدلال بالمصنوع على الصانع ، وبالمتحرك على المحرك ، ويضرب لذلك الأمثال الحكيمة ، صار ينافخ عن منهاج الصحابة الكرام ويقول : هؤلاء لم يقرؤوا الفلسفة التي تولد الظن والشك وتحجب عن الرب ﷻ

أما حكمة الأنبياء فهي الحكمة التي من أوتيها فقد أوتي خيراً كثيراً ، بالله عليكم يا سادة أصغوا إلى هذه الحكم التي اختلط فيها التوحيد بالتصوف ، والتي عجز أهل القرن السابع أن يأتوا بمثلها في قونيه ، تذكرُّو أننا مازلنا هناك مع هؤلاء الربانيين الذين دخلوا غار الخلوة وخرجوا بمفاتيح الحكمة ، يقول :

(جرّد نفسك من صفاتك حتى تشاهد نفسك وحقيقتها ، إنك ترى في قلبك علوم الأنبياء من غير كتاب ومعلم ، فإن المرأة كلما صَفَّت تجلت فيها الأنوار ، وإذا تفتحت نافذة نفسك دخل فيها النور الإلهي من غير واسطة ومن غير حجاب) (اسمعوا كيف ضرب لهم الأمثال الحكيمة لإثبات وجود الذات الإلهية) يقول :

(إنك ترى قلماً كاتباً ، واليد التي تحركه من ورائه مخفية ، وترى جواداً يعدو ولا ترى فارساً ، والسهم يصيب غرضه ، والقوس غائبة عن العيون ، أليست الحركة دليلاً على المحرك ؟ إذا سمعت صريراً للهواء وخيراً للماء ، ألا تستدل بذلك على وجود الهواء والماء ؟ إذا عجزت أن ترى المؤثر فإنك لا تعجز عن أن ترى الآثار ، فاستدل بها على وجود المؤثر ، وإذا رأيت جسمًا يتحرك ويعيش فإنك (ولو لم تر الروح في حياتك) تبرهن على وجود الروح التي هي مصدر الحركة والحياة في الجسم) أهذا هو العلم ، وهذه هي الإمامة يتصدّر جلال الدين الرومي الصدارة فيها .

فيا أحباب رسول الله : قضى الإمام حياته التي بلغت الثامنة والستين قضاها في خدمة الشريعة الإسلامية حتى أقعده المرض ، وأصبح الناس في قونية يوماً على زلزال شديد أشاع الرعب في المنطقة فصار الناس يزورون الإمام ويطلبون منه الدعاء ، فقال لهم : إن الأرض جائعة تطلب لقمة دسمة وستنالها عما قريب ، واستمر الزلازل أسبوعاً كاملاً ثم مات الشيخ بنهاية الأسبوع سنة (٦٧٢ هـ) ووقفت الزلزلة .

وما إن أعلن نبأ وفاة الإمام حتى خرج الناس في جنازته ، وازدحموا عليها ازدحاماً شديداً ، وشيعها المسلمون والنصارى واليهود وكلهم يبكيه ، فكان اليهود يقرؤون التوراة ، والنصارى يقرؤون الإنجيل ، وكان المسلمون ينحّونهم فلا يتنحّون ، وبلغ ذلك حاكم البلد ، فصار يقول لهم :

. مالكم ولجنازة هذا العالم المسلم .

فقالوا : قد عرفنا به حقيقة الأنبياء والسابقين ، وفيه رأينا سيرة الأولين الكاملين .

يقول الراوي . يا سادة يا كرام :

خرجت الجنازة في الصباح ، فلم تصل المقبرة إلا في المساء ، ولم يدفن الإمام إلا في الليل .

وهكذا . معشر السادة . يتبين لنا أن وجود هؤلاء المصلحين المجددين للدين الإسلامي يقضي بخلوده وبقائه ، وأن مهمة الهداية والإرشاد التي كان الأنبياء يبعثون لها في العصور الماضية قد أُلقيت على عاتق هذه الأمة التي تَخَلَّفَ خاتم النبيين في هذه المهمة ، وأن هذه المدرسة مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ لن يخلو منها زمان من الأزمان هنا أو هناك لذا الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

(٦٨٢)

الإمام جعفر الصادق

(٨١ هـ - ١٤٨ هـ)

الحمد لله الذي بلطفه تصلح الأعمال، وبكرمه وجوده تدرك الآمال، وإليه المرجع والمآل أحمدته حمداً لا توازنه الجبال من السموات والأرض على كل حال. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له هو الباقي بلا زوال، المنزه عن الحلول والانتقال عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال. وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وخيرته من خلقه، وصفيه وخليله ووليّه وحبيبه المفضل.

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا أبي القاسم محمد بن عبد الله ذي الشرف الباذخ والفضل الشامخ والعلم الراسخ والجمال والكمال. وعلى آله وأصحابه وكثرته الطيبين ما أفل كوكب وطلع هلال وسلم تسليماً.

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

من هو الإمام العلم شيخ بني هاشم؟

من هو أبو عبد الله القرشي الهاشمي العلوي النبوي المدني؟، من هو الإمام الذي أبأوه كلهم أئمة في الدين، وأولاده وأحفاده علماء برره، من هو شيخ الأئمة الأعلام الإمام أبي حنيفة وابن جريح وسفيان الثوري وشعبه والإمام مالك وسفيان بن عيينه ومسلم بن خالد الزنجي. من هو شيخ هؤلاء جميعاً، من هو البكري المنتسب أيضاً إلى الصديق من أمه وجدته.

إنه الإمام جعفر الصادق بن الإمام مُجَدِّد الباقر بن الإمام علي زين العابدين بن الإمام الشهيد أبي بن عبد الله الحسين ربحانة النبي وسبطه بن سيدتنا فاطمة بنت سيدنا ومولانا مُجَدِّد ﷺ .

ومع الحلقة الخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام جعفر الصادق.

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوتي في الله:

ولد هذا الإمام العلم سنة ثمانين هجرية في المدينة ، فهو تابعي لأنه رأى بعض الصحابة كسيدنا أنس بن مالك. وتلقى العلوم عن والده الإمام مُجَدِّد الباقر وجده القاسم بن مُجَدِّد بن سيدنا أبي بكر الصديق وشيوخ مكة والمدينة كسيدنا عطاء بن أبي رباح والإمام الزهري حتى أصبح آية من آيات الله تعالى في العلم، وكان من رآه يقول: كنت إذا نظرت إليه علمت أنه من سلالة النبيين ، وكان هو يقول: سلوني قبل أن تفقدوني فإنه لا يحدثكم أحد بمثل حديثي. ولما تتلمذ عليه مولانا الإمام أبو حنيفة وسئل من أفقه من رأيت؟ قال: ما رأيت أحداً أفقه من جعفر بن مُجَدِّد.

ولمعت بوراق هذا الإمام وظهر أثر انتسابه إلى مدينة العلم حتى سارع إليه الناس من كل حذب وصوب ، ومن جاءه من أهل العلم الإمام سفيان الثوري ، جاءه زائراً وأبى أن يخرج من عنده حتى يحدثه، فقال الإمام جعفر الصادق: أما إني أحدثك وما كثرة الحديث لك بخير:

١ - يا سفيان إذا أنعم الله عليك نعمة فأحببت بقاءها ودوامها فأكثر من الحمد والشكر فيها فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ (إبراهيم ٧).

٢- وإذا استبطأت الرزق فأكثر من الاستغفار فإن الله تعالى يقول :
﴿استغفروا ربكم إنه كان غفاراً يرسل السماء عليكم مدراراً ويمددكم بأموال
وبنين﴾ (نوح ١٠-١٣) .

٣- يا سفيان إذا حزبك أمر من السلطان أو غيره فأكثر من قول لا حول ولا
قوة إلا بالله فأنها مفتاح الفرج وكنز من كنوز الجنة.
فعقد سفيان بيده وقال: ثلاث وأي ثلاث ، قال الإمام جعفر الصادق: عقلها
والله أبو عبد الله ولينفعه الله بها.

إخوة الإيمان :

تفجرت ينابيع الحكمة من جدي الإمام جعفر الصادق حتى أصبح قمة في
عصره لا يرقى إليها إلا من هو من أمثاله من آل بيت النبوة، واخترت حكمه
حجب الزمان والمكان وسارت بها الركبان، ولأدلل على هذه القضية الهامة في حياة
هذا الإمام اسمحو لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك، إلى مدينة سيد الكائنات إلى
مدينة الأُمِّي الذي علم العلماء إلى سيدنا ومولانا مُحَمَّد ﷺ ، أدعوكم لأحضر مجلس
هذا الإمام لنسمع تلك الحكم والدرر ينطق بها فم طاهر نقي يقول:
« لا زاد أفضل من التقوى، ولا شيء أحسن من الصمت، ولا عدو أضر من
الجهل، ولا داء أدمأ من الكذب من لم يستح عند العيب ويرعو عند الشيب ويخشى
الله بظهر الغيب فلا خير فيه » .

الفقهاء أمناء الرسل فإذا رأيتم الفقهاء قد ركنوا إلى السلاطين فاتهموهم .
منع الجود سوء الظن بالمعبود (أيها الناس) الصلاة قربان كل تقي، والحج جهاد
كل ضعيف وزكاة البدن الصيام، والداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر، واستنزوا الرزق
بالصدقة، وحصنوا أموالكم بالزكاة، وما عال من اقتصد، والتقدير نصف المعيشة،
وقلة العيال أحد اليسارين ومن أحزن والديه فقد عقهما، ومن ضرب بيده على

فخذه عند مصيبيته فقد حبط أجره، الصنعية لا تكون إلا عند ذي حسب أو دين،
والله ينزل الصبر على قدر المصيبة ، وينزل الرزق على قدر المؤنة.

معشر الإخوة الكرام :

عرف منهج الإمام بمنهج السنّة الصحيح لم يخرج عنه قيد شعرة، قيل له مرة: إن جاري يزعم أنك تبرأ من أبي بكر وعمر فقال الإمام جعفر الصادق: برئ الله من جارك، والله إني لأرجو أن ينفعني بقربي من أبي بكر، كان آل أبي بكر يدعون على عهد رسول الله ﷺ آل رسول الله ﷺ ، أما أبو بكر وعمر فكانا إمامي هدى، ثم قال: أيسب الرجل جده، أبو بكر جدي، لا نالتني شفاعة محمد ﷺ يوم القيامة إن لم أكن أتولاهما، وأبرأ من عدوهما، ما أرجو من شفاعة علي شيئاً إلا وأنا أرجو شفاعة أبي بكر مثله، بلغوا عني من زعم أي إمام معصوم مفترض الطاعة فأنا منه بريء، ومن زعم أي أبرأ من أبي بكر وعمر فأنا منه بريء ، لقد أكل أبو بكر وعمر من ثمار الجنة. فقام رجل فقال : (يا إمام إن قوماً يزعمون أن من طلق ثلاثاً بجهالة ردّ إلى السنة تجعلونها واحدة يروونها عنكم، فقال الإمام جعفر الصادق: معاذ الله ما هذا من قولنا، من طلق ثلاثاً فهو كما قال) .

هذا منهج الإمام هذا هو العلم وما سواه باطل منهج أصيل يوافق منهج الأئمة من الصحب والتابعين ومن بعدهم. لقد غلب الإمام جعفر بمنهجه سلطان السلاطين وكيد المبطلين فوشوا به إلى الخليفة المنصور بأنه يحرض عليه الناس فقال: المنصور جعفر بن محمد يلحد في سلطاني قتلي الله إن لم أقتله ، أرسلوا في طلبه.

أيها السادة:

وقد الإمام جعفر الصادق وما أن دخل ونظر إليه المنصور مقبلاً إلى مجلسه حتى وقعت هيئته في قلبه وقام من مجلسه وتلقى الإمام قائلاً مرحباً بالنقي الساحة البريء من الدغل والخيانة أخي وابن عمي. فأقعدته معه على سريريه وأقبل عليه بوجهه

وسأله عن حاله ثم قال: سلني عن حاجتك؟ فقال الإمام: أهل مكة والمدينة قد تأخر عطاؤهم فتأمر لهم به، قال: أفعل. ثم قال: يا جارية أثني بالتحفة فأنته بزجاجة غالية عطر بها الإمام وانصرف. ولحق الحاجب به فقال: يا بن رسول الله أتيت بك ولا أشك أنه قاتلك ، فكان منه ما رأيت وقد رأيتك تحرك شفتيك بشيء عند الدخول فما هو؟ قال: قلت: اللهم احرسني بعينيك التي لا تنام، واكنفني بركنك الذي لا يرام واحفظني بقدرتك علي، ولا تهلكني وأنت رجائي، رب كم من نعمة أنعمت بها علي قل لك عندها شكري، وكم من بلية ابتليتني بها قل لها عندك صبري، فيا من قل عند نعمته شكري فلم يحرمي، ويا من قل عند بليته صبري فلم يخذلني، ويا من تراني على المعاصي فلم ينصحنني، ويا ذا النعم التي لا تحصى أبداً ، ويا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبداً: أعني على ديني بدنيا، وعلى آخرتي بتقوى، واحفظني متى غبت عنه ، يا وهاب أسألك فرجاً قريباً، وصبراً جميلاً والعافية من جميع البلايا وشكر العافية » .

أيها الأحبة والصحب:

أعقب الإمام ستة ذكوراً وبنثاً ، ومن أولاده الإمام موسى الكاظم (١٢٨- ١٨٣) أحد أئمة الدين نزل بغداد واشتهر بالعبادة والعلم ولقب بالكاظم لأنه كان يحسن إلى من كان يسيء إليه ويكظم غيظه ، وكان سخيّاً كريماً يخرج بالليل وفي كفه صرر من الدراهم يتفقد الفقراء في بيوتهم. ناظر الخليفة هارون الرشيد فغلبه ، قال له يوماً : كيف قلتُم نحن ذرية رسول الله وأنتم بنو علي وإنما ينسب الرجل إلى جده لأبيه دون جده لأمه، فقرأ الإمام موسى الكاظم قوله تعالى: ﴿ومن ذريته داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون وكذلك نجزي المحسنين وذكرياً ويحيى وعيسى﴾ (الأنعام ٨٤)، وليس لعيسى أب وإنما ألحق بمرتبة الأنبياء، من قبل أمه وكذلك ألحقنا بذرية النبي من قبل أمنا فاطمة.

أعقب الإمام موسى الكاظم سبعة وثلاثين ولداً أشهرهم الإمام علي الرضا (١٤٨ - ٢٠٣ هـ) فهذه الذرية الطيبة وهذه السلسلة المباركة بدأها رسول الله ﷺ وانتهت إلى هؤلاء الأئمة الأعلام.

لكن كتاباً عظيماً حوى المعارف والعلوم كانت من أعظم ما كتبه الإمام جعفر الصادق كتاباً سَمَّاهُ (الجفر) ذكر فيه كل ما يحتاجه الناس إلى علمه يوم القيامة ، وضع فيها الإمام خلاصة حكمه العالية، قبل أن يمرض مرض الموت سنة ١٤٨ هـ، وعندما رأى الإمام جعفر الصادق أن الموت نازل به لا محال دعا ولده الإمام موسى الكاظم وأوصاه بوصية جامعة مانعة قال له:

«يا بني من قنع بما قسم له استغنى، ومن مدَّ عينيه إلى ما في يدي غيره مات فقيراً، ومن لم يرضى بما قسم له اتهم الله في قضائه، ومن استصغر ذلّة غيره استعظم ذلّة نفسه، ومن كشف حجاب غيره انكشفت عورته، ومن سلّ سيف البغي قُتل به، ومن احتفر بئراً لأخيه أوقعه الله فيه، ومن داخل السفهاء حقّر، ومن خالط العلماء وقرّ، ومن دخل مداخل السوء اتهم. يا بني إياك أن تذري بالرجال فيندري بك، وإياك من الدخول فيما لا يعينك فتذلّ لذلك. يا بني قل الحق لك وعليك تُستشار بين أقربائك. كن للقرآن تالياً، وللإسلام فاشياً، وللمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً، ولمن قطعك واصلأً، ولمن سكت عنك مبتدئاً، ولمن سألك معطياً.

وإياك والنميمة فإنها تزرع الشحناء في القلوب، وإياك والتعرّض لعيوب الناس فمنزلة المتعرّض لعيوب الناس كمنزلة الهدف.

إذا طلبت الجود فعليك بمعادنه، فإن للجود معادن وللمعادن أصولاً، وللأصول فروعاً، وللفروع ثمرأً، ولا يطيب الثمر إلا بفرع، ولا فرع إلا بأصل، ولا أصل إلا بمعدن طيب.

زر الأخيار ولا تزر الفجار فإنهم صخرة لا يتفجر مأوها، وشجرة لا يخضر ورقها، وأرض لا يظهر عشبها» .

حكمة بالغة ملأت حياة الإمام جعفر الصادق الثماني والستين سنة، وحين مات ماتت الحكمة في الشفاء وامتألت قلوب الناس بالحزن وهم يوسّدونه في تربة البقيع، مضى فقيه المدينة وعابدها إلى جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

وأعود بكم من هناك إلى هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يؤدي التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .

• صفو الصفوة ٢ / ٩٤

حلية الأولياء ٣ / ١٩٢

وفيات الأعيان ١ / ١٠٥

أحسن القصص لفكري ٤ / ٢٨٦

سير أعلام النبلاء ٦ / ٢٥٥

الكامل في التاريخ (حوادث ١٤٥)

تهذيب التهذيب ٢ / ١٠٣

شذرات الذهب ١ / ٢٠

(٦٨٣)

الشيخ محمد سهيل الخطيب الحسني

١٣١٤ - ١٤٠٢ هـ

١٨٩٧ - ١٩٨١ م

الحمد لله الذي وصّى بالوالدين قضاءً مبرماً إلى يوم المصير وقضى ببرها وأمر به ،
فمن خالف ذلك هوى في نار السعير ، أحمدته سبحانه وتعالى وأشكره فهو أهل
الثناء والتقدير .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، من نعمه نعمة الآباء الصالحين .
وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله سيد المرسلين وإمام المتقين .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأزواجه وعترته وذريته وأهل
بيته ، ورضي الله عن جميع أصحابه وتابعيهم المبرئين من الخلل والتقصير ، وسلم
تسليماً .

أما بعد : فهذا سيد لم يكن يوماً يدّعي أنه ولي لكنه صاحب الأولياء ، لم يدّع
يوماً أنه عالم لكنه كان جليس العلماء ، لم يذكر يوماً أنه محدّث لكنه أطال المكث
معهم ، لم يذكر يوماً أنه من الصالحين إلا أنه لم يدع رجلاً صالحاً في عصره إلا
جالسه أو أخذ عنه ، صرف عمره كله في خصال عدّة : هو إما في عمله في خدمة
أوقاف المسلمين ، أو في مجالسة العلماء والمحدثين ، أو في قيام ليل طال أمده ، أو
على مكتبه وبين كتبه ، فإذا ما خلا له حال من بين تلك الأحوال رأيته ذاكراً لله
مصلياً على جده سيدنا رسول الله ﷺ .

في ليلة الاثنين طلع نوره على الكون في حي القيمرية بدمشق خلف الجامع الأموي جامعة المسلمين آنذاك ، يوم ١٧ ذي القعدة سنة ١٣١٤ هـ الموافق سنة ١٨٩٧ م .

من أبوين قرشيين تقيين هما مولاي الجد الشيخ عبد الفتاح محافظ المكتبة الظاهرية بالوكالة ، ووالدته بنت علامة الشام الشيخ أبي الفتح الخطيب ، وكان باراً بهما وبأمه خاصة بعد وفاة أبيه سنة ١٣٣٦ هـ . وبدأت أمارات عناية الله به منذ الصغر ، فقد كان يكتب وظائفه في المكتبة الظاهرية عند أبيه ، وكانت مادة الحساب من المواد الصعبة عليه ، ومرة أهمته مسألة فغفا وهو يفكر فيها ، فرأى الملك الظاهر بيبرس في نومه وسأله هل تريد أن أعلمك القسمة ؟ فقال له السيد الوالد : نعم . وعلمه القسمة على رقمين وثلاثة أرقام وهو نائم . (هكذا يقول السيد الوالد رحمه الله) . وحينما استيقظ من نومه راح يضرب ويجمع ويقسم ، فحمد الله تعالى أشد الحمد . فلما غدا إلى المدرسة في اليوم التالي استغرب الأستاذ فسأله من علمك الحساب ؟ فقال : علمني الملك الظاهر .

تدرج في التعليم حتى دخل كلية صلاح الدين الأيوبي في القدس الشريف ، وفيها من العلماء أمثال : الشيخ أمين العوري ، والشيخ أمين السويد والشيخ حسام الدين جار الله ، والشيخ عبد القادر المغربي ، وكان يصحبه في هذه الكلية الشيخ محمد رفيق السباعي وتخرجوا سنة ١٣٣١ هـ

وكان يرعاه في دراسته أبناء عمومته الأفاضل ، فأسرته أسرة علمية دينية بارزة لها أربعة مدارس شرعية تديرها ، حوت عدداً لا يضاهاى من علماء الإسلام ، وكان من شيوخه : عمه عميد الأسرة الشيخ عبد الرحيم الذي أسس معهد التهذيب والتعليم وتبعه بن أخيه الشيخ هاشم وأخوه الشيخ عبد الرحمن والشيخ حسن بن أبي الفرج والشيخ كمال بن أحمد كلهم من آل الخطيب .

وتابع تحصيله على علماء عصره أمثال الشيخ عبد الوهاب الشركة ، والعلامة الشيخ أحمد الجوري ، والعارف بالله العلامة الشيخ عبد الله الجلاد ، وفي المذهب الحنفي الشيخ محيي الدين الخاني وفي القرآن الشيخ عبد الرحيم دبس وزيت .

لم يترك مولاي الوالد رحمه الله فناً من الفنون أو علماً من العلوم الشرعية إلا قرأ فيه وأخذ عن أهله ، وتكونت لديه ثقافة فاق بها أقرانه حتى أصبح آية من آيات الله في الفقه والفرائض مما أهله أن ينوب بالدرس العام في الجامع الأموي عن شيخه الشيخ هاشم الخطيب .

وتوّج حياته العلمية بدراسة علم الحديث والتخصص به على علماء عدوا في عصرهم من أكابر المحدثين ونبغوا فيه وحازوا المكانة العالية أمثال مولانا الشيخ محمد بدر الدين الحسني مؤرخاً إجازته له سنة ١٣٤٨ هـ ومحدث الغرب الشيخ محمد بن جعفر الكتاني الفاسي ، والشيخ أحمد البلغيثي نقيب أشرف فاس مؤرخاً إجازته له سنة ١٣٤٦ هـ والشيخ محمد عبد الحي الكتاني مؤرخاً إجازته له سنة ١٣٢٥ هـ والشيخ إدريس أحمد البناني المدني الدمشقي وتاريخها سنة ١٣٥٢ هـ كتب مولاي الوالد دروس المحدثين الثلاثة أعني مولانا البدر والشيخ البلغيثي والإمام الكتاني التي ألقوها في جامع بني أمية الكبير . كان رحمه الله يأتي بالملازم الورقية ويبري دزينة أقلام فإذا بدأ الدرس بعد صلاة الجمعة انحنى على الأرض بهيئة السجود ووضع الملازم ليكتب الدرس ، وكلما نبا قلم تناول آخر حتى آذان العصر ، وكان الشيخ البدر يلقي بالكلام لو عده العادّ لأحصاه كما هي طريقة الحبيب الأعظم ﷺ وبلغ ما كتب عن مولانا البدر سبع مجلدات قرئت كلها بعد وفاة الشيخ البدر رحمه الله من قبل تلامذته الأبرار ، وقد طبعت مؤخراً على الحاسوب وأسأل الله أن يتم فضله بنشرها .

لم يكتف مولانا الوالد بعلم الشريعة بل تابع تحصيله في علم الحقيقة ، أكرمه الله أن يتحقق بعد أن تشرع ، والحقيقة . كما يقول أرباب هذا العلم . نهاية عزائم الشريعة ، علماء الحقيقة علماء بالشريعة وزيادة علماء بالحقيقة ، فصحب العارف بالله شيخ الطريقة النقشبندية الشيخ عبد الرزاق الطرابلسي (غلا الحليب) الذي كان يلقبه مولاي الوالد رحمه الله : بالقطب الولي العارف بالله ، صحبه مدّة طويلة لغاية وفاته ، ولازم الشيخ عبد الله الجلال من أكابر العلماء بالطريقتين وسيد الفريقين ، وصحب الشيخ رشيد الحبال ، والشيخ أحمد الحارون رحمهم الله جميعاً .

درّس السيد الوالد بعد خدمته كضابط في الجيش التركي (لغاية سنة ١٩٢٠ هـ) في مدارس آل الخطيب ، وكان لآل الخطيب مدارس شرعية كما ذكرت :الأمنية ويديرها عمي الشيخ شريف الخطيب ، والنورية الصغرى ويديرها الشيخ عبد القادر الخطيب الثاني . ومدرسة الخياطين ويديرها الشيخ سعيد الخطيب . ومدرسة التهذيب والتعليم ويديرها عمي أخو جدي الشيخ عبد الرحيم الخطيب وابن أخيه الشيخ هاشم الخطيب كما أقام دروساً ليلة الاثنين وليلة الجمعة . وكانت دروسه تتسم بالروحانية وحضور القلب ،ممزوجة بالآيات والأحاديث والفقه والسيرة النبوية والقدوة الحسنة وخطب في مساجد دمشق آخرها جامع الجراح في المهاجرين .

سل منبر الجراح كيف يهزّه ربّ البلاغة كم أنرت قلوبنا
سل جامع الأموي كيف يزينه بدروسه والحق فيه معلنا
واسأل محارب المساجد إذ أتى فيها بعلم الدين إحياء لنا

وهذا كله في أثناء وظيفته في أوقاف دمشق كمفتش للمعاهد الدينية والمساجد ، وبعض الوظائف الأخرى ، وحين خرج على التقاعد سنة ١٩٥٦ م

وجه إليه الأستاذ عبد الرحمن الطباع مدير الأوقاف العام كتاب شكر وثناء لجهوده ، وحرصه على أموال الأوقاف فقد أثر عنه أنه كان حريصاً أشد الحرص أن يخرج قرش واحد في غير ما أمر الله تعالى . قدم إليه ابن القولي أحد الموظفين في مديرية الأوقاف يسأله أن يكتب له عبارات على ورقة فمد ابن القولي يده ليأخذ ورقة من مسودات الأوقاف فأمسك السيد الوالد يده وقال : لا ، من هذه الأوراق لا تأخذ ، وأخرج من حقيبته له ورقة ثم أخذ ابن القولي الريشة ليضعها في الحبر ، فقال السيد الوالد ولا من هذا الحبر وأخرج قلماً له من جيبه : وكتبها له . وقال: هذا القلم والحبر للأغراض الخاصة ، وهذا الورق والحبر خاص بمعاملات الأوقاف .

كان رحمه الله تعالى دمث الأخلاق طلق الوجه مع أهله وجيرانه و المراجعين في الأوقاف، يصلي إماماً بالموظفين وربما يراجعهم مراجع وقت الصلاة فيقول له :أتأذن لي أن أصلي ثم أعود إليك ؟ فيستحيي المراجع من نفسه فيذهب ويتوضأ ويصلي مع الجماعة .

وكان لا يرد أحداً عن بابه ، اعتاد بعض المتسولين أن يطرقوا بابه ليتصدق عليهم في المديرية ، فيقوم مولاي الوالد رحمه الله من مكتبه وهو رئيس المفتشين الدينين فيُخرج من جيبه نصف فرنك سوري يضعهما في يده اليمنى ثم يدور على غرف الموظفين يدخل غرفة غرفة ويقول : (حدا معه شي الله) .

وعرف كل موظف ما يفعله هذا الشيخ الصالح فكان كل منهم يضع أمامه على المكتب أنصاف فرنكات فيقدم للشيخ نصف فرنك ، وتجمع هذه القروش ثم يخرج إلى السائل فيضع في يده ما جمعه . فيقول الشيخ بشير الباري (وكان من المفتشين في غرفة مولاي الوالد) : يا شيخ سهيل تفعل هذا وأنت أنت ؟! فكان مولاي الوالد يجيبه : أنا لا أرد أحداً عن بابي حتى إذا سألت الله لا يردني عن بابه .

كانت سيرته عطرة في التفتيش ، يعلم أن راتب الأئمة والمؤذنين والخدم قليلة فإذا ما جاءت شكوى على أحدهم بالغياب أو ببعض الإهمال يستدعيه إليه ويقول له : في اليوم الفلاني سآتي للتفتيش عليك في المسجد . يعلمه بذلك حتى يقوم بواجبه في الاعتناء بالمسجد .

كان أمراً بالمعروف بلطف ، ناهياً عن المنكر بالنصيحة الهادفة ، قال مرة لرجل يرتدي (شورت) في الطريق : يأخي غط فخذك فإن رسول الله يقول (الفخذ عورة) فقال الرجل : (أنت شو دخلك في يا ح م ا ر) . فمضى مولاي الوالد لشأنه وكانت والدتي تسير خلفه بخطوات على عادة أهل الشام فقالت : يقول لك كذا وتسكت عنه فقال لها : قال لي يا حمار هل صرت حماراً . فإذا بصوت وقعة على الأرض وصرخة ، فالتفت الوالدان فرأيا الرجل قد سقط في حفرة وكسرت رجله . فقال السيد الوالد : قد كنت أظن أن الله سيفعل به شيئاً لمخالفته أمر الشريعة .

أيها الأحبة والصحب : بعد هذه السنوات التي قضاهما في الأوقاف طلب منه مدير الأوقاف العام أن يبقى في مديرية الأوقاف متعاقداً معه لغاية عام ١٩٧٧ م فخدم مولاي الوالد قريباً من خمسين سنة من عام ١٩٢٩م إلى عام ١٩٧٧ . وفي خضم هذه السنين لم يترك مولاي الوالد خدمة أسرته ، يشارك في اجتماعاتها وأفراحها وأتراحها ويزوج أولادها ويصل أرحامه خاصة في العيدين ، وأنشأ لفتيانها كشافاً خاصة بهم رباهم من خلاله تربية إسلامية قل نظيرها ورحل بهم داخل بلاد الشام ، يحفرون في الصخر (ذكرى كشاف آل الخطيب الحسنية) ، وحفظ أنسابهم في سجلات ، وأقام لهم شجرات نسب ذكر فيها تاريخهم وأسماءهم وأولادهم وأسابطهم وأصهارهم كان آخرها سنة ١٩٧٥ م ، ظهر فيها كنسابة خدم فيها أسرته والأسر المنسوبة لسيدنا رسول الله ﷺ ، ثبت بها أنسابهم وحفظها من التحريف والضياع ورسم لكل منها شجرة فيها جميع أفرادها من الذكور والإناث وأنشأ لشباب الأسرة

نادياً رياضياً ليصرفوا طاقاتهم بشكل الشرعي (ركوب الخيل الضرب بالسيف السباحة) ، وأصبحت هذه الفرقة عضواً في الكشف المسلم لأن اللباس الذي اختاره السيد الوالد لأعضاء الفرقة كان إسلامياً .
مما حدا بالشاعر أنور العطار لأن يقول :

سهيل الواحد العصر وروض الفن والفكر
أقام الأهل في الأغصان والأوراق والزهر
فيا دوحاته تيهي وظللي آية الدهر

معشر الإخوة : لم يتعدَّ نفعه إلى أسرته فقط بل أنشأ مع أهل الإيمان (جمعية المؤمنين العاملين) في جامع البدرية سنة ١٩٣٩ م مهمتها التدريس الديني لشباب أهل الشام وحين ضربت دمشق سنة ١٩٤٥ م تحولت هذه الجمعية إلى جمعية داوت جراح المرضى وقدمت لهم الدواء والكساء فسبق بذلك ما يسمى بعصرنا بالهلال الأحمر السوري .

هذه الخدمات أهله ليكون عميداً لأسرته بعد وفاة مولانا الشيخ هاشم الخطيب سنة ١٩٥٨ . واكبت هذه الحلية العلمية حلية أخلاقية عالية اتفق على تحليته بها الخاص والعام ، مع زهد وورع وتوكل ووفاء بالوعد وخفض جانب للمؤمنين . أضرب لذلك بمثال واحد يوم مرضت والدته مرض الموت واحتضرت وكان رحمه الله وعد شباب الأسرة بالقيام برحلة فجاء على مواعده بعد الفجر بكامل جهازه وقال لهم : أنا جاهز ، لكن والديّ تحتضر فإن أذنتم لي عدت وإلا رحلت معكم فأذنوا له وأكبروا فيه الوفاء بالوعد .

وكان لا يفتُرُ لسانه عن الذكر في أوقاته وخلواته التي يتوقف فيها عن الكتابة ، وقد شهدنا رحمه الله بأم أعيننا قيامه بالليل في جوف الليل الآخر ، ينام بعد العشاء ويكره الحديث بعدها ، ويستيقظ في ثلث الليل الأخير ، ويحيي الليالي الفضيلة ويعرف متى تكون ليلة القدر ، وكان في كل ليلة من النصف من شعبان يرحل إلى مغارة الدم في جبل الأربعين ليحيي هذه الليلة مع أحبابه وأبناء عمومته يخلو بها بعيداً عن ضوضاء المدينة ، متذكراً خلوة حبيبه وجده المصطفى ﷺ متعبداً في غار حراء .

وقام بعمل ما سمعنا عنه إلا في سلفنا الصالح ، فقد اتخذ لنفسه قبراً من خشب ، قاطعاً من خشب يستلقي فيه ويتلو القرآن ويذكر الموت وما بعده ، ورآه الشيخ ناجي الطنطاوي مرة صدفة ، فقال له : . غداً إذا أنزلوني في القبر أكون قد اعتدت على النزول فيه .

كانت صوفيته سنينة صادقة ، كان لا يسمع بسنة عن جدنا رسول الله ﷺ إلا نفذها ولو لمرة واحدة ، سمع مرة أن رسول الله دخل مكة معتمراً بعمامة سوداء قد أرخى عذبتها بين كتفيه ، فلبس العمامة السوداء أسبوعاً وهو يحدث بهذا الحديث كل من تعجب منه حتى عرف الناس أنها من السنة ثم خلعها .

ورؤية سيدنا النبي في المنام واليقظة ورد فيها أحاديث صحيحة صريحة ، خُرجت على ستة أقوال : سادسها أنه ﷺ يرى في الدنيا حقيقة ويخاطب ويرد ، لذا يقول مولانا الإمام أبو الحسن الشاذلي رحمه الله : لو حجب عني طرفة عين ما عدت نفسي مسلماً . بل قال الإمام النووي والقرطبي والقاضي عياض رحمه الله : الصحيح أن المسلم يراه حقيقة سواء على صفته المعروفة أو غيرها ، وتحتاج الرؤيا إلى تعبير إن كانت على غير صفته .

وقد رأى سيدنا رسول الله ﷺ في إحدى ليالي النصف من شعبان وهو في الموكب الإلهي ورأى عمامته على القلنسوة فلم يضع بعد ذلك عمامته إلا على القلنسوة .

وبلغه أن سيدنا رسول الله ﷺ خرج إلى بقيع الغرقد معتماً بعمامة قد أرخى طرفها بين يديه والأخرى بين منكبيه ، كما عمم في حديث آخر سيدنا عبد الرحمن بن عوف نحوه من ذلك ، فجعل يفكر كيف فعل ذلك ، واغتم له ، وخاف أن يفعل ما يخالف السنة وفي يوم من الأيام حضر إلى دار الشيخ رشيد الحبال الذاكر ، وبينما كانوا يشتغلون بالإنشاد والصلاة على النبي ﷺ إذ رآه يقظة قد أتى من المدينة وهو ينظر إليه إلى أن استقرّ معهم في المجلس ، وراح السيد الوالد يشكو له أموراً والنبي الكريم يحببها بالإشارة ثم خلع النبي الكريم عمامته ولقها ليعلم الوالد كيفية إرخاء العذبتين ثم قال له : هكذا تعمم . فنزع السيد الوالد عمامته في المجلس مباشرة وتعمم على تلك الهيئة .

ثم قرأ أن سيدنا رسول الله يرفع يده مسلماً عن بعد ، واهتم لكيفية الرفع على وجه السنة ، فإذا بالسيد الوالد يكثر من الصلاة على سيدنا النبي ﷺ ، وقام يصلي في جامع الخريزاتية فلما تلا التشهد وقال السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته إذا به يرى سيدنا رسول الله ينشق عنه جدار المسجد إلى المدينة المنورة رآه يشير إليه من الروض الشريف يرد عليه السلام ، فرأى أصابع يده الشريفة وصلت إلى حاجبه الأيمن ، وكادت يده أن تحجب عينه اليمنى اللهم صل وسلم عليه .

وصار كثير الالتقاء بسيدنا رسول الله ، لا يقع منه خلل إلا رأى رسول الله ينهيه عليه في الرؤيا .

وحين كان الشيخ هاشم الخطيب وطلابه يقرؤون الأناشيد الدينية بعد مجلس الصلاة على النبي ﷺ قبل فجر الجمعة و أنشد المنشدون :

صفا وقتنا طاب الزمان بمدحه فقوموا على مدح الحبيب إلى الرقص

كان الحبيب الأعظم يحضر هذا المجلس فخاطبه : يا رسول الله ما هو الرقص المحمدي ؟، فإذا به يرى السيد الأعظم ويأخذ بيد الشيخ هاشم الخطيب والسيد الوالد ويقيم حضرة الشاذلية الله الله ورأى الشيخ رشيد الحبال الحبيب الأعظم يقيم حلقة الذكر فأتى هو وجماعته الذاكرون يشاركون بهذه الحضرة التي لم يشهد لها الجامع مثيلاً .

لكن الرؤيا العظيمة التي خص بها مولانا الوالد ولم نعلم عنها عن أحد من عصره هي رؤيته لنور الإلهي في المنام وسمع هاتفاً ناداه وهو يرى نوراً عظيماً وقال له : يا شيخ سهيل هذا النور لك .

هذا كله بركة الذكر ومجلس الصلاة على النبي ﷺ الذي استمر به السيد الوالد بعد وفاة شيخه الشيخ هاشم قبل فجر الجمعة بساعة في الجامع الأموي يقرأ فيه ٤٤٤٤ صيغة الصلاة النارية لسيدي إبراهيم التازي يضعون الفوانيس وسط الحلقة ثم نقله إلى البيوت بعد ذلك ومحبه لسيدنا رسول الله لا توصف ، إذا كان لا يمضي عليه عام إلا قام باحتفال لمولد الشريف في داره العامرة فلما مرض مضى عليه ثلاثة أعوام لم يحتفل ، فأقام في العام الثالث ثلاثة احتفالات في ثلاثة أيام متوالية أنشد فيها من عيون الشعر في مديح الحبيب الأعظم ﷺ .

أيها الأحبة والصحب : بقي السيد الوالد في ترقٍ دائم من كثرة الذكر حتى قال مرة : إنني لأحس في بعض الأوقات بذكر الله إياي في الملأ الأعلى عندما أذكره بحضور تام ، كما أنني أرى عندما أذكر الله تعالى كيف يجبئ الذكر لي إلى يوم القيامة ، فكأنَّ ألفاظي تجعل شيئاً يلف بورق، كل لفظ على حدة ، وكل ألف مرة على حدة تصرُّ بورق جيد منتظم .

وإذا قرأ القرآن وتأثر به كأن اللفظ الذي خرج منه صار نوراً ، وجعل على بلور فانوس ومما قاله رحمه الله تعالى : كنت ربما وقفت في الصلاة فأرى ما يخرج مني بحضور كأنه نقط عطر توضع ضمن قارورة ثم يختم على تلك القارورة ، وما يخرج مني في حالة الغفلة أرى تلك النقط من العطر تقع خارج القارورة .

معاشر المؤمنين : أستطيع أن أقول إن مولاي الوالد رحمه الله بلغ من الشفافية الإيمانية أن أصبحت مرآة قلبه صافية ، وفراسته صادقة حتى كان الناس يسألونه الاستخارة عن طريق الرؤيا المنامية فينام على نية صاحبها على طهارة ويقرأ سبعا ﴿ ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير ﴾ فإذا كان الفجر سجل ما رأى وأوله وأخبر به صاحبه وكانت تقع كما يقول . وكان معتقداً من العلماء ، كان الشيخ صالح العقاد يرسل إليه الناس ويقول لهم : ليس لكم إلا الشيخ سهيل .

ولعل الذي ساعد على ذلك دوامه على حج بيت الله الحرام كل عام وهي سنة مشى عليها آباؤه رحمهم الله فمولاي الجد حج ثلاثين حجة ، وكان من أوائل من يفتتحون موسم الحج كل عام ، وجده الشيخ محمد حج ٣٩ حجة ، ومولاي الجد الثالث العلامة الشيخ عبد الله حج ٤١ حجة ، ولا أدري عدد سنوات حج مولاي الوالد لكنها فاقت العشرين أو الثلاثين والله أعلم ، فلم ينقطع عن الحج حتى غاية عام ١٩٧٢ وله تجليات يعجز المقام عن الحديث عنها أخبرنا بها أبناء عمومته ومحبه الذين كانوا يرحلون معه ، لكنه كان لا يعود من حجه حتى يطوف حول البيت ٣٥٠ شوطاً ، لأنه قرأ عند الترمذي بسند ضعيف (من طاف حول البيت خمسين طوافاً عاد من ذنوبه كيوم ولدته أمه) .

ومما ساعده على الوصول لهذه المرتبة برّه بوالدته السيدة باهية الخطيب فقد خدمها بإخلاص بعد وفاة والده وهي مقعده يقدم لها كل ما تحتاجه ورفض التزوج ليتفرغ لخدمتها ولما يعلم بما تفعله غالب الزوجات ، حتى كادت والدته تغضب عليه

لعدم تزوجه فهدأ من روعها وقال لها: نامي الليلة على هذه النية وأخبريني صباحاً .
فنامت الجدة رحمها الله فرأت فتاة صغيرة في لفافة مربوطة بخنصر قدم مولاي الوالد .
فلما استيقظت أخبرته فقال : ألم أقل لك إنها مازالت صغيرة (في الإنداء) (

فهدأت الجدة رحمها الله وراحت تدعو له : زوّجك الله حورية من حوريات الجنة
وتمضي الأيام وتنتقل الجدة إلى جوار ربها عز وجل ، وكانت تكرر رب سهيل
يرضى عن سهيل . قدم مرة إلى دار أبيه بعد العشاء وفي أثناء صعوده درج البيت
سمع والدته تقول لجارتها : ألم ينزل التفاح إلى الأسواق ، فإني أشتهي التفاح . سمع
مولاي الوالد هذه العبارة وهو يصعد الدرج فعاد أدراجه من القيمرية إلى سوق الهال
وأحضر لها كيلو تفاح وقال لها : اشتهيت لك هذه التفاحات ، فصارت تدعو له ،
كان رحمه الله يفهم عليها بالإشارة حتى انتقلت إلى جوار ربها عز وجل .

ويتابع السيد الوالد تدريسه في الجامع الأموي وكان يمشي أحياناً بالنعل الذي
صنعه على شكل نعل النبي ﷺ فنعله وقبّابه معروفان لدى الناس وكانت تأتي بنت
صغيرة عمرها عشر سنوات أو أكثر تأخذ القبقاب وتخفيه لتداعب السيد الوالد ،
فيسأل بعد الدرس أين القبقاب فيقولون بنت السبيعي أخذته ، وتكبر البنت حتى
تبلغ العشرين أو يزيد وتخطب له نساء آل الخطيب هذه الفتاة ، وحين سألوه ما
رأيك يا شيخ سهيل ؟ قال : ما اسم هذه الفتاة فقالوا : حورية . فقال مباشرة:
أمي كانت تدعو لي بحورية على بركة الله . وكانت حورية من حوريات الجنة رحمها
الله التي بشرته بها والدته ﷺ .

تذكروا يا سادة أن السيد الوالد تزوج وعمره ٤٦ سنة وخلف ١٣ ولداً مات
منهم توأمان أو ثلاثة ، وبقي له تسعة أولاد : خمس إناث وأربعة ذكور وعوضه الله
تعالى خيراً على انتظاره في خدمة والدته فمات وله من العقب أولاداً وأحفاداً ما
ينوف عن الستين :

يا أحباب رسول الله :

أدعوكم الآن لمشاركتي اللحظة الأخيرة حين استيقظ فجر الجمعة بابتسامته الأخيرة العذبة وإشراقه النور على وجهه خاطبني بقوله : ﴿إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً، ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً﴾ كانت تلك لحظة الوداع وآخر ما تفوه به مولاي الوالد رحمه الله منتقلاً إلى جوار ربه عز وجل سنة ١٩٨١ عن عمر بلغ ٨٧ سنة .

وكانت أجمل كلمات العزاء التي قيلت في السيد الوالد تعزية الشيخ محمد رفيق السباعي قال لي : أشهد بأبيك ثلاثاً ١ . أنه ولي ٢ . وأنه منسوب لرسول الله ﷺ . ٣ . وأنه من الأئمة الأعلام.

مضى مولاي الوالد رحمه الله تعالى :

في ذمة الله الغفور مُقامه وهو الرحيم فما أجل مصيبتنا أرجوك ربّي أن تديم فروعه وجميع من نال الخطابة عندنا وأنزل نزيلاً روضة يلقى بها أبد الدهور مرافقاً لنبينا

ترك غير الذرية ثلاثة وعشرين مؤلفاً في الفقه والسيرة والتاريخ والأنساب والمنطق والحديث الشريف وهو أكبر وأوسع مؤلفاته .

أما بعد أيها السادة : فهل عرفتم من زاركم اليوم إنه حبيب نسيب من آل بيت رسول الله حسني أمأً وأباً حسيني أم جد عباسي أم أب ، فهو منسوب من ثلاث جهات .

إنه سيدنا الشيخ محمد سهيل بن الشيخ عبد الفتاح بن الشيخ محمد بن الشيخ عبد الله بن الشيخ عبد الرحيم بن الشيخ محمد الخطيب بن الشيخ علي بن الشريف محمد بن الشريف وهبه بن الشريف عيسى بن الشريف أبي محمد رشيد بن الشريف عبد

الرزاقي بن الشريف قطب الرجال أبي رسلان بن الشريف محمد بن الشريف خالد بن الشريف شمس الدين محمد بن الشريف القطب الغوث أبي محمد رشيد بن الشريف شمس الدين محمد بن الشريف القطب عثمان بن الشريف شهاب الدين أحمد بن الشريف تاج الدين عبد الرزاق بن الشريف أبي النصر محمد بن الشريف أبي صالح محمد بن الشريف تاج الدين عبد الرزاق بن القطب الغوث سيدنا عبد القادر الجيلاني بن الشريف أبي صالح محمد موسى بن الشريف عبد الله بن الإمام يحيى الزاهد بن الإمام محمد بن الإمام داود بن الإمام موسى بن الإمام عبد الله بن الإمام موسى الجون بن الإمام عبد الله المحض إمام المدينة بن الإمام الحسن المثنى بن الإمام سيدنا الحسن بن السيدة الطاهرة البتول سيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا محمد ﷺ :
قليلٌ لمدح المصطفى الخط بالذهب وأن ينهض الأشراف عند سماعه

وحق لنا أن نقوم لشرفه ﷺ .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما صليت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم ، وبارك على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد كما باركت على سيدنا إبراهيم وعلى آل سيدنا إبراهيم في العالمين . إنك حميد مجيد .

(٦٨٤)

الإمام الشيخ محمد عبد القادر معين

حمص ١٩٢٠، - ٢٠١٤.

قضى شبابه بين أحضان الصالحين ورياض العارفين وتربى على يد الكمل من المربين المتقين جمع بين الطريقة القادرية والنقشبندية فأخذ الطريقة القادرية بالإجازة من الشيخ إبراهيم البرزنجي الحسيني بالسند المتصل الى الشيخ عبد القادر الجيلاني الى سيدنا رسول الله ﷺ وأخذها أيضاً عن الشيخ العارف بالله تعالى وارث الجيلان الشيخ محمد بن أحمد بن الماحي بن أصول رضوان الله عنه، وأخذ النقشبندية عن الشيخ محمد سليم الصافي الحمصي عن الشيخ احمد الطوزقلي عن مولانا ضياء الدين خالد النقشبندي رحمهم الله جميعاً.

حياته وأخلاقه:

عاش طوال حياته مهاجراً متنقلاً بين البلدان طلباً للعلم والعرفان وداعياً إلى الله، وله حلقات وعظ وإرشاد في الحضرة القادرية في دار الصفا بضواحي حلب حيث كان أكثر مقامه فيها، جمع بعض دروسه في كتبه ومؤلفاته، حمل أمانة الدلالة على الله بصدق ويقين، ربي تلاميذه على الصدق في السير والسلوك، والتواضع وحسن الخلق، والعمل بالعلم، والإخلاص في العمل لله تعالى، دلهم على الله بحاله ويقينه، وجمع قلوبهم على حب الله تعالى وتعظيمه، وإجلال رسوله عليه الصلاة والسلام، وكان حقاً أباً لهم، كان واحة للمحبين ونبع صدق يرده العشاق والراغبون، أرشدهم إلى الله تعالى بالخلق الحسن والطريقة المثلى والحكمة والموعظة الحسنة، ينصح الناس برفق ولين، ويبادرهم بالود والرحمة، كانت أخلاقه نبوية كاملة، لم يُرَ في حياته غاضباً أو مؤنباً لأحد بسوء، كان أبعد الناس عن الظهور والشهرة.

أخلاقه نبويه لم يُر في حياته غاضباً أو مؤنباً لأحد وقضى شبابه صائماً قائماً عازفاً عن الدنيا، داعياً الى الله وألقى الله له القبول فاستجاب الناس لدعوته، وكان متواضعاً للكبير والصغير. ومن أقوله رحمه الله: كل نعمه يحسدك الناس عليها الا التواضع.

أعماله وآثاره:

كان قريباً من الناس، مشفقاً على الضعفاء ومعيناً للمساكين، لا يرد عن بابه أحداً، بل يصل إحسانه إليهم في بيوتهم من عطاءات وإكرامات مادية وروحانية، وكان من أعماله الخيرية تيسير تزويج الشباب زوج المئات مع تأمين سكنهم واحتياجاتهم، وقضاء حوائج الناس في السر والخفاء، ظهر إكرام الله له في سيرته العطرة وحياته الطيبة واضحة وجلياً، ومن أعظم كراماته نهجُه، وطريقته في السير على قدم رسول الله صلوات الله وسلامه عليه والأولياء الصالحين، وتربية تلاميذه على ذلك، شهد له بالخيرية الكثير من علماء وفضلاء عصره، وتلمذ على يديه وترى الكثير من المريدين الصادقين في شتى بقاع الأرض، وله أتباع كثر بمدينة حلب الشهباء وحمص ودمشق والمدينة المنورة ومكة المكرمة ومصر واليمن والعراق والهند وباكستان وماليزيا وباقي البلدان الإسلامية.

إقامته ووفاته:

استقر في مكة المكرمة في الثمانينيات ثم انتقل منها إلى حلب في التسعينيات حتى عام ٢٠١١، أقام في مصر المحروسة في الثلاث سنوات الأخيرة من عمره.. توفي في القاهرة، الاثنين ليلاً السابع من جمادي الآخرة ١٤٣٥ من الهجرة السابع من ابريل/نيسان ٢٠١٤

صلي عليه ظهر اليوم الثلاثاء بجامع سيدنا الحسين ﷺ، ودفن بمدفن تلميذه الشيخ عبد الباقي العفيفي بالدراسة، والذي توفي قبله بسنوات وكان قد زار قبره وقال عن المكان: "هنا روضة من رياض الجنة" فشرفت بعد ذلك بجسده الشريف.

رحمه الله وغفر له، وتقبله في الصالحين مع الشهداء والصديقين، وأعاننا على السير
إلى الله بما يرضيه عنا، وحشرنا معه في زمرة سيد المرسلين عليه الصلاة وأتم التسليم،
وجمعنا معهم جميعاً في أعلى جنات الخلد. آمين.

(٦٨٥)

العلامة الشيخ أبو الخير الميداني

١٢٩٣ - ١٣٨٠ هـ = ١٨٧٥ - ١٩٦١ م

هو الشيخ محمد خير بن محمد بن حسين بن بكري الميداني، المكنى بأبي الخير ولد في حي الميدان بدمشق سنة ١٢٩٣ هـ ، ثم انتقل مع أسرته إلى حي العقبية. درس الشيخ أبو الخير في مدرسة الرشدية، ثم في مدرسة عنبر، ثم ذهب إلى استنبول ليكمل دراسته في المدرسة الحربية، ثم عاد إلى دمشق لإتمام أوراقه، وفي ذلك الحين طلبت منه أمه أن يذهب إلى الشيخ سليم المسوقي، ليسأله عن مسألة حصلت لها في بيتها، فلما جاء وسأل الشيخ عن المسألة تفرّس الشيخ فيه الصّلاح والذكاء والانتباه، فرغبه في العلم الشرعي، فقال الشيخ أبو الخير: (إنّ أمي لا ترضى بذلك)، فذهب الشيخ سليم وكلم أمه فيذلك وبشّرها فقال: (إنّ ابنك هذا سيصبح شيخ علماء الشام) فاستجابت ورضيت أن يتفرّغ ولدها لدراسة العلم الشرعي، وكان ذلك سنة ١٣١١ هـ.

أدرك الشيخ رحمه الله نخبةً ممتازة من الأعلام الجهابذة: وأول شيوخه الشيخ سليم المسوقي الذي لازمه ملازمة تامّة ونهل من معين علمه وحُلُقِه، حتّى قال له الشيخ سليم: (لم يبق عندي شيء إلّا صار في صدرك) ومُن تأثّر به كثيراً الشيخ عيسى الكردي، الذي أخذ عنه العلم والطّريق، ثمّ خلفه وأجازه، وزوّجه ابنته حبّه له.

ومن مشايخه الشيخ بكري العطار والشيخ محمود العطار والشيخ عطا الكسم... وكان مشهوداً له بحسن إلقاء الدّروس وبأسلوبه الفدّ في تعليم الطّلاب وتفهمهم، وكان يتقن اللّغة التّركيّة، والفارسيّة، والكرديّة، والفرنسيّة، ويلمّ بالإنكليزية. وكان في بعض المناسبات يتطرّق إلى كثير من العلوم كالطبّ والفلك وتعبير الرّؤيا والحساب والجبر وعلم الطّبيعة (الفيزياء).

من أعماله: إضافة إلى تعليمه ودعوته فقد ساهم مع إخوانه العلماء بتشكيل رابطة العلماء في الشام في عام ١٣٦٥هـ، وكان المجلس التأسيسي يضم ٨٧ عالماً من دمشق وغيرها، وكان مجلس الرابطة برئاسة الشيخ أبو الخير الميداني ، والشيخ مكي الكتّاني (نائباً للرئيس)

أمّا تلاميذه فلا يعلم عددهم إلّا الله تعالى، ونذكر بعضهم على سبيل الإجمال: الشيخ عبد الوهاب دبس وزيت والشيخ سعيد البرهاني والشيخ لطفي الفيومي والشيخ أحمد العريبي والشيخ ياسين الجويجاتي والشيخ حمدي الأرناؤوط والشيخ أحمد كفتارو والشيخ علي الطنطاوي...

كان الشيخ مثالاً في علمه وأعماله وأخلاقه وتواضعه وأدبه، فقد كان خلقه القرآن الكريم وشماله السنة المطهرة، وكان مقبلاً على العلم والتعليم والإرشاد، وكان مهاباً، وقوراً، ورعاً، متواضعاً، كريماً، ما رآه أحد إلّا هابه ولم يصاحبه أحد إلّا أحبه، وكان ممّا يمتاز به حسن الطاعة التي تجلّت بمعاملته لوالدته وشيوخه.

كان يبدأ بإلقاء الدروس، فيقرأ درساً عاماً في جامع التوبة يستمرّ لما بعد طلوع الشمس فيصلّي الصّحى، ثمّ يقرأ درساً خاصّاً بالطلاب في علوم الحديث والتفسير والأصول والفقه والمنطق مع جميع تفرّعات العلوم العربيّة وآدابها ومعاجمها ، علاوة على علم التّصوّف والأخلاق والسيرة النبويّة والتّاريخ والجغرافيا. ويستمرّ في إلقاء الدّروس إلى قبيل الظّهر وبعدها يذهب إلى بيته، وله بعد الظّهر درس، وبعد العصر درس، وبعد العشاء درس.

كانت وفاته رحمه الله في داره الكائنة في حي العقيبة، ليلة السّابع عشر من رمضان ١٣٨٠هـ الموافق ٤ أذار ١٩٦١ وصلى عليه إماماً الشيخ محمود الزّكوسي في جامع بني أميّة الكبير، وحضر الصّلاة عليه علماء دمشق، وكثير من علماء المحافظات السوريّة والأقطار المجاورة.



(٦٨٦)

المقرئ الشيخ خليل الكردي

١٩٣٥ - ٢٠٠٧

هو القارئ الشيخ خليل بن عارف الكردي.

من حي الصالحية بدمشق

قرأ القرآن على الشيخ صبحي العطار (تلميذ الشيخ الحلواني) شيخ جامع الجراح في منطقة المهاجرين... بايع الإمام الشيخ محمد بن الهاشمي على الطريقة الشاذلية وحضر دروسه.. وكان يقرأ القرآن في مجلسه... كما حضر دروس الشيخ عبد الرحمن الشاغوري التي كان يقيمها يوم الإثنين... ويحضر مجلس الذكر... وكان يقرأ في التعازي وكانت له روحانية عالية في القراءة والإنشاد... أسس مجلس الصلاة على النبي ﷺ دوار في البيوت خمسين سنة وما زال بعد وفاته... وأسس مع الإمام الهاشمي مجلساً للحضرة في جامع الشيخ عبد الغني النابلسي... تزوج من آل الأيوبي وأعقب ستة ذكور وبنات... وسبقه إلى الجنة بعض صغار له... توفي ودفن في دمشق سنة ٢٠٠٧. رحمه الله تعالى..

(٦٨٧)

إمام الطريقة التيجانية

الشيخ أحمد التيجاني

أبو العباس أحمد التيجاني: هو أحمد بن محمد بن المختار بن أحمد بن محمد سالم التيجاني، جزائري متصوف.

وهو مؤسس الطريقة التيجانية الصوفية والزاوية التيجانية، وما زال مقامه وزاويته يزاران بعين ماضي إلى يومنا هذا. قضى حياته في كل من: الجزائر، وموريتانية، والسودان، والحجاز، وتونس، ومصر والمغرب، إلى أن توفي في المغرب سنة (١٨١٥م) بعد أن هاجر إليها بسبب استيائه من الحكم التركي في الجزائر.

ولادته ونشأته وتحصيله:

ولد أحمد بن محمد التيجاني عام ١١٥٠ هجرية الموافق ١٧٣٧ ميلادية بقرية عين ماضي الجزائرية بولاية الأغواط الجزائرية، مقر أسلافه.

حفظ القرآن حفظاً جيداً وهو ابن سبع سنوات من رواية الإمام ورش تلميذ الإمام نافع ابن أبي نعيم، على يد المقرئ محمد بن حمو التيجاني الماضوي الذي تتلمذ في حفظ القرآن وقراءته على شيخه عيسى بوعكاز الماضوي التيجاني. وكان رجلاً صالحاً مشهوراً بالولاية. وبعد حفظ القرآن اشتغل أحمد التيجاني بطلب العلوم الأصولية والفرعية والأدبية. واستمر في طلب العلم ببلاده حتى بلغ مرتبةً أهّلته للتدريس والإفتاء قبل أن يرحل رحلته الأولى إلى فاس. فأفتى ودرّس وعمره لم يتجاوز ١٦ ربيعاً.

ما لبث وهو في عين ماضي أن مال إلى الزهد والانعزال والتأمل والتعبّد وقيام الليل، حتى إذا بلغ زوجه والده. وصار يدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

فقد والديه إثر توفيهما بسبب تفشّي وباء الطاعون عام ١١٦٦ في المنطقة، فخلفه سكان بلدة عين ماضي لوالده في رئاسة الزاوية رغم صغر سنه، فقد كان يبلغ آنذاك ستة عشر سنة. ومارس تدريس القرآن والسنة وعلوم إسلامية أخرى لمدة خمس سنوات.

رحلاته:

لم يكتف أحمد التيجاني بالرصيد الفقهي والصوفي الذي حصل عليه في مسقط رأسه في المغرب الأوسط، فشد الرحال إلى مدينة فاس سنة ١١٧١ هجرية الموافق ١٧٥٨ ميلادية. وفاس هي المدينة الإدريسية ذات الأهمية العلمية والرمز التاريخي. فغادر أحمد التيجاني عين ماضي في أول رحلة له إلى مدينة فاس وعمره ٢١ سنة. وخلال هذه المدة التي قضاها بها كان يحضر مجالس العلم ويحاور ويساجل كبار علمائها، إلا أن اهتمامه الأكبر كان منصبًا على الجانب الروحي أكثر من أي شيء آخر، ويظهر ذلك من نوعية الأشخاص الذين التقى بهم وشد الرحال إليهم داخل المدينة وخارجها:

التقى في مدينة وزان بالطيب بن مُحمَّد بن اليملحي العلمي الوزاني القائم آنذاك بأمور الطريقة في الزاوية الوزانية خلّفًا لأخيه الشيخ التهامي الوزاني. وقد كان الطيب ذائع الصيت، وأذن لأحمد في تلقين ورده، لكنه امتنع لاشتغاله بنفسه. وفي جبل الزيبب ببني وأنجل تعرف إلى مُحمَّد بن الحسن الوانجلي.

والتقى في مدينة فاس بعبد الله بن مُحمَّد العربي بن أحمد بن عبد الله مَعْن الأندلسي، أحد أعلام الأسرة العبدلاوية المعنية بمدينة فاس، وتكلم معه في عدة أمور، ودعا له ثلاثًا بأن يأخذ الله بيده.

ثم انتقل أحمد التيجاني إلى بلد الأبيض في ناحية الصحراء حيث زاوية الشيخ الشهير عبد القادر بن مُحمَّد الأبيض، فاخترها منزلًا، وانقطع فيها للعبادة والتدريس لمدة خمس سنوات من أوائل سنة ١١٨١ هجرية. وكانت تأتيه الوفود للزيارة والأخذ

عنه، فكان يتمتع عن ذلك كل الامتناع، ويقول: كلنا واحد في الانتفاع، فلا فضل لأحد على الآخر في دعوة المشيخة إلا سوء الابتداع. وقد زار خلال هذه المدة بلدة زمزم مسقط رأسه ودار آبائه وأجداده.

رحلته إلى الحج وزيارة النبي الكريم:

ومن زاوية الشيخ بالصحراء ارتحل أحمد التيجاني إلى تلمسان، مدينة الجدار، ثم غادرها عام ١١٨٦ هجرية الموافق ١٧٧٢ ميلادية، قاصداً زيارة بيت الله الحرام وزيارة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام. فلما وصل إلى بلاد إزواوى؛ سمع بالشيخ محمد بن عبد الرحمن الأزهرى، فزاره وأخذ عنه الطريقة الخلوتية.

ولما وصل إلى تونس في السنة نفسها؛ لقي بعض الأولياء بها؛ منهم عبد الصمد الرحوي. ومكث أحمد التيجاني سنة بين مدينة تونس العاصمة ومدينة سوسة، فأفتى بها وأجاب عن كثير من الأسئلة، ودرس عدة علوم وكتب، وفي مقدمتها كتاب «الحكم». فذاع صيته وبلغ خبره إلى أمير البلاد، فطلب منه الإقامة بالديار التونسية للتدريس والإفادة من علومه، وأعطاه داراً وخصص له أجرة مهمة للعمل. غير أن أحمد التيجاني لما جاءه كتاب الأمير أمسكه وسكت، وتهياً من الغد للسفر بجرّاً إلى مصر.

وعندما وصل إلى مصر القاهرة بجرّاً التقى بشيخها في ذلك الوقت: محمد الكردي المصري داراً العراقي أصلاً ومنشأً.

ومن مصر توجه إلى بيت الله الحرام، وكان وصوله إلى مكة في شهر شوال عام ١٧٧٣م الموافق ١١٨٧ هجرية، فسمع بها بالشيخ أبي العباس أحمد بن عبد الله الهندي، الذي لم يكن له إذن بملاقاة أحد، ورغم ذلك أخذ عنه أحمد التيجاني الإذن عن طريق رسول خاص.

وبعد أن أكمل شعائر الحج وزيارة قبر النبي ﷺ؛ توجه للقاء محمد بن عبد الكريم السمان.

العودة من المشرق إلى المغرب والرحلة الثانية إلى فاس:

ثم عاد إلى القاهرة مع ركب الحجيج، وعند وصوله ذهب لزيارة الشيخ الكردي والسلام عليه تأدبًا، فرحب به وطلب منه أن يعود لزيارته كل يوم، فامثل لرغبته، وتطور هذا اللقاء اليومي بينهما إلى جلسات علمية ومناظرات، وذاع صيته بمصر، ووفد عليه كثير من العلماء.

ثم عاد إلى تونس، ولم يمكث بها طويلاً، فارتحل إلى تلمسان عام ١١٨٨ هجرية الموافق ١٧٧٤ ميلادية، ففضى فيها حوالي ثلاث سنوات، وفي سنة ١١٩١ هجرية الموافق ١٧٧٧ ميلادية عاد أحمد التيجاني ثانية من تلمسان إلى فاس، قاصداً زيارة إدريس الأزهر، والتقى في هذه الرحلة بكاتبه محمد بن المشري الحسني السباعي السائحي التكرتي الدار. ومنذ التقائه به صار يؤم به وبأهله في الصلاة، ويقوم مقامه في كتابة الأجوبة حتى سنة ١٢٠٨ هجرية، الموافق ١٧٩٤ ميلادية، وهي السنة التي بدأ فيها أحمد التيجاني القيام بالإمامة بنفسه.

وفي مدينة وجدة وهو قافل إلى فاس التقى بعلي حرازم الفاسي لأول مرة، فتوجها معاً إلى مدينة فاس.

وبعد زيارة ضريح إدريس أخبر تلميذه علي حرازم بأنه عازم على العودة إلى تلمسان، فودع تلميذه في السنة نفسها التي وصل فيها إلى فاس، وطلب منه ملازمة العهد والمحبة وصدق التوجه لله.

ومكث أحمد التيجاني في تلمسان مدة، ثم غادرها إلى قصر الشلالة وأبي سمغون، حيث ضريح الولي الذي سمي القصر باسمه، وحل أحمد التيجاني بقصر أبي سمغون سنة ١١٩٦ هجرية الموافق ١٧٨١ ميلادية، وبها أنشأ الطريقة التيجانية،

وصارت فاس المركز الأول لهذه الطريقة، ومنها خرجت الدعوة لتنتشر في إفريقية عامة.

ثم انتقل من أبي سمعون في بلاد الصحراء، في السابع عشر من ربيع الأول سنة ١٢١٣ هجرية، ودخل فاس في السادس من ربيع الثاني في العام نفسه. وبعد أن ركز أحمد التيجاني أسس الزاوية استمر في نشر الطريقة والإذن في الأوراد، فانطلقت الطريقة التيجانية لتعم المغرب الأقصى والصحراء والسودان الغربي، وقد برز أحمد التيجاني شيعًا جعل حياته للتربية الروحية والأخذ بيد السالكين، خصوصًا بعد هجرته إلى فاس للإقامة بها بصفة نهائية إلى أن لقي ربه في صبح يوم الخميس السابع عشر من شوال سنة ١٢٣٠ هجرية الموافق ١٨١٥ ميلادية، وله يومئذ ثمانون سنة رحمه الله ورضي عنه.

وقد أكرمني الله تعالى فالتقيت بشيخها في تماسين الجزائر: الشيخ الدكتور محمد عيد التماسيني، وبايعني على الخلافة في الشام، وقلدني الخرقه المباركة.

الإمام شمس الدين التبريزي

الإمام شمس الدين التبريزي مُجَدِّد ابن الإمام علاء الدين ملك داد التبريزي (١)، من تبريز (٦٤٥-٥٨٢ هـ) الموافق (١١٨٥-١٢٤٨ م) من بلد حَوِي. هو عارف ومتصوف وفيلسوف، وشاعر فارسي (إيراني)، ويُعَدُّ المعَلِّم الروحي للإمام جلال الدين الرومي الملقب بـ(مولانا). كان شمس الدين التبريزي أحد الدراويش [من رجال الدين].. ولَقِبَ بالشَّمْس؛ لأنَّه تهرب من الظَّلام إلى شمس الحقائق. وقيل: إنه راودته رؤى منذ سن العاشرة تقريباً، فقال لأبيه ذلك ولكنه لم يصدقه.. وبعد مدة ترك منزله وبدأ بالتجوال حتى قيل عنه: إنه لم ينم بمكان أكثر من ليلة واحدة؛ لكثرة تجواله وترحاله، وعندما رأى أنَّ أهله لم يبالوا بمرائيه وحاله؛ ترك بيته وساح في البلاد لعلَّه يجد من يستمع إليه. راح الفتى الشمس يكسب النقود لطعامه وشرابه من تفسير الأحلام.. ولكن لم يكن أحد يصدقه حول الرؤى التي قال: إنها تراوده، وكانوا ينعتونه بـ(المنحون). وادعى التبريزي بأنه كلَّم الله والملائكة (٢). وقام برحلاتٍ إلى مدن عدة؛ منها حلب وبغداد وقونية ودمشق (١)، وأخذ التصوف عن ركن الدين السجاسي (٢)، حتى عثر الإمام الشَّمْس على ضالته أخيراً، فوجد من يستمع إليه ويصدقه، وهو الإمام الرُّومي.

(١) لم أجد من ترجمته سوى أنَّ اسمه مَلِك داد.

(٢) والحقيقة أنه يمكن رؤية الله والملائكة في المنام كما ثبت عن الإمام أحمد وغيره.

اعتكف الإمامان شمس التبريزي وجلال الدين الرومي أربعين يومًا في مدينة قونية لكتابة (قواعد العشق الأربعين) المشهورة في التصوف، وانتقيت لكم قاعدة على سبيل المثال؛ لتتعرفوا إليها وهي: (الوحدة والخلوة شيئان مختلفان، فعندما تكون وحيدًا فمن السهل أن تخدع نفسك وتخيل إليك أنك تسير على الطريق القويم.. أما الخلوة فهي أفضل لنا؛ لأنها تعني أن تكون وحدك من دون أن تشعر بأنك وحيد، لكن في نهاية الأمر من الأفضل لك أن تبحث عن شخص؛ شخص يكون بمثابة مرآة لك.. تذكر أنك لا تستطيع أن ترى نفسك حقًا إلا في قلب شخص آخر وبوجود الله في داخلك..)(٣).

ومن القواعد الجميلة المناسبة لحالنا اليوم قوله في (القاعدة ١١٦): لماذا يحدث كل هذا معي؟ لأنَّ الله يريدك أقوى، إنَّ الطَّريق إلى الحقيقة يمرُّ من القلب لا من الرَّأس، فاجعل قلبك دليلك لا عقلك الرَّئيس، إنَّ معرفتك بنفسك ستقودك إلى معرفة الله (من عرف نفسه عرف ربَّه) (القاعدة: ٢).

يوجد معلمون وأساتذة مزيفون في هذا العالم أكثر عددًا من النُّجوم في الكون المرئي، فلا تخلط بين الأشخاص الأنانيين الذين يعملون بدافع السُّلطة وبين المعلمين الحقيقيين، فالمعلم الرُّوحي الصادق لا يوجه انتباهك إليه... بل يساعدك على أن تقدِّر نفسك الدَّاخلية وتحترمها، إنَّ المعلمين الحقيقيين شفافون كالبلور يعبر نور الله من خلالها... (القاعدة: ١٣).

(١) من تبريز إلى قونية، ومن قونية إلى بغداد، ومن بغداد إلى حلب، ثمَّ إلى دمشق... تجوال كبير في عهد الدواب طويل الأمد.

(٢) أبو الغنائم، لم تسعفني مصادري لترجمته، لكنَّه ضمن سلسلة التَّصوُّف التي تنتهي بأبي بكر الشُّبلي عن الإمام الجنيد.

(٣) (قواعد العشق الأربعون) (القاعدة: ٧)

كان التقاء التبريزي بالشاعر العظيم جلال الدين الرومي في تجواله عام ١٢٤٤م^(١)، لقاءً عظيمًا للأدب الصوفي، وتكونت بعد ذلك اللقاء صداقة غيّرت مجرى حياة كليهما، فالرومي تحول من رجل دين عادي إلى شاعر يجيش بالعاطفة، وصوفي ملتزم، وداعية إلى الحب، ولكن رابط الصداقة الجميل الذي ربط هذين الاثنين بعضهما مع بعض بدأ بالتآكل حتى انفصلا -وذلك بعد ثلاث سنوات تقريبًا- على نحو مأساوي.

من آثاره: مثنوية «مرغوب القلوب» و«مقالات (٢)» و«ده فصل» وديوان شعر.

ديوان شمس الدين التبريزي:

بعد أن وصل شاعرنا الفارسي شمس الدين التبريزي إلى مدينة قونية عاصمة السلجوقيين الروم في عام ١٢٤٤ بحث عن شخص يجد فيه خير الصحبة، حتى وجد في الرومي ضالته، ولم يفترق الصاحبان منذ لقائهما، حتى إن تقاربهما ظل دافعًا لحسد الكثيرين لجلال الدين الرومي؛ لاستثنائه بمحبة الصوفي التبريزي، وحين اغتيل التبريزي ولم يُعرف قاتله؛ حزن الرومي على موت شيخه وحبّه العميق له، فأفاض بأشعار وموسيقا ورقصات تحوّلت إلى ديوان سمّاه «ديوان شمس الدين التبريزي» أو «الديوان الكبير»، وهو في مجال العشق الإلهي؛ يعني: عزا أكثر شعره إلى التبريزي دليلًا على حبّه لصديقه الراحل.

ومن «ديوان شمس الدين التبريزي» أو «الديوان الكبير» الذي قام بترجمته سيد علي حسيني اقتطفنا هذه الغزليات، طبعًا هو شعر أعجمي ترجم إلى العربيّة، وربما لا يروق لنا؛ لأننا عرب، لكنّه عند الأعاجم شعر له قيمته ورموزه:

(١) كان عمر الإمام الرّومي ٣٧ سنة.

(٢) كتاب نثر فارسي، كتبه في أواخر حياته.

يا مَلِكَ جَسْمِنَا وروحنا..

يا من يسبب ابتسامنا..

يا مكْحَل عيوننا..

يا نور عين روحنا..

يا من خجل القمر من جلالتك..

يا من أحلَّ عشقك من دمننا..

عندما رأيتك كان القلب يقول: جاء القضاء، جاء القضاء.. يعني: آن وقت

الحبِّ.

نحن كالكرات المختارة وسط معركة لعبتك..

يعني: تقلبنا كما تحبُّ كالكرة بيد النَّاس.

وفاته:

وفقًا للنقولات الصوفية فإن شمس الدين التبريزي اختفى في أحوال غامضة.. فبعضهم يقول: إنه قتل على يد المناوئين له بسبب غيرتهم من علاقته مع الرومي.. وبعضهم يقول: إن التبريزي غادر مدينة قونية فأرًا إلى دمشق ثم إلى بلد خوي^(١)، وتوفي في خوي سنة ٦٤٥ هجري، ثم حيث دفن هناك وله ضريح مشهور^(٢)، زرته أثناء زيارتي لقونية في ترقية.. ورُشِّح ضريحه ليكون من مواقع التراث العالمي لليونسكو.

(١) في محافظة قونية.

(٢) ضمن حديقة في برج.

لم أكثر من الحديث عنه؛ لأنّه أُميل إلى الفلسفة منه إلى غيره من العلوم الشرعية. وقامت إحدى الكاتبات بتحويل القواعد إلى فلسفة روائية جعلت الشريعة مظاهر لا قيمة لها أمام العشق الإلهي، وهذا خطأ بيّن وزندقة، فليتنبه، فهناك فرق بين (قواعد العشق) للرومي ورواية قواعد العشق لتلك الكاتبة... فهي تحرض فيها على العنف والكراهية والحقّد بعكس كلام الرومي الذي انتقل من علوم الشريعة إلى علوم الحقيقة، واستطاع أن يرقى بروحه إلى أعلى درجات العشق؛ وهو حبُّ الإله.

(٦٩٠)

مولانا الشيخ خالد النقشبندی

(١٩٣١-١٢٤٢هـ) (١٧٧٩-١٨٢٦م)

العالم المجدد

شيخ مشايخ الطريقة النقشبندية

بعد قرون متطاولة حوالي أربعة قرون من وفاة مؤسس الطريقة النقشبندية سيدنا الإمام الشاه نقشبند رحمته الله؛ مَنْ الله على الطريقة بإمام مجدّد لها هو: سيدنا ضياء الدين أبو البهاء خالد بن أحمد بن حسين الشهرزوري السلفي الشافعي النقشبندي المجددي القادري السهروردي الكبروي الجشتي^(١)، سليل العارف بير^(٢) ميكائيل المشهور بين الأكراد بـ شُشَانكشت؛ يعني: صاحب

(١) هذه أسماء الطرق الصُوفيّة المجاز فيها.

(٢) هذه كلمة مرتبة دينيّة عند الأكراد إلى اليوم، والأكراد والأعاجم سخرهم الله لنصرة دين الإسلام بصد هجمات أعداء الإسلام، فهل كان السلطان عبد الحميد ومحمّد الفاتح إلّا أعجميين من الترك؟، وهل كان قطز إلّا عبدًا مملوكًا من أصفهان؟، وهل كان صلاح الدّين إلّا كردّيّا لا ينطق بالعربيّة؟، أمثال هؤلاء يدين لهم العرب والمسلمون، ولولا أن الله سخرهم للإسلام؛ لكانت بغداد الآن للمغول، والجزيرة العربية والشام لليهود، وتركية والمغرب العربي كله بيد الصّليبيين... بل كثير ممّن أوصلوا إلينا الإسلام كانوا موالى؛ منهم عطاء بن أبي رباح، وأبو حنيفة، وسيبويه،

الأصابع الست الشَّيْخ خالد بينه وبين شاه نقشبند ١٢ خليفة، وهو رقم ١٣، وهو خليفة الشَّيْخ عبد الله الدهلوي، والشَّيْخ ناظم الحَقَّاني بينه وبين مولانا خالد سبعة خلفاء.

ويُنْتَهِي نسبه إلى سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ويتصل نسب والدته بالعارف بير خضر المنسوب إلى السيدة فاطمة رضي الله عنها.

ولد سنة ١١٩٣ هـ في قصبة قرة طاغ على خمسة أميال من بلدة السليمانية^(١)، ونشأ فيها برعاية والده، وقرأ في مدارسها القرآن الكريم، و«المحرَّر» للإمام الرَّافعي^(٢)، وشيئاً من النحو والصرف، وبرع في النظم والنثر وهو دون البلوغ، وجعل يدرِّب نفسه على الزهد والعفة منذ وقت مبكر. ثم رحل إلى بعض نواحي بلاده لطلب العلم، فقرأ في السليمانية على الشيوخ فيها.

والخوارزمي، والبخاري، وبقية السُّنَّة، واليوم نحن مع الإمام خالد النَّقشبندِي الكردي.

(١) شمال العراق؛ يعني: هو كردي.

(٢) الإمام الرَّافعي كتب هذا الكتاب من ثمانية كتب ألفها، اختصر فيه المذهب الشَّافعي، يقول الإمام ابن حجر (ت ٩٧٤ هـ) في «التُّحفة» (١/ ٣٥): وتسميته «المحرَّر» مختصراً لقلَّة ألفاظه، لا بكونه ملخصاً من كتابٍ معين، ويقول البجيرمي: إنَّه مختصر من «الوجيز» للغزالي، رغم أنَّ الإمام الرَّافعي لم ينص في مقدِّمة كتابه أنَّه مختصر منه (١/ ١٥)، وحقيقة هذا الكتاب عمدة في الفقه الشَّافعي، ويحوي خلاصة المذهب بعبارات موجزة، وقد اختصره الإمام النَّووي في كتابه «منهاج الطَّالِبين»، وهو مطبوع بثلاثة مجلدات.

ثم سافر إلى جهات^(١) فقرأ على أجلائها^(٢)، ثم قدم بغداد فقرأ «المنتهى» في الأصول. وفي هذه الزيارة الأولى لبغداد اجتمع به كبار العلماء ورأوا علمه الزاخر وكان يومئذ يتعاطى التبغ، فكانوا إذا خرجوا من عنده بالغوا في مدحه وانتقدوه على التدخين - ولم يكن التدخين محرماً وقتها - فلما بلغه ذلك دعاهم إلى طعام ثم بحث في الأصول وبيان الحلال والحرام والإباحة وأقام عليهم الحجة، وعندئذ أحضر أدوات التدخين فكسرها أمامهم.

رغب الأمير إبراهيم باشا أن يعينه مدرساً في بعض المدارس ويخصص له الوظائف العلمية العالية فاعتذر وقال: لست من أهل هذا المقام. ثم رحل ليزداد علماً في نواح عدة من السليمانية فقرأ فيها الحساب والهندسة والاصطراب والفلك.

كما تعلم الكردية والفارسية إلى جانب العربية، وقرأ المنطق بعدد من الكتب. ثم ولي تدريس مدرسة أجلّ أشياخه^(٣) الشيخ عبد الكريم البرزنجي بعد وفاته بطاعون السليمانية سنة ١٢١٣ هجرية، وبقي فيها حتى سنة ١٢٢٠ هـ حين جذبه الشوق إلى البيت الحرام وزيارة الرسول ﷺ، فخرج قاصداً الحج عن طريق الموصل وديار بكر والرها وحلب ودمشق.

(١) عاش في العراق وسورية والحجاز والهند وأفغانستان وإيران وفلسطين.

(٢) ومارس التدريس فيها.

(٣) في أيّ مدرسة حلّ يكون هو الأتقى والأورع، ولا يسأل عن مسألة من العلوم إلّا ويحيب بأحسن جواب، ولا يمتحن بعويصة من «تحفة ابن حجر» أو «تفسير البيضاوي» إلّا ويكشف عن وجوه عجائب الفوائد، مع قوة حافظة وذكاء خارق، فاشتهر خارق علمه، وطار إلى الأقطار صيت تقواه وفهمه.

وفي دمشق اجتمع بعلمائها كالشيخ مُجَّد الكزبري^(١) سمع منه وأخذ عنه الأسانيد العالية والإجازات المسلسلة في ذهابه وإيابه، واجتمع أيضًا بتلميذه الشيخ مصطفى الكردي فأجازه كشيخه بأشياء منها الطريقة القادرية.

ولما وصل إلى المدينة المنورة مدح النبي صلى الله عليه وسلم بقصائد فارسية. وبحث عن شيخ عالم، فلقي شيخًا يمينًا، فاستنصحه، فنصحه بأمر؛ منها: لا تبادر بالإنكار في مكة على ما ترى ظاهره يخالف الشريعة، فلمَّا وصل إلى الحرم المكي، وبكر لصلاة الجمعة؛ جلس يقرأ «دلائل الخيرات»، فرأى رجلًا ذا لحية سوداء، عليه زي العوام قد أسند ظهره إلى الشاذروان، ووجهه إليه، فقال في نفسه: هذا الرجل لا يتأدب مع الكعبة، فأنطق الله الشيخ فقال: يا هذا! أما عرفت أنَّ حرمة المؤمن عند الله أعظم من حرمة الكعبة؟! فلماذا تعترض عليَّ؟! أما سمعت نصيحة من في المدينة وأكد عليك؟! قال: فلم أشك أنَّه من أكابر الأولياء، وقد تسرَّ بأمثال هذه الأطوار، فصار يقبل يديه، ويسأله العفو، وطلب منه أن يدلّه على الحق، فقال له: فتوحك لا يكون في هذه الدِّيار، وأشار بيده إلى الدِّيار الهندية، وقال: تأتيك إشارة من هناك، فرجع إلى الشام.

وفي الهند في جهان آباد سنة ١٢٦٠ هـ التقى بشيخه الإمام العَلَم عبد الله الدهلوي، وأمضى خمسة أشهر نال فيها المشيخة والخلافة والإجازة في خمسة طرق: النَّقشبندية، والقادرية، والسهروردية، والجشتية، والكبروية، ثمَّ عاد إلى كردستان، ونشر الطَّريقة في بقاع العراق، ونظم قصيدة من ٧١ بيتًا في شيخه وبشَّره ببشارات.

(١) وصف هذا الشيخ بأنَّه شيخ القديم والحديث، ومدرس دار الحديث.

وفي السنة نفسها رحل إلى بغداد فنزل في زاوية جدنا مولانا الإمام الشيخ عبد القادر الجيلاني أيام وزارة سعيد باشا بن سليمان باشا، وبقي يرشد الناس نحو خمسة أشهر، ثم عاد إلى وطنه بشعار الصوفية.

وفي ذلك الوقت هاج عليه بعض معاصريه ومواطنيه ووشوا به عند حاكم كردستان، فترك السليمانية سنة ١٢٢٨هـ ورجع إلى بغداد، ونزل في المدرسة الأحسائية الأصفهائية فعملها بالعلوم والأدكار.

وحدث حينئذ أن ألف فيه الشيخ معروف البرزنجي رسالة بعث بها إلى والي بغداد سعيد باشا يحرضه فيها على إهائته وإخراجه من بغداد وضلّله فيها وكفّره^(١). ومما قال في رسالته: إن الأكراد كلهم اتبعوه، وملاً ببدعته الآفاق، وإنه يدعي التصرف في الكائنات، ويدعي علم الغيب، وإنه ذهب إلى الهند فتعلم من السحرة الجوكية، ومن نصارى الإنكليز ديناً ظهر عندهم، ثم حرض الباشا على تمزيق طريقته وشعوذته... إلى غير ذلك.

فانتدب والي اللرد عليه^(٢) مفتي الحلة الشيخ محمد أمين، فألف رسالة مهرها علماء بغداد^(٣) دافعوا فيها عن الإمام خالد.

رجع بعد ذلك إلى السليمانية^(١) فبنى له أمير الأمراء محمود باشا بن عبد الرحمن باشا زاوية ومسجداً^(٢)، وأوقف عليهما وقفاً، ورتب للطلاب الموظفين فيها رواتب

(١) من سنة الله أن يجعل حساداً لكل من تفرّد بالفضل، لا ترى عالماً يحلّ بأرض إلاّ أورثوه دار هوان، هذه الكعبة بيت الله يسعى لحجّها الثقلان، وترى أزهّد الناس فيها أهلها لقرب المكان!!

(٢) وعرف واليها بأنّها رسالة حسد وبغضاء.

(٣) والإمام قابله بالدُّعاء والمساحة.

كافية، فأقبل المريدون عليه وطلبة العلم من مختلف البلاد، وانتفع به خلق كثيرون من الأكراد^(٣).

مدحه وقتذاك أدباء عصره^(٤) بالقصائد العربية والفارسية، وألف فيه الشيخ عثمان بن سند النجدي البغدادي كتابه "أصفى الموارد من سلسال أحوال مولانا خالد" ووضع فيه الشيخ حسين الدوسري الأحسائي خليفته في بلاد الأحساء كتب "الأساور العسجدية في المآثر الخالدية".

بلغ رتبة الإمامة وهو لم يبلغ الأربعين من عمره، أراد أن يعلي قدر الإمام؛ لإخلاصه وعلمه وصوفيته الصادقة.

رحل إلى بغداد بعد ذلك فنزل المدرسة الأحسائية أيضاً، وجددت له، فجعل ينشر العلم، وانتقاد له العلماء وشاع فضله، وصار يرسل الخلفاء إلى البلدان المختلفة، فأرسل إلى الشام الشيخ عبد الرحمن العقري الكردي، ثم أرسل الشيخ أحمد الخطيب الأربيلي الذي تلقى عنه كثيرون الطريقة النقشبندية، ومنهم مفتي

(١) أراد الله بجولة الإمام نشر الطريقة النقشبندية في الأرض، وأن تتبارك تلك الأراضي التي مرَّ عليها الإمام.

(٢) هياً الله له هذا الأمير؛ ليتخذ زاوية ومسجداً في السليمانية.

(٣) طالب العلم إذا وجد من يصرف عليه؛ أقبل على طلب العلم، والإمام الشافعي يقول: لو كلفت بصلة ما تعلمت مسألة.

(٤) لا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذووه، العالم يعرف قدر العالم، والأديب الشاعر يعرف قدر الأديب الشاعر.

دمشق الشيخ حسين المرادي^(١) الذي كتب إلى الشيخ خالد يشير عليه بقدم دمشق فانشرح صدره للرحلة إليها.

فلما أراد الرحيل إلى الشام سنة (١٢٣٨هـ-١٨٢٠م)^(٢) أقام مقامه على سجادة الإرشاد الخلفاء في البلاد، ثم خرج من بغداد وأبقى أهله فيها، وتبعه الناس أفواجًا فودعهم، وصحبه كثير من العلماء والخلفاء والمريدين والشيخ عيسى الكردي^(٣).

وصل دمشق بموكبه الحافل في السنة المذكورة ١٨٢٠م، واستقبله كثير من أهلها بالإعزاز والترحيب، كان نزوله أولًا في الجامع المعلق فهرع لزيارته العلماء والأمراء والحكام، ثم نزل في خلوة بني الغزي بالجامع الأموي، وتزوج بعد ذلك منهم شقيقة

(١) هذه الأسماء تجدونها في كتاب «الحدائق الوردية في تراجم النّقشبندية».

(٢) قبل وفاته بأربع سنين.

(٣) كبير النّقشبندية في عصره، فقيه شافعي، ولد ١٢٤٧هـ-١٨٣١م، أخذ العلم عن شيوخ عصره أهمهم إبراهيم الباجوري، شيخ الأزهر، (ت ١٢٧٦)، وانتفع الناس بعلمه وعمله وعطائه، وتلمذ عليه علماء دمشق الكبار؛ من تلاميذه: الشيخ عطا الكسم مفتي الشام، والشيخ أبو الخير الميداني رئيس رابطة العلماء، والشيخ إبراهيم الغلاييني، وأمين كفتارو، وأمين الزمكاني، من كلامه: عليك بالمحبة والصدق، والمواظبة، واتباع الشريعة المطهرة، والدّوام على ذكر الله في القلب من غير فتور في كلّ الأحوال، إنّ المقصود من الذكر هو تذكّر المذكور، ومن دون ذلك لا فائدة من ذكر اللسان والقلب، توفي في دمشق (١٣٣١هـ-١٩١٢م)، ودفن بجوار شيخه مولانا خالد النّقشبندي، للشيخ أبي الخير الميداني صهره وتلميذه رسالة في ترجمته.

الشيخ إسماعيل الغزي^(١) السيدة عائشة، ثم أحضر أهله من بغداد، ثم اشترى دارًا فخمة بحي القنوات جعل قسمًا منها مسجدًا.

أقام^(٢) ينشر العلوم الشرعية، وأشاد دعائم الطريقة النقشبندية، وجعل يرشد السالكين ويربي المريدين، وصارت له منزلة عظيمة، ورحل إليه الأعلام من مختلف البلاد، وأرسل الرسل للأقطار حتى ذاع صيته وعم النواحي نفعه.

أحيا كثيرًا من مساجد دمشق بالأذكار^(٣) حيث يصلي الجمعة، وفوض أمر تربية المريدين فيه لخليفته الشيخ إسماعيل الأناراني، والشيخ أحمد الخطيب - كما هو الحال أيضًا في جامع السويقة "النقشبندي" - بإقامة الذكر وختم الخواجكان (وهو ورد النقشبندية)، وأذن كذلك للشيخ عبد القادر الديملاني في جامع الصاحبة في الصاحية، وقرأ هو بنفسه صباحًا في مدرسة داره بالقنوات «شرح المنهاج» للرملي، جامعًا بين أقوال الخطيب والرملي وابن حجر، وكان معيد درسه الشيخ عمر الغزي، ثم الشيخ محمد الخاني.

كان له في كل بلدة خلفاء ومريدون، وخصوصًا في الآستانة التي اشتهر فيها اسمه وأقيمت له فيها تكايا وزوايا، ورحل بموكبه إلى القدس الشريف، فزار مدينة الخليل، ثم في سنة ١٢٤١ هـ حج البيت الحرام^(٤).

(١) ألف رسالة «حصول الأنس في انتقال حضرة مولانا إلى حضرة القدس» وآل الغزي مفتو الشام من زمن طويل.

(٢) في دمشق ٤ سنوات.

(٣) مجلس صباح الجمعة، وورث هذا المجلس تلاميذه ومريدوه وخلفاؤه.

(٤) بقي جوالاً رغم مكثه في دمشق، وهذه الحجة كانت حجة الوداع له.

وقع له في دمشق شبه ما وقع له في بغداد^(١)؛ ذلك أنه أرسل من أتباعه رجلاً يدعى عبد الوهاب السوسي لنشر الطريقة النقشبندية في الآستانة، فاعتقد به شيخ الإسلام وجمهور العلماء والوزراء، فمالت نفسه إلى الدنيا والشهرة، ولما بلغ أمره الشيخ خالد أحضره واستتابه واستخلف غيره، فأظهر التوبة وأضرر المكر، ثم ما لبث الرجل أن أرسل إلى أتباعه في الآستانة مراسلات زائفة، فاطلع عليها الشيخ خالد وكتب عندئذ ثلاثة كتب إلى إخوانه هناك بحقيقته، ورحل عبد الوهاب إلى المدينة المنورة فاجتمع فيها بأشخاص لفقوا معه أقوالاً على الشيخ، وزعموا أنه يدعي رؤية الجن، وألفوا رسالة بتكفيره أرسلوها إلى دمشق مع أحد الأكراد العوام.

واطلع الشيخ على الرسالة فأمر بعبد الوهاب فشُهر به في البلدة وعُزر، ثم أمر به فأدخل عليه ووعظه وعفا عنه وأكرمه، وعندها ألف تلميذه الشيخ محمد أمين عابدين رسالة يرد فيها على المفتين سماها "سلّ الحسام الهندي لنصرة مولانا الشيخ خالد النقشبندي" ولكنَّ الشيخ خالدًا توفي قبل استكمالها.

وضع الشيخ خالد مؤلفات عديدة؛ منها:

- شرح لطيف على مقامات الحريري "لم يتم".
- فوائد الفوائد "باللغة الفارسية، وهو شرح على حديث جبريل، جمع فيه عقائد الإسلام".

- رسالة العقد الجوهري في الفرق بين كسب الماتريدي والأشعري.
- شرح على أطواق الذهب^(٢) للزمخشري ت ٥٣٨ "مع ترجمة إلى الفارسية".
- رسالة في إثبات الرابطة.

(١) لم يسلم الشَّيْخ من بعض المنافقين في دمشق أيضًا.

(٢) في المواعظ والخطب.

- رسالة في آداب الذكر في الطريقة النقشبندية.
- رسالة في آداب المريد مع شيخه.
- شرح على العقائد العضدية.
- حاشية الخيالي "في علم الكلام".
- حاشية على «نهاية الرملي» "إلى باب الجمعة".
- حاشية على «جمع الفوائد» من كتب الحديث. وصفها الخاني بقوله: تكتب بماء الذهب، قد جردتها بخطي فجاءت مجلدًا.
- جلاء الأكدار والسيف البتار بالصلاة على النبي المختار "فيها أسماء أهل بدر".

وفي الظاهرية دفتر كتبه التي أمر بوقفها بعد وفاته، يقع في ١٤ ورقة "رقم" ٢٥٩. وجمع رسائله ابن أخيه الشيخ أسعد الصاحب في كتاب سماه "بغية الواجد في مكتوبات حضرة مولانا خالد".

ومن أشهر مواعظه قوله لأتباعه: "اعلموا أن أَحَبَّكم إلي أَقْلُكم أَتباعًا وعلاقةً بأهل الدنيا وأخفُّكم مؤونةً وأشغْلُكم بالفقه والحديث، وقد ورد في بعض الأحاديث: (ما ازداد رجل من السلطان قربًا إلا ازداد من الله بعدًا، ولا كثرت أتباعه إلا كثرت شياطينه، ولا كثر ماله إلا اشتد حسابه) وحينئذ لم يبق وجه للميل إلى تكثير السواد بهؤلاء إلا الطمع وحب الشهوة والجاه وأخذ الدنيا بالدين، وجميع هذه النيات فسادها غني عن البيان. اهـ.

وذُكِرَ في «الحدائق الوردية» عدد كثير من كراماته.

وذكر البرهان إبراهيم فصيح البغدادي في "المجلد التالذ^(١)" أن محدث العراق النور علي السويدي البغدادي اختبر الشيخ خالد لما دخل بغداد بقلبه لثلاثين إسنادًا لثلاثين حديثًا من الكتب الستة، فرد الشيخ خالد عليه بالقلب، وأملى عليه الأحاديث بأسانيدھا الأصلية، فأذعن المحدث المذكور.

وذكر تلميذهما الشهاب الألوسي في كتابه "نزهة الألباب" أن السويدي المذكور قال للشيخ خالد في ملأ عظيم: "بئس ما يفعله أكثر علماء الأكراد اليوم! لا شغلهم بالعلوم الفلسفية وهجرهم لعلوم الدين كالتفسير والحديث عكس ما يفعله علماء العرب". فقال له الشيخ خالد: "كلا الفريقين طالبٌ بعلمه الدنيا الدنية، وطلبها ب قال أرسطو أو قال أفلاطون خير من طلبها ب قال الله وقال رسوله، فإن الديني يطلب بدني مثله" فسكت السويدي.

صفاته:

كان رجلاً طويل القامة، ضخم الرأس، أبيض اللون، أحمر الحدين، أسود الشعر والعينين، أقى الأنف، مديد الحاجبين، طويل الذراعين، عريض ما بين المنكبين، كثير شعر الجسد، يلبس فاخر الثياب، ولا يدع الطيلسان والعصا، وكانت عليه هيبة ووقار تخاطه رحمة، لا يظهر لأحد إلا لدرس أو ذكر أو عبادة أو عيادة أو لزائر من أهل العلم ولا سيما إن كان من المنسوبين؛ إذ كان يبالغ في تعظيم آل البيت.

كان علامةً عظيمًا، لقَّبه بمجدد القرن الثالث عشر، وكان كريم النفس حميد الأخلاق، حلو المفاكهة والمحاضرة، رقيق الحاشية طلق اللسان، لم يمالئ أحدًا ولم

(١) «المجلد التالذ في مناقب الشيخ خالد» كتاب يتناول حقيقة التصوف وبيان آداب الطريقة النقشبندية الخالدية وخلوها عن كل بدعة مع بيان أحوال الشيخ خالد.

يتردد إلى حاكم، ولم تأخذه في الله لومة لائم، وكان إلى هذا ذا حافظة وذكاء وعبادة.

صبر على كيد أعدائه كما صبر على مصائب الدنيا، فقد توفي له في الطاعون سنة ١٢٤٢ هـ ولدان نجيبان في الخامسة والسادسة من عمريهما، بهاء الدين وعبد الرحمن، فاحتسبهما عند الله تعالى، وكان هو المسلي لمن جاء يعزيه^(١).

وكان وَعَدَ قبل ظهور الطاعون في شوال أن يزور القدس مع إخوانه، فلما ظهر الطاعون سألوه إنجاز الوعد، فقال: ما نحن فيه من مصابرة الطاعون خير ثواباً مما ترغبون^(٢). وقال: ما جئنا إلى الشام إلا لنموت في هذه الأرض المقدسة، وهذه الشهادة إن تَمَّتْ فهي السعادة الأبدية.

وبعد وفاة ولديه كأنما أحس بدنو أجله، فأحضر الشيخ إسماعيل الغزي شقيق حرمه، وأشهد أنه أقام خليفته من بعده على سجادة الإرشاد الشيخ إسماعيل الأناراني.

ثم جمع خلفاءه وأعاد الوصية، وأمرهم باتباع السنة والتمسك بالطريقة والاتفاق والاتحاد.

وجمع أهله ليلة الأربعاء ١١ ذي القعدة ١٢٤٢ هـ وأوصاهن واستبرأ ذمته من كل حق لهن عليه، وبقين معه حتى مضت ساعات من الليل، فقام وتوضأ وصلى

(١) أخرج البخاري قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَيُّ امْرَأَةٍ مَاتَ لَهَا ثَلَاثَةٌ مِنْ الْوَلَدِ كَانُوا حِجَابًا مِنَ النَّارِ»، قالت امرأة: واثنان؟ قال: «واثنان» (خ ٩٩-٧٨٦م) وقوله: «مَا مِنَ النَّاسِ مُسْلِمٍ يَمُوتُ لَهُ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْوَلَدِ لَمْ يَبْلُغُوا الْحَنْثَ إِلَّا أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ بِفَضْلِ رَحْمَتِهِ إِيَّاهُمْ» (خ ١٢٩٢).

(٢) سَيِّدُنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِالطَّاعُونِ بِأَرْضٍ؛ فَلَا تَدْخُلُوهَا، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ فِيهَا؛ فَلَا تَخْرُجُوا مِنْهَا» متفق عليه.

ركعات ثم قال: "إني طُعنْتُ^(١) الآن فلا يدخل علي أحد إلا مرة" ثم اضطجع على هيئة السنة ولم يسمع منه تأوه ولا توجع.

وجاء لزيارته مساء الثلاثاء الشيخ مُجَدُّ أمين عابدين صاحب الحاشية المشهورة في الفقه الحنفي، فقال له: إني رأيت في المنام منذ ليلتين أن سيدنا عثمان ذا النورين عليه السلام ميت وأنا واقف أصلي عليه، فقال له: أنا من أولاده؛ يشير أن هذه الرؤيا تومئ إليه، ثم لما صلى المغرب أقبل على خلفائه وأشهدهم بثلاث ماله الله تعالى.

ولما كانت صبيحة الخميس دخل عليه الخلفاء وسلموا وأشار إليهم أن يُقْلُوا من الكلام، وبقي كذلك حتى ليلة الجمعة ١٤ ذي القعدة ١٢٤٢ هـ حين سمع مؤذن المغرب يقول: الله أكبر؛ ففتح عينيه وقال: الله حق، الله حق، ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠]، ثم لحق بربه وعمره خمسون سنة سوى شهر ونصف.

حزن عليه الناس شديد الحزن، واضطرب خلفاؤه ومريدوه، واشتد عليهم أمره بعدما حملوه ليلتئذ إلى مدرسته، وذلك بمباشرة كل من الشيخ إسماعيل والشيخ مُجَدُّ الناصح والشيخ عبد الفتاح والشيخ مُجَدُّ الصالح؛ تنفيذًا لوصيته، وقرؤوا له القرآن الكريم والأذكار حتى مطلع الفجر، ثم خرجت جنازته حافلة إلى جامع يلبغا، وحضر الناس للصلاة عليه أفواجًا فلم يسعهم المسجد، وأمهم الشيخ مُجَدُّ أمين عابدين بناء على وصيته، ثم ساروا به إلى سفح قاسيون، فأعيدت الصلاة عليه ودفنوه هناك حيث كان أمر أن يحفر قبره وعين لهم محله ومحل قبور حرمه والخلفاء، وأمر أن يحوط عليها بجدار وصهريج ماء، وقال: أظنه سيبنى هنا تكية للفقراء! وأشهد أنه منذ سنتين وقف كل كتاب يخصه، ثم حرر الوقفية على ظهر «القاموس».

وبنى على قبره السلطان عبد الحميد بناءً جميلاً عليه قبة وبجواره مسجدًا.

(١) أصابه الطاعون.

وكان من جملة وصيته ألا يبكي أحد عليه ولا يعدد شمائله، وأنه محتاج إلى صدقة وقراءة الفاتحة وسورة الإخلاص^(١).

كان الشيخ لطفي الفيومي رحمه الله يزوره كل اثنين من أول الشهر العربي، ويعمل ختمًا عنده وأذكارًا، وتابعه على ذلك بعد رحيله الشيخ نجا يغمور إلى اليوم، جزاه الله خيرًا، وأوصى أنه من أحب أن يذبح ويقدم لروحه أضحية فليفعل، وأن تقضى عنه جميع صلواته من بلوغه إلى يوم وفاته^(٢)، وألا يبني على ضريحه، ولا يكتب إلا: "هذا قبر الغريب خالد^(٣)". رحمته الله وأرضاه وأرضانا معه.

المراجع:

- «حلية البشر في تاريخ القرن الثالث عشر» عبد الرزاق البيطار (ج ١/ص ١٢١٦).

- «الشيخ خالد النقشبندي العالم المجدد، حياته وأهم مؤلفاته»، لنزار أباطة.

- «الطرق الصوفية» أحمد النقشبندي الخالدي.

- «الفلسفة الصوفية في الإسلام» د. عبد القادر محمود.

- «أصفى الموارد في سلسال أحوال الإمام خالد» عثمان النجدي.

- «طبقات الأولياء» ابن الملحق.

- «جامع كرامات الأولياء» الشيخ يوسف النبهاني.

(١) الشيخ لطفي الفيومي رحمه الله يزوره كل اثنين من أول الشهر العربي، ويعمل ختمًا عنده وأذكارًا، وتابعه على ذلك بعد رحيله الشيخ نجا يغمور إلى اليوم، جزاه الله خيرًا.

(٢) مذهبنا: «لا يصلين أحد عن أحد» حديث شريف.

(٣) لأنه تنقل في البلاد، ولم يستقر ببلد، ومات خارج بلده.

(٦٩١)

الشيخ الأكبر (١)

سيدِّي محيي الدين بن عربي

(٥٥٨ هـ - ٦٣٨ هـ) (١٢٤٠م - ١٣٠٨م)

المرحلة العلمية

في قمة معارج الحب الإلهي تنكشف سبحات الجلال عن جمال الذات العلية؛
لتغذي أرواح أهل الاختصاص الذين سُقيت ذواتهم من معين أسرار قول الحق
تعالى: ﴿يُجِبُّهُمْ وَيُجِبُّونَهُ﴾ [المائدة: ٥٤]

فهم أولياء الحق تعالى وخواصه، الذين زَجُّوا بأرواحهم في محيط النور الأزلي
تعشُّقًا للجمال المطلق، فارتوت قلوبهم من معين السر المحمدي، وأثمرت أغصان
المحبة في قلوبهم قطوفًا دانية من كرم الوصال، تشعشعت به أرواحهم فهاموا في حبه
سكارى، وراح الروح تجذبهم إلى رحاب القدس حيث هُتكت لهم الأستار وكُشِفَتْ
لهم الأسرار.

هنالك قمة الوصول، لأهل الفتح والقبول، من عباد الحق المقربين، وخواصه
العارفين.

وفي الذروة العليا من سنام الولاية العظمى والفتوح الرباني يتربع إمام من صدور
الأئمة الربانيين والأقطاب المحققين، بل هو آية الله في أوليائه، وَمِنْحَتُهُ العلوية لُحْصَ

(١) له ألقاب عدَّة: الشَّيْخ الأكبر، البحر الرَّآخِر، بحر الحقائق، محيي الدِّين، سلطان

العارفين، إمام المحقِّقين، شيخ الطَّريقة الأكبرية.

أصفياه، إنه الشيخ الأكبر والكبريت الأحمر، سلطان العارفين وختم الأولياء
المحمدين، سيدي ومولاي الإمام محيي الدين بن عربي، أعلى في الوجود ذكره،
ورضي عنه وعنّا به، وأمَدَّنّا منه بالمدد الأعلى في الدارين. آمين.

هو شمس الولاية التي تكتحل بضياؤها بصيرة كل عارف، وتستمد من أقباسها
روح كل صوفي، تعشقت روحه سر الصفاء الرباني، ومن عجب أن الشمس بكل
جلالتها وظهورها وإشراقها لا تتناول إليها قوى الإدراك لتلمس حقيقتها وجوهرها،
ولعل مناط العجب أن سر تقاصر الأبصار عن إدراك جوهرها يكمن في شدة
ظهورها، كذلك الأمر فيما يتعلق بشمس الولاية سيدي محيي الدين، فأينما
تحسست سر الصفاء الرباني في ولي الله رأيت فيه قبساً من نور هذا الإلهام، ومع
ذلك مما يثير العجب - كل العجب - أن نجد بعض أدعياء الفكر والمعرفة ينكرون
ولاية هذا الإمام العارف بالله^(١)!! جاهلين أو متجاهلين ما له من منزلة دونها مرتقى

(١) وصفه أعداؤه وأعداء التّصوف بالفيلسوف الصُّوفي الملحد الذي خرج بمذهب
وحدة الوجود، فأحرقوا كتبه وأتلفوها، ورفضه ابن تيمية وغيره (من الإخوان
المسلمين والوهابية وآخرهم الدّواعش)، وخرجت كتب في تكفيره، ورد السيوطي
عليهم في «تنبيه الغبي بترئة ابن عربي»، وسارع أنصاره فردّوا على معارضيه، ومنهم:
الإمام السيوطي، والإمام ابن حجر الهيتمي، وابن كمال باشا مفتي الدولة العثمانية،
ورأى الوهابية أن عقيدته باطلة تمثل كفراً لم تعرف البشرية أعظم منه؛ لأنهم لم يفهموا
أقواله، وابن تيمية نفسه كان منحرفاً وضالاً كبيراً، وكانت فتواه مصدراً لجهل عظيم،
كان نملة! وابن عربي لم يضلل أحداً، ولكنه سبق زمانه، وتعاليمه كانت تنضج
بالإسلام، وكلّ من ذمّه لم ينل نور حكمته!

الأنفهام ومطمح البصائر، بيد أن شواهدهما ملء السمع والبصر، ولا تقل دلالة في محيط الإدراك العقلي والوجداني عن دلالة الشمس على وجود النهار، فليس أمامنا من رد لهؤلاء المحجوبين سوى قول الشاعر:

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

وإذا ما استرسلنا في مقارنة شمس الولاية بشمس الكون أدركنا أن سر خفاء الحقيقة مشترك بينهما، فما المانع من إدراك حقيقة الشمس الكونية إلا عجز الأبصار عن الرؤية لشدة ضياء الشمس من جهة ولبعد مرتقاها من جهة أخرى، كذلك ليس المانع من تعرف حقيقة شمس الولاية إلا عجز العقول عن إدراك

أعرف اثنين من المعاصرين كانا يكفّران ابن عربي؛ أحدهما يلقبه بالشيخ الأکفر، والثاني يتناول عليه لسوء ظنه به، ولأنّه لم يفهم كلامه، أمّا الأول؛ فقتل زوجة أخيه وباء بالخسران، والثاني: طرده الله من الشام وعاش في الغربة والكربة، ومصدق ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: «من عاد لي ولياً فقد آذنته بالحرب».

وثالث كتب كتاباً كفر فيه ابن عربي، وقدم لكتابه شيخ القراء، وحين راجعته قال: لست أول من كفر ابن عربي، فكان عاقبتها أن الكاتب بالسّجن، وشيخ القراء شرّده الله خارج بلاده، هذا ما شهدناه في حياتنا، وهو نفسه كان يقول: نحن قوم يجرم النظر في كتبنا! وذلك لأنّ الصّوفيّة تواطؤوا على ألفاظ اصطلاحوا عليها، وأرادوا بها معاني غير المعاني المتعارفة فيها، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظّاهر؛ كفرهم وكفّر، وربما تطالعنا أسماء لامعة في سماء الإسلام من المعترضين، فهؤلاء لم تصلهم كتب ابن عربي ولا فهموا كلامه ولا مصطلحاته، وليس حسناً أن نحكم على شخص سبق فهمه أعوامك ويضيء الطريق أمامك!!

الحقيقة لقوة ضيائها من جهة ولبعدها عن مطمح الإدراكات من جهة أخرى، وثمة أمر مشترك آخر يتمثل في أن مناط الانتفاع بالشمس إنما هو الاهتداء بها لا إليها، وعلى هدى ضوئها يتسنى الوصول إلى الحقيقة، فمن هنا نختدي إلى الطريق، وعلى الدرب نسير.

ولسوف نخوض في هذه المقالة - مع يقيننا بعدم الأهلية لذلك - عباب بحر متلاطم الأمواج، خفي الأبعاد، بعيد الأعماق، وكل ما نعرفه عنه أنه بحر، لكن مياهه ضياء، وأعماقه كنوز، وشواطئه موصلة إلى الحقيقة، يصفه فريق من المحجوبين بأنه بحر الظلمات، ويراه أهل الكشف بحر الأنوار الربانية، فبه تحيا الروح ويشمل العقل براح المحبة، وتستشعر النفس برّذ الرضا والطمأنينة، وإذا لم تكن أهلية الخوض متوفرة فلنستمد من بحور النور قطرة فيها سر الضياء، وليمدنا بها سلطان العارفين شيخ الصوفية الإمام محيي الدين بن عربي رحمته الله وأرضاه وقُدّس سرّه.

فمن أي الجوانب ترى يكون البدء؟

لعله الجانب التاريخي:

فلنتعرف إلى ملامحه في عجالة عاجلة:

إن شيخنا الأكبر هو سيدي أبو بكر محيي الدين مُحمَّد بن علي بن مُحمَّد بن أحمد بن عبد الله الحاتمي من نسل عبد الله بن حاتم أخي عدي بن حاتم الطائي، ويعرف بابن العربي في بلاد المغرب وبابن عربي في بلاد المشرق؛ تفرقة بينه وبين القاضي أبي بكر بن العربي المالكي^(١).

(١) كلاهما لقبه أبو بكر، لكن الأوّل محمّد بن علي، والثاني محمّد بن عبد الله، يعدّه المالكية المجدد الخامس للأمة (٤٦٨هـ - ٥٤٣هـ) من فاس المغرب، كان حافظاً مسنداً، مؤرخاً مفسراً فقيهاً، من أشهر كتبه: «أحكام القرآن».

وقد آثرت ترجمته هنا بآبن العربي تأسياً به حيث كان يسمي نفسه في كتبه بالتعريف،

ولقد قال التاريخ كلمته عن هذا الإمام ومنذ فجر ميلاده:

فجاء به في يوم من أخلد أيامه؛ وهو يوم بدر حيث سجل أول نصر للإسلام. ولد سيدي محيي الدين في يوم الاثنين السابع عشر من رمضان المعظم سنة ٥٥٨هـ أو ٥٦٠هـ في مدينة (مرسية) ببلاد الأندلس^(١)، قبل عامين من وفاة سيدنا الجيلاي، وأسرة سيدي محيي الدين من أعرق الأسر ببلاد المغرب، ولها في الفضل والجلود والعلم والتصرف منزلة سامقة شادت بها الألسنة والأقلام.

فوالده الشيخ علي بن محمد بن عربي من أئمة رجال الفقه والحديث، وكان على قدم في طريق القوم، وقد ذكر سيدي محيي الدين في «فتوحاته» بعض الكرامات التي وقعت لوالده يوم وفاته فقال: (وكان قبل أن يموت بخمسة عشر يوماً أخبرني بموته وأنه يموت يوم الأربعاء وكذلك كان، فلما كان يوم موته وكان مريضاً شديداً المرض استوى قاعداً غير مستقر وقال لي: يا ولدي! اليوم يكون الرحيل واللقاء.

فقلت:.. كتب الله سلامتك في سفرك هذا وبارك لك في لقاءك.

ففرح بذلك وقال لي: يا ولدي جزاك الله عني خيراً، فكل ما كنت أسمعك تقوله ولا أعرفه -وربما كنت أنكر بعضه- هو ذا أنا أشهده.

ثم ظهرت على جبينه لمعة بيضاء تخالف لون جسده من غير سوء، لها نور يتألأأ، فشعر بها الوالد، ثم إن تلك اللعة انتشرت على وجهه إلى أن عمّت بدنه،

(١) في إسبانية اليوم، جنوب شرق إسبانية، تطل على البحر المتوسط، من أهم شخصياتها الإمام أبو العباس المرسى تلميذ الإمام أبي الحسن الشاذلي الذي استوطن الإسكندرية ودفن فيها، وبها مسجده الشهير.

فقبلت يده وودعته وخرجت من عنده وقلت له: أنا أسير إلى المسجد الجامع إلى أن ياتيني نعيك.

فقال لي: رح ولا تترك أحداً يدخل علي، وجمع أهله وبناته، فلما جاء الظهر جاءني نعيه، فجيئت إليه فوجدته على حالة يشك الناظر فيها بين الحياة والموت، وعلى تلك الحالة دفنناه وكان له مشهد عظيم).

هذا هو والده ولي من أولياء الله الواصلين.

وأما والدته فهي السيدة (نور) وهل ينبغي النور إلا النور؟؟؟^(١).

قد كانت من القانتات العابدات الصالحات، ومع عبير أنفاسها الطاهرة تصاعدت دعوات إلى الله تعالى أن يصطفي ابنها لحضرته وقد كان. وفي محيط الأسرة الصالحة أيضاً نجد أن جد سيدي محيي الدين كان من قضاة الأندلس العلماء الورعين.

أما عن الشيخ عبد الله بن محمد الجد الثالث له فقد كان من أهل الكشف والمعرفة.

وأما عن أخواله فقد سجل أصحاب الطبقات الصوفية لهم مناقب جليلة، فمن أحوال الشيخ الأكبر سيدي أبو مسلم عبد الله بن ثوب الخولاني^(٢) الصوفي الزاهد

(١) أعرفت لماذا ينبغي للمسلم أن يتزوج بنت أصول وصالح؟ لأنها تؤثر على أولاده، والله تعالى يقول: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبَثَ لَا يُخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا﴾ [الأعراف: ٥٨].

(٢) سيّد التّابعين، وزاهد العصر، ت ٦٨٤هـ، سكن داريا، وأصله من اليمن، أسلم أيام النّبّي صلى الله عليه وسلم، ولم يلتقه، دخل المدينة في خلافة الصّدّيق، وهو الذي ألقاه الأسود العنسي في النّار فلم تحرقه، فنفاه إلى المدينة، فالتقه الفاروق واعتنقه وقال:

المجاهد الذي كان يقضي الليل قائماً لربه، فإذا ما أدركه الإعياء ضرب رجله قائلاً:
(أنتما أحق بالضرب من دابتي!! أیظن أصحاب مُحَمَّد أن يفوزوا به دوننا؟؟؟ والله
لأزاحمهم عليه حتى يعلموا أنهم خَلَفُوا من بعده رجلاً).

كذلك من أخوال سيدي محيي الدين سيدي (يحيى بن يغان) الذي كان ملكاً
على تلمسان، فجذبتة العناية الإلهية ففر من ملكه ومن نفسه إلى الله، وآثر أن
يعتلي القمة، فتصوف وتزهد حتى إن سيدي محيي الدين كان يقول لبعض من
يطلبون منه الدعاء: (التمسوا الدعاء من يحيى بن يغان فإنه ملك وزهد، ولو ابتليت
بما ابتلي به من الملك ربما لم أزهد)، وقبره مشهور يزار في تلمسان.

هذه لمحات عن البيئة الأسرية لسيدي محيي الدين التي كانت تتسم بالصفاء
والنقاء، وتؤثر حق الروح على فضول المادة، فارتقت في سلم الفلاح إلى مدارج
الوصول.

وفي (مرسية) درج الشيخ الأكبر في أجواء النور، فحفظ كتاب الله تعالى واستقى
قلبه من هداه العظيم.

ثم انتقل سنة ٥٦٨ هـ إلى (إشبيلية)^(١) وعمره ثمانية أعوام فالتقى بصفوة من
علماء عصره، وارتوى على أيديهم من مناهل العلم أيما ارتواء. فقرأ كتاب (الكافي)
في القراءات السبع على الشيخ أبي بكر بن خلف^(٢) (عميد الفقهاء) وأبي القاسم

الحمد لله الذي لم يمتني حتى أراني من أمة محمد من صنع به كما صنع بإبراهيم
الخليل.

(١) جنوب إسبانية، رابع أكبر مدينة في إسبانية، كان يطلق عليها في الفتح الإسلامي
حمص؛ لنزول جند الشام فيها لأول مرة، من أشهر حكامها المعتمد بن عباد.

(٢) أبو بكر الطرطوشي، فقيه مالكي، صاحب كتاب «سراج الملوك في سلوك الملوك»،
(٤٥١-٥٢٠هـ).

الشرائط^(١)، وقرأ كتاب (التيسير) لأبي عمرو الداني^(٢) على أبي بكر مُجَدِّ بن أبي جمرة^(٣)، ودرس علم الحديث والفقه واللغة على أساطين العلم وفحوله في عصره؛ مثل: أبي عبد الله محمد بن سعيد بن زرقون^(٤)، والحافظ ابن الجذ فقيه الأندلس^(٥)، وأبي الوليد الحضرمي، وأبي الحسن بن نصر، وأبي مُجَدِّ عبد الحق الإشيلي، وأبي القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال^(٦) وغيرهم.

وقد استوعب الشيخ الأكبر كل ما وقع بيده من مصنفات وما سمعه عن شيوخه من أقوال، فتألفت عبقريته العلمية وعلا نجمه على أقرانه وارتفع إلى مرتبة الشيوخ وصار إمامًا في المعقول والمنقول، وأجازه جهابذة العلم بمروياتهم ومصنفاتهم؛ كابن عساكر وابن الجوزي والحافظ السلمي وعبد الحق الإشيلي وغيرهم، وعرف كل أولئك ومن جاء بعدهم منزلة الشيخ الأكبر التي لا تسامى. (وهذا كله قبل أن يكون صوفيًا... لقد أصبح عالما قبل أن يصبح صوفيًا، وهذه نقطة مهمة انتبهوا إليها).

(١) القرطبي، من محدثي الأندلس.

(٢) عالم القراءات، ومحدث ومفسر، أندلسي (ت ٤٤٤هـ).

(٣) (٥١٨-٥٩٩هـ) الشيخ الإمام، المعمر، مسند المغرب، فقيه، محدث، اهتم بمذهب مالك ونشره.

(٤) (٥٠٢-٥٨٦هـ) محمد بن سعيد، مسند فقيه، تلميذ القاضي عياض، و(زرقون) لقب جده.

(٥) وحافظها وزعيمها من غير منازع، إليه انتهت رئاسة الفقه.

(٦) محدث قاضي، مؤرخ، أندلسي (ت ٥٧٨هـ).

وقد ذكر الشيخ المفسر المحدث إسماعيل العجلوني^(١) في كتابه: (كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس) عن الشيخ حجازي الواعظ شارح «الجامع الصغير» للإمام السيوطي: أن الشيخ محيي الدين بن عربي معدود من الحفاظ.

و(الحافظ) في مصطلح المحدثين يطلق على من يحفظ مئة ألف حديث. ثم وصل الشيخ الأكبر أيضًا في حياته إلى مرتبة الاجتهاد المطلق^(٢) وصرح بذلك

(١) من أبرز علماء الأردن الشقيق الذين أنجبهم عجلون، برع في علوم شتى، وتصانيفه تدلُّ على غزارة علمه وقوة بيبانه، ولد قرابة عام ١٠٨٧هـ، وقدم دمشق وعمره ١٣ سنة عام ١١٠٠هـ، واشتغل على علمائها، ثم رحل إلى تركيا، ثم عاد إلى دمشق مدرِّسًا تحت قبة النسر بدلًا من شيخه الشيخ يونس المصري، وبقي مدرِّسًا أربعين سنة تحت قبة النسر، وانتشر علمه في الدنيا، لُقِّب بالشيخ الإمام الحجة الرحالة، من مشايخه الشيخ عبد الغني النابلسي وغيره كثيرون.

(٢) الإمام ابن عربي له في علم التصوّف من الكتب والرسائل ما زاد عدده على ٥٠٠ كتاب على حدّ قول عبد الرحمن جامي صاحب كتاب «نفحات الأندلس»، من أهمّها: «الفتوحات المكيّة» (٢٠ مجلدًا)، وكتاب «التفسير» الذي يقول فيه صاحب كتاب «فوات الوفيات»: «إنّه يبلغ ٩٥ مجلدًا، بلغ فيه إلى سورة الكهف إلى قوله: ﴿وَعَلَّمَآهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥]، وتوفي قبل أن يتمّه، وقام الدكتور عثمان يحيى بذكرها في كتابه «مؤلفات ابن عربي تاريخها وتصنيفها»، وهو بالفرنسية ترجمه د. أحمد الطيبي إلى العربية، ونشرته عام ٢٠٠١م الهيئة المصرية العامة للكتاب، وأجمع الكتاب والباحثون المختصّون أنّ الشيخ الأكبر لم يكن مؤلّفًا عاديًّا مثل غيره من المؤلّفين، بل

في «فتوحاته»^(١) في (الباب السابع والستين وثلاث مئة) فقال: (ليس عندنا بحمد الله تعالى تقليد إلا للشارع).

كما قال أيضًا (من البحر الخفيف):

لست ممن يقول: قال ابن حزم^(٢) لا ولا أحمد ولا النعمان

أي: أنه ليس مقلدًا لأيٍّ مذهب.

وعلى هذا البيت يعلّق ابن العماد^(١) في «شذرات الذهب»^(٢) قائلاً: (وهذا صريح في الاجتهاد المطلق، كيف لا وقد قال: عرضت أحاديثه^(٣) جميعها عليه

كان يتميز من غيره بالكم والكيف، ووصفه بروكلمان بأنه من أخصب المؤلفين عقلاً وأوسعهم خيالاً، ووردت ترجمته في العديد من كتب التراجم.

وفي «الفتاوى» (٢١٥) لابن حجر الهيتمي الشافعي يقول عنه: إنّه من أولياء الله العارفين، ومن العلماء العاملين، وقد اتفقوا أنّه كان أعلم أهل زمانه بحيث إنّه كان في كلّ فن متبوعاً لا تابعاً، وإنّه في التحقيق والكشف والكلام عن الفرق والجمع بحر لا يجارى، وإمام لا يغالط ولا يمارى، وإنّه أروع أهل زمانه، وألزمهم للسنة، وأعظمهم مجاهدة، ومثله الشعراني، وابن عابدين، والفيروزآبادي، والعز بن عبد السلام، قال عنه الشيخ النابلسي:

كتبه النور لمن يبصرها وهي تروي كلّ صادي القلب ري
من كتاب الله والسنة قد خرجت تحتال في أبهى حلي

(١) كتاب «الفتوحات» اشتمل على حقائق لا يدركها إلا أرباب النهايات، وتضر بأرباب البدايات؛ لذا نهى بعضهم عن مطالعته.

(٢) لأنّه اتهم بأنّه ظاهري، أي: لست من جماعة ابن حزم الذي أنكر القياس في الدّين.

فكان يقول عن أحاديث صحت من جهة الصناعة: ما قلتها^(٤)، وعن أحاديث ضعفت من جهتها - جهة الصناعة الحديثة-: قلتها^(٥)؟؟ وإذا لم يكن مجتهدًا فليس لله مجتهد. إن لا تراه فهذه آثاره) اهـ.

لكنَّ المطَّلِع على بعض رسائله يستدلُّ أنَّه كان ظاهرِيًّا قبل أن يجتهد لنفسه والله أعلم.

هذه لمحة عن الجانب العلمي عند الشيخ الأكبر، ولا بد منها قبل إبراز الجانب الصوفي العملي.

كلُّ الصُّوفِيَّة كانوا قبل تصوُّفهم علماء وطلاب عِلْم، وكأَنَّ هذا الطَّرِيق لا يعطى إلَّا لطالب العِلْم حتَّى يميِّز الصَّحيح من السَّقيم في مبادئ الإسلام... يميز المبادئ الإسلامية عن الدَّخيلة.

من كتبه غير التي ذُكرت: «فصوص الحِكم» ورَّعه على ٢٧ نبيًّا، ولكلِّ منهم حكمة تحدَّث عنها، «شجرة الكون»، «الإعلام بإشارات أهل الإلهام»، كتاب «اليقين»، «مواقع النُّجوم ومطالع الأهلَّة الأسرار العلوم»، «رسائل ابن عربي»، «ذخائر الأعلاق شرح ترجمان الأشواق»، «محاضرة الأبرار»، «التَّدبيرات الإلهية»،

(١) عبد الحي بن أحمد الحنبلي (ت ١٠٨٩هـ).

(٢) من كتب التَّاريخ «شذرات الذهب في أخبار من ذهب» عشرة مجلدات مرَّتبة على السَّنين من الهجرة النَّبَوِّية.

(٣) التي نقلها في كتبه.

(٤) طبقوا أسانيد صحيحة على أحاديث ليست لها؛ ولذا أنكرها.

(٥) يعني: كان يميز بين الأحاديث الصَّحيحة وغيرها من حفظه.

«كشف المعنى في أسماء الله الحسنى»، «المعارف الإلهية»، «الفتوحات المدينية»،
«ماهية القلب»، وله ١٢ كتابًا في الحديث الشريف، و٣ كتب في التفسير.

المصادر:

- «هكذا تكلم ابن عربي» نصر حامد أبو زيد.
- «ابن عربي ومولد لغة جديدة» د. سعاد الحكيم.
- «محيي الدين ابن عربي حياته ومذهبه» فاروق عبد المعطي (٤٩ سلسلة أعلام الفلاسفة).
- «جامع كرامات الأولياء» الشيخ يوسف النبهاني ١/١٩٨.
- «نفح الطيب» للإمام المقري ٢/٣٦١.
- «سير أعلام النبلاء» للذهبي ٢٣/٤٨-).
- «البداية والنهاية» لابن كثير ١٣/١٥٦.
- «شذرات الذهب» لابن عماد الحنبلي ٣/١٩٠.
- «لسان الميزان» لابن حجر ٥/٣١٠.
- «النجوم الزاهرة» لابن تغري بردي ٦/٣٣٩.
- «الوافي بالوفيات» للصفدي ٤/٩٧٢.

(٦٩٢)

تصوّف الإمام ابن عربي

(مقالات التصوّف)

ليعلم الجميع أن الشيخ الأكبر حينما تصوف تصوف على أساس متين من العلم والتبحر في الشريعة إلى درجة الاجتهاد المطلق^(١) كما أسلفنا. وقد ذكر بعض أصحاب الطبقات أن سيدي محيي الدين تقلد بعض وظائف الدولة قبل أن يتجرد للتصوف، فالإمام الشعراني يقول في «طبقاته»: (وكان -أي: الشيخ الأكبر- أولاً يكتب الإنشاء لبعض ملوك العرب، ثم تزهد وتبعد وساح، ودخل مصر والشام والحجاز والروم (تركية اليوم)، وله في كل بلد دخلها مؤلفات). إذن بقي عاكفاً على العلوم والمعارف أينما حلّ وارتحل حتّى ظفر بأكبر قدر ممكن من الأسرار، وحتّى استقر في دمشق سنة ٦٢٠هـ، وكان أميرها أحد تلامذته. ولقد كانت العزلة هي نقطة التحول والمنطلق الروحي عند الشيخ الأكبر؛ إذ إنه بينما كان يعمل بالكتابة لبعض ملوك المغرب تجاذبته دواعي الحضرة الإلهية ليترك الكل وينقطع لربه^(٢)، وأيّاً ما كان شكل هذا الانقطاع فإن البحث عن الغاية قد ملك عليه قلبه وعقله، فلم تعد لديه القدرة على المضي في طريقين، وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ [الأحزاب: ٤].

(١) قامّة روحية عليا، والحقّ أنّه لو ولد في الهند لسمّوه هناك بالمهاتما؛ أي: الرّوح العظمى؛ لأنّه فعلاً منارة من منارات الإسلام، وأحد فلاسفة المسلمين على مرّ العصور، تشع حقائق وأسرار، ولك أن تقول: بحر كوني يدفع بأمواجه على عتبات الكون الدّر والجوهر.

(٢) تقدم الكلام على مكانة الخلوة وفائدتها العظيمة.

يا إخوة؛ وخذوا وجهاتكم في السَّير إلى الله وأتقنوا عِلْمًا عِلْمًا، هذا منهج الإمام الشَّافعي لا يدخل عِلْمًا على عِلْم، وإلَّا تشتَّت قلبه ولم يظفر بمrade، «إِنَّ الْمُنْبَتَّ لَا أَرْضًا قَطَعَ، وَلَا ظَهْرًا أَبْقَى».

ما حوى العِلْمَ جميعًا أحد لا ولو مارسه ألف سنة
إنَّمَا العِلْمُ كبحر زاخر فابتغ من كلِّ عِلْمٍ أحسنه
العِلْمُ أكثر من أن يحاط به...

ولقد شاءت الأقدار أن يدخل في محيط الربانيين، وأن ينغمس في النور الإلهي، وأن يأخذ علمه عن الله تعالى بلا واسطة^(١)، وفيما يتعلق بفترة التعبد والخلوة والتحنُّث يقول الإمام الشعراني في «البيواقيت والجواهر»:

(ثم إنه طَرَقَ طارقةً من الله، فخرج في البراري هائمًا على وجهه إلى أن نزل بقبر فمكث فيه مدة طويلة، ثم خرج من القبر يتكلم بهذه العلوم التي نقلت عنه، ولم يزل سائحًا في الأرض يقيم في كل بلد بحسب الإذن، ثم يرحل عنها يخلف ما ألفه من الكتب فيها....).

هذا سيدنا رسول الله صَلَّى الله عليه وسلَّم يخلو في غار حراء، ثم تأتيه الشريعة والوحي الإلهي، فالخلوة لا تأتي إلَّا بخير.

الإمام الشَّافعي يقول: (من أراد أن يفتح الله قلبه ويرزقه العِلْم؛ فعليه بالخلوة وقلة الأكل وترك مخالطة السُّفهاء)^(٢).

وحين خرج سيدي محيي الدين بن العربي من خلوته خرج وقد فتحت له خزائن العلم اللدني وغمره الفيض الإلهي، ولم يكن سلوكه الطريق منذ البدء تلقائيًا بلا واسطة، فقد صحب شيوخًا عديدين ترجم لهم في كتاب أسمائه (الدرر الفاخرة في

(١) ﴿وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] عِلْمٌ وهبي، وستمرُّ هذه المسألة.

(٢) «بستان العارفين» للإمام النووي (ص ٤٧).

ذكر ما انتفعت به في طريق الآخرة) ويصل عدد شيوخ سيدي محيي الدين - كما ذكرهم - إلى خمسة وخمسين شيخًا.

الرحلة الأولى له في الأندلس وما حولها:

من أبرز الشيوخ الذين أخذ عنهم شيخنا سلطان العارفين القطب العارف سيدي محيي الدين من ذكره الشيخ مُحَمَّد رجب حلمي في كتابه (البرهان الأزهر في مناقب الشيخ الأكبر) معرفًا ببعض شيوخه يقول:

(وأخذ العلوم الباطنية عن حضرة العارف بالله الشيخ أبي مدين المغربي^(١)، وجمال الدين يونس بن يحيى القصار، وأبي عبد الله التميمي، وأبي الحسن بن جامع،

(١) قطب الأقطاب أبو مدين الغوث شبيب بن الحسن، وهو الرجل الثاني بعد سيدنا عبد القادر الجيلاني في تسلسل الشاذلية، والثالث: عبد السلام ابن مشيش، والرابع: هو أبو الحسن الشاذلي، أجمعوا على تعظيمه وإجلاله، عرف بولده مدين، عاش ٨٠ سنة، آخر كلمة قالها وهو في المسجد: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى﴾ [طه: ٨٤]، الله الحي، ثم فاضت روحه، وله مقام وضريح زرتة مرارًا وتبركت به، مات في تلمسان، من أشهر قصائده:

ما لذّة العيش إلّا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرأ
أحب لقا الأحباب في كلّ ساعة لأنّ لقا الأحباب فيه المنافع
وكان المنجد ينشد له:

عيدوا علي الوصال عيدوا فإنّ شوقي لكم يزيد
الله قل وذر الوجود وما حوى إن كنت مرتادًا بلوغ كمال

بالذات، وأخذها بالواسطة^(١) عن حضرة الغوث سيدنا عبد القادر الجيلاني^(٢)، وحصل له الفيوضات الغزيرة والفتوحات الكثيرة).

ومن شيوخه أيضاً الإمام العارف أبو العباس المريني، والشيخ أبو مُحمَّد بن عبد الله، وعنه يحدثنا سيدي محيي الدين قائلًا: (دخلت على شيخنا أبي مُحمَّد بن عبد الله بغرناطة سنة خمس وتسعين وخمس مئة، وهو من أكبر من لقيته في هذا الطريق، ولم أر في طريقته مثله في الاجتهاد، وكان ممن أوتوا فهمًا في القرآن إرتًا مُحمَّدِيًّا، فقال لي: الرجال أربعة:

* رِجَالٌ ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وهم رجال الظاهر.
* وَرِجَالٌ ﴿لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧] وهم رجال الباطن، جلساء الحق تعالى، ولهم المشورة.

* ورجال الأعراف، وهم رجال الحد، قال الله تعالى: ﴿وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ﴾ [الأعراف: ٤٦] وهم أهل الشم والتمييز، والسراح عن الأوصاف، فلا صفة لهم، كان منهم أبو يزيد البسطامي.

(١) التقاء أرواح المؤمنين ثابت في عالم البرزخ، ففي الحديث: «أَحْسِنُوا كَفْنَ مَوْتَاكُمْ؛ فَإِنَّهُمْ يَتَبَاهَوْنَ وَيَتَزَاوَرُونَ بِهَا فِي قُبُورِهِمْ» أخرجه الترمذي وابن ماجه بإسناد حسن، وفي آخر: «إِنَّهُمْ لِيَتعارفون كما تتعارف الطير في رؤوس الشجر» ذكره ابن أبي الدنيا، وفي آخر: «إِنَّ أَرْوَاحَ الْمُؤْمِنِينَ تَلْتَقِي عَلَى مَسِيرَةِ يَوْمٍ مَا رَأَى أَحَدُهُمْ صَاحِبَهُ قَطُّ» أخرجه أحمد والطبراني، ودخل محمد بن المنكدر على جابر بن عبد الله وهو يموت، فقال له: اقرأ على رسول الله السَّلام، وحديث: «الرُّوح لا تَلْقَى الرُّوح» ضعيف لا اضطراب سنده.

(٢) توفي بعد ولادته بعامين.

* ورجال إذا دعاهم الحق يأتون رجالاً؛ لسرعة الإجابة لا يركبون، قال تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] وهم رجال المطلع..... اهـ.

ومن شيوخه أيضاً الإمام العارف سيدي يوسف الكومي، وليسيدي محيي الدين معه هذا الموقف العرفاني الذي يرويّه قائلًا: (سألني شيخي يوسف الكومي سنة ست وثمانين وخمس مئة عن مسألة من مشكلات التصوف فقال: إذا اجتمع عارفان في حضرة شهودية عند الله تعالى؛ ما حكمها؟ قلت: يا سيدي؛ هذه مسألة تفرض ولا تقع؛ لأن الحضرة لا تسع اثنين ولا تشهدا عين زائدة، فإن افترضناها مثلاً: فاذا اجتمعا فلا يخلو كل واحد منهما أن يجمعهما مقام واحد أو لا يجمعهما، ثم حكم التجلي من حيث الظهور واحد، ومن حيث المتجلي له مختلف، فالذوق متباين لاختلافهما في أعيانهما، ولا يجتمع شهود وخطاب وتجل ورؤية غير).

أرايتم هذا المنطق العرفاني النضاح بالنور الذي فاض به لسان الشيخ الأكبر مع شيخه؟ إنه حديث العارف الذائق، وما أجمله من حديث ذي شجون بين الشيخ وشيخه! فسبحان من أعطى وأنعم!!

ثم لا ننسى ونحن بصدد الحديث عن شيوخ الشيخ الأكبر أنه التقى في مطلع شبابه بأم روحية له في الطريق؛ وهي السيدة فاطمة بنت المثنى القرطبية، فكان يخدمها وكان لها من العمر آنذاك خمس وتسعون سنة، على حين أن الذي يراها يحسبها بنت أربع عشرة سنة، وكانت من القانتات العارفات بالله، يقول سيدي محيي الدين: (وكانت تقول لي: أنا أملك الإلهية^(١)، ونور أملك الترابية، وإذا جاءت والدتي لزيارتي تقول لها:

(١) أي: في الدين الأم الربانية.

يا نور؛ هذا ولدي فريّه ولا تعقيّه!! يعني: كأُهمّا كانت تعرف المستقبل الباهر الذي ينتظر ولدها، فراسة صادقة أو إلهام غريزي.

ثم يذكر لنا الشيخ الأكبر أن له سندًا في الطريق عن سيدنا الخضر^(١) عليه السلام عن طريق شيخه علي بن عبد الله بن جامع حين زار الموصل، فيقول في الجزء الأول من «الفتوحات»: (واجتمع به - أي: بالخضر - رجل من شيوخنا؛ وهو علي بن عبد الله بن جامع، من أصحاب علي بن المتوكل وأبي عبد الله قضيب البان، كان يسكن بالمقلّى خارج الموصل في بستان له، وكان سيدنا الخضر قد ألبسه الخرقة^(٢) بحضور قضيب البان^(١))، وألبسنيها الشيخ بالموضع الذي ألبسه فيه سيدنا

(١) اسمه بلياء، كان من أبناء الملوك، وجمهور العلماء ومنهم الإمام النّوّوي وابن الصّلاح أنّه حيّ موجود بين أظهرنا، وهو ما اتفق عليه الصّوفيّة وأهل المعرفة، والذين أنكروه هم المحدثون، والصّحيح الصّواب أنّه حي، والقرطبي في «تفسيره» صحّح حياته (ج ١١ ص ٤١)، والمرجح أنّه نبي، ﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] وفي البخاري أنّ اسمه الخضر.

(٢) الخرقة: لباس يلبسه المريد من شيخه الذي دخل في إرادته، وفي لبسها معنى المبايعه، فهي تمثل عتبة دخول المريد في صحبة الشّيخ الذي يتولى تربيته وتهذيبه وأخلاقه وتقويم سلوكه، والظّاهر أنّها كانت من صوف، وكان اشتهارها بين القرن الخامس والسّابع حيث ينذر أن يذكر عالم من دونها، والقرن السّابع هو ذروة التّصوف في العالم الإسلامي، والخرقة زينة لأولياء الله يعزّها بها العوام فيحترّمهم الخلق، ويعزّها عليهم إتيان المعاصي، ويعتقدون أنّها تذهب الكبّر، وتقرب إلى الحقّ، مع الاقتداء بسيدنا عمر؛ لأنّه كان يلبس مرقعته، وكان إذا لبس غيرها يقول: أنكرت نفسي.

الخضر في بستانه، وبصورة الحال التي جرت له معه في إلباسه إياها). سنة ٦٠١ هـ وكان عمره ٣٩ سنة.

لقد كان هناك اتصال مباشر للشيخ الأكبر بسيدنا الخضر وتلقى عنه^(٢)؛ إذ روى الإمام الشعرائي في (الكبريت الأحمر)^(٣) أن سيدي محيي الدين قال في (الباب الخامس والعشرين) من «الفتوحات»: (كنت لا أقول بلباس الخرقه التي يقول بها الصوفية حتى لبستها من يد الخضر عليه السلام تجاه باب الكعبة).

لبس الخرقه ارتباط بين الشيخ والمريد، وتحكيم من المريد للشيخ في نفسه، وهي محل بركة، يسري حال الشيخ من باطنه إلى باطن المريد، وفيه إشارة إلى قميص سيدنا يوسف الذي يرتد به بصيرًا، ويذهب عنهم العمى الذي حصل على من أحب الدنيا والتَّصرف فيها، يتم عبر مراسم بين الشيخ ومريده وجماعة من الحضور، فيتطهر المريد والشيخ، ثم توضع الخرقه بين أيديهما، ويقرأ الشيخ الفاتحة، ثم يقوم بإلباسها للمريد، ويُبين له سنة وصولها إليه، ثم يأخذ عليه عهد الوفاء لشرائطها، ويعرفه حقوق الخدمة، ولبس الخرقه خاص بالرفاعية والسهروردية والقادرية، ينتهي نسبها إلى سيِّدنا علي بن أبي طالب، والأصح أنَّها لا تنسب إليه، بل إلى سيِّدنا الحسن البصري، وعلى كلِّ هو مباح، وليس سُنَّة وطريقًا إلى الله.

(١) الحسين بن عيسى (٤٧١-٥٧٣ هـ) صهر سيِّدنا الجيلاني، من الأبدال، من محافظة نينوى، كردي موصللي زاهد، وفي عام ٢٠١٤ قامت داعش بتفجير الصَّريح والجامع الخاص به.

(٢) أصبح ابن عربي تلميذًا لشيخ لا مرئي، وهو الشيخ الباطني، وكلُّ المتصوِّفة الذين ليس لهم مرشد مرئي -أي: دنيوي مثلهم هم حاضروه- يدعون بالأوسيين.

(٣) هو المختصر لـ «الأنوار القدسية» الذي اختصر فيه «الفتوحات» لابن عربي.

وحتى لا يرتاب أحد في مشروعية لبس الخرقة قال الإمام الشعراني عقب هذا الكلام مباشرة: قلت: ذكر الحافظ ابن حجر أن حديث لبس الخرقة متصل ورواته معروفون كما أوضحت ذلك في «مختصر الفتوحات»، والله أعلم.

ويخلص لنا من كل ما سلف أن الشيخ الأكبر قد تربى في رياض الصوفية تربية

الأكابر على يد الأكابر، ثم ارتقى إلى مرتبة التفرد المطلق والاتصال المباشر، فجاءته البشارة المؤذنة بالاتصال الكامل والمباشر، يقول ﷺ: (ولقد أنعم الله علي ببشارة عظمى بشرني بها وكنت لا أعرفها، فأوقفني عليها الإمام خليفة القطب، فقد نهاني عند التقائي به عن الانتماء إلى من لقيت من الشيوخ، وقال لي: لا تنتم إلا إلى الله، فليس لأحد ممن لقيت عليك يدٌ مما أنت فيه، بل الله تولاك برعايته وعنايته، فاذكر فضل من لاقيت إن شئت ولا تنتسب إلا إلى الله) لقد صار عبداً إلهياً لا نسبة له إلا إلى مولاه.

وتوالت عليه الإمدادات والفتوحات، وذاق الأحوال والمقامات.. وأصبح لا تمر عليه ساعة إلا وهو في مزيد من الترقى والعروج، ولقد تحقق بجميع أحوال الصوفية ومقاماتهم التي أحصاها بنفسه في «الفتوحات» فبلغت ستين ألفاً، استمع إليه وهو يقول:

(وقد دخلنا في كل ما ذكرناه في هذه الإمدادات الإلهية ذوقاً مع عامة أهل الله، وزدنا عليهم باسم إلهي هو «الآخر» أخذنا منه الرياضة وروح الله الذي يناله المقربون من قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتْ نَعِيمٌ﴾ [الواقعة: ٨٨، ٨٩] ونلت هذا المقام في دخولي هذه الطريقة سنة ثمانين وخمس مئة) أي: وعمره عشرون عاماً!! لأنَّ القول الثاني لولادته هو ٥٦٠ هـ وليس ٥٥٨ هـ، يا ترى هل دخل الإمام في هذه المقامات كلها خلال عشرين سنة!، يا ترى متى

كانت أيام لعبه ولهوه؟!، فاعتبروا يا طلاب العلم، ٥٠٠ مؤلف خلال ٨٠ سنة، تعالوا نوزعها على أيام عمره، إذا قسمناها على سنين عمره يكون قد ألف في كل سنة منذ ولادته ستة مؤلفات، وتذكروا أن مؤلفاً منها هو «التفسير» ٩٥ مجلداً، وكتاب «التاريخ» عشرة مجلدات، و«الفتوحات» ١١ مجلداً، مع سفره في العالم الإسلامي مرتين غير السيّاحة في بلاد المغرب.

ثم لقد تحقق سيدي محيي الدين بمقام (الصديقية العظمى)^(١) وهو المقام الذي يراه جل الصوفية خاتمة مقامات الولايات وأعلاها، بيد أنه بعد أن حظي بها وجد أن ثمة مقاماً فوقه أعلى منه، هو فوق الصديقية ودون النبوة مباشرة، ويسمى (مقام القربة) وهو مقام سيدنا الخضر على نبينا وعليه الصلاة والسلام.

وعنه يحدثنا الشيخ الأكبر رحمه الله قائلاً: (هذا المقام دخلته في شهر المحرم سنة سبع وخمس مئة وأنا مسافر بمنزل إنجيل ببلاد المغرب، فتهدت في هذا المنزل فرحاً ولم أجد فيه أحداً غيري، فاستوحشت من الوحدة وتذكرت دخول أبي يزيد بالذلة

(١) المراد من سلوك طريق التّصوّف ترقّي النّفس شيئاً فشيئاً إلى المقام الأكمل حتّى يصل إلى مقام الصّديقيّة الذي هو مقام الولاية الكبرى، والخلافة العظمى، ومنه تنشأ جميع منازل السّالكين، وعوام المسلمين لا يعرفون منه إلّا مقام الصّدق في الأقوال، ولكنّ مفهومه عند الصّوفيّة عامٌ يشمل صدق القلب، وصدق الأفعال والأحوال، ونستطيع أن نعرّفه أنّه استواء السّر والعلانية، والظّاهر والباطن، ومقام الصّديقيّة درجات بلغ أقصاها سيّدنا أبو بكر: ﴿وَالَّذِي جَاءَ بِالصّْدَقِ وَصَدَّقَ بِهِ﴾ [الزمر: ٣٣] وفي الحديث جعل النّبي صلّى الله عليه وسلّم الصّدق مفتاح الصّديقيّة: «وإنّ الرّجل ليصدق حتّى يكتب عند الله صديقاً».

والافتقار^(١)، وعن سيدي أبي يزيد المقربين في مقام القربة، وقرنا بهما إليهما ومعهما انتماء لجنابهما الشريف.

تلك هي أبرز مقامات الشيخ الأكبر، وذلك هو مركزه الشامخ في الولاية، لتطلع إليه من بعيد وهو يحتل قمة التصوف والتحقيق وأنى لنا الرؤية؟! هل نسينا أن البصر أعجز من أن يحدق في الشمس الصغرى - شمس الدنيا؟

وأنَّ البصيرة أعجز من أن تحدق في الشمس الكبرى - شمس الولاية؟ وهل لدينا من القدرة ما نخترق به تلك الحجب وهذا البون الشاسع ما بين السماء والأرض؟ ﷺ. عذرا يا شمس الولاية فإئما نحن عاشقون لضيائك، فلتسمح لنا في أن نتعرف إليك في أعلى عليائك.

نعود إلى رحلتنا مع الشيخ الأكبر عبر مسافات التاريخ فنذكر أنه أقام في إشبيلية فيما بين عامي ٥٦٨-٥٨٩هـ، وخلال هذه العشرين عامًا -أو تقول: ٣٠ عامًا منذ ولادته- صعد الشيخ إلى القمة وتربع عليها، كما أنه خلال هذه الفترة قام بعدة سياحات داخل بلاد المغرب، زار خلالها عديدًا من المدن والبلدان؛ مثل: مورور والزهراء وقرطبة وتونس وفاس وسنبلة وغرناطة، وكلها سياحات صوفية التقى فيها بشيوخه وحظي بأحواله ومقاماته.

الرحلة الثانية من سياحة الإمام إلى مصر والحجاز والعراق:

ثم في سنة ٥٨٩هـ -وفي رواية: (٥٩٧-٦٢٠) = كان عمره ٣٦ سنة- ارتحل إلى بلاد المشرق حاجًا إلى بيت الله الحرام (١٢٠١م)^(١).

(١) لا يصل أحد إلى الله إلا بمقام الذلة والافتقار، فانظر ماذا اختار النبي صلى الله عليه وسلم لما خيره الله بين أن يكون نبيًا مَلِكًا أو نبيًا عبدًا؟ اختار نبيًا عبدًا.

وفي مكة التقى بالشيخ أبي شجاع^(٢) أمام مقام سيدنا إبراهيم على نبينا وعليه الصلاة والسلام، وبنى الشيخ الأكبر بابنته^(٣) الصوفية الصالحة.

وفي مكة أيضًا ألف سيدي محيي الدين ديوانه الشعري (ترجمان الأشواق)^(٤) الذي يعد آية في الشعر الرمزي والذوق الصوفي الرفيع؛ كما ألف أعظم موسوعة

(١) ارتحل الشيخ الأكبر إلى المشرق يؤكد لنا على عظمة المشرق الرُّحية؛ لأنَّ الغرب قد غرق في أحوال المادة والتَّرف والعنف (صراعات سياسيَّة ضد القوى الأوروبية الآتية من الشَّمال مهددة الوجود العربي بالأندلس) ونسي رسالته الحضارية التي أتى بها علمائهم، رحل إلى المشرق ليغذي ينابيع التَّصوُّف التي خرج منها الإمام السَّهروردي في القرن الثاني عشر الميلادي (ت ١١٩١ م) والإمام أبو يزيد البسطامي (ت ٢٦١ هـ)، وفريد الدِّين العطار النِّسابوري (ت ١٢٢٠) الذي حمل جلال الدِّين الرُّومي بين يديه حين كان طفلًا وتنبأ له بمستقبل صوفي كبير، والتقى بالإمام الشَّيخ الأكبر في بلاد الأناضول، وهذه حقيقة: حين وطأت قدماه تراب دمشق حوَّلتَه ذهبًا، وحين ترك رفاته فيها ترك بركته على هذه المدينة المقدَّسة.

(٢) شيخ إيراني، وقور جليل، من أهل العقل، والعلم، والخلق، والصَّلاح.

(٣) اسمها نظام، كان فيها من الميزات الرُّوحية الحظ الأوفر، ونقلوا أنَّها أسهمت معه في تصفية حياته الرُّوحية، وتعلَّم منها مذهب العاشقين.

(٤) خصَّصه لمذح نظام التي عرفها في مكة سنة ٥٩٨ عندما قدم إليها لأوَّل مرَّة من المغرب.

صوفية في الإسلام وهي (الفتوحات المكية) وتقع في أربعة مجلدات عظيمة (طبعت في تسعة مجلدات) تشتمل على خمس مئة وستين باباً^(١)، وهي مقسمة ستة أقسام: أولها: في المعارف. عقد فيه أبواباً: في معرفة الرُّوح، في معرفة مراتب الحروف، في معرفة الحركات، في معرفة بدء الخلق، في معرفة الأرض، في معرفة الأرواح النارية، في معرفة دورة الملك، في معرفة الأقطاب، عقد له عدّة أبواب...

وثانيها: المعاملات؛ الأخلاق والسلوك.

وثالثها: في الأحوال، (الباب ١٩٠): معرفة المسافر إلى الله والسَّفر والحال وأسراره.

ورابعها: في المنازل^(٢).

وخامسها: في المنازلات^(٣).

وسادسها: في المقامات^(٤)، وهو من سرِّ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ...﴾ [الشورى: ٥١] وهو من الحضرة المحمّديّة.

(١) أصلها رسالة سمّاها: «الفتح المكيّ» - ما فتح الله عليه من أفكار في مكّة - ثم أكملها إلى أكثر من ٤٠٠٠ صفحة، وقرأه الشَّيخ الهاشمي على طلابه، وشيخنا الشَّاغوري قرأه علينا، ووصل إلى المجلد الثاني ص ٣١٢.

(٢) منازل القمر الثمانية والعشرين، وكما تتفاضل المنازل الجسمانية كذلك تتفاضل المنازل الرُّوحية، وما تحويه من أمهات العلوم، وهو (الباب ٣٣٠).

(٣) (الباب ٣٨٤): المنازل الخطابية القرآنية، فيما شرعه الله قولاً وفعلاً.

(٤) أقطاب - أوتاد - أبدال - عارفين، موزعة على ٥٦٠ فصلاً، أحدث طبعاتها ٨ مجلدات كبار، وأقدم طبعة في أربعة مجلدات طبعها الأمير عبد القادر الجزائري، وأحسن

ومن عظمة الكتاب أنَّ فهرسته بلغت ٦١ صفحة.

ومن أراد أن يقف على مكانة الشيخ الأكبر في علوم القوم وأذواقهم ويطلع على قمة الذوق الروحي والعلم اللدني^(١) ويعرف منزلة هذا الإمام في الاطلاع على الأسرار الإلهية؛ فليطالع كتاب «الفتوحات المكية» الذي يؤكد لنا أن سيدي محيي الدين هو ترجمان الصوفية الأكبر بحق، وحسبنا شهادة سيدي عبد الوهاب الشعراني لهذا الكتاب^(٢) إذ يقول:

(طالعتُ من كتب القوم ما لا أحصيه وما وجدت كتباً أجمع لكلام أهل الطريق من كتاب «الفتوحات المكية»...).

ثم يقول الإمام الشعراني بعد أن أشار لما تضمنه كتاب «الفتوحات» من معارف: (وقد أشرنا لنحو ثلاثة آلاف علم منها في كتابنا المسمى «تنبيه الأغبياء على قطرة من بحر علوم الأولياء» فإن علوم الشيخ كلها مبنية على الكشف والتعريف، ومطهّرة من الشك والتحريف)^(٣) اهـ

نسخة نشرت عنه محقّقة ومعتمدة في الدّراسات الجامعية نشر د. عثمان يحيى، وتعدّ طبعة نادرة، نشرتها دار الكتب العلمية، سنة ٢٠٠٦، في ٤٠٠٠ صفحة، وزنها ٥-٦ كغ.

(١) يقول فيه الإمام ابن عربي: واعلم أنَّ جميع ما أتكلّم فيه في مجالسي وتصانيفي إنّما هو من حضرة القرآن وخزائنه؛ فإنّي أعطيت مفاتيح الفهم فيه والإمداد منه.

(٢) الإمام الشعراني (ت ٩٧٣هـ) اختصر كتاب «الفتوحات»، وسماه «لواقح الأنوار القدسيّة»، ثمّ حلّصه ثانياً وسماه «الكبريت الأحمر»، ولم يخرج عن ترتيب الشيخ على ٥٦٠ باباً.

(٣) سأذكر لكم بعد قليل كيف دسّ أعداؤه في كتبه ضلالات كُشفت عن طريق مقابلة المخطوطات.

هذا عن كتاب «الفتوحات» وهو أحد مصنفات الشيخ التي بلغت خمس مئة كتاب كما يقول صاحب «البرهان الأزهر»: (وقد بلغت مصنفات الشيخ زهاء خمس مئة وإنه ليتمثل بها بين العامة).

ولقد نشر الأستاذ كوركيس عواد إحصاء المؤلفات الخمس مئة للشيخ الأكبر في مقالات نشرها بمجلة المجمع العلمي بدمشق، وذكر الإمام الشعراي في «اليواقيت» أن الشيخ مجد الدين الفيروزابادي قال: (وقد رأيت إجازة بخط الشيخ - محيي الدين - كتبها للملك الظاهر بيبرس صاحب حلب، ورأيت في آخرها: وأجرت له أيضًا أن يروي عني جميع مؤلفاتي ومن جملتها كذا وكذا حتى عد نيفًا وأربع مئة مؤلف؛ منها «تفسيره الكبير» في خمسة وتسعين مجلدًا وصل فيه إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] فاصطفاه لحضرته..). أي: توفي بعدها الإمام.

الحلول والاتحاد:

والآن نتكلم على القضية الأخيرة التي اتهم بها سيّدنا ابن عربي زورًا وبهتانًا لعبارات وجدوها في كتبه، دسّها الزنادقة كما دسّوا على سيّدنا أبي يزيد البسطامي، والإمام الجيلاني، وابن الفارض؛ ليشوهوا حقيقة الولاية عندهم، وانقسم العلماء بناء على تلك العبارات قسمين:

القسم الأوّل: تسرعوا وأطلقوا ألفاظ الكفر على الإمام ابن عربي.

والقسم الثّاني: كانوا منصفين، وقالوا: إنّ من يقول هذه العبارات زنديق أو كافر، ولم يتّهموا الإمام ابن عربي كما فعل القسم الأوّل، بل حكموا على الكلمة أنّها مكفّرة.

والذي عرّفنا أنّ هذه العبارات مسدوسة على الإمام ابن عربي شيّتان:

الأول: وجود عبارات مناقضة لهذه العبارات المدسوسة في ثنايا كتبه تدلنا دلالة واضحة على أنَّ هناك يدًا عبثت بالكتاب حتى اختلفت عباراته وتناقضت.

الثاني: عدم وجود هذه العبارات في المخطوطة التي كتبها الإمام بخط يده.

فما هذه التشويهات التي اتهم بها الإمام؟، إنَّها القول بالحلول والاتحاد.

وقبل الدِّفاع وإظهار حقيقة الأمر دعونا نعرِّف هذين الكلمتين —أو المصطلحين— ونبين من أين أتيا؟.

الحلول والاتحاد مصطلحان بوزيان هنديان من الوثنيات اليونانية واليهودية.

(الحلول): أن يحلَّ شيء في آخر؛ كحلول ماء الورد في الورد، أو حلول الماء في الكوز.

ويريدون به حلول الله عزَّ وجلَّ في بعض مخلوقاته، ويعبِّرون عن ذلك بقولهم:

حلول اللاهوت (الإله الخالق) بالناسوت (المخلوق)؛ كاعتقاد بعض الفرق الضَّالة أنَّ الله عزَّ وجلَّ حلَّ في علي بن أبي طالب، وفي ذريته من الإمام الحسين ومن بعده.

وقد ادعى ذلك الحاكمُ بأمر إبليس الفاطمي، قال: إنَّ دوره قد جاء ليحلَّ فيه الإله، فادعى الألوهية، وحمل بعض النَّاس على عبادته، وقام ابنه بعد وفاته فكذبه وفضح كفره.

و(الاتحاد): معناه كون الشَّيئين شيئًا واحدًا، واختلاطهما حتَّى يصيرا شيئًا واحدًا.

ويريدون به اتحاد الله بمخلوقاته؛ أي: أنَّ وجود الكائنات هو عين وجود الله، ومعناه: القول بوحدة الوجود باعتقاد كون الوجود هو عين وجود الله، يقولون:

اللاهوت اتحد بالناسوت فصارا شيئًا واحدًا.

فصار عندنا مصطلحان: حلول واتحاد، وكلاهما كفر من وثنيات الهند واليونان واليهود.

(وحدة الوجود): أن تجعل الله والخلق شيئًا واحدًا، الإنسان والإله في مرتبة واحدة.

فعلى هذه الفرية يتَّهمون ابن عربي أنه يقول: ليس هناك خالق ولا مخلوق، فكل ما يراه الإنسان هو الخالق في صور متعدّدة: الجبل، والشجر، والدّواب، والرّجل، والمرأة، كلّهم عنده صور لله، ونقلوا عنه ألفاظًا لا يقولها مسلم.

وعلى هذه الفرية من عبد فرعون ناج، ومن عبد العجل ناج، ومن عبد عيسى ناج، فلا حساب ولا عقاب عليه.

وحدة الوجود تعني: أن كلّ هذا العالم بما فيه هو أجزاء من الله تعالى، حتّى إن أحدهم يقول: أنا الله وأنت الله، وقد حُكِمَ على الحلاج بالإعدام يوم أن قال: ما في الجبّة إلّا الله.

والحلّول: أن يحلّ الله في قلوب عباده وأجسادهم، والعقيدتان كفرتان. والذي زاد الطين بلة أن يقوم أحد شيوخ الطرق الشريعية فيفتري على الشّيخ الأكبر أنه قاله.

هذا الشّيخ الشريعي ألّف كتابًا سماه: «الإلهامات الإلهية على الوظيفة الشريعية»، ونصّ عبارته: (قال سيّدي محيي الدّين بن عربي في كتابه «شرح الوصايا اليوسفية»: يجب على المريد أن يعتقد في شيخه أنه المتحكم في موته وحياته، وأنّ الله تجلّى في صورته)، وهذا ليس من دين الله، وهو مناف للتّوحيد، مدسوس على ابن عربي، غرّ هذا الجاهل الشريعي، ولم يحتكم إلى الشّرع في عبارته.

ومن المدسوس على الشّيخ الأكبر ما نقل في «الفتوحات»: (إنّ عذاب الكفار في النّار ينقلب عذوبة، فيتلذذون به بعد انقضاء مدّة الآلام)، فهو أمر مبني على الكشف، وليس إلهام الوحي من أسباب العلم القطعي، فهو ليس بحجّة كما ذكر النّسفي، والمنام أقل شأنًا، وقد قال الإمام الجنيد: (ربما تخطر لي النكته من نكت

القوم، فلا أقبلها إلا بشاهدي عدل من الكتاب والسنة)، والتكئة هي الوارد أو الإلهام.

والسؤال المهم الذي يسأل: هل في كتابات ابن عربي ما يكذب هذه الفرية الكفرية؟

والجواب: الإمام ابن عربي له أكثر من تصريح في «الفتوحات المكية» بكفر من يقول بالحلول والاتحاد، وهؤلاء المكفرون ما قرؤوا كتبه ليكتشفوا زيف ما نقل عليه، بل كانوا كحاطب ليل ينقلون كل ما يقال لهم، و«كَفَى بِالْمَرْءِ إِثْمًا أَنْ يُحَدِّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ».

في (باب الأسرار) من «الفتوحات» قال: (من قال بالحلول؛ فهو معلول، فإن القول بالحلول مرض لا يزول، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد؛ كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول).

أنا تكفيني هذه العبارة في التصريح الواضح على براءة ابن عربي، ولكن الله أراد تبرئته ﷺ.

وقد صرح العلماء الذين قرأوا كتب ابن عربي بأن هذه النقولات ممدوسة على الشيخ بعد مقابلتها بالمخطوط؛ منهم الإمام الشعراي، وشهادة الإمام الشعراي مهمة؛ لأنه قرأ كتبه واختصر بعضها، وقد قال: (وليحذر من مطالعة كتب الشيخ محيي الدين بن العربي؛ لما فيها من الكلام الممدوس على الشيخ لا سيما في «الفصوص» و«الفتوحات»)، بل قال أحد فقهاء الحنفية: (تيقن أن اليهود دسوا عليه)، وكذا قاله الإمام أبو الهدى الصيادي شيخ السلفية العثمانية.

إن الإمام الشعراي اختصر كتاب «الفتوحات» في كتابه «الأنوار القدسية»، وقد قدم لنا تقريراً مهماً يفيدنا في قضيتنا اليوم، قال فيه: (وقد توقفتُ حال الاختصار في مواضع كثيرة منه، لم يظهر لي موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة،

فحذفتها من هذا المختصر، وربما سهوت، ففتبتعت ما في الكتاب كما وقع للبيضاوي مع الزَّخْشَرِي، ثمَّ لم أزل كذلك أظنُّ أنَّ المواضع التي حذفت ثابتة عن الشَّيْخ محيي الدِّين حتَّى قدم علينا الأخ العالم المدني المتوفى سنة ٩٥٥هـ، فذاكرته في ذلك، فأخرج إليَّ نسخة من «الفتوحات» التي قابلها على النُّسخة التي عليها خط الشَّيْخ محيي الدِّين نفسه بقونية، فلم أرَ فيها شيئاً من النُّسخة التي دسُّوا على الشَّيْخ فيها ما يخالف عقائد أهل السُّنَّة والجماعة كما وقع له ذلك في كتاب «الفصوص» وغيره)، هذه الشَّهادة من أهمِّ شهادات تبرئة الإمام.

واسمعوا ماذا يقول الشَّيْخ الأكبر نفسه في (الباب التَّاسع والتَّسعين والمئة) من «الفتوحات» يقول: (القديم لا يكون قط محلاً للحوادث، ولا يكون حالاً في المحدث)، فمن المحال أن يتحد الله في خلقه، أو يحلَّ في خلقه؛ لاستحالة اشتراك صفات القديم مع صفات المحدث.

مقام الواحد يتعالى أن يحلَّ فيه شيء، أو يحلَّ هو في شيء، أو يتحد في شيء، ثم قال: (الرَّبُّ لا يجتمع مع عبده في مرتبة واحدة أبداً).

فهذه عدَّة شهادات، وكلُّ من يتهم ابن عربي هو متجنِّ عليه، يكذب عليه وعلى الأُمَّة الإسلامية، وإن ابن عربي بريء من هاتين الكفريتين براءة الذنب من دم ابن يعقوب.

ثمَّ اعلَمُوا أنَّه لم يقل أحد من الصُّوفية إطلاقاً بوحدة الوجود، بل هذا من عند الفلاسفة المستشرقين، وليس من عند المسلمين، والإمام الياقبي في «ديوانه» يقول:

جلَّ عن حلول وعن اتحاد وعن العقول في فهم المراد

والصُّوفِيَّة كُلُّهم على هذه العقيدة، فلا تنسبوا لنا ما أنكرناه.

المسلمون عندهم وحدة الشُّهود؛ وهي ألا يشهدوا غير الله خالقًا ورازقًا، فهو الممد لكلِّ الممكنات بالوجود.

والصُّوفي يكون في حال شهود لله، فيقول: لا أرى شيئًا غير الله، فتلك حال من الفناء.

ابن عجيبة يقول: (إنَّ الفناء هو أن تبدو لك العظمة فتنسبك كلَّ شيء، وتغييك عن كل شيء سوى الواحد الذي ليس كمثله شيء)، وليس معه شيء، أو تقول: هو شهود حق بلا خلق، يعني: ألا تشهد إلا الله خالقًا، ورازقًا، وشافيًا، وممدًا، تفنى به، وتنجذب إلى حضرته.

الصُّوفي لم يُثبت مع الله شيئًا؛ يعني: الوجود بحقِّ هو الله تعالى وحده، تقول في العقيدة: الله واجب الوجود، وما سواه مفقود، وليس للخلق إلا وجود اعتباري؛ لذلك يمكن القول: لا وجود إلا للحقِّ تعالى وحده، هو القائل: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨] وهذا يعني: وحدة الشُّهود، وهي عقيدة صحيحة، فعندما تقول: (أشهد أن لا إله إلا الله) فقولك هذا قريب جدًا من قول الصُّوفي: لا أرى شيئًا غير الله.

ولذلك كان الإسلام هو وعي هذه العلاقة القائمة على أساس أن لا وجود لغير الحقِّ إلا بالحقِّ، وهو ما يعبر عنه قول الصُّوفي: (لا أرى شيئًا إلا وأرى الله فيه)، ماذا تقول السيِّدة رابعة؟:

وما شربت لذيذ الماء من ظمأ إلا وجدت خيالًا منك في الكأس

أعرف أن هذه النعمة منك... هذه وحدة الشُّهود.

كلُّ هذا الكون سيفنى ولا يبقى إلا الله تعالى، فالوجود الحقيقي له تعالى، وهذه العقيدة تبناها الإمام الغزالي والإمام الجيلاني، وهي درجة الصِّديقية؛ أن يفنى بالكلية

عن نفسه وأحواله؛ أعني: أنه ينساها، فلا يبقى له التفات إليها، فيسمع بالله، وفي الله، ومن الله.

سأعبر لكم عن وحدة الشهود تعبيراً تعرفونه جميعاً، انظروا إلى حال النسوة اللاتي قطعن أيديهن في مشاهدة جمال يوسف حتى العشق، وسقط إحساسهن من شدة شهود جمال سيدنا يوسف، حتى نسين كل شيء وغبن عن وعيهن حال وحدة الشهود، وأشد من حال هؤلاء النسوة من يفنى عن نفسه وعن الخلق، ويبقى بالله وحده.

ولكن أعداء الصوفية رفعوا ألوية التشهير بسيدي محيي الدين؛ للدس عليه من جهة ولعلو أذواقه وإغلاق عباراته وتأثيرها على مدارك غير الخاصة من جهة أخرى، ولما وقع الإنكار على الشيخ قيض الله له من يرد عنه، فقد صنف الإمام جلال الدين السيوطي كتاباً يرد فيه على المنكرين على الشيخ الأكبر، وسمّاه: (تنبيه الغبي في تبرئة ابن العربي) وشهد له أئمة العام والولاية بفضله وسمو منزلته في معارج التحقيق، وحسبنا أن نعلم أن الذي سماه بالشيخ الأكبر ولقبه بسلطان العارفين إنما هو القطب أبو كدسين المغربي؛ كما ذكره الإمام الشعراني في «طبقاته»: هو سيدي مصطفى البكري في «السيوف الحداد».

وناهيك بشهادة الإمام فخر الدين الرازي الذي كان يقول: (كان الشيخ محيي الدين ولياً عظيماً).

وبالإمام السهروري الذي كان يقول عن سيدي محيي الدين: (إنه بحر الرقائق) وقد التقى به في العراق عندما رحل إليها سنة ١٢١١م في اجتماع صامت لم يتكلما بكلمة، وحين افترقا قال عنه السهروردي: إنه بحر الحقائق، وقال هو عن السهروردي: مملوء سنة من الرأس إلى قدمه.

ثمَّ زار عددًا من المدن، وأخيرًا ألقى عصاه في دمشق سنة (١٢٢٣) وقضى السنوات السَّبع عشرة الأخيرة من عمره في سلام وطمأنينة وإنتاج غزير. وهذا هو سلطان العلماء سيدي عز الدين بن عبد السلام يشهد للشيخ الأكبر كما روى الإمام الشعراني في «طبقاته» قائلاً: (وكان الشيخ عز الدين بن عبد السلام شيخ مصر المحروسة يحط عليه -أي: على سيدي محيي الدين- كثيرًا، فلما صحب الشيخ أبا الحسن الشاذلي وعرف أحوال القوم؛ صار يترجمه بالولاية والعرفان والقطبيانية).

وفي «اليواقيت والجواهر» يقول الإمام الشعراني: (ومن أثنى عليه -أي: الشيخ الأكبر- من مشايخنا مُجدِّ المغربي الشاذلي شيخ الإمام جلال السيوطي، وترجمه بأنه مربي العارفين؛ كما أن الجنيد مربي المريدين، وقال: إن الشيخ محيي الدين روح التنزلات والإمداد، وألف الوجود وعين الشهود وهاء المشهود الناهج منهاج النبي العربي).

وأما عن كرامات الشيخ الأكبر فهذه كرامة نسوقها للمنكرين على سيدي محيي الدين خاصة ولأعداء التصوف عامة، يقول سيدي عبد الوهاب الشعراني في «الطبقات»: (وأخبرني أخي الشيخ الصالح أحمد الحلبي: أنه كان له بيتٌ يشرف على ضريح الشيخ محيي الدين، فجاء شخص من المنكرين بعد صلاة العشاء بنار يريد أن يحرق تابوت الشيخ، فخسف به دون القبر بتسعة أذرع، فغاب في الأرض وأنا أنظر، ففقدته أهله من تلك الليلة، فأخبرتهم بالقصة فجاءوا وحفروا فوجدوا رأسه، فكلما حفروا نزل وغار في الأرض إلى أن عجزوا وردموا عليه التراب).

وقد ذكر شيخ شيخنا سيدي أحمد ضياء الدين النقشبندي في «جامع الأصول» أن الشيخ محيي الدين صاحب طريقة بالاستدلال لدى أهل الحقائق كبقية الطريق، وقد انتهت إلى سيدي أحمد ضياء الدين بجانب النقشبندية طريقة

الشيخ الأكبر عن طريق شيخه سيدي أحمد بن سليمان الطرابلسي، ولقنها هو لمولانا الإمام العارف سيدي الشيخ جودة إبراهيم؛ لتغمر أنوارها الوجود في هذا العصر كما غمرته دائماً من قبل.

وبعد: فما ذكرت عن مولاي الشيخ الأكبر إلا بعض قطرة من سناه، فبحق النور المحمدي أسالك يا سيدي محيي الدين يا سلطان العارفين أن تفيض علينا من أنوارك وأن تلحقنا بركابك، رضي الله عنك في زمرة المحمديين.

بقي الإمام ابن العربي في دمشق من (١٢٢٣-١٢٤٠م) وكان أميرها أحد تلاميذه، والتقى بها بشيوخ كثير منهم الإمام جلال الدين الرُّومي، وكان مجلسه في دمشق عامراً بالعلماء والفقهاء والعلماء، وكان واحداً من أعلامها حتى وفاته ٢٨ ربيع ثان، عام ٦٣٨هـ - ١٢٤٠م، ودفن في سفح جبل قاسيون جبل الأنبياء.

وقام السلطان سليم العثماني بعمل مقام له ومسجد بجوار قبره الشريف، وما زال قبره معلماً من معالم دمشق القديمة.

المصادر:

كتاب «الولاية المحمدية في مناقب أعلام الصوفية»، للأستاذ الدكتور جودة مُجَّد أبو اليزيد المهدي، ص ٤٥٩ - ص ٤٧٤.

- «الخيال الخلاق في تصوّف ابن عربي» هنري كوربان.

- «تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي» جلال الدين السُّيوطي.

- «الاغتياب بمعالجة ابن الخياط» الفيروزآبادي.

- «الرّد على المعترضين على الشَّيخ محيي الدِّين» الفيروزآبادي.

- «الرّد المتين على منتقص العارف محيي الدِّين» الإمام عبد الغني النَّابلسي.

- «الكبريت الأحمر في بيان علوم الشَّيخ الأكبر» عبد الوهَّاب الشَّعراني.

- «القول المبين في الرّد عن الشَّيخ محيي الدِّين» عبد الوهَّاب الشَّعراني.

- «الفتح المبين في ردّ المعترض على الشَّيخ محيي الدِّين» عمر العطار.
- «لبس الخرقه» لابن عربي.
- «الرَّقة المدهشة في لبس الخرقه الصُّوفيَّة» لأبي المحاسن القاوقجي الطَّرابلسي الشَّامي.
- «السفينة العراقية في لباس الخرقه الصُّوفيَّة» لمحمَّد بن عراق الدِّمشقي (ت ٩٣٣هـ).
- «البرقة المشيقة في ذكر الخرقه الأنيقة» لعلي بن أبي بكر السَّقَّاف (ت ٨٩٥هـ).
- «الفتوحات القدسيَّة في الخرقه العيدروسيَّة» لعبد القادر بن الشَّيخ العيدروس (ت ١٠٣٨هـ).

(٦٩٣)

سيدنا الإمام أحمد الرفاعي

الفقيه الشافعي الأشعري الصوفي

شيخ الطريقة الرفاعية

(٥١٢ - ٥٧٨ هـ)

الملقب بـ"أبي العَلَمين" و"شيخ الطرائق" و"الشيخ الكبير" و"أستاذ الجماعة"،
إليه تنتسب الطريقة الرفاعية من الصوفية، وهو أحد أقطاب الصوفية المشهورين.
ولُقّب بشيخ العرجا؛ امرأة كانت حذاء عرجاء كبرت ولا شَعْر لها؛ لعاهة فيها؛
وصارت النساء يستهزئن بها، فقدم الإمام الرفاعي على أهلها ، فبكت أمامه،
وقالت: أنت شيخي وشيخ والدتي وذخري، أشكو إليك ما أنا فيه؛ لعل الله ببركتك
وقربتك من رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يعافيني، فأخذته الشَّفقة عليها، وبكى
لحالتها، ثمّ دعاها، فدنت منه، فمسح بيده على خمارها وظهرها، فنبت شعرها،
وذهب احديداً بها، وتقوّمت رجلاها؛ ولذلك سَمّي شيخ العُرجاء.

نسبه ومولده:

هو السيد أبو العباس أحمد بن علي بن يحيى (نقيب البصرة المهاجر من المغرب
إلى البصرة) ابن ثابت بن الحازم علي أبي الفوارس ابن أحمد المرتضى بن علي بن
الحسن الأصغر المعروف برفاعة ابن مهدي المكي أبي رفاعة ابن أبي القاسم مُحمَّد بن
الحسن القاسم المكنى بأبي موسى ابن الحسين عبد الرحمن لقبه الرضي المحدث ابن
أحمد الصالح الأكبر ابن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن موسى الكاظم بن

جعفر الصادق بن مُحَمَّد الباقر بن زين العابدين علي الأصغر بن الحسين بن علي بن أبي طالب^(١).

قدم به والده من المغرب إلى العراق، وسكن قرية أم عبيدة، وتزوج من فاطمة أخت القطب الشَّيخ منصور البطاحي الرَّاهد، ورزق منها أولادًا أعظمهم الإمام أحمد الرَّفاعي.

ولد الإمام أحمد الرفاعي في ١٥ رجب سنة ٥١٢ هـ في العراق في قرية حسن بالبطائح (والبطائح عدة قرى مجتمعة في وسط الماء بين واسط والبصرة) وفي السابعة من عمره توفي أبوه في بغداد، فكفله خاله الشَّيخ الزاهد منصور البطاحي (دفين بلد روز-العراق) وهو الذي رباه تربية دينية، وعنه تلقَّى علم التَّصوُّف، وهو أوَّل شيخ للإمام الرَّفاعي في سلسلة الشُّيوخ الرَّفاعية، وهي سلسلة تتضمن ١٥ إمامًا تنتهي بأمر المؤمنين سيِّدنا علي عليه السلام.

وكان الإمام الرَّفاعي معاصر الإمام النَّووي في القرن السَّابع الهجري ينقل عن:

- ١- شيخه عمر الفاروقي.
- ٢- الشَّيخ بدر الأنصاري.
- ٣- الشَّيخ الإمام منصور البطاحي الرَّبَّاني.

(١) ذكر نسبه الشَّريف مجموعة من الأكابر؛ منهم: برهان الدِّين علي الحلبي القاهري صاحب «السِّيرة النَّبويَّة»، والحافظ الزبيدي، والشَّيخ عبد العزيز الدريني، والشَّريف النَّسابة شرف الدِّين محمَّد بن عبد الله الحسيني في «مشكاة الأنوار»، والنَّسابة ابن الأعرج الحسيني في «بحر الأنساب»، والنَّسابة ابن ميمون نظام الدِّين الواسطي في مشجَّرة، والعلامة محمَّد الموصلي وغيرهم...

قال: (رأيت النَّبيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل ولادة ابن أختي الشَّيخ أحمد الرِّفاعي بأربعين يومًا في الرُّؤيا، فقال لي: يا منصور! أبشرك أن الله يعطي أختك بعد أربعين يومًا ولدًا يكون اسمه أحمد الرِّفاعي، مثلما أنا رأس الأنبياء كذلك هو رأس الأولياء، وحين يكبر تأخذه إلى الشَّيخ علي القارئ الواسطي، وأعطه له كي يربيه؛ لأنَّ ذلك الرَّجل عزيز عند الله ولا تغفل عنه، فقال: الأمر أمركم يا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ).

نشأ الإمام أحمد الرفاعي منذ طفولته نشأة علمية، وأخذ في الانكباب على العلوم الشرعية، فقد درس القرآن العظيم وترتيله على الشيخ عبد السميع الحربوني في قريته وله من العمر سبع سنين، وانتقل مع خاله ووالدته وإخوته إلى بلدة "نهر دفلي" من قرى واسط في العراق، وأدخله خاله على الإمام الفقيه الشيخ أبي الفضل علي الواسطي^(١) وكان مقرئًا ومحدثًا وواعظًا عالي الشأن، فتولى أمر الإمام وقام بتربيته

وتأديته.....
.....

(١) أبو الفضل هذا أخذ عن الإمام أبي بكر الشَّبلي تلميذ الشَّيخ أبي بكر الشَّبلي، والشَّبلي تلميذ الإمام الجنيد، والجنيد أخذ عن خاله السَّري السَّقَطي، عن معروف الكرخي، عن داود الطائي عن حبيب العجمي، عن الحسن البصري، عن الإمام سيِّدنا علي، هذا نسب الطَّريقة العالي، فصار عند الإمام الرفاعي نسبًا للطَّريقة، ولبس الخرقة الأول عن خاله الشَّيخ منصور البطائحي، والنَّسب الثاني طريق آل البيت من طريق معروف الكرخي عن علي الرُّضا، عن موسى الكاظم، عن جعفر الصَّادق، عن محمَّد الباقر، عن علي زين العابدين، عن سيِّدنا الحسين، عن سيِّدنا علي.

وتعليمه^(١)، فجدّد السيد أحمد الرفاعي في الدرس والتحصيل للعلوم الشرعية حتى برع في العلوم النقلية والعقلية، وأحرز قصب السبق على أقرانه.

كذلك يجب أن نعلم هنا أن الإمام كان عالماً قبل أن يبلغ رتبة التّصوّف؛ لأنّ أعداء التّصوّف يتهموننا بالجهل في ديننا، وهذا خطأ بيّن.

كان الإمام أحمد الرفاعي يلازم دروس العلم ومجالس العلماء، فقد كان يلازم درس خاله الشيخ أبي بكر سلطان علماء زمانه، كما كان يتردد على حلقة خاله الشيخ منصور البطائحي، وتلقى بعض العلوم على الشيخ عبد الملك الحربوني، وحفظ عنه كتاب "التنبية" في الفقه الشافعي للإمام أبي إسحاق الشيرازي، وقام بشرحه شرحاً عظيماً، وأمضى أوقاته في تحصيل العلوم الشرعية على أنواعها، وشمّر للطاعة وجدّ في العبادة حتى صار عالماً وفقياً شافعياً وعالماً ربانياً رجع مشايخه إليه وتآدب مؤدبوه بين يديه.

وحثّ قيل: إنّه انتهت إليه الرّئاسة في علوم الشريعة والحقيقة وفنون القوم، وانعقد عليه إجماع الطوائف، واعترف رجال وقته بعلو قدمه، ورفعة مرتبته، ووراثته للنبي صلى الله عليه وسلم.

(١) مرّ على جماعة من الأولياء في صغره، فنظروا إليه وهو يجمع الخطب، فقال أحدهم: لا إله إلّا الله محمد رسول الله، ظهرت هذه الشجرة المباركة، فقال الثاني: عمّا قليل يكثر ثمرها ويشرق قمرها، فقال الثالث: عمّا قليل يرى الناس منها العجب ويكثر نحوها الطّلب، فقال الرابع: عن قليل يعلو شأنها ويظهر برهانها، وصدقت فراسة الأولياء وتحققت بشاراتهم.

وكان الشيخ الجليل أبو الفضل علي محدث واسط وشيخها قد أجاز الإمام أحمد الرفاعي وهو في العشرين من عمره إجازة عامة بكل علوم الشريعة والطريقة وأعظم شأنه ولقبه بـ أبي العَلَمين؛ أي: عالم الظاهر والباطن.

وفي الثامن والعشرين من عمر الإمام أحمد الرفاعي الكبير عهد إليه خاله منصور بمشيخة المشايخ ومشيخة الأروقة المنسوبة إليه، وأمره بالإقامة في أم عبيدة برواق جده لأمه الشيخ يحيى النجاري والد الشيخ منصور الذي تولى كفالته العلمية وتعليمه منذ طفولته، وهناك دراسات أكاديمية تؤكد أنه التقى بالشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني وأخذ عنه وكان على اتصال وتنسيق عال، وخاصة بعد تقبيل يد المصطفى صَلَّى الله عليه وسلَّم؛ إذ كان الإمام الجيلاني حاضراً فيها سنة ٥٥٥ هـ.

المصادر:

«وفيات الأعيان» ١٧١/١

«الوافي بالوفيات» ٢١٩/٧

«سير» الذهبي ٧٧/٢١

«الكامل في التاريخ» ٤٩٢/١١

«العبر» ٢٣٣/٤

«شذرات الذهب» ٢٥٩/٤

«مرآة الزمان» ٣٧٠/٨

«طبقات الشافعية» لقاضي شهبة ٥/٢

«طبقات الشافعية» للسبكي ١٤/٤

«النجوم الزاهرة» ٩٢/٦

تصوف الإمام الشيخ أحمد الرفاعي

مولانا السيد أحمد الرفاعي كان شافعي المذهب أشعري العقيدة، وصل إلى درجة الاجتهاد المطلق، وكان فقيهاً محدثاً مفسِّراً، وكان أعلم أهل زمانه^(١).

قال في كتابه «البرهان المؤيد»: (يا ولدي!... ما أكلته تفنيه... وما لبسته تبليه، وما عملته تلاقيه... والتوجه إلى الله حتم مقضي... وفراق الأحبة وعد مأتي... والدُّنيا أولها ضعف وفتور... وآخرها موت وقبور... لو بقي ساكنها ما خربت مساكنها...).

وسلِّم في جميع أحوالك لله... واجعل سلوكك في طريق الفقراء بالتواضع، واستقم بالخدمة على قَدَم الشريعة...

واحفظ نيتك من دنس الوسواس، وأمسك القلب عن الميل للنَّاس^(٢)، وكُل خبزاً يابساً، وماءً مالِحاً من باب الله، ولا تأكل لحمًا طريًّا وعسلًا من باب غير الله^(٣)، وتمسَّك بسببٍ لمعيشتك بطريق الشرع من كسب حلال^(٤).

(١) له مؤلَّفات كثيرة أكثرها فُقد في موقعة التتار، وقام تلاميذه بجمع أقواله في كتب أربعة؛ ذكر فيها موضوع الطَّريقة الرَّفاعية، وآداب المريد، وأخلاق الصُّوفية، وخاصة في كتابه «البرهان».

(٢) السَّلامة في العزلة عن النَّاس.

(٣) فالأوَّل حلال ١٠٠٪، والثاني لا تعرف مصدره أهو حلال أم لا؟

(٤) أوجد لك خرقة يوافق عليها الشرع.

وإياك من كسر خواطر الفقراء^(١)...) وصِل الرَّحِم، وأكرم الأقارب، واعفُ عمن ظلمك...، وتواضع لمن تكبر عليك... ولا تتردد لأبواب الوزراء والحكام^(٢)، وأكثر من زيارة القبور، ولين كلامك للخلق، وكلّمهم على قَدْر عقولهم، وحسن خلقك، وامتزج [مع] النَّاس بحسن المزاج^(٣)، وأعرض عن الجاهلين، وقم بقضاء حوائج اليتامى وأكرمهم، وأكثر التَّردّد لزيارة المتروكين الفقراء^(٤)، وبادر لخدمة الأرامل^(٥)، وارحم تُرحم^(٦)، وكُن مع الله تَر الله معك، واجعل الإخلاص رفيقك في سائر الأقوال والأفعال؛ لأنَّ مدار القَبُول على الإخلاص، واجتهد بمداية الخلق لطريق الحقّ، لأنّها مهنة الأنبياء: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:

(١) إذا انكسر خاطر الفقير هانت عليه نفسه، وارتكب الآثام، من يهن يسهل الهوان عليه؛ لأنَّ الإحساس بالكرامة تمنع الإنسان من أشياء كثيرة، سيقول الشَّخص عن نفسه: بما أن أفضل ما عندي قد رفض فسوف أرتكب الشرّ، ولن أبالي بشيء.
(٢) الإمام السيوطي له كتاب لطيف: «ما رواه الأساطين في عدم المجيء إلى السلاطين» وفي حديث أبي داود: «من أتى السُّلطان افتتن»، وأخرج الطبراني: «إياكم وأبواب السُّلطان»؛ لأنّه لن يستطيع أن ينكر المنكر، والسُّلطان نفسه سيقول: لولا أنّي على صواب لأنكر عليّ الفقيه، وكيف لا أكون مصيباً وهو يأكل مالي؟! وقال سفيان الثوري: لا أخاف من إهانة السُّلطان لي، إنّما أخاف من إكرامه، فيميل قلبي إليه.

(٣) النّبي صلّى الله عليه وسلّم قال: «وخالق النَّاس بخُلُق حسن».

(٤) ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

(٥) «السَّاعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله أو القائم اللَّيْلِ الصَّائم النَّهار» أخرجه البخاري.

(٦) «الرَّاحون يرحمهم الرَّحمن».

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف: ١٠٨].

وستمر مؤلفاته آخر الترجمة، ولكن أحببت أن أقرأ عليكم من كتابه: «البرهان» هذا النص لتسمعوا معي كلام الإمام بالسند المتصل إليه؛ لأنني مجاز وخليفة في الطريقة الرفاعية عن طريق سيدي عبد الحكيم عبد الباسط إلى الشيخ عبد الرحمن السبسي والشيخ محمد سعيد النعسان مفتي حماة.

وكان ﷺ يُضرب به المثل في التواضع والانكسار ولين الجانب ورحمة الناس والشفقة عليهم، وقد وصفه الإمام الرافعي (محرر المذهب الشافعي) فقال: كان متمكناً في الدين، سهلاً على المسلمين، صعباً على الضالين، هيناً ليناً بشاً لين العريكة (أي: سلسلاً)، وكان حسن الخلق كريم الخلق حلو المكاملة لطيف المعاشرة، لا يملّه جليسه ولا ينصرف عن مجالسه إلا لعبادة، حمولاً للأذى^(١)، وفيما إذا عاهد، صبوراً على المكاره متواضعاً، وستمر أقوال العلماء فيه والثناء عليه.

التصوف عنده أساسه احترام الشريعة أولاً وآخرًا، والطرق التي تخالف الشريعة زندقة، وما لم تشرق مناهجها بنور علم النبي صلى الله عليه وسلم وعمله؛ فهي باطلة، فطريق الحق هو طريق النبي صلى الله عليه وسلم.

والصوفي المتبع هو الذي يعظم شأن النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه الداعي إلى الله والمخير عنه، وهو باب الحضرة الرحمانية، من اتصل به اتصل، ومن انفصل عنه انفصل.

التصوف الحق عنده لا يؤخذ بالرأي، فما هلك من هلك إلا بالرأي، والتصوف لا يحكم فيه بالرأي إلا في المباحات، والأساس في الطريقة الرفاعية المحمدية إحياء

(١) بعض الناس في عصره كانوا يحسدونه ويكيدون له، ومنهم من كان يفترى عليه.

السُّنَّة، والصُّوفِي عَلَى الدِّينِ مَا دَامَ عَلَى السُّنَّة، فَمَنْ حَادَ عَنْهَا زَلَّ عَنِ الطَّرِيقِ، فَمَا رَأَيْكُمْ دَامَ فَضْلُكُمْ؟ هَلْ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا سُوءٌ أَوْ خَطَأٌ؟!
كَانَ لَا يَجْمَعُ بَيْنَ لِبَسٍ قَمِيصَيْنِ، وَلَا يَأْكُلُ إِلَّا بَعْدَ يَوْمَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةِ أَكْلَةٍ.
وَإِذَا غَسَلَ ثَوْبَهُ يَنْزِلُ فِي الشَّطِّ كَمَا هُوَ قَائِمٌ يَفْرَكُهُ، ثُمَّ يَقِفُ فِي الشَّمْسِ يَحْتَى
يَجِفُ.

كَانَ كَثِيرَ الْاسْتِغْفَارِ، عَالِي الْمَقْدَارِ، رَقِيقَ الْقَلْبِ، غَزِيرَ الْإِحْلَاصِ.
مَرَّةً اجْتَمَعَ الْأَوْلِيَاءُ، فَطَلَبَ كُلُّ وَاحِدٍ شَيْئًا، فَقَالَ مَوْلَانَا الرَّفَاعِي: أَيُّ رَبِّ
عِلْمِكَ مُحِيطٌ بِي وَبَطْلِي... فَكَرَّرُوا عَلَيْهِ الْقَوْلَ... فَقَالَ: أَيُّ مَوْلَايَ أُرِيدُ إِلَّا أُرِيدُ،
وَأَخْتَارُ إِلَّا يَكُونُ لِي اخْتِيَارٌ... وَهَذَا مِنْتَهَى التَّوَكُّلِ عَلَى اللَّهِ...
وَكَانَ الْإِمَامُ السَّيِّدُ الرَّفَاعِيُّ حِينَئِذَا يَقْعُدُ مَعَ النَّاسِ يَقُولُ لَهُمْ:
أَيُّ سَادَةٍ؟ لَسْتُ بِشَيْخٍ عَلَيْكُمْ، لَسْتُ مُقَدِّمًا عَلَى هَذَا الْجَمْعِ.
كَانَ يَذْهَبُ إِلَى الْمَرْضَى الْمَصَابِينَ بِالْجَذَامِ، وَيُبْحَثُ عَنْهُمْ، فَيَقْعُدُ مَعَهُمْ يُطْعِمُهُمْ
وَيَأْكُلُ مَعَهُمْ وَيَتَعَهَّدُهُمْ بِالْدَوَاءِ وَالطَّعَامِ، ثُمَّ يَأْخُذُ ثِيَابَهُمْ فَيَغْسِلُهَا لَهُمْ؛ مِنْ قُوَّةِ
يَقِينِهِ..

وَكَانَ يَقُولُ: الشَّفَقَةُ عَلَى الْإِخْوَانِ مِمَّا يَقْرَّبُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَصَلْنَا إِلَى مَا وَصَلْنَا
إِلَيْهِ بِالشَّفَقَةِ عَلَى عِبَادِ اللَّهِ.
وَكَانَ يَقُولُ: إِذَا رَأَيْتُ يَتِيمًا يَبْكِي يَتَقَلَّقُ كُلُّ عَضْوٍ مِنِّي، حَتَّى لَقَّبَ أَبَا الْيَتَامِ
وَالْمَسَاكِينِ، وَأَخْبَارَ شَفَقَتَهُ عَلَى الْخَلْقِ أَكْثَرَ مِنْ أَنْ تَحْصَى.

طريقة الإمام الشيخ أحمد الرفاعي

يعدُّ الإمام الرفاعي المتوفى عام (٥٧٨هـ) من أبرز المتصوّفة وأشهرهم في العصر العباسي الثاني، فقد استمرت طريقته من ذلك الحين إلى الوقت الحاضر، والسبب أنّ المريـد يحتاج إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة؛ ليهديه إلى سواء السبيل، فإن سبيل الدّين غامض، وسبل الشّيطان كثيرة ظاهرة.

الإمام الغزالي يقول: فمن سلك البوادي المهلكة بغير خفيـر؛ فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشّجرة التي تنبت بنفسها، فإنّها تحفّ على القرب، وإن بقيت مدّة وأورقت لم تثمر، فمعتصم المريـد شيخه فليتمسك به^(١).

سيّدنا موسى قال لسيّدنا الخضر: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلِّمْتَ رُشْدًا﴾ [الكهف: ٦٦]؛ ولذلك استمرّت الطّريقة الرفاعية، ومن أسباب استمرارها أيضًا أنّها تقوم على العمل بمقتضى الكتاب والسّنة.

تقوم الطّريقة الرفاعية على العمل بمقتضى ظاهر الكتاب والسّنة^(٢)، ثم أخذ النفس بالمجاهدة والمكابدة، والإكثار من الذكر، وقراءة الورد، وذلك وفق إرشادات

(١) (الإحياء ٣/ ٣٥).

(٢) قبل الأخذ بتعاليم الشّيخ الطّريق عنده أن تقول: آمـنت بالله، ووقفت عند حدود الله، وعظّمت ما عظم الله، وانتهيت عمّا نهى الله.

الرفاعية كلّهم يقولون: من لم يعرف أدب الظّاهر؛ لا يؤتمن على أدب الباطن، وكلّ الآداب منحصرة في متابعة النّبي قولًا وفعلًا وحالًا وخلقًا، فالطّريقة الرفاعية هي طريقة الإمام الجنيد نفسها، ويزيد عليها مجلس الدّكر والإرشاد بما نعرفه اليوم

الشيخ وتوجيهاته، مع ضرورة التسليم والانقياد له والانصياع لأوامره، وعلى المرید أن يتمسك بالكتاب والسنة ثم تعاليم الشيخ ويعمل بما قاله من التزام السنّة، وموافقة السلف الصالح على حالهم^(١)، وليأس ثوب التعرية من الدنيا والنفس، وتحمل البلاء، ولبس الوقار واجتناب الجفاء، وقد اشتهر عن بعض أتباع الرفاعي حديثاً القيام بأفعال عجيبة؛ كاللعب بالثعابين، وركوب الأسود، والدخول في النيران المشتعلة دون أن تحرقهم أو تؤثر فيهم^(٢)، وغيرها، فهذه لم تكن معروفة عند الشيخ الرفاعي، لكنها استحدثت بعد وفاته وإن كان الشيخ قد عُرف بحنانه الشديد على الإنسان والحيوان، وكان أشد ما يكون حدباً ورعاية للحيوانات الضالة والمريضة^(٣).

بالخضرة، و«ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن»، فالذكر مسنون وواجب، والإنشاد مستحب، والحركة مباحة لا يقال عنها: حلال ولا: حرام، فهل يفهم هذا أولو الألباب؟!.

(١) الرفاعية عندهم كتاب: «الحكم الرفاعية»، وهو نصائح الإمام الرفاعي وتوجيهاته، يعملون بها.

(٢) وهذا يدل على أحوالهم السّامية؛ كما جرى لسيدنا إبراهيم معجزة أن النار لم تحرقه، وما كان

معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، وهذا أبو مسلم الخولاني رماه الأسود العنسي المتنبئ في النار ثلاث مرات، ولم تؤثر فيه، ثم بسبب مشايخ الرفاعية أسلم السلطان أحمد بن هولاءكو ملك التتار.

(٣) من مزايا هذه الطريقة مكافحة عقيدة الحلول والاتحاد، وهذا حاربه الإمام الرفاعي نفسه، ولم يقتصر على إنكار اعتقادهما، بل ينكر اللفظ بهما ولو من غير اعتقاد معنى الحلول والوحدة.

يقول الإمام أبو القاسم الرافعي: إِنَّ الإمام الرَّفَاعِي قال في الحَلَّاج: ما أراه رجلاً عارفاً، ما أراه شرب، ما أراه سمع إلا رنةً أو طنيناً، فأخذه الوهم من حال إلى حال، من ازداد قرباً ولم يزد خوفاً؛ فهو مَمْكُور، يذكرون عنه أنه قال: أنا الحقُّ، أخطأ بوهمه، لو كان على الحقِّ؛ ما قال: أنا الحقُّ.

وقال الإمام الرافعي رضي الله عنه: لفظتان ثلثتان في الدِّين [أي: ثغرة في الدِّين، هدم للدِّين] والقول بالوحدة والشطح المجاوز حدَّ التَّحدُّث بالنعمة، فقوله هذا صريح في أنَّ القول بالوحدة المطلقة مهلك لصاحبه؛ لأنَّ هذه الفرقة تعتقد أنَّ هذا العالم هو الله.

وكتب الإمام الرَّفَاعِي إلى أحد مريديه الشَّيْخ عبد السَّمِيع الهاشمي الواسطي قدَّس الله سرَّه يوصيه به قال فيه: إِيَّاكَ والقول بالوحدة التي خاض بها بعض المتصوِّفة، وإِيَّاكَ والشَّطح.

قال سيِّدنا الإمام أبو الهدى الصيادي أحد علماء الرَّفَاعِيَةِ في القرن الرَّابِع عشر الهجري ما نصُّه: من قال: (أنا الله)، أو: (لا موجود إلا الله)، أو: (ما في الوجود إلا الله)، أو: (هو الكل)؛ فإن كان في عقله حكم برَدَّتْه.

لم يقل أحد من الصوفية بالحلول والاتحاد، وكلُّكم يحفظ القصيدة للإمام عبد الغني النابلسي:

إِيَّاكَ تشهد غيره ودع العنا	لا أنت في هذا الوجود ولا أنا
يا ابن الحوادث لا تظنَّ فلا تكن	أنت القديم وإن بدا بك واعتنى
إن الحلول من الجهول توهم	في قول أهل الله يجعل ديدنا
ما إن سمعت ولست أسمع	أبدًا يظن الحق يسكن ممكنا

دأب الإمام الرفاعي - كغيره من العلماء العاملين - في تعليم الناس أمور دينهم، وجدَّ في الوعظ والإرشاد، وعقد حلق العلم حتى كان نبراسًا يستضيء به الناس فيما ينفعهم، وكان لا يفتقر عن تعليم الناس هدي الرسول وأسرار القرآن العظيم.

وفي رسالة "سواد العينين في مناقب أبي العلمين" ^(١) للإمام أبي القاسم عبد الكريم الرفاعي الشافعي ^(٢) قال: أخبرني الفقيه العالم الكبير بغية الصالحين قال: كنت في "أم عبيدة" زائرًا عند السيد أحمد الرفاعي في رواقه وحوله من الزائرين أكثر من مئة ألف إنسان؛ منهم الأمراء والعلماء والشيوخ والعامة، وقد احتفل بإطعامهم وحسن البشر لهم كلَّ على حاله، وكان يصعد الكرسي بعد الظهر، فيعظ الناس، والناس حلقًا حلقًا حوله، فصعد الكرسي بعد ظهر خميسٍ وفي مجلسه وُعْظَ واسط، وجمَّ كثير من علماء العراق وأكابر القوم، فبادر القوم بأسئلة من التفسير وآخرون بأسئلة من الحديث، وجماعة من الفقه، وجماعة من الأصول، وجماعة من علوم أخرى ^(٣)، فأجاب عن مئتي سؤال من علوم شتى ولم يتغير حاله حال الجواب، ولا ظهر عليه أثر الحدة، فأخذتني الحيرة من سائليه، فقمت وقلت: أما كفاكم هذا؟ والله لو سألتموه عن كل علم دُونَ؛ لأجابكم بإذن الله بلا تكلف، فتبسم وقال: دعهم أبا زكريا يسألوني قبل أن يفقدوني، فإن الدنيا زوال، والله محول الأحوال،

(١) وهو مشهور في مناقب الإمام الرفاعي.

(٢) ت ٦٢٣ هـ ودفن بقزوين إيران، من أعمدة قرنه السادس الهجري وشيوخه؛ لآثقه ولد عام ٥٥٧ هـ، من أهم أعماله أنَّه وحد بين طريقتي العراقيين والخراسانيين في الاستدلال الفقهي، وحذا حذوه الإمام النَّووي، وكلاهما مجتهد مذهب.

(٣) تقدَّم معنا أنَّ الإمام بلغ درجة الاجتهاد المطلق.

فبكى الناس وتلاطم المجلس بأهله وعلا الضجيج، ومات في المجلس خمس رجال،
وأسلم من الصابئين ثمانية آلاف رجل أو أكثر، وتاب أربعون ألف رجل.

(٦٩٦)

سيرة الإمام الشيخ أحمد الرفاعي

وأخلاقه ومؤلفاته وتلامذته

سيرته وأخلاقه^(١):

كان الإمام الشيخ أحمد الرفاعي رحمته الله يأمر في مجلس وعظه بالتزام حدود الشرع، ويحذر الناس من أهل الشطح والغلو ويقول: "هؤلاء قطاع الطريق فاحذروهم" وكان يكره أصحاب القول بالحلل والوحدة المطلقة الذين يقولون: إن الله يحل بالعالم، ويقول: "هؤلاء قوم أخذتهم البدعة من سروجهم، إياكم ومجالستهم". وكان يأمر باتباع هدى الشريعة والسير على طريقة المصطفى صلى الله عليه وسلم ويقول: "اتبع ولا تبندع، فإن اتبعت بلغت النجاة وصرت من أهل السلامة، وإن ابتدعت هلكت".

زهده وتواضعه:

كان الإمام الشيخ أحمد الرفاعي الكبير متواضعاً في نفسه خافضاً جناحه لإخوانه

غير مترفع ولا متكبر عليهم^(٢)، وروي عنه أنه قال: "سلكت كل الطرق الموصلة، فما رأيت أقرب ولا أسهل ولا أصلح من الافتقار والذل والانكسار"^(١)، فقليل له: يا

(١) من أهم الكتب التي ذكرت حياة الإمام الرفاعي كتاب «قلادة الجواهر».

(٢) ومن أقواله لمريديه: من تمسح عليكم فتتلمذوا له، ومن مدَّ يده إليكم لتقبلوها فقبلوا رجله، ومن تقدَّم عليكم فقدموه، وكونوا آخر شعرة في الذنب، فإنَّ الصَّربة أوَّل ما تقع على الرَّأس.

سيدي فكيف يكون؟ قال: تعظم أمر الله، وتشفق على خلق الله، وتقتدي بسنة سيدك رسول الله".

وكان الإمام الرفاعي يخدم نفسه، ويخفف نعله، ويجمع الحطب بنفسه ويشده بجبل ويحمله إلى بيوت الأرمال والمساكين وأصحاب الحاجات، ويقضي حاجات المحتاجين، ويقدم للعميان نعالهم، ويقودهم إذا لقي منهم أناسًا إلى محل مطلوبهم، وكان يمشي إلى المجذومين والزمنى ويغسل ثيابهم ويحمل لهم الطعام، ويأكل معهم ويجالسهم ويسألهم الدعاء.

وكان يعود المرضى، وإذا سمع بمريض في قرية ولو على بعد يمضي إليه ويعوده. وكان شفيقًا على خلق الله، يرأف باليتيم، ويكي لحال الفقراء ويفرح لفرحهم، وكان يتواضع كل التواضع للفقراء. وكان لا ينظر إلى الأمراء، ولا يقوم لهم ويقول: النَّظر في وجوههم يقسي القلوب.

وقد قال مشايخ أهل عصره: كل ما حصل للرفاعي من المقامات إنما هو من كثرة شففته على الخلق وذل نفسه.

وكان من رقة قلبه لا يسمح بقتل نملة، يقول أصحابه: إنَّ هرة نامت على كُمِّ الإمام، ونودي للصلاة، فقصَّ كُمَّه وما أزعجها، فلمَّا انتهت الصلاة وقامت الهرة؛ عاد ووصله ثانيًا، وقال: عاد الكُمُّ كما كان.

وكان الإمام الشيخ أحمد الرفاعي يعظم العلماء والفقهاء ويأمر بتعظيمهم واحترامهم ويقول: هؤلاء أركان الأمة وقادتها.

(١) كان يدعو أصحابه، ويقدم لهم التَّمر الفاخر، وينقي لنفسه التَّمر الرديء، ويقول: أنا أحقُّ به منكم، ثمَّ يقول هذه المقولة.

سخاؤه وسلامة طويته:

كان للإمام ليلة يسمونها ليلة الإحياء، يجتمع في زاويته نحو مئة ألف إنسان، وكان هو من يقوم بكفائتهم بالطعام والشراب.

كان الإمام الشيخ أحمد الرفاعي متجردًا من الدنيا، ولم يدخر أموالها، بل كان لا يجمع بين لبس قميص وقميص لا في صيف ولا في شتاء، مع أن ريع أملاكه كان أكثر من ريع أملاك الأمراء، وكان كل ما يحصل منها ينفقه في سبيل الله على الفقراء والسالكين والواردين إليه، وكان يقول: الزهد أساس الأحوال المرضية والمقامات السنية.

وكان يقول: طريقي دين بلا بدعة، وعمل بلا كسل، ونية بلا فساد، وصدق بلا كذب، وحال بلا رياء.

كراماته:

أشهر كرامة للإمام الرفاعي قضية تقبيله يد المصطفى صلى الله عليه وسلم وسماع صوته الشريف، فيما نقله الإمام الشيوطي في رسالته الشهيرة من عدة طرق، وقال: إنها بلغت عدد التواتر، قال: حدثنا شيخ الإسلام الشيخ كمال الدين إمام الكاهية، عن شيخ مشايخنا الإمام العلامة الهمام الشيخ شمس الدين الجزري، عن شيخه الإمام زين الدين المراغي، عن شيخ الشيوخ، البطل، المحدث، الواعظ، الفقيه، المقرئ، المفسر، الإمام، القدوة، الحجة، الشيخ عز الدين الفاروقي الواسطي، عن أبيه الأستاذ الأصيل، العلامة الجليل، الشيخ أبي إسحاق إبراهيم الفاروقي، عن أبيه إمام الفقهاء والمحدثين، وشيخ أكابر الفقراء والعلماء العاملين، الشيخ عز الدين أبي الفرج الفاروقي الواسطي، قدّست أسرارهم جميعًا قال:

كنت مع شيخنا ومفزعنا وسيدنا أبي العباس القطب الغوث الجامع الشيخ السيد أحمد الرفاعي الحسيني رحمه الله عام خمس وخمسين ومئة العام الذي قدر الله

له فيه الحجّ، فلمّا وصل مدينة رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم؛ وقف تجاه حجرة النّبي عليه الصّلاة والسّلام وقال على رؤوس الأشهاد: السّلام عليك يا جدي، فقال له عليه الصّلاة والسّلام: وعليك السّلام يا ولدي، سمع ذلك كلّ من في المسجد النبوي، فتواجد سيّدنا أحمد، وأرعد، واصفر لونه، وجثا على ركبتيه، ثمّ قام، وبكى وأنّ طويلاً، وقال: يا جداه!

في حالة البعد روعي كنت أرسلها تُقبل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك كي تحظى بها شفتي

فمدّ رسول الله صَلَّى الله عليه وسلّم يده الشّريفة العطرة من قبره الأزهر المكرّم، فقبّلها في ملأ يقرب من تسعين ألف رجل، والنّاس ينظرون اليد الشّريفة، وكان في المسجد مع الحجاج الشّيخ حياة بن قيس الحراني، والشّيخ عبد القادر الجيلي المقيم ببغداد، والشّيخ خميس، والشّيخ مدين مسافر الشّامي وغيرهم، وتشرفنا معهم برؤية اليد المحمدية الرّكية، وفي يومها لبس الشّيخ حياة بن قيس الحراني خرقة السيّد أحمد الكبير، واندرج في مسلك أصحابه^(١).

يقول الرّازي: أمر الشّيخ الرّفاعي النّاس في الحرم ألا يخرج واحد منهم حتى يطأ بقدمه على عنق الشّيخ حتّى لا تتكبّر نفسه، وبويع إمامًا وشيخًا ﷺ. ومرة قام الذاكرون للذكر، وكان بالجلس طفل لأحدهم نائم، فطاب السّماع، وأخذ القوم الحال، فداس بعضهم على الطفل حتّى مات، فلمّا انتهى اللّيل؛ رفع الخادم الغطاء والفرش، فوجد الطفل ميتًا، فأخبروا مولانا الرّفاعي الذي قام من فوره

(١) وليس معناه أنّه دخل في عداد الصّحابة؛ لأنّ الحجّة استمرار حياته صَلَّى الله عليه وسلّم، وهذه الحياة أخروية، وبهذا قال السخاوي.

إلى الطفل، وبسط خرقة، وصلى ركعتين، ثم مدَّ يده يدعو، فلمَّا انتهى نادى على الطفل: يا فلان اقعد بإذن الله، ثم أمرَّ يده المباركة عليه، فقام كأنَّه كان نائمًا... ستقولون: الإمام أحيَّا الموتى!! أقول: نعم بإذن الله، وإن لم تصدِّقوا؛ فاقروا: ﴿وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩]، وما كان معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي.

سمع أصحابه عن كرامات الإمام، ولم يشك أحد أن الإمام بلغ مبلغًا عظيمًا من الولاية، جاءه مرَّة ضيف، فقال له: لي عشرون يومًا لم أذق طعم الأكل، فقال: تممَّ عليّ، فقال: أشتهي إحدى هذه الإوزات الطَّائرة.

يقول الرَّاوي: رفع سيِّدنا الإمام أحمد يديه، وقال: يا رب عجل بشهوة الرِّجل، قال: فوقعت الإوزة مشوية بين يدي الشَّيخ بإذن الله تعالى، ومدَّ الرِّفاعي يده إلى حجرين كانا إلى جانبه، فأمسك بهما، فإذا هما رغيفان ساخنان بإذن الله تعالى، فأكل الضَّيف وشرب، ثم أخذ الإمام الرِّفاعي عظام الإوزة وجمعها مع ريشها، وقال: أيتها العظام المتفرقة والأوصال المتقطعة؛ اذهبي وطيري بأمر الله تعالى، بسم الله الرَّحمن الرَّحيم، فعدت الإوزة حيَّة وطارَت في الجو تمامًا كما كان يفعل سيِّدنا عيسى عليه وعلى نبينا الصَّلَاة والسَّلَام.

حكى الإمام الياضي في كتابه «روض الرياحين» أنَّه دعي مع شيخه علي بن القارئ إلى طعام، فلمَّا أكلوا بدأ الإنشاد وضرب الدُّف، فلمَّا طاب القوم وتواجدوا وثب الشَّيخ الرِّفاعي إلى المنشد وثقب الدُّف، فالتفت المشايخ إلى شيخه ابن القارئ، ونافروه فيما صدر عن سيدي أحمد، فقال لهم: اسألوه فإن أتى بجواب وإلاَّ غرمت لكم قيمة الدُّف، فسألوه: لم كسرت الدُّف؟ قالوا: نرجع إلى أمانة المنشد يخبرنا بالذي خطر بباله، فسألوا المنشد فقال: كنت البارحة عند قوم يشربون الخمر، فسكروا وتمايلوا كتمايل هؤلاء الشُّيوخ، فخطر لي: هؤلاء كأولئك، فلم يتمَّ خاطري

حتى قام هذا الصبي وخسف الدف، فعند ذلك قام المشايخ إلى سيدي أحمد، وقبلوا يده، واعتدروا إليه.

تلاميذه والمنتسبون إليه بالطريقة:

شيخ الشريعة يمثل أركان الإسلام.

شيخ الحقيقة يمثل أركان الإيمان.

شيخ الطريقة يمثل أركان الإحسان.

الشريعة هي الأساس، والطريقة هي الوسيلة في السلوك إلى الله، والحقيقة هي الثمرة، وهذه الأشياء الثلاثة متكاملة منسجمة، فمن تمسك بالأولى منها سلك إلى الثانية فوصل إلى الثالثة، وليس بينها تعارض ولا تناقض؛ لذلك يقول الصوفي في قواعدهم المشهورة: كل حقيقة خالفت الشريعة فهي زندقة، فلإمام الرفاعي فضل كبير.

فكما حفظ علماء الظاهر حدود الشريعة؛ كذلك حفظ علماء التصوف آدابها وروحها، وكما أتيح لعلماء الظاهر الاجتهاد في استنباط الأدلة واستخراج الحدود والفروع، والحكم بالتحليل والتحرير على ما لم يرد فيه نص؛ فكذلك لعلماء الصوفية أن يستنبطوا آداباً ومناهج لتربية المريدين وتهذيب السالكين.

كثر تلاميذ الإمام أحمد الرفاعي^(١) في حياته وبعد مماته حتى قال ابن المذهب في كتابه "عجائب واسط": بلغ عدد خلفاء السيد أحمد الرفاعي وخلفائهم مئة وثمانين ألفاً حال حياته^(٢)، ومن عظيم فضل الله على السيد أحمد الرفاعي أنه لم

(١) الرفاعي نسبة لأحد أجداده الملقب رفاعة، واسمه الحسن المكي كما تقدم.

(٢) كانت تظهر لهم الكرامات؛ كدخول الأفران الحامية، كان أحدهم يدخل الفرن الحامي ينام في جانب، والخباز يخبز في الجانب الآخر لا يتأذى بالنار؛ لأن النار لا تخلق

يكن في بلاد المسلمين مدينة أو بليدة أو قطر تخلو زواياه وربوعه من تلامذته ومحبيه العارفين المرضيين.

إذا أحبَّ الله عبدًا وضع له القَبُول في الأرض، كما في حديث: «إذا أحبَّ الله عبدًا نادى جبريل: يا جبريل؛ إني أحب فلانًا فأحبه، فيحبه جبريل، ثمَّ ينادي في السماوات: إنَّ الله يحبُّ فلانًا فأحبُّوه، فيحبه أهل السَّماء، ثمَّ يوضع له القَبُول في الأرض».

كان أقسم على أصحابه: إن كان فيه عيب أن ينهوه عليه، فقال الشَّيخ عمر الفاروقي: يا سيِّدي أنا أعلم فيك عيبًا، قال: وما هو؟، قال: يا سيِّدي عيبك أننا من أصحابك، فبكى الشَّيخ والفقراء، وقال: أي عمر إن سلم المركب حمل من فيه.

ومن الذين ينتمون إليه:

الشيخ الحافظ المحدث عز الدين الفاروقي الواسطي.
الشَّيخ حسن -من قطنا- المعروف بالشَّيخ حسن الرَّاعي.
الإمام الشَّيخ حياة بن قيس الحراني.
الإمام الشَّيخ أحمد البدوي.
الإمام العارف بالله أبو الحسن الشاذلي.
العارف بالله الشَّيخ إبراهيم بن محمَّد الكازروني صاحب «شفاء الأسقام».
الشيخ السيد عبد الله الحراكي الحسيني ابن عمته.
الشيخ نجم الدين الأصفهاني شيخ الإمام إبراهيم الدسوقي.
الشيخ أحمد علوان المالكي.

الإحراق، إنَّما خالقها هو الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا...﴾ [الأنبياء:

[٦٩].

الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي.

الشيخ المقداد بن مُحمَّد الرفاعي.

الشيخ عقيل المنبجي.

الشيخ علي الخواص.

العارف بالله السيد أحمد الضرغامي.

قال العلماء عنه:

إنَّ فضائل الإمام ومناقبه أكثر من أن تحصر، فهو

شيخ على قدم النَّبي سلوكه فطريقه عن جدِّه مسنونٌ

وإمام صدق لو فهمت طريقه أدركت سرَّ الشرع كيف يكون

القاضي أبو شجاع الشافعي^(١)، أحمد بن الحسين الأصفهاني، صاحب المتن المشهور في الفقه الشافعي^(٢)، نقل عنه الإمام الرفاعي ما نصه: حدثني الشيخ الإمام أبو شجاع الشافعي فيما رواه قائلًا: كان السيد أحمد الرفاعي عَلَمًا شامخًا، وجبلاً راسخًا، وعالمًا جليلاً، محدثًا فقيهاً، مفسرًا ذا روايات عاليات، وإجازات رفيعات،

(١) ولد بين (٤٣٣-٥٣٣هـ)، كان من أفراد الدهر، درس المذهب الشافعي في مدارس

البصرة ٤٠ سنة، وعاش ١٦٠ سنة، لم يختل له عضو من أعضائه، سئل عن ذلك فقال: أعضاء حفظناها في الصغر فحفظها الله علينا في الكبر، صار قاضيًا، واستوطن المدينة آخر حياته، وعمل خادمًا للحجرة النبوية، وقبره داخل الحرم اليوم، عند باب جبريل، ورأسه قريب من الحجرة الشريفة، لم يصل إلينا من مؤلفاته غير كتابين «شرح الإقناع» للماوردي، و«غاية الاختصار» (متن الغاية)، توفي سنة ٥٩٣هـ.

(٢) وكان من تلاميذه وتخرَّج على يديه.

قارئاً مجوداً، حافظاً مُجيداً، حُجة رحلة، متمكناً في الدين... أعلم أهل عصره بكتاب الله وسنة رسوله، وأعملهم بها، بجرّاً من بحار الشرع، سيفاً من سيوف الله، وارثاً أخلاق جده رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الإمام الذهبي: الإمام، القدوة، العابد، الزاهد، شيخ العارفين... توفي سنة ثمان وسبعين وخمس مئة.

الشيخ المؤرخ ابن الأثير الجزري: وكان صالحاً ذا قبول عظيم عند الناس، وعنده من التلامذة ما لا يحصى.

المؤرخ الفقيه صلاح الدين الصفدي : الإمام القدوة العابد الزاهد، شيخ العارفين.

الشيخ المحدث عبد السميع الهاشمي الواسطي: كان السيد أحمد آية من آيات الله.

شيخه الشيخ منصور البطائحي: وزنته بجميع أصحابي وبى أيضاً فرجنا جميعاً. صاحب «القاموس» الفيروز أبادي:

أبا العَلَمين أنت الفرد لكن إذا حُسِبَ الرِّجال فأنت حزب

المؤرخ ابن خلكان: كان رجلاً صالحاً، فقيهاً شافعي المذهب.
المؤرخ ابن العماد الحنبلي: الشيخ الزاهد القدوة.
ابن قاضي شهبة ذكره في «طبقات الشافعية» وعدّه من فقهاءهم.

الإمام تاج الدين السبكي^(١): الشيخ الزاهد الكبير، أحد أولياء الله العارفين، والسادات المشمرين، أهل الكرامات الباهرات.

الشيخ عبد الوهاب الشعراني: هو الغوث الأكبر، والقطب الأشهر، أحد أركان الطريق وأئمة العارفين الذين اجتمعت الأمة على إمامتهم واعتقادهم.

أوراده:

للإمام الرفاعي أوراد وأحزاب تفوق ٦٦٠ حزبًا ووردًا؛ منها: حزب المناجاة، وحزب الحراسة، وحزب الستر، والحزب الصغير، والحزب الكبير.

ورد الطريقة الرفاعية:

١٠٠ مرة لا إله إلا الله.

١٠٠ مرة أستغفر الله العظيم وأتوب إليه.

١٠٠ مرة اللهم صل على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ثم قراءة الفاتحة الشريفة وآية الكرسي ١٢ مرة صباحًا ومساءً بعد الغروب.

هذا ورد الطريقة الرفاعية هو الورد نفسه في الطريقة الشاذلية إلا أنهم يقرؤون

الفاتحة الشريفة وآية الكرسي كل واحدة منهما اثنتي عشرة مرة.

وفاته:

عندما بلغ الإمام أحمد ٦٦ من عمره مرض بداء البطن (الإسهال الشديد) وبقي مريضًا أكثر من شهر، وكان مع خطورة مرضه يتحمل الآلام الشديدة من دون تأوه أو شكوى، مستمرًا وثابتًا على تأدية الطاعات والعبادات التي اعتادها

(١) جعله في عداد الفقهاء والشافعية، وذكر أنه لما أتى عليه رمضان، وهو رضيع امتنع عن شرب الحليب نهارًا حتى انقضى رمضان وأنه كان لا يجلس مع الصبيان إلا قليلًا، ويألف مجالس الشيوخ ويعمل بنصائحهم.

بقدر استطاعته^(١) إلى أن وافته المنية يوم الخميس ١٢ جمادى الأولى عام ٥٧٨ هـ،
ودفن في قبة جدّه لأُمّه الشيخ يحيى البخاري في بلدته أم عبيدة، وكان يومًا مهيبًا.
للسيد الإمام أحمد الرفاعي مؤلفات كثيرة أكثرها فُقد في موقعة التتار، ومما وصل
إلينا من كتبه:

- «الحكم الرفاعية» - ط بغداد - ١٩٩٠ - طبعة نادرة أخرى في بيروت ١٣٠١ -
طبعة حلب ١٤٠٧ هـ.
«حالة أهل الحقيقة مع الله».
«الوصايا» طبعة دار الشعب ١٩٧٤ م.
«الصراط المستقيم».
«الكليات الأحمدية» (مجموع مواعظ الإمام الرفاعي)
كتاب «الحكم شرح التنبيه» (فقه شافعي).
«البرهان المؤيد».
«معاني بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ».
«تفسير سورة القدر».
«البهجة».
«النظام الخاص لأهل الاختصاص».
«المجالس الأحمدية» جمع فيه الإمام المحدث المنذري كلام الإمام وحكمه.
«الطريق إلى الله».
«التحفة الرفاعية».

(١) وكان آخر كلمة قالها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله.

كتاب «قلادة الجواهر» وهو من أشمل الكتب وأروعها في ذكر تاريخه ومناقبه وسيرة حياته وأوراده.

«أسرار العبادات».

وللحافظ جلال الدين السيوطي: «الشرف المحتم فيما من به على وليه السيد أحمد الرفاعي من تقبيل يد النبي ﷺ».

المراجع:

١. موقع يوسف الرفاعي.
٢. د. جمال الدين فالح الكيلاني: «الإمام أحمد الرفاعي المصلح المجدد»، ص ٤٥.
٣. «ترياق المحييين في سيرة سلطان العارفين» لابن عبد.
٤. «النجم الساعي في مناقب القطب الكبير الرفاعي» لأبي بكر بن عبد الله العيدروس العدني.
٥. «سواد العينين في مناقب أبي العلمين» للإمام عبد الكريم الرفاعي.
٦. «غوث الزمان سيدنا أحمد الرفاعي» الشيخ عبد العزيز الدريني.
٧. «قرة العين في مناقب أبي العلمين» للإمام علي بن المبارك باسويه الواسطي.
٨. الإمام أحمد الرفاعي: المصلح المجدد، جمال الدين الكيلاني، زياد الصميدعي، المنظمة المغربية، مراكش، ٢٠١٢، ص ٢١.

مصادر الترجمة:

- وفيات الأعيان ١/١٧١.
- الوافي بالوفيات ٧/٢١٩.
- سير الذهبي ٢١/٧٧.
- الكامل في التاريخ ١١/٤٢٩.

العبر ٢٣٣/٤.

شذرات الذهب ٩٥٢/٤.

مرآة الزمان ٣٧٠/٨.

طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ٥/٢.

طبقات الشافعية للسبكي ١٤/٤.

النجوم الزاهرة ٩٢/٦.

«الموسوعة الصُوفيّة» ١٧٨.

«جامع كرامات الأولياء» ٤٩٠/١.

انظر أيضاً:

الطريقة الرفاعية.

منصور البطائحي.

المقداد بن مُحمَّد الرفاعي.

(٦٩٧)

الإمام أحمد البدوي رضي الله عنه ا

(١٧٥٥هـ-١٧٦٠هـ)

شيخ ومريد وبيعة على التزام الطاعة تبدأ بالتوبة الخالصة النصوح، وذكر ومجاهدة، تلك هي عناصر الطريق الصوفي، فماذا يقول المنتقدون على التصوف في طريقة أول شرطها: تطهير القلب عما سوى الله تعالى، ومفتاحها استغراق القلب بالكلية بذكر الله تعالى، وآخرها الفناء بالكلية في الله تعالى.

هذه دعوة الإمام الذي يزورنا اليوم.

سيدٌ أحدث دويًا هائلًا في حياته، وما زال هذا الدوي يملأ سمع الوجود على الرغم من أنَّ صاحبه الشريف قد فارق الدنيا منذ أكثر من سبعة قرون، فإنه ما زال يعيش في وجدان الزمن، ورويت عنه قصصٌ تبلغ حدَّ الأساطير.

هو من أولئك النفر الذين تعلَّموا العلم وعملوا به، وتأدَّبوا بأدب سيدنا رسول الله ﷺ ونشروه بين الناس.

هو غرسٌ طيبٌ في منبت طيب، فوالداه قرشيَّان النسب، ينتهي نسبُه إلى جدِّي سيدنا علي رضي الله عنه، نزح أجدادهما من مكَّة بعد أن استولى عليها الحجاج بن يوسف الثقفي عنوة وضرب الكعبة بالمنجنيق سنة ثلاث وسبعين للهجرة، واستوطنوا مدينة فاس في المغرب، وعاش أجداده بأمان وبقوا يحُنُّون إلى مكَّة موطنهم الأول، وطال بهم المكث ما يزيد عن خمس مئة عام (حتى سنة ٦٠٣هـ).

يزورنا اليوم سليل بيت النبوة من نسل سيدنا علي زين العابدين بن سيدنا الحسين سبط سيدنا رسول الله ﷺ.

إننا مع الإمام الولي شيخ الطريقة البدوية

سيدنا أحمد البدوي عليه السلام وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان:

كانت والدة إمامنا تحدّث أنّ هاتفاً قد جاءها في المنام يبشرها بولدها الذي منّ الله تعالى به على الكون سنة (٥٩٦هـ)، وكان أصغر إخوته السبعة، وقد تولّى والده سيدنا علي تربيته وتخليطهم القرآن الكريم، ولد وعلى مفرقه تاج الولاية، وفي أنفاسه عبير شجرة النبوة، وشرع في أحضان المغرب يحفظ كتاب الله ويتفقه في الدين (*واتخذ اللثام شعاراً له*).

وما أن بلغ السابعة حتى انتقلت أسرته إلى رحاب بيت الله الحرام بهاتف هتف بوالده في المنام أن يقدم مع أسرته أرض الحجاز، وانتقلت الأسرة المباركة إلى مكة بعد ما استغرقت رحلتها أربع سنوات.

أيها الأحبة والصحب:

فتحت مكة ذراعيها لاستقبال أسرة البدوي، وقدم أشرف المدينة يهتفون الأسرة بعودتها بعد خمسة قرون، وعلى رأس هذا الموكب والي المدينة، وما أن دخلوا البيت حتى سأل الوالي:

. أين الشريف أحمد المثلث؟

وتعجبت الأسرة، من أين علم الوالي بالصبي، ونادى الشريف علي ولده، فلما رآه الوالي أقبل عليه، وأخذه بين يديه وقال:

- إنّ جدي رسول الله وصفه لي في المنام وقال: يخرج من المغرب وهو ابن سبع سنين، ويدخل مكة وهو ابن إحدى عشرة سنة، وسيكون له شأن وأي شأن.

ثم دفع إليه صرة مملئة بالدنانير، فرفض أخذها وشكر الوالي، هكذا كان منذ الصغر معرضاً عن الدنيا، وكان لا يتكلم إلا للضرورة القصوى، ويبقى دائماً متطلعاً إلى السماء، ولا يلهو مع الصبيان، وكأنه يتلقّى الهواتف الإيمانية.

معشر السادة:

وفي مكة شاء الله أن تكون نقطة البدء الروحي لسيدنا أحمد، بجوار بيت الله الحرام ومهبط الوحي وحيث ولد سيدنا مُحَمَّد ﷺ، وبما أن سيدنا أحمد البدوي المثلثم على القدم المحمدي؛ فلا بد أن يكون فتحه محمديًا بمعنى الكلمة.

هناك أتمَّ سيّدنا البدوي حفظ القرآن، وأتقن علم القراءات، وتفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه، وتعلّم الفروسية حتى كان هو فارس مكة وشجاعها الذي لا يُبارى، وقد ذُكر أمامه يومًا أنَّ جدّه سيّدنا عليًّا كان يضرب في القتال بسيفين معًا، فصار سيدنا أحمد يضرب بسيفين حتى تعجّب الناس من شجاعته.

إخوتي في الله:

هذه هي إرهاصات ولايته، تعبّد في الليل، وفروسية في النهار، يتدرّب على ركوب الخيل والرماية وكأنّه يستعد لخوض معركة، حتى أطلقوا عليه: فتى الفتیان، وقد شهد له شقيقه الأكبر الحسن بعد وفاة والده سنة (٦٢٧هـ) فقال: (لم يكن في مكة والمدينة من الفرسان أشجع ولا أفرس من أخي أحمد، لذا سمّيته: العطاب).

كان وراء هذه الفروسية عند السيد البدوي درجة من الشفافية من كثرة الذكر، حتى تحوّلت نبضات قلبه إلى تساييح، وأصبحت جوارحه في حالة صلاة دائمة، ورجلٌ هذا حاله يسبق كل أهل عصره، أتدرون لماذا؟ لأنّ سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم قال ذلك، قال (م):

«سبق المفردون»، قالوا: وما المفردون؟ قال: «الذاكرون الله كثيرًا والذاكرات».

* يا شباب *:

الذاكر لله تعالى لا تفارقه رحمته وعنايته، الذاكر مع الله، ألم يقل الله ﷻ:
﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢].

واسمعوا معي إلى ما يقوله سيد الذاكرين ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل (ق):
«يقول الله تعالى: أنا عند ظنّ عبدي بي، وأنا معه إذا ذكرني، فإن ذكرني في نفسه؛
ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ؛ ذكرته في ملأ خير منه».

الذاكر . يا شباب . ليس عليه خطيئة، لذا شبّهوه بالملائكة، ذكر ذلك سيدنا
رسول الله ﷺ في الحديث الشريف حين قال (ق): «من قال: سبحان الله وبحمده
في يومه مئة مرّة حطّت خطاياہ وإن كانت مثل زبد البحر».

الذاكر لله غير غافل، والمقصود في الذكر ذكر القلب، فإن انضاف إليه ذكر
اللسان؛ فهو أفضل وأكمل لنيل الثواب، وأمّا ذكر اللسان وحده؛ فقليل الجدوى،
لكن الاستدامة على ذلك تكون سبباً لذكر القلب.

أستطيع أن أقول: إن السيد البدوي وصل إلى الله تعالى، وصل إلى الولاية بدوام
الذكر، ولذلك قيل: *الذكر منشور الولاية*، فمن وفّق للذكر فقد أعطي المنشور.
وكان لمكّة أكبر الأثر في ولايته، ففي ربوعها أطلق لروحه العنان، وأقبل على
المجاهدات والطاعات بعزيمة الرجال، وأخذت روحه تستمد الفيض الإلهي وتقتبس
من نور الأنوار حتى صارت نفسه نوراً، ومن شدّة نوره كان يتلثم بلثامين بحيث لا
يرى الناس منه إلا عينيه، ومن ثم لقب بالبدوي لتوافق مظهره مع مظهر البدو.

* يا شباب سيدنا مُحَمَّد* :

هذا درس لكم، ولكلِّ مَنْ يريد الوصول إلى الله تعالى والانقطاع إليه.
ولازم الصيام ظاهراً وباطناً، وبلغت مجاهداته إلى حدِّ أنّه كان يطوي أربعين يوماً
لا يتناول طعاماً ولا شرباً، سرت إليه نفحات «أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني»
حتى فتح الله عليه، وظهر عليه الوَلَه، وصار لا يكلم الناس إلّا بالإشارة.
وصل السيد البدوي رحمته الله إلى قمة الولاية، وسجد قلبه لله إلى الأبد، وصارت
حياته كلها وفقاً على الطاعة والمشاهدة، وقد عرض عليه أخوه الشيخ حسن الزواج
فأبى وقال:

. أنا موعود ألا أتزوج إلّا من الحور العين.

وصار يلتقي بأرواح الأولياء أمثال: جدي سيدنا عبد القادر الجيلاني، وسيدنا
أحمد الرفاعي رضي الله عنهما، ويحدّثونه، فيعي كلّ كلمة، ويتعرّف على حقائق
الأشياء وأسرار البرزخ، وتكررت هذه الرؤى حتى دعاه سيدنا الجيلاني والرفاعي
لزيرة العراق (فرج الله عنها). فقص رؤياه على أخيه حسن، فأشفق عليه من زيارة
العراق؛ لأنها برزخ الأولياء وبلاد الصالحين رحمهم الله، وتردد سيدنا أحمد البدوي، فإذا
بهااتف يهتف به ليلاً:

. قم واطلب مطلع الشمس (العراق)، فإذا وصلت إلى مطلع الشمس فاطلب
مغرب الشمس وسر إلى طنطا؛ فإنَّ بها مقامك.

* معاشر المسلمين* :

أدعوكم الآن جميعاً أن نزور مع سيدنا السيد البدوي وبخدمته أرض العراق، وقد
أصبح في سن الثامنة والثلاثين، فاستقبلوا أرواح الأولياء بالترضي عنهم.
وأرى بعين الإيمان واليقين جدي سيدنا الجيلاني وسيدنا الرفاعي معهم وقالوا له:
يا أحمد قد جئناك بمفاتيح العراق واليمن والهند والسند والروم والمشرق والمغرب

بأيدينا، فإن كنت تريد أي مفتاح شئت؛ أعطيناه لك، (اطلب المكان الذي تحب أن تشرف عليه من ناحية وظيفة الأولياء، اطلب وتمنّ) فقال لهما: . أنا منكما، ولكني لا آخذ المفتاح إلا من الفتاح (لا آخذ الإمامة الروحية إلا من الله تعالى).

هذا منتهى الاتصال بالله تعالى، والأولياء يستحيون من الله تعالى أن يسيطوا أيديهم لأحد سواه.
أحبي في الله:

لم يترك سيدنا أبو الثامين مقامًا من مقامات الأولياء في العراق إلا زارها بدءًا من سيدنا الجيلاني وموسى الكاظم في بغداد، ثم الشيخ أبو الوفاء، ثم توجّه لزيارة الإمام الرفاعي في قرية أم عبيد المقر الرئيس للطريقة الرفاعية. وفي هذه القرية . أيها الإخوة . يوجد سيدة تسمى فاطمة بنت بري، كانت ذات جمال أخّاذ وأنوثة طاغية، تتصدى بسحرها وجاذبيتها لكلّ من يدّعي أنه من الأولياء، ولا يخضع لفتنة النساء، وكم وقع في هواها المدّعون للولاية، وسقطوا في حبائلها.

توجّه النداء من سيدنا الرفاعي إلى سيدنا البدوي أن يتوجّه إلى هذه المرأة لتقويم سلوكها المعوج وتأديبها في الحال، وذكر له خطورة هذه المرأة، وبشّره بالانتصار عليها وإخراجها من بؤرة العَفْن الذي سقطت فيه.
فودّع السيد البدوي أخاه وتوجه إلى بنت بري، وصار أهل القرية يقولون:
(ها هي ضحية جديدة من ضحايا فاطمة).

ووقف التاريخ ليسجل للسيد البدوي نصره على الفتنة والسحر والجاذبية والأنوثة، (وهكذا كلّ شاب من شباب سيدنا مُحَمَّد ﷺ)، وفي ليلة أمسك فيها الزمن أنفاسه في قرية أم عبيد التقى السيد بفاطمة بنت بري، فإذا بالمرأة تزول رغبته في

الرجال، وتدخل هيبة الإمام البدوي قلبها، فتخرجها من عالم الدنس إلى عالم الطهارة، تثار لمن سلبتهم من الرجال. فسلبها بإذن الله حالها، فتابت على يديه، وكان يومًا مشهودًا بين الأولياء وأهل القرية، ودعته للزواج منها، فردَّ عليها الإمام: لن أتزوج إلا من الحور العين.

أحبابنا في الله:

وسرى نبأ توبة المرأة في القرية وأقبل الناس على السيد البدوي يبائعونه، وأقام بهم مجالس الذكر والحضرة، وأدبهم بأدب الشريعة، ثم تركهم وسافر إلى شمال العراق وزار قبر سيدنا عدي بن مسافر عليه السلام، وختم بها زيارته التي استمرت سنة كاملة.

عاد بعدها برصيد طيب من السمو القلي والوجداني، وحدث أخاه الحسن بالرؤى التي رآها للأولياء وخاصة مولانا الجيلاني والرفاعي، فقال أخوه الحسن: إنَّ الدعاة إلى الله هم مفاتيح الخير، والرفاعي والجيلاني يريدان أن تسير على طريقتهما في الدعوة، وقد كان طريقتُهما الكتاب والسنة، وهذا هو طريق الإسلام الصحيح.

ليسمع المخرّصون الذين يعترضون على التصوف:

طريق أهل الله جميعًا: *الكتاب والسنة*

شعار أهل الله جميعًا:

يا هذه الدنيا أصيخي واشهدي أنا بغير محمد لا نقتدي

فإلى أين أمر السيد البدوي أن يتجه؟

وفي أي بقعة أسس دعوته وطريقته؟

ولماذا كان يُعدُّ نفسه بالفروسية وضرب السيف؟

أعلق هذه الأسئلة لأجيب عنها في الدرس القادم إن شاء الله تعالى.

(٦٩٨)

الإمام السيد البدوي رضي الله عنه ٢

في أعلى قمة الولاية لله عز وجل تربع الأقطاب المحمديون الذين سبحت
أرواحهم في محيط النور المحمدي، وجالت قلوبهم في حضرة الجمال القدسي،
فاستمدت ذواتهم من نور الأنور، وشربت من رحيق الأسرار، وتحققت بكمالات
الإرث المحمدي الذي نالت بفضلته شرف الإمامة وترتبت على عرش الكرامة،
قلوبهم بذكره أحياءها، ومن الأرجاس والأكدار طهرها وجلّأها، أحياء بهم الدين ونفع
المريدين، وجلّا بهم عن القلوب الصدا، وأغاث بهم العباد، وأصلح بهم البلاد، هم
الناطقون بالحق عن الحقيقة، والمرشدون إلى سلوك الطريقة، أولئك هم خواص الحق
تعالى، الذين استخلصهم لنفسه، وأجلسهم على بساط أنسه، وقربهم إلى حضرة
قدسه، وجعلهم شهود حضرته، وجنود مملكته، فافهم هذا أيها المسلم، وأصغ إلى ما
قال فيهم المعلم:

فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحهم في الحجب نحو العلى تسري
فما عرسوا إلا بقرب حبيبهم وما عرجوا عن مسّ بؤس ولا ضر
همومهم جواله بمعسكر به أهل الله كالأنجم الزهر

فالولي . يا سادة . *تولّى طاعة الله تعالى، فتولّى الله أمره فلم يكله لغيره طرفة
عين* .

الولي عبدٌ ظاهر الصلاح، عارف بالله وصفاته حسب الإمكان، مواظب على
الطاعات، مجتنب للمعاصي، غير منهمك بالشهوات ولو كانت مباحة، وهو على

قدم سيدنا محمد ﷺ، تظهر على يديه الكرامات لتدل على مكانته عند الله؛
كإحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص.

وفي الذروة العليا ممن تربّعوا على عرش الولاية الربّانيّة والوراثية المحمّدية الإمام
العارف بالله قطب الأقطاب في عصره، وسلطان العارفين الأصفياء، باب الحضرة
المحمّديّة سيدنا الإمام أحمد البدوي.

فقد انعقد إجماع الأمة على إمامة القطب البدوي للأولياء، وبلوغه الذروة العليا
في الولاية والمعرفة، بيد أنّ حقيقة أبي الثامين لم يقف عليها عارف، وحسب الناس
أن يستضيئوا بنور الشمس، ولا عليهم أن يحيطوا بجوهرها أو يصلوا إلى كنهها.
ﷺ وأرضاه وأرضانا معه
إخوة الإيمان:

تركت مع حضراتكم سيدنا البدوي يتحوّل من العراق إلى مصر بعد أن أمر أن
يتوجّه إلى طنطا سنة (٦٣٤هـ) ليقم فيها، ويربّي بها الرجال، ويتّخذها مقراً لطريقته.
وأرى بعين الإيمان واليقين الإمام يتّجه نحو مصر ليس معه دينار ولا درهم، ولا
يرتدي إلّا الجاكت الأحمر والثامين والعمامة الحمراء، لم يثر فضول أحد؛ كالمتعبدین
الذين لا يستترعون انتباه أحد، وكما تدل رائحة العبق على الزهرة فقد دلّ على
السيد البدوي سلوكه العجيب، سبقه صيته إلى مصر، وخرج الملك الظاهر بيبرس
ليستقبل القادم العظيم، ويحتفل به هو وعسكره، وأنزله دار ضيافته وبايعه على
طريقته، ثم توجّه إلى طنطا، وأخذ من سطح دار الشيخ ركين مقراً له، لا يرى أحداً،
ولا يراه أحد، وصار يقوم الليل ويشخص ببصره إلى السماء حتى انقلب سواد عينيه
بحمرة تتوقّد كالجمرة، صمّت دائم، عبادات قلبية، وزهد في الطعام والشراب.

سمع بالسيد البدوي أهل طنطا والبلاد المجاورة لها، فأقبل عليه الناس، واختار
منهم أربعين رجلاً من خيرة الزاهدين الصالحين يطلبون صحبتته، ويرغبون في

الاستهداء به، هؤلاء الأربعون كانوا نواة الدولة الصوفية التي أسَّسها السيد البدوي ورعاها، وأخذ عليهم العهد:

١ . ألاَّ يخوضوا فيما يخوض فيه الناس من لغو الحديث.

٢ . وأن يكون نطقهم ذكراً.

٣ . وصمتهم فكراً.

٤ . ونظرهم عبرة.

٥ . وأمر كلاً منهم أن يتَّخذ صنعة ليأكل من عمل يده؛ لأنَّ العرق يُطهِّر الخطايا كما يطهِّره الوضوء (*ومن أمسى كالألّا من عمل يده أمسى مغفوراً له ذنبه*) كما قاله سيدنا رسول الله ﷺ.

٦ . ثم عيّن لهم يوماً ليدريهم على حمل السلاح لمواجهة أعداء الأمة من الفرنجة؛ لأنَّ الدفاع عن الأرض واجبٌ مقدّس (*ومن قُتل دون أهله فهو شهيد*) قولوا صدق رسول الله ﷺ.

إخوتي في الله:

نحج هؤلاء هذا المنهج، وبدؤوا يزدادون يوماً بعد يوم، وبدأ الإمام يفتقُّهم في الدين ليكونوا دعاة على علم، تعلّموا فيه ألا يناموا إلا على وضوء، وأن تكون صحائفهم سامية طاهرة، صادقة في مسيرتها إلى الله تعالى، وحمل القوم الراية بصدق وأمانة، تعلّموا الفروسية ودرسوا مذهب الإمام الشافعي، وتعلّموا تجويد القرآن، وشعروا أنّهم قريبون من الله تعالى، لم يزعم أحد منهم أنّه طار في الهواء، أو مشى على الماء، أو أحيا الموتى بإذن الله تعالى، إنّما كانوا على صلة قوية بالله تعالى، وهم يتعلّمون على سطح الدار عند شيخهم حتى عُرفوا بالسطوحية، وجاءت الساعة التي أُعدَّ لها الإمام منذ نشأته، وهيّا الأبطال حولَه لها، نادى داعي الجهاد ضدّ الفرنسيين، وأمر الإمام أبطاله أن يهيّبوها بأهل القرى ويجرضوا الناس على الجهاد،

والتفت حولهم العسكر المؤمنة، وهبَّت عليهم ريح الجنَّة طيبة زكية، واندفع أهل الإيمان بقيادة السيد البدوي يستأصلون شأفة الفرنسيين، ويزلزلون الأرض تحت أقدامهم، وكانت العقيدة أقوى سلاح في المعركة، وتحافت الناس على الشهادة، وذكرت لهم خوارق كالتى نسمعها عن كرامات الأولياء.

هذه هي الصوفية الصادقة، جهاد النفس وجهاد العدو، المتصوِّف الحقيقي هو مَنْ يُسهم في نهضة بلده ورقِيّه، زراعةً وصناعةً وأمرًا بمعروف ونهيًا عن المنكر من غير عنف ولا قهر ولا إكراه.

أَتعرفون ماذا فعل هو وجيشه؟

لقد أنزل بهم أبشع الهزائم، حيث أطلق على الفرنسيين مياه النيل وهم في طريقهم إلى المنصورة، فمات أكثر من ثلاثين ألف جندي فرنسي، وأُسر الملك لويس التاسع، وحبسَه عنده، ولم يطلق سراحه إلَّا بفدية من فرنسة بعد أربع سنوات.

وجاءت إليه امرأة تذكر له أن ابنها أسير، وهي ترجوه أن يفك ابنها من الأسر، فإذا بالإمام يمد يده في الهواء ثم يعيدها ثم يقول: ابنك صار في البيت، وتكررت هذه الكرامة منه حتى لقب بجلاب الأسير.

هذا الدور العظيم للإمام دعا الأيوبيين حكام البلاد لأن يتعرَّفوا على حال هذا الرجل العظيم الذي وراءه هذا الجيش الضخم من المريدین، فأرسلوا له جواسيس منهم لينخرطوا بينهم بدعوى أنهم مريدون، فلمَّا رأوه رجل دين وليس رجل سياسة انضوا تحت لوائه وصاروا من أتباعه، فلمَّا اطمأن الأيوبيون إلى الرجل؛ أرسلوا إلى قاضي القضاة تقي الدين بن دقيق العيد ليتعرَّف على هذا الرجل، ففكَّر ابن دقيق العيد بمَن ينجز هذه المهمة، فأرسل إلى الشيخ عبد العزيز الدريني، وكان من أساطين العلم وسدنة الفقه والتشريع.

كان الإمام الدريني يفكر طوال الطريق من القاهرة إلى طنطا في أعوص المسائل
الفقهية من كتاب جعله في كفه، ليطرحها على الإمام بهدف استكشاف مستواه
العلمي.

فما أن دخل عليه حتى قال له الإمام: . لماذا تحمل في كحك كتاب الشجرة،
جنئت تسأل عن العلم، وكتاب الشجرة في كحك.

فتماسك الدريني.

وعلى سطح داره دارت المناظرة، حجة تقارع حجة، ودليل يضارع دليلاً، ورأي
يناهض رأياً، كل هذا والسيد البدوي هو الفارس المجلي، وبعد ساعات رفع الشيخ
الدريني يده معلناً ختام المناظرة، ثم قبل يد السيد البدوي، وعاد إلى القاهرة، ودخل
على قاضي القضاة ابن دقيق العيد، وألقى أمامه قبلة على مسمعه وقال: لقد
أصبحت من أتباع السيد البدوي، ووجدته بحرًا في العلم لا يدرك له قرار، وقال لي
حين ودعته: أبلغ شيخ الإسلام الذي أرسلك أن المصحف المعلق في صدر حجرتي
به خطأ، الأول في سورة الرحمن، والثاني في سورة يس.

أسرع ابن دقيق العيد وبحث في السورتين في مصحفه المخطوط، فوجد الخطأين،
فظلَّ مبهوراً مشدوهاً: لقد صدق السيد البدوي.

ثم قرر ابن دقيق العيد أن يذهب بنفسه إلى الإمام البدوي.

وابن دقيق العيد (مُجد بن علي ٦٢٥ - ٧٠٢ هـ) من أساطين العلم، تعلَّم
بدمشق والإسكندرية والقاهرة، وتفقه على المذهب المالكي وأتقنه، ثم انتقل إلى
المذهب الشافعي فأحاط به، وصار يفقي على المذهبين، وتوفي بالقاهرة).

وانطلق الإمام إلى الإمام، انطلق بحر الشريعة إلى بحر الحقيقة، وهو يتمنى أن
يفوز عليه فوزاً عظيماً ليخفت صوت الشعبية التي حظى بها السيد البدوي، فالتقى

البحران (على السطح)، ونظر إلى أتباعه في صمتهم وسكوتهم وعمائمهم الحمر يشكلون منظرًا غريبًا يملأ النفس رهبة، فقال في نفسه:

. رباه ماذا أرى، إنهم قوم مجانين.

ثم تقدّم وسلّم على السيد البدوي، فقال له السيد:

. مجانين، إلا أن جنوهم عزيز، على أعقابهم يسجد العقل.

ارتبك الإمام ابن دقيق العيد وتماسك، وسأله عن الطريقة الأحمدية وأركانها.

ووقف الزمان، وأنصت الإنس والجان، وسمعوا الإمام السيد البدوي يقول:

(طريقتنا مستمدّة من الكتاب والسنة، من خالفهما فليس منا، والمريد الصادق هو من يعيش طاهر القلب نقي السريرة، لا تخالجه خواطر تحجبه عن الله تعالى، ويشترط فيه:

أن يكون صادقًا، صابرًا على المكروه، وفيا بالوعد غير حاث بالعهد، مستقيمًا على الطريقة، يأكل من عمل يده، يُطعم الجائع ويكسو العاري، ويُغيث الملهوف، يعبد الله في السرّ مثلما يعبد في العلانية، يحافظ على الصلوات في أوقاتها، يصون جوارحه عن المعصية، يُعرض عن الدنيا وزينتها، مكتفياً بما يُقيم أودّه، ينتظر الموت أن يأتيه في أية لحظة، يندم على الوقت الذي يمرّ عليه دون أن يذكر الله فيه، يتمثّل الصراط وهو ماّر عليه، وجهنم وهو واردها، يتخيّل موقفه أمام الله وأعضاؤه تشهد عليه، يستحي من الله أن يراه في حالة تُغضبه.

هذه أولى الملامح الخاصة بالمريد وعند الله المزيد).

تصوروا الإمام ابن دقيق العيد، الذي درس الشريعة ووصل إلى أعلى مناصب القضاء في الدولة، يكتشف أنه وُلد من جديد في جلسة واحدة، ويُقرّر أن يصبح واحدًا من أتباع السيد البدوي، ويعود إلى القاهرة ذاكرًا من الدرجة الأولى.

أيها الأحبة والصحب:

عاش السيد البدوي تسعة وسبعين عامًا، وكما قَيَّضَ الله لسيدنا إبراهيم بن أدهم خادمه إبراهيم بن بشار ليحفظ وصاياه ويُدَوِّنَ تعاليمه، فكذلك قَيَّضَ الله للسيد البدوي تلميذه عبد العال الفيشاوي ليصب في ذاكرة التاريخ الحِكمَ الغوالي والعظات البليغة التي قالها السيد البدوي.

معاشر المسلمين:

لم يكن الإمام ينزل من السطح إلاَّ لصلاة الجمعة والجماعة، وكان أغلب وقته صائمًا يُناجي الله في سِرِّهِ ويمجده، حتى اختاره الله لجواره في (١٢) ربيع الأول سنة (٦٧٥هـ).

ودَوَّى نبأ موته كما يحدث زلزال يهزُّ الأرض هزًّا، وصار الناس يتهامون: إِنَّ مِنْ رِضْوَانِ اللَّهِ عَلَى السَّيِّدِ الْبَدَوِيِّ أَنْ يَمُوتَ فِي الْيَوْمِ نَفْسُهُ الَّذِي وَلَدَ وَمَاتَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ، وعدُّوا ذلك من محبة الله له.

وحضر مريدوه ليغسلوه، فدخلوا على غرفته، وأرادوا حمله إلى المغتسل، فإذا بالكرامة تحدث، إذ بالسيد البدوي يقوم من فراشه حيًّا ويقول: *أنا أغسِّل نفسي*.

فدخل فاغتسل غسل الموت، ثم عاد إلى فراشه ثانية ومات.

وقامت الدنيا ولم تقعد لهذه الكرامة الأخيرة، وصلوا عليه، وبايعوا خليفته عبد العال على الطريقة، وصار المريدون يحضرون كل عام في (١٢) ربيع الأول يزورون شيخهم ويقيمون مولدًا، صار احتفالًا سنويًّا ما زال يكبر ويكبر ويتضخم حتى يجتمع مئات الآلاف، وُثِّي بجوار قبره مسجد السيد البدوي، وجواره زاويته، وفيها عمامته وقميصه وعصاه وسبحته التي جاء بها من العراق، وتتكون من ألف حبة، وتحولت طنطا لوجود ضريح السيد البدوي فيها إحدى العواصم الكبرى في مصر.

إنَّ السيد البدوي سيرةً وتاريخاً ليس بأسطورة شعبية، لكنها ولاية لا أظنُّها تختفي ما دامت ولاية الأولياء، ومادام قول الله تعالى يُتلى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

المصادر:

- . جوهرة الدسوقي
- . العارف بالله أبو العباس الفتى البدوي أبو الثامين.
- . شذرات الذهب لابن العماد ٦٠٢/٧
- . السيد البدوي عبد المنعم قنديل . نهضة مصر
- . السيد أحمد البدوي سعد القاضي دار غريب . القاهرة
- . العظة والاعتبار في حياة السيد البدوي . أحمد مُحمَّد جوي
- . أعلام الصوفية د. جوي المهدي
- . النجوم الزهرة ٢٥٢/٧ لابن تغري بردي
- . النصيحة العلوية للإمام نور الدين الحلبي
- . دائرة المعارف الإسلامية (السيد أحمد البدوي)
- . الأعلام للزركلي ١/ ١٧٥
- . الإمام الشعراي الطبقات الكبرى ١/ ١٨٣
- الموسوعة الصوفية ١٥٧ للحنفي

(٦٩٩)

الإمام الشيخ عبد الغني النابلسي

(1050-1143هـ) (١٧٣١-١٦٤١م)

هو الشيخ عبد الغني بن إسماعيل بن عبد الغني النابلسي الدمشقي الحنفي.

نسبه:

ينسب الشيخ إلى الخليفة الراشدي سيدنا عمر بن الخطاب، ولقد حُرر هذا النسب عام 1246هـ في كتاب جليل محفوظ عند أسرة النابلسي حفظهم الله. وأصل أسرته من حماة، وجده الثاني عشر برهان الدين إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ولد بحماة سنة ٥٩٦هـ، ثم انتقل إلى دمشق ليتلقى العلوم، وفي عام ٦٧٥هـ قصد بيت المقدس لزيارته، فمات بعد وصوله بأيام، فبقيت أسرته في بيت المقدس، ودرس أولاده فيها، وتعلموا في مساجدها، وعلى مشايخها أخذوا العلوم، ثم تولّوا بعد ذلك خطابة المسجد الأقصى وغيره.

وأول من انتقل إلى دمشق منهم جد النابلسي الرابع: إبراهيم بن إسماعيل بن برهان الدين إبراهيم.

فأسرته عُرفت بالعلم والقضاء والخطابة، بدءًا من موفق الدين ابن جماعة إلى سيدنا عبد الغني النابلسي، وهذا من أسباب نبوغه المبكر.

مولده ونشأته:

ولد يوم الأحد في دمشق ٤ ذي الحجة عام (١٠٥٠هـ / ١٦٤٠م) حين كان والده في القاهرة للتجارة.

ولد ونشأ وتصفوف في دمشق، قضى سبع سنوات من عمره في دراسة كتابات "التجارب الروحية" لفقهاء الصوفية.

وتطلعنا الكتب أن الشيخ عبد الغني كان يتفوق على إخوته بالنبوغ والذكاء المبكر، مما مهد لاهتمام والده به، فقد كان والده أول من قرأ على يديه القرآن الكريم في سن الخامسة، وورث عن أبيه الحافظة العجيبة وروحه العلمية.

وفي سن العاشرة حفظ مقدمات العلوم: «الألفية»، «الجزرية»، «الرحبية». وحضر دروس والده في التفسير والفقه في كتاب «الأحكام شرح الدرر» في الأموي وأجازه، وتابع دروس الشيخ نجم الدين الغزي (1061هـ - 1165م) في الحديث تحت القبة في الجامع الأموي، وحصل على أول إجازة في الحديث، وفي الثانية عشرة من عمره توفي والده، فكتب أول أشعاره في رثاء والده معلمه الأول، ثم تابع تحصيله العلمي تحت إشراف والدته، وحصل معظم علومه مع حداثة سنه. وفي العشرين من عمره تولى التدريس في الجامع الأموي في دمشق بالقرب من منزله الواقع في العنبريين.

فشيخنا الجليل ورث حب العلم وتقديسه، وورث ذكاءً ونبوغاً مبكراً، وسط "أسرة تربوية" تحمل في ثناياها أشكال الورع في السر والعلن، مما مهد لظهور شخصية العارف بالله الشيخ عبد الغني النابلسي، الذي لقب في ذلك الزمان بـ"الأستاذ الأعظم".

هذا الكلام يوصلنا إلى أهمية المحضن الأول للأولاد، فلا بد أن تكون المحاضن تربوية السمة والصفة، فعندما يعيش الأولاد باهتمام تربوي ورع يُقصد به المباشرة أمام الحبيب المصطفى؛ فمن المؤكد أنه ستعطي البذور ثماراً صالحة ونافعة للفرد أولاً وللمجتمع ثانياً.

شيوخه:

درس على عدد من شيوخ عصره ونال منهم الإجازات، ومنهم:
﴿ في علوم اللغة العربية: الشيخ محمود الكردي المتوفى (١٠٤٩هـ).
﴿ في علوم الفقه وأصوله:
الشيخ أحمد القلعي الحنفي (١٠٦٧).
الشيخ مُحمَّد كمال الدين الحسيني الشهير بابن حمزة نقيب الأشراف، قرأ عليه
جملة من الفنون.

الشيخ علي الشبراملسي الشافعي، أجازته إجازات كثيرة.
﴿ وفي علوم الحديث: الشيخ عبد الباقي الحنبلي المتوفى (١٠٧١هـ).
﴿ وفي علم الفرائض والحساب: الشيخ كمال الدين مُحمَّد بن يحيى الشافعي
الشهير بالفرضي (١٠٨٨هـ)

عصره:

كان العصر الذي ولد فيه الشيخ عبد الغني عصرَ فوضى اجتماعية وانحطاط
أخلاقي، فقد كانت الدولة العثمانية تحتضن العالم العربي تقريباً في القرن العاشر
الهجري، وكانت الأمم الإسلامية مستغرقة في اتباع الشهوات والأهواء، حتى ماتت
الفضيلة بين الناس، وساد الجهل، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد
وفوضى، هذا قبل بداية العهد الثاني الجديد للدولة العثمانية، فكان عصرُ شيخنا
عصر المستبدين، فانصرف العلماء في مصر والشام والعراق والحجاز واليمن وإيران
والهند إلى التدريس والإفادة، والباحثون والمفكرون إلى التأليف والتحقيق، والمشايخ
والصوفية الربانيون اتجهوا إلى إصلاح النفوس وتركيب القلوب.

هذا وقد غلب على أهل العلم في هذا العصر ذوق الشعر والأدب؛ ليكون وسيلة راقية للوصول إلى قلوب الحائرين والتائهين، والشيخ عبد الغني كان شاعرًا، أديبًا، عالمًا ربانيًا، فقيهاً، مفسرًا.

وظائفه:

رغم تنوع علوم الشيخ عبد الغني وغزارتها لم يشغل إلا منصبين:

الأول: وظيفة القضاء في محكمة الميدان عام ١٠٧٥هـ، ولم يلبث أن تركها.

والثاني: انتخبه أهل دمشق في عام ١١٣٥هـ مفتيًا لدمشق، فجاء المرسوم السلطاني من إستانبول بذلك، ولكنه لم يلبث أن ترك الوظيفة؛ ليتفرغ للخلوة التي ستمهد له الطريق للوصول.

خلوته:

اعتزل في بيته سبع سنوات لا يخرج إلا لضرورة، إلا أنه لم ينقطع عن التأليف واستقبال طلابه للتدريس وذكر الله في السر والعلن، ولا ننسى أنه منذ الصغر دأب على قراءة سير الصالحين والمتصوفين؛ مما جعله مهياً لهذا الدور الصوفي، والخلوة سنة نبوية شريفة، كم تحتاج في الزمان إلى من يُعيد إحياءها!!

وقد ذكر في كتابه «الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية» صوفيته وتدرجه فيها.

خرج الشيخ عبد الغني النابلسي بعد سبع سنين إلى الناس الذين ازدادوا في احترامهم له بعد أن رموه بالحجارة.

خرج وعليه هبة العارفين بالله ووقارهم، ومنذ ذلك اليوم ذاع صيته في العالم الإسلامي، وبدأ الفتوح الرباني للتأليف، وقد برع أكثر ما برع في الدفاع عن الصوفيين، وجمع شعره الصوفي في ديوان "الإلهيات"، وأخذ يتردد على ضرائح الأولياء، وقبور الصالحين، يزورهم ويقرأ في سيرتهم، ويدافع عنهم عند المنكرين، ويمدحهم نثرًا وشعرًا.

وتلقى الطريقة النقشبندية عن الشيخ أحمد البلخي الذي زار دمشق سنة ١٠٨٧هـ، وتلقى الطريقة القادرية عن الشيخ عبد الرزاق الكيلاني عام ١٠٧٥هـ. وكان كثير المطالعة لكتب الشيخ محيي الدين بن العربي، وكتب السادة الصوفية كابن سبعين والعفيف التلمساني.

لقد تبحر الشيخ عبد الغني النابلسي في علوم الصوفية حتى عُدَّ من أشهر الأولياء العارفين، وقد ظهرت له كرامات، ومن أشهرها تبحره في جميع العلوم، وقد ترجم له المرادي في "سلك الدرر" فقال عنه: "أستاذ الأساتذة، وجهيد الجهابذة، الولي العارف، ينبوع العوارف والمعارف، الإمام الوحيد، الهمام الفريد، العالم العلامة، الحجة الفهامة، البحر الكبير، الجد الشهير، شيخ الإسلام، صدر الأئمة الأعلام، صاحب المصنفات التي اشتهرت شرقًا وغربًا، وتداولها الناس عجمًا وعربًا، العارف بربه، الفائز بقربه وحبه، ذو الكرامات الظاهرة، والمكاشفات الباهرة:

هيهات لا يأتي الزمان بمثله! إنَّ الزمان بمثله لبخيل

دروسه:

تفرغ بعد ذلك للعلم باحثًا ومصنّفًا وشاعرًا وأديبًا ومعلمًا، وكانت دروسه كالتالي:

دروس عامة، ودروس خاصة.

فدروسه العامة بعد الفجر وضحوة النهار وبعد العصر، في ثلاثة مواضع: الجامع الأموي، والمدرسة السلمية، ومنزله، وأما الدروس الخاصة؛ فهي في منزله. ومواد دروسه: تشمل العلوم كلها من مبادئها إلى التخصص، بدءًا بعلم الحديث ثم التفسير، والفقه، فالتصوف.

والشيخ عبد الغني النابلسي هو أول من دأب على تفقيه أهل الصالحية بعلوم المذهب الحنفي والشافعي، بعد أن كان المذهب الحنبلي هو السائد لديهم بالصالحية منذ إنشاء جامع الحنابلة والمدرسة العمرية الحنبلية بصالحية الشام، وذلك بعد أن انتقل من بيته بجوار الأموي إلى بيته في الصالحية، وفي الصالحية لم يتوقف عن إلقاء الدروس في تسهيل تفسير القرآن للبيضاوي، وفي تدريس «الفتوحات المكية» لابن العربي.

وظل الشيخ يستقبل في إيوان داره عددًا كبيرًا من طلبة العلم للمذهب الحنفي، وظلت دروسه كذلك في عهد ابنه الشيخ إسماعيل وحفيده مصطفى رحمهم الله. دانت له كل الناس، وبأبعه آخر عمره كل من وجد في عصره بالملأ العام بين الأنام.

وفي «سلك الدرر»: استجيز من سائر الأقطار^(١).

مؤلفاته وكتبه:

كانت مؤلفاته كثيرة، وقد بلغت زهاء ثلاث مئة مؤلف؛ ما بين كتب ورسائل ودواوين ذكرها خلال رحلته الكبرى، وتميزت بدفاعه عن الصوفية، ومنها: الوجود الحق.

جواهر النصوص في شرح كلمات الفصوص.

غاية المطلوب، في محبة المحبوب.

هدية الفقير، وتحية الوزير.

الساخات النابلسية، والسارحات الأنسية.

بداية المريد، ونهاية السعيد.

(١) «سلك الدرر» (٣/ ٣٠).

بذل الإحسان، في تحقيق معنى الإنسان.
إيضاح المقصود من وحدة الوجود، وهي رسالة صغيرة.
الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية.
تعطير الأنام في تعبير المنام.
التعبير في تفسير الأحلام.
ديوان الدواوين، وهو مجموعة شعره.
فضائل الشهور والأيام.
أسرار الشريعة.
منظومة أسماء الله الحسنى.
الفتح الرباني والفيض الرحماني.
خمرة الحان ورنه الألحان شرح رسالة الشيخ أرسلان.
الوجود الحق والخطاب الصدق.
ذخائر المواريث في الدلالة على مواضع الحديث.
إيضاح الدلالات في سماع الآلات.
رائحة الجنة شرح إضاءة الدجنة في اعتقاد أهل السنة.
رشحات الأقلام شرح كفاية الغلام.
وأعدّ مناهج تدريس للتصوف حوالي ٢٠٠ كتابًا؛ منها:
الرد المتين على منتقص العارف محيي الدين.
ردّ المفترى على الطعن بالششتري.
التنبية من النوم في حكم مواجيد القوم.

رحلاته:

بعد خلوته التي تحدثنا عنها قام بعدة رحلات: إلى لبنان، ثم إلى بيت المقدس، ثم إلى الشام ومصر والحجاز.

والرحلة الكبرى هي إلى مصر والحجاز والشام في سنة ١١٠٥هـ، خرج من داره بجانب الجامع الأموي، وتحول في دمشق مودعًا وزائرًا قبور الصالحين والأولياء والصحابة.

وبعد أن طاف في الشام اتجه إلى بيت المقدس، ثم إلى مصر، ثم إلى الحجاز قاصدًا الحج إلى بيت الله الحرام، وفي عودته إلى الشام مات أخوه فدفنه، واتجه نحو الشمال ليصل إلى تبوك ومعان، ثم وصل دمشق في ٣٨٨ يومًا من بدء رحلته، بدأت (١١٠٥/١/١)، وانتهت (١١٠٦/٢/٥).

ومرافقوه في رحلته: ابنه إسماعيل، وخادمه، وأخوه الذي توفي في طريق العودة. وكان الإمام النابلسي من المغرمين بالرحلات، فقد كان هدفه زيارة الأولياء الصالحين أحياء وأمواتًا، والتباحث مع علماء هذه الأمصار، والهدف الأخير هو الاستمتاع بالتنزه حتى أقعده مرض في داره.

قال الغزي: "وفي حال مرض الأستاذ لم يغيب إدراكه، ولا تغير شيء من حواسه إلى أن خرجت روحه الشريفة، وكان كثيرًا ما يقول في مرضه: تعالوا انظروا إلى "نقش بندي" ويشير إلى بدنه، واجتمعت في داره غالب الحفظة للقرآن الكريم في دمشق، ولما وضع على المغتسل اجتمع علماء دمشق وطلبتها لغسله، ووقف الشيخ حسن البصير المنشد، وأنشد قصيدة الأستاذ المشهورة وأولها:

خلوة القبر أشرف الخلوات بلقاء الحبيب في الجلوات

وَصُلِّيَ عليه في إيوان القاعة مرارًا عديدة.

وفاته:

توفي بعد مرضٍ أَلَمَّ به في ٢٤ شعبان (١١٤٣هـ - ١٧٣١م)، ودُفن في القبة التي كان قد بناها في بيته، ثم أُقيم على قبره جامع في بدايات القرن الثالث عشر للهجرة.

وخلاصة القول فيه ما قاله صاحب «سلك الدرر»: (لم يأت عالم مثله في عصره أو بعده).

ونختم ترجمة الإمام الجليل بهذه الأبيات من كنوز شعره "خلوة القبر أشرف الخلوات":

خلوة القبر أشرف الخلوات	بلقاء الحبيب في الجلوات
خلوة القبر للتجرد عما	يشغل الروح عن إثم الصفات
خلوة القبر لذة ونعيم	لسعيدٍ قد ذاق سر الممات
خلوة القبر راحة وسرور	ودخول في أشرف الجنات
حضرة تجمع المتيم فيها	أيّ جمعٍ أكمل الحالات
هي سعد لكل عبد سعيد	يترقى بها علا الدرجات
وهي سجن لكل عبد شقي	يتدلى بها إلى الدركات

(٧٠٠)

العارف بالله

سيدي الشيخ مصطفى التركماني

(٢٠١٦-١٩٢٧م)

شيخ الطريقتين الرفاعية والشاذلية

هو الشيخ مصطفى بن عبد الرزاق بن إسماعيل بن محمد التركماني الشافعي الأشعري، من الجولان.

نزل الشيخ إسماعيل ومحمد لتعلم العلم الشرعي عند الشيخ عبد الغني الغنيمي الميداني شيخ الحنفية.

وولد الشيخ مصطفى في محلة الجيزة حوران لعمل والده هناك سنة ١٩٢٧م، ونشأ في ظل والديه الكريمين من آل التركماني وآل المناشفي.

درس العلم الشرعي وعمره ١٢ سنة على يدي شيخه الشيخ حسن حبنكة رحمه الله في معهد التوجيه الإسلامي في الميدان.

وكان من شيوخه أيضاً الشيخ صادق حبنكة رحمه الله، والشيخ إبراهيم الغلاييني رحمه الله تعالى.

وكان من أقرانه عنده الشيخ خيرو ياسين، وكان أكبر منه..

وحين تخرج في المعهد انتسب إلى جامعة دمشق، وحصل على الإجازة في العلوم الشرعية، ثم دبلوم التربية.

عمل مدرساً للعلوم الشرعية في مدارس دمشق من عام ١٩٦٣ إلى عام ١٩٧٥.

صلته بالتصوف رحمه الله تعالى:

طاف للتدريس بالريف والمحافظات حتى وصل إلى دمشق سنة ١٩٦٩ في إعدادية الفتى العربي بالميدان.

وفي سنة ١٩٧٥ أعير من التربية إلى قطر لتدريس العلوم الشرعية والقرآن، وفي سنة ١٩٩٠ انتهى عقده وعاد إلى دمشق.

سلك على أيدي أشياخ بررة في عصره من أهل التصوف والأخلاق؛ وهم:

١- مولانا وقودوتا إلى الله تعالى سيدي مُحَمَّد بن الهاشمي: ودخل الخلوة عنده، وفي نهاية الخلوة قال له: قم مرشدًا.

٢- سيدنا الشيخ إبراهيم الغلاييني في قطنا، وحضر جلساته، وله عنده حظوة كبيرة.

٣- سيدنا وقودوتا إلى الله سيدي عبد الرحمن السبسي في حماة، شيخ الطريقة الرفاعية، وأجيز منه بالطريقة الرفاعية.

٤- وعلى أثرها صارت له صلة بسيدنا محمود الشقفة رحمه الله شيخ حماة، وكان من خلفائه.

فهو مجاز في الطريقتين الرفاعية والشاذلية؛ الرفاعية عن شيخه الشيخ محمود الشقفة عن شيخه الشيخ عبد الرحمن السبسي رحمهم الله، والشاذلية عن شيخه الشيخ عبد الرحمن الشاغوري عن شيخه الشيخ مُحَمَّد الهاشمي رحمهم الله.

٥- السيد مُحَمَّد مكي الكتاني رحمه الله تعالى في عام ١٩٧٢. وكان يصلي إمامًا في التراويح بحضرته ختمة كاملة، وأخذ منه إجازة في حفظ القرآن عالية الإسناد بالتسلسل عن ثمانية عشر قارئًا إلى سيدنا رسول الله ﷺ. وكان مولانا السيد المكي معجبًا بقراءة سيدنا الشيخ مصطفى ويقول لإخوانه:

كيف لم نتعرف من قبل على الشيخ مصطفى!؟

وحين تولى الخلافة سنة ٢٠٠٤م بعد وفاة سيدنا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري كان لا يرضى أن يعطي الطريق لأحد حتى يأخذ الأذن بصورة مباشرة من سيدنا رسول الله ﷺ؛ كما حدثني ولده حفظه الله.

دروسه العلمية:

كان الشيخ خطيباً ومدرساً في جامع الرضا في الزاهرة. ولم تتوقف دروسه رحمه الله في حياته كلها. ففي دمشق درّس في مساجد: الأثمر - غزوة بدر - عبد القادر الحسيني - الرضا.

وكانت مواعيد دروسه بعد الفجر وبعد العصر وبين العشاءين. قال بعد وفاة شيخه الشيخ حسن حبنكة: إن إمداداتي الروحية كانت أغلبها من الشيخ حسن حبنكة رحمه الله تعالى.

عدد أولاده: ولدان: ذكر - وهو سيدي عبد الرزاق - وابنة، وله ٢٣ حفيداً. **وفاته:** توفي الشيخ إثر مرض ألم به ودخل المشفى لإجراء عملية جراحية توفي على أثرها سنة ٢٠٠٦م وصلي عليه في جامع زين العابدين، وبويع بعده سيدنا الشيخ شكري اللّحفي الحافظ الجامع، بقية السلف الصالحين.

(٧٠١)

العارف بالله

سيدنا الشيخ شكري الحنفي

(١٩٢٠ - ٢٠١٥ م)

الحافظ الجامع العابد الزاهد شيخ الطريقة الشاذلية

هو سيدنا الشيخ شكري بن أحمد بن علي بن أحمد اللّحفي الحنفي الأشعري الشاذلي.

ولد في القنوات بدمشق سنة (١٩٢٠م)، وأصله من مدينة الحُف في طرف حلب.

نشأ في كنف والديه، وكان والده يتكلم بالحكمة، متسامحاً لأبعد حد، ووالدته من آل الجزائري الحسينيين من الشام، وكانت من الصالحات، من مسها بسوء أصابه البلاء، وكان الشيخ مؤدباً معهما وباراً بهما، حتى إنه لا يذكر ما لوُن عيني والده! ومرة قدّم له فرنكاً من عمله، فدعا له وقال: (اذهب، الله لا يعيزك لأحد طوال حياتك) فوجد بركة دعوته طوال عمره.

تزوج من آل الجزائري الحسني وأعقب أربعة أولاد، ثم تزوج فلسطينية من آل جاد الله ولم يعقب منها، وكان له منها ربيبة.

تسلسله العلمي:

-بدأ بحفظ القرآن في سنه السادسة، وفي سن الثامنة عشرة أكمل حفظ القرآن

على يد الشيخ عز الدين عرقسوسي في جامع السنانية.

-نال الابتدائية والإعدادية سنة ١٩٤٤م، وبينهما سنة، ونال الثانوية خلال أربع سنوات عام ١٩٥٥، وأراد متابعة الدراسة في الأدب العربي ثم الشريعة، ولكنه لم يتيسر له.

-انتسب إلى الكلية الشرعية التي أسسها الشيخ تاج الدين الحسني عام ١٩٤٢ خلال الحرب العالمية الثانية لمدة ثلاث سنوات.

-عين في وظيفة التعليم الابتدائي بين حلب ودرعا، ثم دمشق، ثم أصبح مدير مدرسة في أشرفية الوادي (الجديدة) لمدة سنتين، وكان يخرج كل يوم بعد الفجر ماشياً ليصل إلى مدرسته.

ثم انتقل إلى مديرية التربية وعمل في عدد من المديريات، وكان في بعضها موجهاً.

-أتقن اللغة الفرنسية وكان يدرّسها في كلية الشريعة بدمشق.

-تعلم الخط العربي على أيدي أساتذة مهرة؛ وهم: السيد ممدوح الشريف، والسيد بدوي الديراي، والسيد حلمي حباب.

-أخذ علم القراءات القرآنية عن الشيخ يوسف أبو ديل (وهو تلميذ الشيخ أبي الحسن الكردي) لمدة سنتين، وألف أثناءها كتاباً سماه «تحفة العصر في القراءات» يدرس في بعض المعاهد الشرعية اليوم.

-خطب في عدة مساجد، فلما طلب منه أن يتكلم على الشيوعية رفض واستقال وقال كلمته: الخطيب لسان قومه.

-درس الفقه الحنفي على سيدنا الشيخ عبد الحميد كيوان في جامع سيدي هشام في سوق مدحت باشا، وحضر النحو على الشيخ لطفي الفيومي.

-ومن شدة جرأته رحمه الله أنه زرع العَلَم السوري على دبابة كانت في باب الجابية لفرنسة، ولم يطلق عليه النار أحد.

وكان له نافذة في إحدى الجرائد الفرنسية كان يكتب فيها.

توجهه نحو التصوف:

تعرف الشيخ إلى سيدنا محمد بن الهاشمي عن طريق شيخه الشيخ يوسف أبو ديل تلميذ الشيخ الهاشمي، ولأزمه، وكان يسقي الماء في مجلسه وقال: إنه أخذها من الشيخ أبي سليمان عبد الوهاب المنير خادم الشيخ الهاشمي رحمهم الله تعالى. وكان يقول: كان الشيخ الهاشمي يقبل تلامذته على أية حال كانوا عليها ولا يرد أحدًا عن بابه، وعمل أول خلوة له عند سيدنا الهاشمي وقال عنه: إن سيدي شكري دخل الخلوة ولم يخرج منها، فكان ذاكرًا لله بالاسم الأعظم طوال حياته رحمه الله. وكان إذا غاب شيخه عن درسه في الجامع الأموي يوم الثلاثاء بعد العصر؛ ناب عنه.

عاش في ظل شيخه الهاشمي متنعمًا بدروسه وذكره، فتعلم الزهد والتواضع والتسليم المطلق لله تعالى في جميع أموره، فكان لا يرى فاعلاً في الكون إلا الله تعالى، حافظاً للسان لا يغتاب ولا يسمح بالغيبة أمامه، وحين حضر «البردة» في أحد المساجد غيّر بيتاً في «البردة» لأن فيه غيبة، وكانت الغيبة أكره شيء على قلبه، قال سيدنا البوصيري:

ولم أرد زهرة الدنيا التي اقتطفت يدا زهير بما أثني على هرم

فغيّر الشطر الثاني:

يد امرئ جاء مدّاحًا لذي كرم

وله تعبيرات لطيفة في تحويل بعض كلمات الإرشاد؛ نحو:

محمد كل ما في الكون مظهره محمد خير ما في الكون مظهره

برد الآصال سلم على طه مُجَدِّ

رهو الآصال سلم على طه مُجَدِّ

مُجَدِّ مشرق بدرًا على علم

مُجَدِّ مشرق بدرًا على علم

وفي تصحيح «حزب النصر»:

(مُسَاقًا وَمُصَادًّا فِيهَا) (مَسُوقًا وَمَصِيدًا).

وفي تصحيح ختم القرآن:

(مَرْدًّا غَيْرَ مُحْزِيٍّ وَلَا فَاضِحٍ): (مَرْدًّا غَيْرَ مُحْزٍ وَلَا فَاضِح).

وبعد وفاة سيدنا الشيخ الهاشمي لازم مجالس مولانا الشيخ الشاغوري رحمه الله الذي قال عنه: (هذا الرجل لا نشك بولايته).

وقال عنه مولانا الشيخ عبد الوكيل الدروبي رحمه الله: لم يستفد من حال الهاشمي إلا سيدي شكري اللحفي.

وحين توفي سيدنا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري سنة ٢٠٠٤م وبويع سيدنا الشيخ مصطفى؛ كلفه بعمل خلوة لإخوان الطريقة وقال عنه: لو رضي الشيخ شكري أن أكون خادمًا لنعله لفعلت.

وبوفاة سيدنا الشيخ مصطفى التركماني في رمضان (١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م) بويع سيدنا الشيخ شكري شيخًا للطريقة الشاذلية بيعة عامة من إخوان الطريقة قبل دفن الشيخ مصطفى، وبيعة خاصة في يوم الجمعة ٦/١٠/٢٠٠٦م، واشترط علينا شرطًا وافقناه عليه رحمه الله تعالى.

ومع ذلك بقي سيدنا الشيخ يسقي الماء للإخوة حتى كبر، وتحولت السقيا إلى سقيا روحية.

كانت بيعته بركة لأهل الطريق، حتى شاهدوا وتعلموا من حال الشيخ التواضع والاستسلام والانقياد لمراد الله تعالى، ومن يقرأ ديوانه «المروج الخضر في الشعر» يرى حال الشيخ مع الله تعالى واحترامه لشيوخ الطريق.

وكان من جلس إليه أو أخذ عنه يتأثر به أيما تأثر؛ كما تأثر به كل من حفظ عنده أو جمع القرآن الكريم...

وقد جاءت إليه امرأة مع رفيقتها تزوره وهي حاسرة، فأمرها بوضع كوفية على رأسها، فما مضت فترة حتى تحجبت وبدأت تحفظ القرآن. حج حجتين إلى بيت الله الحرام.

ودامت خلافة سيدنا الشيخ تسع سنوات، وكان يعيش بكلية واحدة، يأكل قليلاً، ويشرب قليلاً، ويحلي كأسه لتعويضه عن الطعام، حتى مرض مرضاً شديداً دخل المستشفى على إثره، ورحل إلى الله تعالى في ٢ شوال ١٤٣٦ هـ. وخرجت جنازته حافلة حيث صلي عليه في الجامع الأموي، وكان الحرم ممتلئاً عن بكرة أبيه، وحضر شيوخ الشام من العلماء والمحدثين والأولياء والصلحاء وشيوخ المنابر.

وألقى كلمات التأبين الدكتور شريف الصواف والدكتور توفيق البوطي. وألقيت كلمة العزاء الخاصة بالطريقة، وباع الناس جميعاً الفقير شيخاً للطريقة؛ لأن مولانا الشيخ استخلفني قبل وفاته رحمه الله تعالى بعد أن قمت بخلوة معه رحمه الله تعالى.

وقال لابنته: بايعت الشيخ عبد العزيز؛ لأن النبي ﷺ أمرني بذلك، وهاهي كلمات التأبين:

كلمة تأبين مولانا الشيخ شكري اللُّحفي في الجامع الأموي:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله المتفرد بالنقاء... الذي حكم على خلقه بالانتقال عن دار الفناء.

أحمده سبحانه وتعالى وأشكره في السراء والضراء.

وأصلي وأسلم على هذا النبي الكريم، والسيد السند العظيم، سيدنا ومولانا مُحَمَّد
المنزل عليه ربه عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] فإنا لله وإنا إليه
راجعون.

بكت المعارف والرسوم فقيدنا أواه لو كان البكاء يفيدنا!

رزةً أصاب المسلمين فصدَّع الـ أكباد منا واستطار قلوبنا

يقول الله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا
يَتَّقُونَ (٦٣) هُمْ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ...﴾ [يونس: ٦٢ -
٦٤].

ويقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت: ٣٠].
ويقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ
الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: ٣٣].

سادتي العلماء.... أيها المشيعون الكرام.... إخوتي طلبة العلم

أصيبت بلاد الشام والعالم الإسلامي بمصاب فاجع وخطب أليم؛ ألا وهو رحيل
سيدنا وشيخنا وإمامنا وقدوتنا الولي الصالح العارف بالله، بقية السلف الصالحين،
وقرة عين الرجال الصوفيين، شيخ الذاكرين والموحدين، الزاهد المتواضع المشفق على

عباد الله، المعظم لحرمت الله، شيخ الأتقياء والأصفياء، الحافظ الجامع سيدنا الشيخ
شكري اللحفي، شيخ الطريقة الشاذلية في البلاد الشامية. قدس الله سره العزيز.
هذه شهادة المريدين بالراحل العزيز، فهل تشهدون؟... نعم.

ماذا أقول ودمع عيني يسائل من مات؟ ردّ الكون هاك مقالةً
مات الذي أحيا القلوب محبةً مات الذي أفنى الزمان عبادةً
مات الذي أمضى الليالي مفكرًا مات الذي زكى الزمان فضيلةً
مات الذي أعطى الحياة نصارةً مات الذي ملأ البلاد سمحةً

يا عين ما بك لم تكفّ عن البكا نظرت وقالت: قد فقدنا أمةً
سيدي ومولاي الشيخ شكري بن أحمد بن علي بن أحمد اللحفي الحنفي
الأشعري الشاذلي.. أصله من حلب، وولد في حي القنوات بدمشق.
يا سيدي ومولاي:

وأنت مسجّي الآن لطالما قرت عينك بذكر الله، واليوم تبكيك المحارب،
وتبكيك المساجد والمجالس، وتبكيك الطرق الموصلة إلى الله تعالى، وتبكيك مجالس
الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ، ويبكيك الحفاظ والجامعون الذين علمتهم كتاب
الله زهاء ستين سنة.

لكنه درب الصالحين والأخيار، وإنما يعجل الله بالأبرار، إنه سبيل الكائنات،
وصدق الله العظيم إذ قال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ
الْخَالِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤].

إنه يوم الفاجعة حقًا... يوم الحزن الأعظم... يومٌ تُكَلِّتُ فيه أمة سيدنا مُحَمَّد.
يا دمشق!..... قد فجعت اليوم بعلم الأعلام، وشيخ الشيوخ، وقمر الأقمار،
وبركة العصر.... إمام الزاهدين وسيد المتواضعين.....

لك الله يا دمشق!

فعلام تبكي العيون بعد شيخنا؟... علام تخفق القلوب بعد أستاذنا وسيدنا؟!
والله لولا اعتقادنا أن الله لنا لجادت العيون بعد الدمع دمًا.
.... الموت حق.. آمنا به... والرحلة إلى الله لا بد منها.... فصبرًا أهل الشام،

فإن

موعد سيدنا الجنة بفضل الله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ
جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ [الكهف: ١٠٧].

قد كان من لطف الله بنا أنه كان يدفع عنا البلاء به وبإخوانه الربانيين، وصدق
سيدنا رسول الله ﷺ إذ قال:

«الأبدال يكونون بالشام، وهم أربعون رجلًا، كلما مات رجل أبدل الله
مكانه رجلًا، يسقى بهم الغيث، وينتصر بهم على الأعداء.... ويصرف عن أهل
الشام بهم العذاب»^(١).

لقد أعطاه الله فهماً ثاقباً، فتبين له ما يحيط بالتصوف من خرافات وأوهام،
فجهر بكلمة الحق، وأعطى للناس صورة حقيقية للتصوف الحق؛ حتى يغلق الطريق
أمام أدعيائه ومستغليّه ومشوّهي صورته.

(١) أخرجه الإمام أحمد (١/١١٢).

التصوف عنده: تصفية النفس من أدران النفس الأمارة بالسوء، وهو الصدق مع الحق، وحسن الخلق مع الخلق، ومن شدة زهده أنه لما وزعت سبائك الذهب على القراء تصدق بها فوراً. كان سيداً كريماً مشفقاً، رحمك الله يا مولانا.

فيا سيدي الشيخ شكري ﴿وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى﴾ [الضحى: ٤، ٥]، لئن رحل مولانا الشيخ شكري اليوم إلى الله، ونسأل الله أن تكون فتحت له أبواب الجنان؛ لقد رجعت الروح إلى بارئها راضية مرضية، راضية عن الله وراضياً عنها ربنا ﷺ ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ (٢٧) ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (٢٨) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي (٢٩) وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧ - ٣٠].

والله يا إخوة:

كلُّ المصائب والحن يسيرة أمام رحيل أولياء الله، أمام فقدان ورثة الأنبياء. كل ذلك حقير لا خطر له ولا قيمة أمام رحيل الصالحين. ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤].

اللهم أنت الغالب فلا غالب سواك، وأنت المولى فليس لنا مولى سواك، انصر أهل الشام، وفرج عن أهل الشام. اللهم إن شيخنا لطالما قرأ وأقرأ ﴿إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٦].

اللهم هؤلاء الذين يبلغون رسالتك، فإن لم تتولهم فمن يتولهم؟

سادتي:

سيدي الشيخ شكري ما شاهدت العينان مثل زهده، ولا مثل تواضعه، ولا مثل ذكره، ولا مثل أخلاقه، ما عقر قط وجهه سخطاً على قضاء الله وقدره.

كان حاله حال الرضا عن الله، وحال الصبر مع الله، وصدق الله إذ قال: ﴿إِنَّمَا يُؤَوِّقُ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠].

كان كتابه القراءات تحفة العصر في علم القراءات المتواترة العشر (يدرّس في مجالس الإقراء، وكان خطاطاً من الدرجة الأولى، وكتابه في الشعر) المروج الخضر (سارت به الركبان، صاح في بعض أبياته:

على باب طه يا خلّان دُلّوني حتى أمرغ بالأعتاب جفوني

إن مساجد دمشق تنعى الشيخ لكم، مسجد النورية، ومسجد الشامية، ومسجد الورد، ومسجد القلبجية، وجامع التوبة، وجامع زيد بن ثابت، وجامع عبد الرحمن بن أبي بكر.... ومساجد الشام التي يقام فيها مجالس الصلاة على سيدنا النبي ﷺ.

اعرفوا قدر شيخكم يا سادة.

ما عرفنا عنه زلة قط، ما خالف دين الله قط، ما رأيناه إلا مستقيماً، كان عند شيخه الهاشمي يسقي الماء في مجالسه، وحتى لما صار شيخاً للطريق بقي يسقي الماء!! وهو يردد: إن سيدنا جبريل تمنى على الله أن ينزل إلى الأرض ليسقي الماء؛ لما رأى من ثوابه عند الله تعالى.. فلما مرض الشيخ شكري وأُقعد تحولت السقيا روحية مع أحبائه..

أيها الصوفيون

اعرفوا تاريخ شيخكم رحمه الله.

كان سيدنا الهاشمي يحبه كثيراً، ومنه الإجازة الأولى في الطريق. وكان سيدنا الشيخ عبد الرحمن الشاغوري يحبه كثيراً ويثني عليه، ويقول عنه: (هذا الرجل لا أشك بولايته)، وكان الشيخ مصطفى التركماني يعتقد به ويقول: (لو

رضي الشيخ شكري أن أكون خادماً لنعاله لفعلت)، وكان سيدنا الشيخ عبد الوكيل الدروبي يقول: (لم يستفد من حال الهاشمي إلا سيدي شكري اللحفي).
احترمه القاضي والداني، وكان مستجاب الدعوة، وهذا تجربته عليه مراراً...
حياته امتلأت علماً وإقراءً منذ سن الثامنة حتى الممات، خمساً وتسعين سنة قضاها في طاعة الله.

درّس في الجامعة.. ودرّس في الأموي عند غياب شيخه.. وكان معلماً عالماً عاملاً.

أيها الصوفيون:

ومن سنة الأولياء الأبرار شيوخ الطرق العارفين أن يذكر سند الطريقة عند وفاتهم.

فسيدنا الشيخ شكري أجيز من سيدي محمد بن الهاشمي (ت ١٣٨١هـ)
١٩٦١م) وهو عن سيدي أحمد بن مصطفى العلاوي المستغاني (ت ١٣٥٣هـ)
١٩٣٤م) وسيدي محمد بن يّلس التّلمساني (ت ١٣٤٦هـ ١٩٢٧م) كلاهما عن
سيدي محمد بن الحبيب البوزيدي المستغاني (١٣٠١هـ ١٩٠٩م) عن سيدي محمد بن
قدور الوكيل (١٣٠١هـ ١٨٨٤م) عن سيدي محمد بن عبد القادر الباشا وأبي يعزى
المهاجي (ت ١٢٧٧هـ ١٨٦٠م) كلاهما عن سيدي العربي الدرقاوي (ت ١٢٣٩هـ)
عن سيدنا علي بن عبد الرحمن العمراني الشهير بالجميل (١١٩٤هـ) عن سيدي
العربي بن أحمد بن عبد الله، عن والده سيدي أحمد بن عبد الله الفاسي، عن سيدي
قاسم الخصاصي، عن سيدي محمد بن عبد الله بن مَعْن الفاسي، عن سيدي عبد
الرحمن بن محمد الفاسي، عن أخيه سيدي يوسف بن محمد الفاسي، عن سيدي عبد
الرحمن المجذوب، عن سيدي علي الصنهاجي الملقب بالدوار، عن سيدي إبراهيم
الفحام الزرهوني، عن سيدي أحمد بن أحمد البرّنسي الفاسي المعروف ب(زرّوق)

(ت ٨٩٩هـ) عن سيدي أحمد بن عقبة الحضرمي (ت ٨٩٥هـ) عن سيدي يحيى بن أحمد القادري، عن سيدي علي بن مُحمَّد بن وفا (ت ٨٠٧هـ) عن والده سيدي مُحمَّد بن وفا المعروف بـ(بحر الصفا) (ت ٧٦٥هـ) عن سيدي داود بن عمر الباخلي (ت ٧٣٢هـ) عن سيدي ابن عطاء الله السكندري (ت ٧٠٩هـ) عن سيدي أبي العباس المرسي (ت ٦٨٥هـ) عن سيدي أبي الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦هـ) رضي الله عنهم، عن سيدنا عبد السلام بن مشيش، عن سيدي عبد الرحمن العطار الزيات المدني، عن سيدي تقي الدين الفُقَيْر، عن سيدي فخر الدين، عن سيدي نور الدين أبي الحسن علي، عن سيدي مُحمَّد تاج الدين، عن سيدي مُحمَّد شمس الدين (بأرض التُّرك)، عن سيدي زين الدين القزويني، عن سيدي أبي إسحاق إبراهيم البصري، عن سيدي أبي القاسم أحمد المرواني، عن سيدي أبي مُحمَّد سعيد، عن سيدي سعد بن عبد الله، عن سيدي مُحمَّد فتح السعود، عن سيدي سعيد الغزواني، عن سيدي أبي مُحمَّد جابر بن عبد الله، عن سيدنا الحسن سبط سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، عن سيدنا علي بن أبي طالب، عن سيدنا ومولانا مُحمَّد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نص إجازته للفقير:

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.
وبعد: فقد شاءت الأقدار الإلهية أن تجمعني مع العالم العلامة والبحر الفهامة، مرشد المريدين وعمدة المسلكين، سيدي عبد العزيز الخطيب في أسعد الأوقات؛ لأطلع على بعض اللمع الوهبية التي استقاها من معين المرشد الكامل سيدي الشيخ عبد الرحمن الشاغوري رحمه الله تعالى، مما لم أجد لدي ربيًّا بأن أرفع إليه هذه الإجازة العطرة مضيًّا في تأدية واجبه السامي، مأذونًا بجميع الأوراد الخاصة والعامة

لطريقتنا الشاذلية الدرقاوية العلوية، وهو جدير بها وأحق بها، والله الموفق للصواب والسلام.

الفقير لله

شكري أحمد اللُّحفي

قولوا: رحمه الله، فهل بايعتم الفقير على المشيخة؟... (قالوا: نعم).
ولئن كانت روضته بجوار السلطان نور الدين زنكي؛ لقد اجتمع سلطانان؛
سلطان المسلمين وسلطان الزاهدين.

اللهم اجعل البركة في أولاده وذريته ومريديه وأتباعه وأحبابه، ﷺ وأرضاه.
سيدي الإمام شكري

﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤].
رحمكم الله، آواكم الله، جبركم الله، ورضي عنكم رضا لا سخط بعده...

خادمكم... محبكم

عبد العزيز مُحَمَّد سهيل الخطيب الحسني

(٧٠٢)

العارف بالله الشيخ عارف عثمان.

- ١٨٧٢ - ١٩٦٥ -

فضيلة المربي الكبير العارف بالله سيدي الشيخ عارف عثمان بن رشيد الباني الحسيني (نسبة لقضيب البان الموصلية) الدمشقي الحنفي مؤسس مجالس الصلاة على النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم بدمشق. كان تاجراً بسوق الخياطين مع الولي الصالح الشيخ محمد نجيب كيوان رحمهما الله ، ولم أفد على ترجمته مفصلة، وهو أحد مشيخة سيدي أحمد الرفاعي الملقب بالحبال رحمهما الله تعالى.

*نشأت (مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم) في الديار الشامية

بقلم: د. محمد شريف الصواف

قال الله تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً)

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: (إن أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم على صلاة). رواه النسائي وابن حبان.

وفضل الصلاة سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وخيراتها، وبركاتها كثيرة لا تحصى.

وقد اشتهرت في الشام (مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم)، وانتشرت في كل مسجد جامع من مساجدها، وهي حسنة من حسناتها التي تباهي

بها غيرها، وبركة من ثمرات دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللهم بارك لنا في شامنا).

ولهذه المجالس قصة عظيمة، ورجال مؤسسون أكابر لا تعرفهم هذه الأجيال، وقد سمعت خبرها وخبر رجالها من سيدي الشيخ هشام البرهاني، وهو سمع ذلك عن والده العارف بالله الشيخ محمد سعيد البرهاني، الذي كان شاهدا على تأسيسها. يقول الشيخ هشام البرهاني رحمه الله:

كان الولي الصالح الشيخ عارف عثمان رحمه الله مجاوراً في المدينة المنورة، وكان دائم الجلوس في مصلى النبي صلى الله عليه وسلم بالروضة المطهرة، فكان يرى شيخاً صالحاً من السودان يدمن المكوث أيضاً في الروضة الشريفة، لكنه كان يغطي رأسه ووجهه بغطاء أبيض، فلفت وجوده الدائم نظر الشيخ عارف عثمان رحمه الله، فقال في نفسه: أتمنى أن أتعرف على هذا الرجل وأقبل يده...

وفي ذات يوم رفع الشيخ السوداني عن رأسه وأقبل على الشيخ عارف وقال له: السلام عليك يا شيخ عارف، وسماه باسمه!!

فرح الشيخ عارف لقدم الشيخ عليه وسلامه عليه، واستغرب كيف ناداه باسمه، فقبل يده واستقبله بحرارة وجلسا متقابلين كل منهما ينظر ويديم النظر في صاحبه..

ثم قال الشيخ السوداني:

يا شيخ عارف حضرة النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤك السلام، وقد حملني أمانة إليك وهي: قل للشيخ عارف عثمان الذي يجلس في محرابنا، وقل له يأمرك رسول الله صلى الله عليه وسلم بالنزول إلى الشام، وعقد مجلس الصلاة عليه بالصيغة التالية: (اللهم صل على سيدنا محمد و آله وسلم)؛ (٩٢٠٠٠) اثنان وتسعون ألف مرة، وستجدون خيرها.

فقال الشيخ عارف: أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم.
وتعانق الشيخان وسط البكاء فرحا واستبشارا، وتعهدا على المضي بهذا
التكليف.

نزل الشيخ عارف رحمه الله إلى دمشق فلقي شيخه الشيخ عطا الله الكسم مفتي
الشام وشيخ الحنفية، وبلغه الأمر من رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتفق معه
على الشروع بذلك..

وهكذا بدأ مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم في يوم الأربعاء
من كل أسبوع في بيت الشيخ عارف في القيصرية.

وكان يحضر مع الشيخين كل من القطب الشيخ عبد الرزاق الطرابلسي،
والشيخ عبد الرحيم أبو الشامات، واقتسموا العدد كل واحد منهم (٢٣ ألفا)، لا
ينشغلون عنه بشيء، وكل منهم يجلس بطرف من أطراف الغرفة.

ثم رأوا أن ينتقلوا إلى جامع (القاري)، وهو مسجد مجاور لبيت الشيخ عارف،
قرب مكتب عنبر،

وانضم إليهم الشيخ عبد اللطيف الدقر صهر الشيخ عارف عثمان، ودعي إلى
المجلس الشيخ محمد سعيد البرهاني رحمه الله..

يقول الشيخ هشام: فكنا نراه يغيب عنا دائما يوم الأربعاء، وكان ذلك على
حساب بعض الدروس التي كان يعقدها في المسجد، فاقترح السيد الوالد عليه رحمة
الله، أن يزيد عدد الحضور بدعوة آخرين إليه، فتم ذلك وكان منهم: الشيخ عارف
الدوجي، والشيخ محمد الهاشمي، والشيخ يحيى الصباغ، والشيخ عبد الوهاب (دبس
وزيت)، والشيخ عبد الوهاب الصلاحي، والشيخ أحمد الحبال الرفاعي ... رحمهم
الله

وصار المجلس ينتقل من بيت إلى بيت، ثم انتقل بعدها إلى دار الحديث، ثم إلى المساجد الصغيرة المجاورة لدور هؤلاء المشايخ، ثم انتشر خبر هذه المجالس وصار يحضرها كبار العلماء، فضلا عن جمهور كبير من العامة.

وتوفي الشيخ عارف عثمان سنة (١٩٦٥م)، وكان قد أوصى أن يخلفه في مشيخة هذه المجالس الشيخ مُحَمَّد سعيد البرهاني، الذي توفي سنة (١٩٦٧م)، ومن بعده الشيخ أحمد الحبال الرفاعي الذي توفي سنة (٢٠٠٩م)، وخلفه الشيخ هشام البرهاني الذي توفي سنة (٢٠١٤م).

بقيت صورة مجالس الصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وكثر الإعلان عنها في المساجد، ولكن غابت أكثر حقائقها؛ غاب رجالها الصالحون، وغابت السكينة والوقار فيها، وغاب أكثر الإخلاص والصدق عند من كان يحضرها.

حدثني سيدي أبو الطيب قويدر رحمه الله -المرافق الخاص لسيدي مُحَمَّد المكي الكتاني- أن ابن أخيه السيد مُحَمَّد المنتصر الكتاني سأله يوما: أين أجد الأبدال من الأولياء الصالحين الذين أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنهم في الشام؟

فأخذ بيده إلى مجلس الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في جامع التوبة، وقال له: إن لم تجدهم هنا فلن تجدهم في مكان آخر.

فيا أهل الشام، اذكروا أهل الفضل الذي أسسوا لهذه المجالس، وأحيوا سنتهم في أحوالهم وأفعالهم، قبل أن تقلدوا صورهم وأشكالهم.

(٧٠٣)

فارس الإسلام
الإمام الشيخ سعد الدين الجباوي الحسني
٤٦٠ - ٥٧٥

الحمد لله الذي استوى على العرش بقدرته، وزاد المؤمنين تواضعاً لعزته، وبسط لهم الأرض من خير عطيته وسخر لهم القلوب بعظمته، وأشهد ان لا إله إلا الله أشهد أن محمداً رسول الله، اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وعترته وسلم تسليماً.

أما بعد:

فحديثنا اليوم عن إمام مجاهد مرابط وقطب رباني من سلالة النبوة الطاهرة بأبي الفتوح القطب سعد الدين من فاق الرجال بفضلته المتوالي هو الشيخ سعد الدين بن الشيخ يونس (٤٥٥ - ٥٤٤) الحسني الشيباني المكي ابن السيد عبد الله المغربي بن السيد يونس بن السيد أبي السعود محمد الطيب بن السيد علي الإدريسي الحسني الشيباني. والشيباني نسبة إلى جده شيبان بن مؤيد الدين الإدريسي الحسني الشيباني دفين تونس.

ابن السيد سعد الدين الشهير بشيبان بن السيد عبد الرحمن المجذوب الأكبر بن السيد علي المحجوب الإدريسي بن السيد عبد الله بن السيد عمر بن مولاي إدريس الأنوار بن مولاي إدريس الأكبر بن مولاي عبد الله المحض (الكامل) بن مولاي الحسن المثنى بن مولاي السبط الشهيد أبي محمد الحسن بن سيدنا ومولانا علي بن أبي طالب.

والعهدة في صحة النسب على من نقله امتدت حياته بين القرنين الخامس والسادس اللذين شهدا أخطر المراحل التاريخية التي مرت على الأمة من ضعف وتسلب وحروب وغزو واحتلال للأراضي المقدسة.

وفي مكة المكرمة كانت الولادة المباركة من أبوين شريفيين عريقين في النسب والعلم خلفاً عن سلف.

نشأ في البقعة المباركة وتلقى علوم الأولى عن الحرم المكي على العلماء المحاورين له.

وجهه والده لحفظ القرآن في سن مبكرة فحفظ القرآن في سن السابعة من عمره، ثم بدأ بحفظ العلوم الشرعية والفقه الشافعي والتصوف حتى ما رآه أحد إلا توسم فيه الرفعة والسيادة والنجابة والورثة المحمدية فكان فارس مكة بحق ثم ساح في البلاد يبتغي آثار العلماء والمزارات في اليمن ومصر وبلاد المغرب وزار بلاد الشام والقدس والعراق ... يدون كل ذلك ويكتبه ... وقد معه ورتبه ولده الشيخ محمد الأنوار في كتابين: رحلاته ومروياته.

وفي المرحلة الثانية من حياته نراه يهاجر مع إخوته من مكة إلى بلاد الشام وجماعة من فرسان مكة بقصد الجهاد في سبيل الله والدفاع عن بلاد الإسلام وكان من إخوته معه الشيخ مؤيد الدين والشيخ عبد الله مزيد والشيخ يونس الأصغر والشيخ محمد سعيد والشيخ أبي الهلال محمد رحمهم الله أجمعين.

وفي الطريق في الجولان خرجت عليهم عصابة من قطاع الطرق فتغلب عليهم فرسان مكة وأخذ الشيخ عليهم العهد على التوبة وأن ينضموا لقافلة المجاهدين ضد الفرنجة.

فكانوا في النهار فرساناً مجاهدين وفي الليل عباداً متهجدين يملهم الشيخ سعد الدين بأخلاق الرجال، حتى قيل أن الشيخ سعد الدين كان لا ينام إلا على صهوة

جواده مستنداً إلى رحمه حتى لا يغدر أحد من أفراد العصابة، حتى جاءه رسول الله ﷺ في منامه وبشره بهداية هؤلاء، وتم ذلك بفضل من الله تعالى.

ونرى الشيخ بعدها يعود إلى مكة ويتلقاه والده ويهنئه بما تفضل عليه رسوله ﷺ وأذن له في الدخول في سلك أهل الوصول ولقنه الذكر وألبسه الخرقة المحمدية، ثم وجهه إلى بلاد الشام فدخل جبا وأقام فيها وأنشأ مسجده ورباطه حتى صارت جبا الشام محط الرجال في طلب العلم والجهاد، وتوزع إخوته في النواحي كل في باط.

وهنا بدأت مرحلة مهمة في حياته في إعداد المريدين وتربيتهم وتدريبهم على الفروسية وفنون القتال وإثارة روح الجهاد بين المسلمين في (جبا) وما حولها واستتابة العرب في تلك المنطقة وضمهم إلى قوة الجهاد ضد الفرنجة.

ومن الغريب والعجيب أن النجم الغزي ينقل في كتابه أعيان المئة العاشرة (١٧٤/١) أن الشيخ سعد الدين الجبائي كان من قطاع الطرق نقلاً عن عامة من ظن ذلك، بينما كان هو يريد أن يضمهم إلى قوة إسلامية وينقلهم من ذل المعصية إلى عز الطاعة، فكانت تلك من أعظم كراماته، ومن أعظمها أنه كان إذا أعطى العهد لأحد أن ينقطع عن الذنوب الكبائر وإذا أراد أن يحدث ذنباً يجد أمامه الشيخ كما هو فيمتنع عن الذنب فلا يقع فيه.

وكان الماء في جبا قليلاً فما أن حطت رحال الشيخ فيها حتى زاد ونما وبارك الله فيه.

وكانت المنطقة التي سكنها الشيخ باردة في جبل الحرمون مغطاة بالثلوج أغلب السنة فأكرمهم الله تعالى بديمومة الحرارة في مضجعه ﷺ.

وكم من مريض ومبتلي جاء يطلب الاستشفاء على يد الشيخ فيعود إلا وقد شفاه الله تعالى ببركة دعاء الشيخ في الخلوات والأسحار، وكم ردَّ غائباً أو مخطوفاً عن أهله بإذن الله تعالى

وقد مدحه أحدهم بقصيدة مطولة كان مطلعها:

لسعد الدين سرٌّ في المظاهر وفي الأقطاب والأكوان باهر
شفي المجنون به حين أتى إليه بأمر الله فضلٌ من طاهر

وهذه القصيدة محفوظة في الزاوية السعدية بحلب.

وكراماته محفوظة فيمن كتب عن الشيخ رحمه الله تعالى، ومن أبرزها طاعة الجن له وتقبيلهم لأعتابه تبركاً به: إذ سأله لبنه مُجَّد عن ذلك فامتنع عن الجواب فأقسم عليه فأراه الجن وهم معتكفون حوله يتبركون به ويقبلون أعتابه.

وقد حدث شيخنا الإمام الفقيه عبد الوكيل الدروبي رحمه الله تعالى أن للشيخ

كتب منها:

- كتاب الفتوح.
- وكتاب الهواتف.
- وكتاب الأخيار.
- وكتاب الوقائع...

ومن كتبه: الورد الكبير، وبقية الأوراد والأدعية المباركة.

لقد كان الشيخ سعد الدين الجبائي أمة وحده.

فرضي الله عنه وأرضاه ورضي عنا وعن أحبائنا جميعاً.

المصادر:

- في السجل للإمام الرواس مُجَدَّ مهدي آل خزام الرفاعي ص ٣٠٠.
- روضة الناظرين وخلاصة مناقب الصالحين: ضياء الدين أحمد العتري الشافعي ت (٩٨٠) .
- إيضاح الكون: اسماعيل باشا ١/٥٩٧.
- المجموعة السنية في الطريقة السعدية على المواهب الدينية: الشيخ علي الحضري السعدي المصري ص ١٦٥.
- الروض البسام: لسيدى الإمام مُجَدَّ أبي الهدى الصيادي ص ٤٨.
- المحمدية في أحوال الفقراء السعدية: الشيخ مُجَدَّ السعدي الحلبي.
- الرسالة المحمدية في الرد عن السادة السعدية: الشيخ مُجَدَّ السعدي.
- النفحة الربانية في الطريقة السعدية: الشيخ أبو الطيب الغزي الدمشقي.
- عرائس المعاني: الشيخ أحمد البريدي. مختصر بحجة الشيخ سعد الدين الجباوي للشيخ شمس الدين مُجَدَّ العمادي.

(٧٠٤)

الإمام إبراهيم بن أدهم

(١٠٠ . ١٦٢ هـ)

الحمد لله الذي أظهر بدائع مصنوعاته على أحسن نظام، وخصّ من بينها من شاء بمزيد الفضل والإنعام ، ووفقه وهداه إلى دين الإسلام ، وأرشده إلى طريق معرفة الحلال وتجنب الحرام.

وأشهد أن لا إله إلا الله لا شريك له ذو الجلال والإكرام.
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المفضل على جميع الأنام.
اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه الغر الكرام، وسلم تسليماً.

أما بعد: فيا معشر السادة الكرام:

ما أكثر القمم الشوامخ التي تغادرنا عبر الزمن دون أن يستفيد منها المسلمون، كالسحب التي تحتاز عبر طبقات الجو دون أن تمطر قطرة على البلاد، ويبقى الله ذكر المخلصين طيباً عبر القرون.

﴿ فَأَمَّا الزُّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ﴾

ونحن اليوم مع إمام قدوة ، وسيد من سادات الأمة ، مع سلطان الزاهدين ، وعلم العارفين الربانيين أصله من بلخ من خراسان ، وسكن الشام ودخل دمشق. كان قبل أن يبلغ شأ الأولياء والصالحين ومقام التحقيق يدعو: اللهم انقلني من ذلّ معصيتك إلى عزّ طاعتك.

نحن اليوم مع رجل من العرب ، كان كبير الشأن في باب الورع ، شعاره في ذلك: أطب طعمتك ولا حرج عليك أن لا تقوم الليل ولا تصوم النهار. صحب أكابر علماء زمانه كسيدنا سفيان الثوري والفضيل بن عياض وشقيق البلخي ، وشهدوا له أنه كان على قدم إبراهيم الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وقال فيه سيدنا بشر الحافي: ما أعرف عالماً إلا وقد أكل بدينه إلا فلان وفلان وإبراهيم بن أدهم.

ومع الحلقة أربعة وخمسين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، أطرق وإياكم باب سيدنا إبراهيم بن أدهم زائرين، وقبل الزيارة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام سيدنا إبراهيم بن أدهم عليه السلام وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان:

كان سيدنا إبراهيم بن أدهم من أبناء الملوك أي الولاة ، وحج والده مع أمه وهي حامل به، وبين أيديهما الخدم والحشم والمراكب ، فولدت أمه إبراهيم بمكة حوالي المئة هجرية، فجعلت تطوف به على الخلق في المسجد الحرام وتقول : ادعوا لأبني أن يجعله الله رجلاً صالحاً.

ونشأ بين أبويه في سعة ورغد عيش ، يرافقه خدم والده أينما حلّ أو ارتحل أو خرج للصيد، وخرج يوماً ليصطاد فرأى ثعلباً أو أرنباً فانطلق ليصطاده فهتف به هاتف (ملك أو ولي أو خاطر): ألهذا خلقت أم بهذا أمرت؟! فاستعاذ بالله من الشيطان ، ثم كرّر ليصطاد فهتف به مرة ثانية وهو على الفرس : والله ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت، ما هذا العبث: ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ (المؤمنون ١١٥). فأخذته رعدة وصحوة وقال: والله ما هذا بشيطان، ونزل عن دابته وصادف راعياً لأبيه فأعطاه فرسه وما معه، وأخذ جبة الراعي ولبسها ثم دخل البادية تائهاً هائماً على وجهه ، ساح مستغفراً متفكيراً يطلب الهداية

من الله مع طلبه المال الحلال ، فمن أرسل الله تعالى إليه في بادية التوبة والمحبة؟

إخوتي في الله:

للإجابة عن هذا السؤال أقترح على حضراتكم أن أنتقل بكم إلى هناك إلى بادية خراسان لأجتمع مع حضراتكم بضيوف سيدنا إبراهيم بن أدهم المكرمين: والعجيب أن الضيف الأول الذي لقيه في الصحراء كان حسن الثياب، طيب الرائحة حسن الوجه، سأله: يا غلام من أين وإلى أين؟ فقال سيدنا إبراهيم: من الدنيا إلى الآخرة فقال له أنت جائع؟ قال: نعم. فقام الشيخ فصلّى ركعتين وسلّم، فإذا عن يمينه طعام وعن شماله ماء، فقال له: كل فأكل وشرب حتى ارتوى، فقال له الشيخ: اعقل وافهم، لا تحزن ولا تستعجل فإن العجلة من الشيطان، وإياك والتمرد على الله، فإن العبد إذا تمرّد على الله أورث الله قلبه الظلمة والضلالة مع حرمان الرزق، ولا يبالي الله تعالى في أي وادٍ هلك، وإن الله عزّ وجلّ إذا أراد بعبد خيراً جعل في قلبه سراجاً يفرّق بين الحق والباطل. ويأغلام إني معلمك اسم الله الأعظم فإذا أنت جعت فادع الله عزّ وجلّ به حتى يشبعك، وإذا عطشت فادع الله عزّ وجلّ به حتى يرويك، ثم قال الشيخ: اللهم احجني عنه واحجبه عني، فاختنفني الشيخ بلحظة.

معشر السادة:

ومضى سيدنا إبراهيم بن أدهم وهو يذكر اسم الله الأعظم فلقبه رجل آخر طيب الرائحة حسن الثياب فأخذ بمقعد إزاره وقال له: ما حاجتك ومن لقيت في سفرك هذا؟ قال: لقيت شيخاً صفته كذا وكذا فبكى الرجل، فقال سيدنا إبراهيم: أقسمت عليك بالله من ذلك الشيخ؟ فقال الرجل: ذلك النبي إلياس عليه السلام أرسله الله تعالى ليعلّمك دينك ويعلمك الاسم الأعظم، فلا تدع على أحد فيهلكه الله في

الدنيا والآخرة، واعبد ربك على تحقيق المشاهدة والمراقبة، واعلم أنه أقرب إليك من حبل الوريد، فقال سيدنا إبراهيم: وأنت يرحمك الله من أنت؟ فقال: أنا الخضر.

أيها الإخوة الكرام:

وهنا بدأت مرحلة المجاهدة للإمام ، فصار يتحرى الورع، ويهيم على وجهه يطلب الحلال، حتى إنه يطوي الأيام الثلاثة ولا يأكل إلا في الرابع، فقيل له: اترك خراسان وانتقل إلى الشام فإن فيه الحلال.

وهكذا شرف الله تعالى بسيدنا إبراهيم البلاد، جاء إليها ليعمل بكد يمينه وعرق جبينه، فعمل حمّالاً، وعمل حصّاداً ، وعمل ناطوراً ، والتقى بعلماء عصره حتى التقى بالإمام الأوزاعي وقال له: يا أبا إسحق إن إخوانك يكفونك ، فكان يقول: دعوني فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة. وكان إذا حصد ارتجز وقال:

اتخذ الله صاحبا ودّع الناس جانبا

وكان يردد: ما نُبِّلَ عندنا من نُبِّلَ بالجهاد ولا بالحج بل كان بِعُقْلٍ ما يدخل بطنه.

وكان يعلم أصحابه ويقول: الزهد منه ما هو فرض ومنه ما هو فضل: الزهد الفرض ما كان في الحرام (الزهد في الحرام فرض) والزهد الفضل ما كان في الحلال، وهناك زهد سلامة وهو الزهد في الشبهات.

وزهده في الدنيا جعله يلبس الثياب القليلة ويصوم في الحضر والسفر ولا ينام الليل وهو يتفكر، وفي إحدى الليالي أمسى مع أصحابه لا يجدون ما يفتروا عليه عند المغرب، فقال لأصحابه يعزّيهم: ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين من النعيم والراحة لا يسألهم يوم القيامة عن زكاة ولا حج ولا صدقة ولا صلة رحم، لا تغتموا فرزق الله سيأتيكم، نحن والله الملوك الأغنياء تعجلنا الراحة لا نبالي على أي حال

كنا إذا أطعنا الله تعالى. قوموا بنا إلى الصلاة، فما أن أتموا صلاتهم حتى أرسل الله إليهم رجلاً مع الخبز والتمر وضعه أمامهم. هذا صدق التوكل على الله.

والأعجب من هذا الموقف أن أصحابه ذكروا عنه أنهم لما قرروا الحج بقوا أياماً في الطريق إلى مكة لم يجدوا طعاماً حتى دخلوا الكوفة فأووا إلى مسجد خرب، فنظر سيدنا إبراهيم إلى من معه وقال له: أرى بك الجوع قد بلغ مبلغه، فقال له: هو ما رأى الشيخ، فقال إلي بدواة وقرطاس فكتب:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أنت المقصود إليه بكلّ حال	والمشار إليه بكلّ معنى
أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر	أنا جائع أنا خانع أنا عاري
هي ستة فأنا الضمين لنصفها	فكن الضمين لنصفها يا باري
مدحي لغيرك وهم نار خضتها	فأجر فديتك من دخول النار

ثم دفع بالرقعة إلى صاحبه وقال: اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله وادفع الرقعة إلى أول من يلقاك، فخرج صاحبه (حذيفة المرعشي) فأول من لقيه على بغلة دفعها إليه ، فأخذها الرجل وبكى وقال: ما فعل صاحب هذه الرقعة؟ فقلت: هو في المسجد الفلاني، فدفع إليه صرة فيها ستمئة دينار ثم لقي رجلاً آخر فقال له: من صاحب هذه البغلة؟ فقال نصراني. فجاء إلى إبراهيم فأخبره بالقصة، فقال: لا تمسها فإنه يجيء الساعة فلما كان بعد ساعة جاء النصراني وأكب على رأس إبراهيم ابن آدم وأسلم لساعته.

هذه أول كرامة على الطريق إلى مكة، وكان في أثناء الطريق يحذّر أصحابه أن لا يكونوا متواضعين عابدين فإن الحج عبودية لله تعالى ، وكان من قوله لصاحبه: (اعلم أنك لا تنال درجة الصالحين حتى تجوز ست عقبات: أولها: أن تغلق باب العز وتفتح باب الذل.

ثانيها: أن تغلق باب الراحة وتفتح باب الجهد.

ثالثها: أن تغلق باب النوم وتفتح باب السهر.

رابعها: أن تغلق باب الغنى وتفتح باب الفقر (تنفق في سبيل الله).

خامسها: أن تغلق باب النعمة وتفتح باب الشدة.

سادسها: أن تغلق باب الأمل وتفتح باب الاستعداد للموت.

وما أن وصلوا إلى بادية الشام وتوسطوها حتى ظهر لهم أسد هصور فقيل لسيدنا ابن آدم: هذا السبع قد ظهر لنا، فقال: لهم: أرونيه فناده: يا قَسُورَة: إن كنت أُمُرت فينا بشيء فامض لما أُمُرت به، وإلا فعد من حيث أتيت، قال: فولى السبع هارباً بإذن الله تعالى.

وما أن وصلوا إلى بيروت وركبوا في السفينة وتوسطوا البحر حتى هاجت وماجت واضطربت من شدة الرياح فقال له صاحبه: يا أبا إسحق: ما ترى؟ ففتح كفيه وقال: يا حي حيث لا حي، ويا حي قبل كل حي، ويا حي يا قيوم يا محسن يا مجمل قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك .
فهدأت السفينة بإذن الله.

ونزلوا في جدة وساروا إلى مكة، وبينما هو يطوف إذ رآه صاحبه ينظر إلى غلام قد افتتن الناس به لحسنه وجماله، وحوله الخدم فجعل سيدنا إبراهيم يديم النظر إليه فقال له صاحبه: أراك تديم النظر إلى هذا الغلام! فقال: هذا ولدي وابني وهؤلاء غلماني وخدمي حوله، ولولا شيء لقبّلتَه، ولكن انطلق فسلم عليه مني وعانقه عني. فقال: فمضيت إليه وسلمت عليه من والده وعانقته فإذا بالولد يسرع إلى أبيه ويضمه إلى صدره وتنهمر دموع الحب بين الوالد وولده، ثم صرفه مع خدمه وسمع الإمام وهو يقول:

وأيتمت العيال لكي أراكا
لما حنّ الفؤاد إلى سواكا

هجرت الخلق طراً في هواكا
ولو قطعني في الحب إرباً

أيها الأحبة والصحب:

وما أن توجه الإمام إلى الصفا ووقف أمام جبل أبي قبيس المطل على الصفا حتى سأله صاحبه قبل السعي سؤالاً وقال له: إلى أي مدى تبلغ كرامة المؤمن عند الله؟ فقال: لو أن مؤمناً مستكمل الإيمان يهزّ الجبل لتحرك، فإذا بجبل أبي قبيس يتحرك، فقال له الإمام إبراهيم: اسكن ليس إياك عنيت. ثم التفت إلى صاحبه وقال: على المؤمن (لكي تكون له الكرامات) ألا يكون ذليلاً إلا لله، كل من ذلّ لغير الله فهو والكلب سواء، وكل عالم لا يكون تقيّاً فهو والذئب سواء، وكل ملك لا يكون عادلاً فهو واللص سواء .

وذهل أصحاب الإمام من قوة حكمة الإمام فقد كانت هذه الحجة حجة الحكم والكرامات ، وكأن الله تعالى جعله يلتقي بولده ليودّعه الوداع الأخير. فقد عاد سيدنا إبراهيم بن أدهم إلى هنا، إلى دمشق الغوطة ليعمل حارساً في بستان، وقد علا الشيب رأسه وقارب المسير إلى الله، وكانت وصيته الجامعة الفريدة التي أوصى بها أصحابه تنم عن خبرته الطويلة في الحياة، ولا بأس في ختام هذا المقام أن أوردتها على حضراتكم إن سمحتم، قال لشقيق البلخي: عليك بالناس، وإياك من الناس، ولا بد من الناس ، فإن الناس هم الناس ، وليس الناس بالناس، ذهب الناس وبقي الناس، وما أرهم بالناس وإنما غمسوا في ماء الناس. وصار من حوله ينظرون إلى الشيخ الإمام كأنه لم يفهم هذه المتناقضات، فقالوا فسّرنا لنا يا إمام، فقال:

أما قولي عليك بالناس: أي مجالسة العلماء.

وأما قولي إياك من الناس: أي مجالسة السفهاء.

وأما قولي لا بد من الناس: أي في الصلوات الخمس والجمعة والحج والجهاد
واتباع الجنائز والشراء والبيع ونحوه.

وأما قولي الناس هم الناس: أي فالفقهاء والحكماء.

وأما قولي فليس الناس بالناس: فأهل البدع والأهواء.

وأما قولي ذهب الناس: أي ذهب سيدنا النبي وأصحابه.

وأما قولي بقي الناس: يعني من جاء بعدهم ممن روى عنهم.

وأما قولي وما أراهم بالناس إنما غمسوا في ماء الناس: فنحن وأمثالنا.

أيها الإخوة: كانت هذه هي وصية الإمام التي وصّى بها قبل أن تفيض روح

الإمام إلى بارئها بعد اثنتين وستين سنة عاشها زاهداً عابداً ورعاً تقياً.

أتدرون أين قبر الإمام اليوم إنه في بلدتكم دمشق على مسافة عشرة كيلومترات،

إنه في منطقة مرج السلطان التي سمّيت على اسمه ، والحقيقة أن القبر هناك هو قبره

وليس قبر سيدنا أبي يزيد البسطامي سلطان العارفين ، بل قبر سلطان الزاهدين ،

فإلى هناك زوروا هذا القبر وتوسلوا به إلى الله لعلَّ الله أن يفرّج عنا هنا، وما أدراك ما

هنا، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه وتحيّتنا إليك

يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .



• الرسالة القشيرية ٨

شرح الرسالة للأنصاري ١/٧٠

الموسوعة الصوفية للخفي

صفة الصفوة

طبقات الصوفية للسلمي ١٥

(٧٠٥)

الإمام الربيع بن خثيم

توفي ٦٥ هـ

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، والفضل والطول والمنن الجسام، الذي هدانا للإسلام وأسبغ علينا جزيل نعمه وأطافه العظام، وأفاض علينا من خزائن ملكه أنواعاً من الإنعام، وكرمّ الأدميين وفضّلهم على غيرهم من الأنام، وجعل فيهم قادة يدعون بأمره إلى دار السلام، واجتبي من لطف به منهم فجعلهم من الأمثال والأعلام، وطهّره من الكدر ووضر الآثام، وصيّره بفضلهم من أولي النهى والأحلام، ووفقههم لإدامة مراقبته ولزوم طاعته على تكرّر السنين والأيام. أحمدّه أبلغ حمد وأكملّه، وأزكاه وأشمله.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له الكريم الغفار.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله المصطفى المختار، أنعم عليه وأفضل وأعطاه ما لم يعطي أحداً وأجزل، وجعله شريف النسب عظيم المقدار، فمن شرفه المعجزات الظاهرات كانشقاق القمر وتسليم الحجر والشجر وغير ذلك من الآيات والعبر، وبجاهه غفر الله تعالى لأبينا أبي البشر

عذراً رسول الله إن قصرت	في مدحي فإنّ جمالكم لن يوصفا
جاءت قديماً ذرة من نوركم	قد جمّل الرحمن منها يوسف
والله لو ماء البحار بجمعها	كان المداد ملوح أحمد ما وفا
يكفيه لقيا في السموات العلا	وبحضرة المولى الكريم تشرفا
يكفيه أنّ البدر يكسف نوره	لكنّ نور محمد لن يكسفا

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا مُحَمَّد وعلى جميع الأنبياء والملائكة وآل كل وأتباعهم الكرام، صلوات متضاعفات دائمات بلا انفصام، وسلّم تسليماً كثيراً.

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

لا يمكن لأحد أن يعرف قدر النبي ﷺ حتى يعرف قدر الصحابة الكرام، ولا يعرف قدر الصحابة إلا بمعرفة تلك الطبقة التي تخرجت بهم، ولن نعرف قدر التابعين حتى نعرف قدر الأئمة الذين تخرجوا بهم، هؤلاء الذين تربوا على هذه الموائد الشريفة النظيفة.

حقيقة - أيها السادة - لن نعرف عظمة سيدنا رسول الله حتى نعرف هؤلاء الأبطال الذين تخرجوا من جامعته. ونحن اليوم مع أحد هؤلاء الأئمة الأعلام، إمام عابد قدوة، أدرك زمن سيدنا النبي وأرسل عنه، قالت عنه كتب التراجم: انتهى الزهد إلى ثمانية من التابعين أحدهم علمنا اليوم.

علمنا اليوم كان يعد من عقلاء الرجال، لم يُسمع منه كلمة تُعاب عليه على مدار عمره كله، قال عنه تلاميذه: كان من أروع أصحاب سيدنا عبد الله بن مسعود. نحن اليوم نزور سيداً وعلماً من التابعين، هو سيدنا الربيع بن خُثيم. ومع الحلقة ثمانية وثلاثين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام الربيع:

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه.

إخوة الإيمان: نشأ إمامنا منذ نعومة أظفاره في طاعة الله، وفطم نفسه منذ حدثتها على تقواه، تصحو أمه من الليل فتجد ابنها اليافع ما يزال صافاً قدميه في محرابه ، ساجداً في مناجاته ، مستغرقاً في صلاته ، كأنه يستعد لامتحان حسابه، فتناديه: يا ربيع ألا تنام؟ فيقول: كيف يستطيع النوم من جن عليه الليل وهو يخشى الآخرة، إن جهنم لا تدعني أنام، ويسجد سيدنا ربيع فإذا هو في سجوده كتب مطروح فتجيء العاصفير فتقع عليه وهو مستغرق في مناجاة مولاه ﷺ .

إن عظمة هؤلاء الرجال أنهم كانوا ينفذون كل ما تعلموه من صاحب الرسالة، ويجعلونه وظيفتهم اليومية، سَمِعَ من سيدنا أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن النبي الكريم صلوات ربي وسلاماته عليه قال: «أعجز أحدكم أن يقرأ ليلته بثلاث القرآن؟» يقول الصحابة الكرام: فأشفقنا أن يأمرنا بأمر نعجز عنه فسكتنا، فقالها ثلاث مرات ثم قال: **«لأن يقرأ ثلث القرآن فإنه من قرأ قل هو الله أحد فقد قرأ ليلته بثلاث القرآن»** فكان إمامنا يحب هذه السورة ويقرأها ثلاث مرات، فكأنه قرأ القرآن كله، صلّوا على من علّمنا.

إخوتي في الله: لما شبّ الربيع ونما شبّ ورعه معه ونمت بنموه خشيته من الله تعالى، وربما مرّ بالآية في ليله الطويل وهو يردد آية واحدة من آيات الله تعالى، وقف مرّة يصلي بالليل فوصل إلى قوله تعالى: **«أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون»** (الجاثية ٢١)، فوقعت الخشية في قلبه فما زال يكررها وهو يبكي بكاءً شديداً حتى تبل لحيته من دموعه، وتراه أمه لشدة ما يلقي من البكاء والقيام فتناديه: يا بني لعلك قتلت قتيلاً؟ فقال: نعم يا أماه قتلت قتيلاً، فتقول: ومن هذا القتل يا بني نتحمّل على أهلنا فيعفوك، والله لو علموا ما تلقى من البكاء والسهر لرحموك، فيقول: يا أماه قتلت نفسي بالذنوب، إلهي أشكو إليك حاجة لا يحسن بثها إلا إليك.

وبلغ من شدة خوفه من الله أن حفر في غرفته قبراً فكان كل ليلة يتمدد فيه ويقرأ قوله تعالى: **«رب أرجعون لعلّي أعمل صالحاً فيما تركت»** ثم يقوم من قبره ويقول: يا ربيع قد أرجعت فانظر ماذا تعمل؟!

هل سمعتم بمثل هذا المنهج؟ وما أن يصبح بعد ليل العبادة حتى يقول لملائكة الفجر: مرحباً بملائكة الله اكتبوا **بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر. وبعد هذا الخير الذي ساقه الله إليه يلتقيه أصحابه فيسألونه:

كيف أصبحت؟ فيقول: أصبحنا ضعفاء مذنبين نأكل أرزاقنا ونتنظر آجالنا، فإذا ما دُعي إلى مجالسة الناس يقول: أخاف أن أغض بصري، أخاف أن لا أردّ السلام، هكذا كانت حياة الإمام مليئة بالأخلاق والورع والفضيلة، ماتكلم بكلمة إلا بخير، قال عنه معاصروه: ما تكلم في عمره كله بكلمة تعاب، بل بكلمة يصعد ثوبها إلى الملاء الأعلى.

أيها الأعبة والصحب: وقبض الله للإمام سيدين جليلين كريمين قاما على تربيته وتعليمه، كان لهما أشد التأثير في حياته هما: سيدنا عبد الله بن مسعود وسيدنا أبو أيوب الأنصاري، وكان أكثر تعلقه بسيدنا ابن مسعود الذي قيل فيه: إنه كان أقرب الصحابة هدياً وسمتاً بسيدنا محمد ﷺ. فمدرسته كانت من الفقه والعلم والحلم والجرأة بالحق بمكان كادت أن تصل إلى مكانة الصحابة الكرام، حتى قال فيه الإمام الشعبي: (ما رأيت أقوماً قط أكثر علماً ولا أعظم حلماً ولا أكف عن الدنيا من أصحاب ابن مسعود ولولا ما سبقهم به الصحابة ما قدمنا عليهم أحداً)

معشر السادة الكرام: تعلق سيدنا الربيع أكثر ما تعلق بسيدنا عبد الله بن مسعود، تعلق بأستاذه تعلق الوليد بأمه، وأحب الأستاذ تلميذه حب الأب لوحيدة، فكان يدخل عليه من غير إذن دون أن ينظر يميناً أو شمالاً حتى حسبته جارية ابن مسعود ضريباً، فيسأل ابن مسعود: من القادم؟ فتقول له الجارية: ذاك الشيخ الأعمى. فإذا ما جلس التلميذ مع معلمه الأول لم يؤذن لأحد بالدخول عليهما حتى يخرج الإمام الربيع (جلسة مغلقة خاصة بسيدنا الربيع)، ومن شدة ما آتى الله من فضل وذكاء وفهم وعلم لسيدنا الربيع، يقول سيدنا ابن مسعود للربيع: يا أبا يزيد لو رآك رسول الله لأحبك، وما رأيتك إلا ذكرت المختبتين (علم وتواضع)، وبعض الناس اليوم ما أوتوا عشر ما أوتي سيدنا الربيع وتراه يظن من حوله أنهم جهلة (نعوذ بالله من التكبر وشوفة الحال).

فكيف بلغ هؤلاء ما بلغوا من المكانة والمجد؟ بلغوه بشيء واحد اتخذوه شعارهم ودينهم ألا وهو الإخلاص، كان شعار إمامنا في حياته أن كل ما لا يراى به وجه الله يضمحل، كان عمله كله سرّاً، ذكره سرّاً، صدقته سرّاً، قيامه بالليل سرّاً، تراه إذا دخل عليه داخل وفي حجره القرآن غطاه بثوبه خوفاً من الرياء، حتى كان أصحابه يجزمون أن لا أحد في عصره خير من الإمام الربيع، قال له مرة تلميذه (ابن الكواء): دلني على من هو خير منك، قال: نعم، من كان منطقته ذكراً، وصمته تفكراً، ومسيره تدبراً، فهو خير مني.

كان فلتة زمانه، لا يكاد يذكر شيئاً من الدنيا، وإذا جاءته زهد فيها رجاء الآخرة، ولأدلل على هذه القضية بالذات أدعوكم جميعاً لننتقل إلى هناك، إلى دار الربيع في كوفة العراق فرّج الله عن أهلها، دار متواضعة على السّنة، قال لزوجته: أشتهي لحم دجاج منذ أربعين يوماً فكففت نفسي رجاء أن تكف فأبت، قالت له امرأته الصالحة: سبحان الله وأي شيء هذا حتى تكف نفسك عنه قد أحله الله لك، يقول الراوي بإسادة ياكرام: فأرسلت امرأته إلى السوق فاشتريت دجاجة بدرهم فذبحتها وشوتها واختبرت له خبزاً ثم جاءت بالخوان حتى وضعت بين يديه، فلما ذهب ليأكل قام سائل على الباب: (تصدّقوا عليّ بارك الله فيكم) فكفّ الإمام الربيع عن الأكل وقال لامرأته: خذي هذا فلفيه وادفعيه إلى السائل. فتعجبت الزوجة الصالحة، فقال: افعلي ما أمرك به، قالت: فأنا أصنع ما هو خير له وأحب إليه من هذا قال: وما هو؟ قالت: نعطيته ثمن هذا وتأكل أنت بشهوتك. قال: قد أحسنت اثيني بثمرته، فجاءت به، فأخذه هو والدجاجة والخبز ودفعه إلى السائل جميعاً.

هل سمعت مثل هذا الزهد؟ كان يجب أن تكون صدقته كبيرة يراها في ميزان حسناته يوم القيامة، إذا أعطى السائل يعطيه رغباً كاملاً ويقول: إني لأستحي أن يُرى في ميزاني أقل من رغب. سرق له مرة فرس أعطي به عشرين ألفاً فقالوا:

ادعو الله على السارق فقال: اللهم إن كان غنياً فاغفر له، وإن كان فقيراً فأغنه .
هذا كله ينم عن صوفية الإمام وصفاء قلبه ونفسه، فأراد الله تعالى أن يكافئه
عند وفاته، أراد أن يعطيه مرتبة الشهادة دون جهاد ولا قتال فأصابه بالفالج ، ومع
الفالج النصفي الذي أصابه كان لا يترك صلاة الجماعة في المسجد فكاد يُقَاد إلى
الصلاة يتهدى بين اثنين صابراً محتسباً، يقول له أصحابه: قد رُحِّص لك، فيقول:
إني أسمع حيّ على الصلاة، فمن سمع منكم فليجبه ولو زحفاً ، ولو حبواً. قيل له:
ألا تداوى؟ فقال: قد مرض من سبقني وتداؤوا فما بقي المداوى ولا المداوي، وأنا
بحاجة إلى دواء آخر، أتدرون ما الدواء وما الدواء وما الشفاء؟ قالوا: لا، قال: الدواء
الذنوب، والدواء الاستغفار، والشفاء أن تتوب ولا تعود.

أيها الإخوة الكرام: بقي إمامنا مريضاً بالفالج حتى وفاته سنة خمس وستين
للهجرة، وحين حضرته الوفاة راحت ابنته تبكي، فقال لها: يا بنية لم تبكين قولي يا
بشرابي أتى الخير، ما غائب ينتظره المؤمن خير من الموت، (غداً نلقى الأحبة مُحمّداً
وصحبه) فمن أراد أن يلقاهم هناك فليبق معنا هنا، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة
سيدنا مُحمّد ﷺ، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى الحبيب الأعظم، وتحيتنا إليك
يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك .



• صفة الصفوة ٤٠/٣ . صور من حياة التابعين ٥٢ . سير أعلام النبلاء ٤ / ٢٥٨ . البداية
والنهاية ٨ / ٢١٧ . تهذيب التهذيب ٢٤٢/٣ . حلية الأولياء ١٠٥/٢

(٧٠٦)

الإمام حاتم الأصم

(ت ٢٣٧ هـ)

الحمد لله المتفرد باسمه الأسمى المختص بالعزّ الأحمى، الذي ليس دونه منتهى ولا وراءه مرمى .

الظاهر لا تخيلاً ولا وهماً، الباطن تقدساً لا عدماً، وسع كل شيء رحمة وعلماً، وأسبغ على أوليائه حكماً ونعماً جما .

وأشهد أنّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، بعث في الناس رسولاً من أنفسهم وأنفسهم عرباً وعجماً، وأزكاهم محمداً وكرماً .

وأشهد أنّ سيدنا محمداً عبده ورسوله، أرجح الناس عقلاً وحلماً ، وأوفرهم علماً وفهماً، وأقواهم يقيناً وعزماً، وأشدّهم رأفة ورَحْماً، وزكاه مولانا روحاً وجسماً، وحاشاه عيباً ووصماً، وآتاه حكمة وحُكماً، وآتاه أتباعاً وحكماً، فتح الله بهم أعيناً عمياً وقلوباً غُلْفاً وأذاناً صمّاً، آمنوا به وعزّروه ونصروه فجعل الله لهم في مغنم السعادة قسماً، وأما من كذّب به وصدّف عن آياته فقد كتب الله عليه الشقاء حتماً ، ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى .

أضحى على المولى الكريم كريماً صلّوا عليه وسلّموا تسليماً .

اللهم صلّ وسلّم وبارك على سيدنا محمداً وعلى آله وأصحابه وعترته وأنصاره صلاة تنمو وتنما ، وسلّم تسليماً .

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام:

عظمة الأمة الإسلامية أنها خرّجت أبطالاً من مدرسة سيدنا محمداً ﷺ، وهذا فضل الله تعالى على هذه الأمة، إذ أنه أعطاها ما أعطى الأنبياء السابقين، ومما

أعطى الله الأنبياء السابقين سيدنا لقمان الحكيم الذي نقرأ عنه في القرآن ، وسمى الله سورة كاملة باسمه (لقمان) فقد كان تلميذاً لألف نبي. كنت خلال أسابيع مضت أنظر إذا كان الله تعالى أعطى نبينا كل المعجزات التي أعطاها الله للأنبياء قبله ، فمن هو لقمان الحكيم الذي أكرم الله به هذه الأمة المحمدية؟ بقيت أبحث بين أبطال الرجال أسابيع عن هذه الشخصية الحكيمة حتى جئتمكم بها تزوركم أو تزور أخبارها بينكم.

شخصية نبع كلامها من بحار الأنبياء، أستطيع أن أقول أن إمامنا اليوم رائعة القراء والمحدثين، قدرة ربانية لا تنطق إلا بالحكمة، ولولا أننا علمنا أنه من علماء القرن الثاني الهجري لقلت : إن كلامه كلام نبي يوحى إليه، نحن اليوم مع شخصية إذا سمعتها حسبتها أن ملكاً يلقتها ما تقول. نحن مع رجل إن جلست إليه وتكلم معك قلت: إن روحه تحول في ملكوت الله لتعود إليك بطرائف الحكمة.

تلكم هي شخصية لقمان هذه الأمة، سيدنا أبي عبد الرحمن حاتم الأصم بن عنوان البلخي من خراسان، ومع الحلقة ثمانية وستين بعد المئة من سلسلة أعلام الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام حاتم الأصم :

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان:

سمي إمامنا بالأصم لأنه أصم أذنيه عن شيء ينبغي للعبد أن يتصامم عنه ، فقد أتته امرأة تسأله عن مسألة فخرج منها صوت ريح فخرجت نفسها فقال لها الإمام: ارفعي صوتك، وأراها من نفسه أنه أصم ، فدخل السرور قلب المرأة، قالوا: فلقلب بالأصم لعظيم أدبه وحسن تصرفه، فلم تكن السنين الثلاثين التي صحب فيها شيخه سيدنا شقيق بن إبراهيم البلخي سيد أهل زمانه وشيخ شيوخ خراسان، وسيدنا شقيق هذا صحب الطبقة الأولى وكان تلميذاً لسيدنا إبراهيم

بن أدهم، إذا نحن مع سلسلة الذهب في التصوّف (عدّوا على أصابعكم):

١. سيدنا حاتم الأصم تلميذ سيدنا شقيق أول من تكلم بعلم الحقائق والأحوال.

٢. وشيخه سيدنا إبراهيم بن أدهم.

٣. وشيخ إبراهيم بن أدهم سيدنا سعيد بن جبير.

٤. وشيخ سيدنا سعيد سيدنا ابن عباس.

٥. وسيدهم جميعاً سيدنا مُحَمَّد ﷺ.

فلم تر عيناك - يا أخي المسلم - ولن تسمع بمثل هذا الإمام ، فلا عجب أن يكون حكيم الأمة لأنه ورث الحكمة كابراً عن كابر ، وسيداً عن سيد ، وحكيماً عن حكيم.

فأريدكم اليوم أن تفتحوا أعينكم وتصغوا بأسماع قلوبهم إلى الكرامة العظيمة التي آتاها هذا الإمام (عليه السلام)، اليوم كل واحد مطالب أن يعود إلى البيت ويدوّن جواب سؤال أسأله لكم، أنت تحضرون خطبة الجمعة هنا منذ اثنتي عشرة سنة، ماذا استفدتم من هذا الحضور؟ سألتكم هذا السؤال كما سأل سيدنا شقيق البلخي تلميذه سيدنا حاتماً، قال له: يا حاتم صحبتني ثلاثين سنة فأي شيء تعلّمت مني؟ فقال سيدنا حاتم: تعلّمت ست كلمات (احفظوا هذه الوصايا الستة) :

١- رأيت الناس في شك من أمر الرزق فتوكلت على الله.

٢- ورأيت لكل رجل صديقاً يفشي إليه سرّه ويشكو إليه فصادقت الخير ليكون معي في الحساب ويجوز معي الصراط.

٣- ورأيت كلّ واحد له عدو، فمن اغتابني فليس بعدوي ، ومن أخذ مني شيئاً ليس بعدوّ، بل عدوي من إذا كنت في طاعة أمرني بمعصية الله ، وذلك إبليس وجنوده فاتخذتهم عدوّاً وحاربتهم.

٤- ورأيت الناس كلهم لهم طالب وهو ملك الموت، ففرغتُ له نفسي.

٥- ونظرت في الخلق فأحببت ذا وأبغضت ذا، فالذي أحببته لم يعطني، والذي أبغضته لم يأخذ مني شيئاً، فقلت: من أين أُتيت؟ فإذا هو من الحسد فطرحته وأحببت الكل، فكل شيء لم أرضه لنفسي لم أرضه لهم.

٦- ورأيت الناس كلهم لهم بيت ومأوى، ورأيت مأواي القبر، فكل شيء قدرت عليه من الخير قدّمته لنفسي لأعمر قبري.

وهنا قال سيدنا شقيق: عرفت فالزم (عليك بهذه الخصال).

إخوتي في الله: هذه منهجية الإمام حاتم التي انتهجها في حياته كلها، وإنكم ستعجبون أشد العجب حينما تعلمون مدى التوفيق الذي آتاه الله هذا الإمام، ويشهد بذلك سيدنا الإمام أحمد بن حنبل الذي قدم إلى الإمام حاتم ليسأله مسألة، ولحضور هذا الاجتماع الهام أرى لزاماً علينا أن أتقل بكم إلى هناك، إلى العراق فرّج الله عنها.

ها هو الإمام أحمد يوجّه سؤاله إليه فاسمعوه:

قال: كيف التخلّص من الناس؟

فقال الإمام حاتم: أن تعطيهم مالك ولا تأخذ من مالهم، وتقضي حقوقهم ولا تستقصي أحداً حقاً، وتحتمل مكروهمهم، وتكرههم على شيء، وليتك تسلم.

ويبدو أن شخصاً كان يعاني من قلة الخشوع في الصلاة، فاغتنمها فرصة وسأل

الإمام فقال: يا سيدي كيف تصلّي؟

فقال سيدنا حاتم: أقوم بالأمر وأمشي بالسكينة، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل، وأركع بالخشوع وأسجد بالتواضع، وأسلم بالسنة، وأسلمها بإخلاص إلى الله عزّ وجلّ، وأخاف (بعد كل هذه الاحتياطات للخشوع) أخاف

ألا تقبل مني. فمن منا يصلّي مثل سيدنا حاتم؟!

أيها الأجابة والصحب: لا شك أنكم أصبحتم متشوقين لحضور مجلس سيدنا حاتم الحكيم لتلقّي درر الفوائد، ينظمها لنا تقوى هذا الإمام وحاله مع الله تعالى وبقينه به، ها نحن ندخل على الإمام في مجلسه رضى الله عنه، يقول لأصحابه:

- من أصبح وهو مستقيم في أربعة أشياء فهو يتقلّب في رضى الله، أولها: الثقة بالله، ثم التوكل ثم الإخلاص، ثم المعرفة، والأشياء كلها تتم بالمعرفة.

- وأصل الطاعة ثلاثة أشياء: الخوف والرجاء والحب.

- وأصل المعصية ثلاثة أشياء: الكبر والحرص والحسد.

- عجبت لمن يعمل بالطاعات ويقول إني أعملها ابتغاء مرضاة الله ثم تراه أبداً ساخطاً على الله رادّاً لحكمه، أتريد أن ترضيه ولست براضٍ عنه، كيف يرضى عنك وأنت لم ترض عنه.

- أربعة يندمون: أربعة يندمون على أربعة: المقصّر إذا فاته العمل، والمنقطع عن أصدقائه إذا نابته نائبة، والممكن منه عدوّه بسوء رأيه، والجريء على الذنوب.

(فكن مجتهداً مجاهداً)، والجهاد ثلاثة: جهاد في سرّك مع الشيطان حتى تكسره، وجهاد في العلانية في أداء الفرائض حتى تؤدّيها كما أمر الله، وجهاد مع أعداء الله في غزو الإسلام.

الزّرم خدمة مولاك تأتلك الدنيا راغمة والجنّة عاشقة، من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب:

- ١- من ادعى حب الله من غير ورع عن محارمه فهو كذاب.
 - ٢- من ادعى حبّ الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب.
 - ٣- من ادعى حبّ النبي ﷺ من غير محبة الفقر فهو كذاب.
 - ٤- إذا كنت تريد أن تعصي مولاك فاعصه في موضع لا يراك.
- هذا غيض من فيض من الحكمة التي آتاها الله لهذا الإمام، وقبل وفاته سنة ٢٣٧ هـ وقف موقفاً عظيماً أسرني، موقفاً أثبت فيه لنا الإمام أنه ذو يقين بالله

ثابت، أستمحكم أن أعرضه على حضراتكم في ختام زيارتنا للإمام، فقد دعا داعي الجهاد فخرج الإمام مع أصحابه لمقاتلة أعداء الله، أترك سيدنا حاتم يروي لنا المشهد (فترضوا عنه) يقول: لقينا الترك وكان بيننا جولة، فرماني تركي بوهق فقلبني عن فرسي ، ونزل عن دابته فقعده على صدري وأخذ بلحيتي هذه الوافرة ، وأخرج من خقه سكيناً ليدبحني، فوحق سيدي ربي ما كان قلبي عند التركي ولا عن سكينه، إنما كان قلبي عند سيدي ربي ، فقلت: يا رب قضيت علي أن يذبحني هذا فعلى الرأس والعين .

إنما أنا لك وملكك. فبينما أنا أخاطب سيدي والتركي قاعد على صدري آخذاً بلحيتي إذ رماه بعض المسلمين بسهم فما أخطأ حلقه، فسقط عني فقامت إليه فأخذت السكين من يده فذبحته، فما هي إلا أن تكون قلوبكم عند السيد حتى تروا من عجائب لطفه ما لا تروه من الآباء والأمهات.

هذه هي النصيحة الأخيرة للإمام حاتم الأصم .

لتكن قلوبنا عند السيد حتى نرى من عجائب لطف الله ما لا نراه من أحد،

كن مع الله ترى الله معك واترك الكل وحاذر طمعك

هنا مدرسة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إليه، وتحيتنا إليك يا سيدي يا رسول الله الصلاة والسلام عليك^(١)

صلى الله
عليه
وسلم

١ المصادر: حلية الأولياء ٧٣/٨ - ٨٣

الرسالة القشيرية ٢٠

سير أعلام النبلاء ٤٨٤/١١

صفة الصفوة ٢/٣٩٠

طبقات الصوفية للسلمي ٩١

(٧٠٨)

الإمام أبو القاسم القشيري

٣٧٦ . ٤٦٥ هـ

أحمدك يا من تقاصر شكري عن أياديه ، وَكَلَّ لِسَانٌ عَنْ مَعَالِيهِ ، وجودك
ياسيدي لم يزل فرداً بلا شَبَه ، تعالى عن الوقت ماضيه وآتيه ، لا دهر يُحْلَقُهُ ، لا
قهر يلحقه ، لا كشف يظهره ، لا ستر يخفيه ، لا عدَّ يجمعه ، لا ضِدَّ يمنعه ، لا حدَّ
يقطعه لا قطر يحويه ، لا كون يحصره ، لا عون ينصره ، وليس في الوهم معلوم يضاهيه ،
جلالك أزلِّي لا زوال له ، وملكك دائم لا شيء يفنيه .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أنزل الفرقان هدى وتبياناً ، على
صفيّه سيدنا مُحَمَّدٌ معجزة وبياناً ، وأودع صدور العلماء معرفته وتأويله ، وأكرمهم بعلم
قصصه ونزله ، ورزقهم الإيمان بمحكمه ومتشابهه ، ووعدوه ووعد

وأشهد أن سيدنا مُحَمَّدًا عبده ورسوله أكرم الأصفياء من عباده ، مَنْ أودعه مِنْ
لطائف أسرارهِ وأنواره لاستبصار كتابه والكشف عن دقيق إشاراته وخفي رموزه .

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظّم على سيدنا ومولانا مُحَمَّدٍ وعلى آله وأصحابه
وعترته وأنصاره ، وسلّم تسليمًا كثيرًا .

أما بعد : معشر الإخوة الكرام

نحن اليوم نحتفل ، احتفالنا اليوم له شكل مختلف عن احتفالاتنا السابقة بزيارة
سادات الأمة .

تعظيمنا اليوم لكتاب الله تعالى ، لا على طريقة المفسرين التقليديين ، ولكن على
طريقة إمامنا الذي نحتفل به اليوم

إمامنا اليوم يمثل جهة التفسير الإشادي المقبول عند علماء العقيدة والتفسير ،
فإن التفاسير على أقسام : تفاسير اهتمت بالأحكام الفقهية والقواعد التعبدية ،
وتفاسير اهتمت بالعقيدة ، وتفاسير اهتمت باللغة والبلاغة ، وتفاسير اهتمت
بالحديث وأسباب النزول بما يسمى التفسير بالمأثور ، فلما جاء إمامنا نظر إلى
القرآن بنور فتح الله به عليه .

حاول فيه أن يستخدم علمه الصوفي بما عجز المتكلمون عن حله ، ليكشف سرّاً
آخر من أسرار الإعجاز القرآني أبان فيه عن عبقريته في تذوق القرآن .
فهو بعد أن درس العلوم الشرعية بتعمق وألف في التفسير التقليدي كتاباً قل نظيره
(التيسير في التفسير = التفسير الكبير) نراه يقبل على القرآن ليثبت أن هناك لقاء بين
الشريعة والحقيقة ، وأنهما وجهان لشيء واحد .

نظر إلى المبتدعة والمضللين الذين أساءوا إلى التصوف وأهله تحت شعار الثوب
المرقع (والخرقة البالية) فأعلنها عليهم حرباً لا هوادة فيها رآهم يحملون النص
القرآني فوق ما يحتمل من معان .

وابتعدوا عن الخط الأصيل للتفاسير حتى صارت تفاسيرهم جديرة بالدرس في
مجالس الفلسفة . فأتاهم بتفسير ليس فيه عقيدة باطنية مستورة ، ولا مذهب عقلي
خبيء ، بل لقاء كامل بين الشريعة والحقيقة في ظلال كلمات الله .

إن عظمة إمامنا اليوم أنه ردّ على الملحدّين الباطنيين الذين ادعوا أن نصوص
القرآن ليست على ظاهرها ، وقصدهم بذلك نفي الشريعة بالكلية . وبينّ لهم أن
التفسير المقبول هو ما تحتمله الآية القرآنية ما دام لا يعارض القرآن ، احفظوا هذه
القاعدة . يا شباب . التفسير الصوفي قسمان :

١. تفسير يخالف ظاهر الآية القرآنية ويقول صاحبه : إنه المراد من الآية، كتفسير القرآن للقاشاني .

٢ . وتفسير تحتمله الآية القرآنية ويقول صاحبه إنه تفسير ظني قد يظهر خطؤه في يوم من الأيام .

والمقبول عند العلماء هو التفسير الثاني ما دام لا يعارض القرآن ولا ينافيه ، ومن هنا تكمن عظمة هذا الإمام ، لذلك لقبوه بشيخ المشايخ وأستاذ الجماعة ومقدم الطائفة الصوفية ، بل أجمع أهل عصره على أنه سيد زمانه وقدوة وقته وبركة المسلمين في ذلك العصر .

نحن اليوم مع سيد لم ير مثل نفسه في كمال براعته ، الذي ألف الرسالة القشيرية المشهورة في التصوف ، إنه سيدنا الإمام أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري .

ومع الحلقة الخامسة والستين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام الأستاذ أبي القاسم القشيري

ﷺ وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد الإمام في إحدى نواحي نيسابور من أبوين عربيين في ربيع الأول سنة ٣٧٦هـ (الموافق ٩٨٦م) ونسبة القشيري إلى القبيلة العربية العدنانية .

نشأ يتيماً ، قدم به إلى نيسابور صغيراً فتعلم الحساب ليشارك في تنظيم الاقتصاد في بلده ، لكن الله تعالى وجهه إلى العلوم الشرعية ، إذ وجد في عصره عمالقة الإسلام وفحول العلماء أمثال ابن فورك و محمد بن أبي بكر الطوسي وأبي إسحق

الاسفراينبي، والإمام البيهقي (أحمد بن الحسين) إذ ظفر القشيري في كنفهم برعاية خاصة ورأوا عنده حسن الاستعداد لحمل الرسالة واستقامة الخلق .

رأوه عندما يستريح الفتيان من الدرس ينكب هو على القراءة والاستذكار ، ولفت نظرهم ولوعه بالعلوم العقلية وبخاصة تلك التي تتناول المسائل التي طالما استبحر الخلاف حولها بين الأشاعرة والمعتزلة ، وهو بالتالي نَمَى هذه الموهبة حين اطلع على كتب إمامنا الباقلاني ، وكان الطلاب يكتبون الدروس وهو لا يكتب ، ويتعجب منه شيخه الإمام أبو إسحاق الإسفراينبي مما دعاه يوماً أن يسأله : يا بني لماذا لا تكتب (كما يكتب الطلبة) أما علمت أن هذا العلم لا يحصل بالسماع ؟ فقال القشيري لشيخه : سألني ما شئت عن أي درس شئت ؟

وهنا امتحنه شيخه وراح يسأله عن الدروس الماضية وصار القشيري يجيبه ويعيد عليه كل ما قرّره شيخه من غير إخلال بشيء . فتعجّب منه وأكرمه وقال له: ما كنت أدري يا بني: أنك بلغت هذا المحل فلست تحتاج إلى درس . يكفيك أن تطالع مصنفاتي وتنظر في طريقي ، وإن أشكل عليك شيء طالعني به، ففعل ذلك ، وجمع بين طريقة الاسفراينبي وطريقة ابن فورك في علم العقيدة .

أريد أن أريكم . أيها الإخوة . كيف أن الله تعالى إذا أراد بقوم سعادة سخر لهم سعيداً فسعدوا به ، فمع كل مقومات الهمة والنشاط العلمي والدأب الذهني لا بد من الأشياء ، لا بدّ من الأدلاء على طريق الله تعالى ، لا بد من هادٍ يهديني ، وقد منح الله تعالى الإمام القشيري كل مقومات الإمامة في الدين (في الشريعة) وأراد مولانا عز وجل له أن يجعله إماماً في الحقيقة بعد أن صار إماماً في الشريعة ، أن يطلعه الله تعالى على طريق أهل الله ، على مقام الإحسان أو التصوف .

وقد سمعنا من شيخنا الشاغوري رحمه الله تعالى كثيراً (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن جمع بينهما فقد تحقق) وجهه الله

تعالى يوماً إلى مجلس من لون آخر ، يتصدره شيخ من طراز آخر ، استمع إليه القشيري وهو يعظ على طريقة الصوفية ، ويتحدث في الرياضيات والمجاهدات الروحية والأحوال والكشوفات والأذواق والمواجيد والمعارف العليا ، التي تنال من الحق إلى عباده الذين اصطفاهم ، وإذا بالرجل والحديث يستوليان عليه ويملكان فيه كل ذرة ، سأل : من هذا الشيخ ؟ فقالوا :

. إنه الإمام أبو علي الحسن بن علي الدقاق .

وهنا قال مباشرة : ما خلقت إلا لأخدم هذا الإمام وأتعلم منه هذا العلم .

لاتدع خدمة الأكابر واعلم أن في عشرة الصغار الصغار
وابغ من يمينه لك يمين وترى في اليسار منه اليسار

فكان بعد ذلك يكون أول من يأتي لمجلسه وآخر من ينهض منه . ولحه الشيخ ورأى فيه إصغاءً ولفناً للنظر فقرّبه منه وحباه بعطفه . ثم جاء إليه يوماً وشكى له أنه لا يستطيع أن يجمع بين العلم وبين مجالس الدقاق ، وهو يؤثر أن ينصرف بكلّ همته إلى علم القلوب .

وابتسم الشيخ أبو علي وتطلع إلى وجه الشاب وقال :

. إنما ينبغي لك أن تتقن دراستك بقدر طاقتك.

ليسمع الأفّاكون والخراصون الذين يتهمون الصوفية بأنهم قوم يجانبون العقل ، ويحتقرون العلم ، ويأمرون تلامذتهم بكسر محابرههم (كما يدّعي ابن الجوزي غفر الله له) .

إخوتي في الله : راح الفتى بكلّ همة وعزيمة يجمع بين طريقتي العلم والتصوف ، وأعجب الدقاق بمثابرته واستقامته وتواضعه فاختره لابنته فاطمة ، مؤثراً إياه على سائر أقربائها الذين تقدّموا لخطبتها . وهكذا توثقت الصلة بين الإمام والشاب ،

وصار الإمام الدقاق رائده وملهمه ، وبصره بآفات النفس وأدوائها ، وكشف له عن الكثير من الخفايا والحقائق وبلغه أعلى المراتب .

فهل رأيتُم نعمة الشيخ التي أنعمها الله علي الإمام القشيري ، آواه الله إلى ركن شديد ، فقد وجد في عمه شيخاً ورائداً وصديقاً وناصحاً مما جعله يستوي في شخصيته ويتميز الخط الفكري له بالاستقامة والاعتدال والوضوح والصدق والإخلاص والبذل .

يا سادة : اسمحوا لي أن أبين لكم أثر شيخه الدقاق في حياته كلها ، الإمام الدقاق كان إمام وقته ولسان عصره ، جنيدي الطريقة ، سري الحقيقة ، بارع في الأصول والفقه الشافعي والعربية ، انتهى إليه طريق التصوف في عصره وله كرامات باهرة (ت ٤٠٥ هـ) (الإسنوي ٢٥٣/١) .

انظروا إلى أدب المريد مع شيخه ، يقول القشيري : لم أدخل على الأستاذ أبي علي في وقت بدايتي إلا صائماً ، وكنت أغتسل قبله ، وكنت أحضر إلى باب مدرسته غير مرة فأرجع من الباب احتشاماً من أن أدخل عليه ، فإذا دخلت يصحبني شبه خدر ، ثم إذا قعدت إليه لم أحتج أن أسأله بلساني عن المسألة بل هو يتدبرني ويشرح لي ما أريد ، تكرر ذلك منه كثيراً وكنت أفكر في نفسي أنه لو بعث الله عز وجل في وقتي رسولاً إلى الخلق هل يمكنني أن أزيد في حشمته على قلبه فوق ما كان منه رحمه الله ، فكان لا يتصور لي أن ذلك ممكن ولا أذكر أنه خطر ببالي قط أن أعترض عليه إلى أن خرج من الدنيا رحمه الله تعالى .

وبعد وفاة شيخه صارت الأستاذية في الطريق إلى إمامنا أبي القاسم القشيري وعكف على التدريس والتأليف حتى بلغت مؤلفاته خمسة وعشرين مؤلفاً ، وبلغ المتممون إليه آلافاً يجلسون في مجلسه يملئ عليهم كتبه ، يهاجم فيه الفرق الضالة والمعتزلة مما أثار عليه وزيراً للسلطان ، فوشى به وبالأشاعرة إلى السلطان وأخذ منه

أمراً بملاحقتهم ، فضجَّ الناس وهرب إمام الحرمين إلى مكة ، وتوزع باقي الأشاعرة في الأرض وحبس الإمام القشيري ، ثم أخرجه مريدوه من سجنه وغادروا وطنهم وضربوا في الأرض عشر سنين ، حتى هياً الله له الخليفة العباس فأفرد له مجلساً في مسجد قصره ، عظّمه فيه وأقبل بوجوه الناس إليه ، وبدأ يملّي تفسيره الفريد فما الذي دعا الإمام إلى هذا العمل ؟ و لماذا ؟

أولاً : فعل ذلك إثراءً للمكتبة الإسلامية .

وثانياً : حتى لا يأتي بعده أناس يدعون التصوف ليخرجوا القرآن عما يريد الله تعالى ورسوله .

وثالثاً : دعاه إلى ذلك آيات وأحاديث :

أما الآيات فقوله تعالى على موجات سورة النساء (٧٨) : ﴿فَمَا لَهُؤَلَاءِ الْقَوْمَ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾ وقوله تعالى (٨٢) ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ ، وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾

فهذه الآيات وأمثالها تشير إلى أن القرآن له لفظ وقصد ، أو قل إن شئت : ظهر وبطن . لأن الله تعالى حين نعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثاً وحضهم على التدبر في آيات القرآن لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون الكلام نفسه ، أو حضّهم على فهم ظاهره ، لأن القوم عرب ، والقرآن لم يخرج عن لغتهم ، فهم يفهمون ظاهره ولا شك ، وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ، وحضّهم على التدبر ليقفوا على مقصود الله ومراده ، وذلك هو الباطن الذي جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم .

وبهذا وردت الأحاديث كحديث (الفريابي من رواية الحسن مرسلًا) " لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع " . وحديث (الديلمي من رواية ابن عوف مرفوعاً) : " القرآن تحت العرش ، له ظهر وبطن ، يحاج العباد "

ففي هذين الحديثين تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن ، أي لفظ وتأويل ، أو هو ما ظهر من معاني الآية لأهل العلم ، وبطنها ما تضمنه من الأسرار التي اطلع عليها أهل الحقيقة.

لكل حرف حد (أي منتهى فيما أراد الله من معناه) ، ولكل حد مطلع أي لكل غامض من المعاني والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به .

إنّ إمامنا القشيري . **أيها السادة** . وجد في تفسيره تأييداً من مواقف الصحب الكرام ، لأن حبر الأمة سيدنا ابن العباس (كما هو عن ابن أبي حاتم) كان يقول : " إن القرآن ذو شجون وفنون وظهور وبطون ... " .
وكان سيدنا أبو الدرداء يقول : " لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوهاً "

ونظر القشيري فرأى حديثاً في البخاري فيه يسأل سيدنا عمر الصحابة جميعاً عما يقولون في قوله تعالى ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ فسألهم فقالوا : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وهنا يجد ابن عباس يقول مفاجئاً الصحابة إلا سيدنا عمر : بل هو أجل رسول الله أعلمه الله إياه . إذا جاء نصر الله والفتح (وذلك علامة أجلك) فسبح بحمد ربك واستغفره . فقال سيدنا عمر : ما أعلم من الآية إلا ما تقول .

يا شباب : انتبهوا هذا الحديث أصل هام في فعل إمامنا القشيري ، لأن سيدنا عمر وابن العباس فهموا الآية فهماً من وراء المعنى الظاهر ، وهو المعنى الباطن الذي تدل عليه السورة بطريقة الإشارة . والأدلة كثيرة في هذا المعنى .

فسر الإمام القرآن كله تفسيراً إشارياً وفوجئ بعد أن قام الإمام بعمل تفسيره الإشاري العظيم (لطائف الإشارات) . بمرض ولده مرضاً شديداً ، فجمعوا له الأطباء حتى يأسوا من شفائه ، ولكن إيماننا لم يئأس من روح الله فرأى في منامه الحق ﷺ فشكى إليه فقال له مولانا عز وجل : اجمع آيات الشفاء واقرأها عليه واكتبها في إناء واجعل فيها مشروباً واسقه إياه ، ففعل الإمام ذلك فعوفي الولد بإذن الله تعالى .

وآيات الشفاء ست : ﴿ويشف صدور قوم مؤمنين﴾ (التوبة ١٤) ﴿وشفاء لما في الصدور﴾ (يونس ٥٥) ﴿فيه شفاء للناس﴾ (النحل ٦٩) ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين﴾ (الإسراء ٨٢) ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ (الشعراء ٨٠) ﴿قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء﴾ (فصلت ٤٤) أيها الأحبة والصحب : أراد الله أن يعزّ إيماننا أكثر وأكثر ، فدعاه إلى بيته الحرام في عام حج فيه عدد كبير من الأئمة والقضاة قيل بلغوا ٤٠٠ ، اجتمعوا في مؤتمر عظيم ليتدارسوا وضع نيسابور الذي سيطر عليها ذلك الوزير الخبيث ، فأجمعوا جميعاً أن لا يتكلم في المجلس إلا الإمام أبو القاسم القشيري ، فصعد المنبر ، وظلّ يتكلم ، وهم يجدون لكلامه وقعاً مؤثراً في قلوبهم وعقولهم حتى قال واصفه : لو قرع الصخر بسوط تحذيره لذاب ، ولو ربط إبليس في مجلسه لتاب . ثم نظر الإمام نحو المشرق ملياً وساد صمت لحظات وكأنه ينظر إلى حدث جلل ثم قبض لحيته وصاح بصوت عال :

. يا أهل خراسان بلادكم بلادكم ، إن الوزير الكندي غريمكم يقطع الآن إرباً . إرباً ، وإني أشاهده الساعة وقد تمزقت أعضاؤه .

يقول الإمام السبكي في طبقاته : فضبط التاريخ فكان ذلك اليوم بعينه قد أمر السلطان بأن يقطع الوزير الخبيث إرباً إرباً وأن يرسل عضو منه إلى كل مكان . وهلل الناس وكبروا لهذه الكرامة ، وعادوا بعد الحج مع الإمام إلى مواطنهم ، وبقي القشيري ينشر كتباً تنصر العقيدة الأشعرية . وقربه السلطان ألب أرسلان و وزيره نظام الملك ، وغدا الوزير الجديد أحد تلامذته والمقرين إليه ، ومن أعزّ الإسلام أعزه الله .

أيها السادة : بقي الإمام لآخر لحظة لا تفوته ركعة قائماً رغم مرضه الذي جعله يرحل إلى الله تعالى عام ٤٦٥ هـ حيث دفن بجوار شيخه الدقاق ، ومن شدة حزن أولاده العبادلة الستة عليه لم يمس أحد كتبه حزناً عليه ولا دخلوا غرفته إلا بعد سنين احتراماً وتعظيماً له .

وكان للإمام فرس يركبها فلما مات امتنعت من العلف ولم تطعم شيئاً ولم تمكن راكباً من ركوبها ومكثت أياماً بعده على هذه الحال حتى ماتت حزناً عليه . وإذا مات أهل العلم وأهل التقوى والأولياء فعلى الدنيا السلام .

المصادر :

- تاريخ بغداد ٩ / ٦٤
- شذرات الذهب ٥ / ٢٧٥
- الطبقات الكبرى للسبكي ٥ / ١٥٣
- وفيات الأعيان ٣ / ٢٠٥
- الكمال لابن الأثير ١٠ / ٣١
- البداية والنهاية ١٢ / ١٠٧
- النجوم الزاهرة ٥ / ٩١
- لطائف الإشارات للقشيري . المقدمة .

(٧٠٩)

الإمام عدي بن مسافر

٤٦٧ . ٥٥٧ هـ

الحمد لمن اصطفى لدينه خلاصة العالمين ، وهدى من أحبه للتفقه في الدين ،
حمداً نسلك به منهاج العارفين ، ومنح به دخول رياض الشاكرين .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة الموقنين .

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله بهجة الموحدين ، الحاوي لجميع فضائل
المرسلين من نبه العقول لتحرير تنقيح أحكام الدين البحر المحيط القدوة العظمى في
الدين ، وكل الأولياء والأقطاب والأبدال منحهم الله أسرار الإيمان وأنوار الإحسان
واليقين .

اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ، وعلى آله وأصحابه هداة الأمة
والتابعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ، وسلم تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

هل سمعتم بسيد على قدم سيدنا موسى ؟ إذا ذكر اسمه على الأسد جمد ، و إذا
ذكر على موج البحر سكن ؟ هل سمعتم بسيد شيوخه كلهم أولياء بل أقطاب ؟ ومن
كثرة كراماته وأحواله جاوز حسن اعتقاد الناس فيه الحد ، ومن كثرة فضائله كني بأبي
الفضائل .

أزور مع حضرتكم اليوم قطباً من أقطاب الرجال ، وعلماً من أعلام التصوف لا
يشق له غبار ، نحن اليوم ندخل إلى العراق رغماً عن الأمريكان الذين سيذلهم الله أكثر
وأكثر ببركة أهل الله هناك ، وخاصة من نحن بزيارته ووقع الاتفاق على ولايته .

نحن اليوم مع قطب المشايخ وبركة الوقت سيدنا عدي بن مسافر (ابن إسماعيل الشامي من ذرية مروان بن الحكم) . ومع الحلقة السابعة والستين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربضوا عن الإمام عدي بن مسافر .

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه .

إخوة الإيمان : كان والد إمامنا من الزهاد الصوفيين، ساح في بلاد الله ثلاثين سنة، لا يفتّر لسانه عن الذكر ، مع التحري الشديد بأكل الحلال . وبينما هو نائم ذات ليلة إذ رأى قائلاً يقول :

- يا شيخ مسافر امض إلى أهلك من هذه الليلة وواقع زوجتك فإنها تحمل منك بذكر يكون له ذكر وشأن .

فتوجه إلى بلده وأتى داره ، وطرق الباب على زوجه يستأذنها بالدخول ، وكان قد غاب عنها سنين متطولة فقالت :

- إن أرت أن تجتمع بي هذه الليلة فاطلع على هذا الكوم وناد : يا أهل البلد أنا مسافر قد أتيت إلى أهلي .

فقال لها : ولأي شيء أفعل ذلك .

قالت : لأنك تجتمع بي هذه الليلة وتمضي إلى سبيلك فأحمل منك ، فيقول أهل البلد: زوجك له ثلاثون سنة غائباً فمن أين لك هذا الحمل .

ففعل ما أمرته زوجته فلما حملت منه وكمل له سبعة أشهر جنيناً مرّ به شيخان من العارفين بالله شيخ وتلميذه وهما الشيخ مسلمة بن نعمة السروجي ، وتلميذه عقيل المنبجي ، فقال الشيخ لتلميذه : - سلم بنا على ولي الله تعالى .

فقال الشيخ عقيل : وأين ولي الله ؟

فقال : إن هذه المرأة حامل بعدي بن مسافر الولي . فنظر إلى المرأة وإذا نور صاعد عليها ، فسلما على النور ومضيا في حال سبيلهما .

فلما ولد الإمام سنة ٤٦٧ هـ في منطقة البقاع من بعلبك ، وبعد سبع سنين من ذلك اليوم مرَّ الشيخان مسلمة وعقيل على ذلك المكان فرأى الشيخ مسلمة سيدنا عدياً وهو يلعب مع الصبيان لعبة الحرب ، فقال الشيخ مسلمة : تعرف هذا الغلام ؟ فقال له : من هو ؟ قال : عدي بن مسافر فسلما عليه فرد عليهما السلام مرتين ، فقال له مسلمة : سلمنا عليك مرة واحدة فرددت علينا مرتين لأي شيء هذا ؟ قال له : المرة الثانية عوضاً عن سلامكما علي وأنا في بطن أمي .

إخوتي في الله :

نشأ سيدنا عدي طالباً للعلم من الدرجة الأولى فقرأ الفقه الشافعي وتمكن من ناصيته، وسلك مع العلم طريق المجاهدات هذب نفسه وأدبها على كثير من المشايخ علماء الصوفية ، التقى بعمالقة الإسلام في الطريق إلى الله تعالى ، أمثال سيدنا حماد الدباس شيخ سيدنا عبد القادر الجيلاني ، والشيخ عقيل المنبجي وسيدنا عبد القادر الجيلاني وسيدنا عبد القاهر السهروردي (ت ٥٦٣ هـ وهو عم سيدنا عمر السهروردي) وكانت مجاهداته تتعذر على كثير من أقرانه إذا ساخ في جبال الموصل من العراق صائماً زاهداً ، وبنى لنفسه هناك زاوية يتعبد فيها ويذكر الله تعالى فيها مع أهل تلك النواحي الذين مالوا إليه لما رأوا من صلاحه وتقواه وعلمه ، وكراماته حتى لم يسمع لأرباب الزاوية مثله ، وشهد له سيدنا عبد القادر الجيلاني بالسلطنة على الأولياء ، فقال :

" لو كانت النبوة تنال بالمجاهدة لناها عدي "

ولم تكن نبوة مكتسبة	ولو رقى في الخير أعلى عقبه
بل ذلك فضل الله يؤتيه لمن	يشاء جل الله واهب المنن

وتبعه خلق كثير على طريقته ، وصارت طريقته تسمى بالطريقة العدوية
واعتقده جميع الأديان، يأتون إليه من أصقاع الأرض يتبركون به ويطلبون منه
الدعاء .

جاء إليه مرة ثلاثة نصارى وثلاثة يهود فعرض عليهم الإسلام فامتنعوا ، فوضع في
فم كل واحد لقمة من لبن فأسلموا وقالوا لما خالط اللبن جسمهم :نسخ منا ما كان
غير الإسلام ، فقال سيدنا عدي : . وعزة المعبود ما أسلمتم حتى أسلمت شياطينكم
على يدي وإني استوهبتكم من الله تعالى .

ومرَّ برجل يحمل فاكهة فقال له : بعني هذه الفاكهة . فقال : ولم ؟ قال : لأنها
تقول لي : أنقذني من هذا الرجل فإنه قد اشتراني ليشرب عليّ الخمر . فأغمي على
الرجل وسقط على وجهه ، فلما أفاق تاب على يديه .

أيها الأحبة والصحب : الكرامة ثابتة في القرآن والسنة ، فمن الكرامات التي
حدثنا عنها مولانا عزّ وجل ما حدث لسيدتنا مريم من ولادة سيدنا عيسى من غير
أب ، وما حدث لعرش بلقيس حين جاء به وزير سليمان بطرفة عين من اليمن إلى
فلسطين .

والكرامة تعني إعطاء ملكة التصرف في الأشياء للأولياء بإذن الله تعالى ، فيبرئ
الأكمه والأبرص بإذن الله ويحيي الموتى بإذن الله ، إذا توجه إلى شيء أعطاه ، يقول
عزّ من قائل في الحديث القدسي (خ) : "ولئن سألتني لأعطينه ولئن استعاذني
لأعيذنه" تطوى لهم الأرض ، ويسمعون عن بعد ، ويشاهدون ما خفي عن الأعين
بإذن الله تعالى .

باختصار : الأولياء خلفاء الأنبياء ، خرج الإمام مع أحد مريديه فمرا بجوار مقبرة
فالتفت إليه وقال : . يا رجاء (اسم مریده) أما تسمع صاحب ذلك القبر يستغيث ،
فنظر وإذا بدخان ساطع قد خرج من القبر ، فمشى الإمام ووقف على القبر وما زال

يسأل الله تعالى أن يعفو عنه حتى انقطع الدخان ، ثم التفت إليه وقال: يا رجاء قد غفر الله لهذا وارتفع عنه العذاب ، ثم ناداه بالكردى: أنت طيب. قال: نعم طيب ورفع الله عني العذاب .

معاشر المسلمين : وأرى جماعةً من أصحاب العمائم والصالحين يأتون من أطراف الأرض ليزوروا الإمام عدياً عليه السلام ، فهلّموا نتبارك معهم بهذا الإمام وندخل الموصل معهم فرج الله عن أهلها ، ها نحن ندخل على الإمام (فترضوا عنه) ، ها هو يجلس مع مريديه يتحاورون في كرامات الأولياء ودرجاتهم ، ومما قاله : كل شيخ لا يعلم مريده كم يقلب في الليل ما هو بشيخ ولو أنة في مشرق الأرض أو مغربها ليبصر مريده هل هو على حلال أم حرام.

فقال بعض الجالسين نريد منك أن ترينا من كرامات القوم فقال الإمام: نحن فقراء. فقالوا : لابد من ذلك . فقال لهم : إن الله رجالاً يقولون لهذه الأشجار اسجدي لله تعالى فتسجد . فإذا بالأشجار التي أشار إليها الإمام سجدت لله ، وهي الآن لا تنبت شجرة إلا وهي منحنية إلى جهة زاوية الإمام .

لا تستغربوا - يا إخوة . فالكرامة أمر لا يدخل تحت نطاق العقل ، أمر خارق للعادة يجريه الله على يد الولي تكريماً له وتعظيماً قال له رجل من الصالحين اشتهر بالسياحة في الأرض (وهو يعقوب بن عبد المقتدر) : يا سيدي أنا أطوف في الصحراء والقفار في سياحتي، وأرى من السباع ما لا يحصى، وأخاف أن يصلوا إلي بأذى . فقال له الإمام عدي :

. إذا رأيت سبعاً تخافه فقل : يقول لك عدي بن مسافر اذهب ودعني ، وإذا رأيت هول البحر فقل : أيتها الأمواج المتلاطمة يقول لك عدي بن مسافر اسكني. وما قال ذلك إلا لكرامته على الله تعالى ، وما وصل الشيخ إلى ما وصل إليه إلا بكثرة الذكر ، يذكر الله بحضور قلب ، وهناك أناس يقولون لك : أنا لا أذكر الله

لأنني لا أشعر بخشوع في الذكر ، وهذا غلط ، لا تترك الذكر لعدم حضور قلبك فيه فلعلَّ الله تعالى أن ينقلك من ذكر بلا حضور إلى ذكر بحضور قلب .

قضية الذكر كان يؤكد عليها في مجالسه ، ويبين لمريديه فضل الذكر ، وأن كل شيء في هذا الكون يذكر الله ويسبحه ، بل أخذ يصف لهم ديكاً يؤذن في أوقات الصلاة تحت العرش . فقال رجل يقال له أبو حفص : أرجوك يا سيدي أن تسمعي صوت الديك . فلما حان الظهر قال له الشيخ : أدن مني وضع أذنك على أذني فسمع صوت الديك بالأذان فأغمي عليه .

هذا غيظ من فيض من كرامات الإمام ، ولو أني حدثكم بكراماته الأخرى فلن تصدق عقولكم ولكن العلماء جميعاً قرروا أن ما كان معجزة لنبي جاز أن تكون كرامة لولي ، يجوز للأولياء من الكرامات بعدد معجزات الأولياء ، وكل ولي على قدم نبي ، وهذا ليس غريباً عنهم فإنهم مستجابو الدعوة ، ولقد أكد مولانا هذا الكلام في القرآن فقال : ﴿ ادعوني أستجب لكم ﴾ ، فلا تستغربوا ولا تتعجبوا ، فالله قادر على كل شيء .

أيها الإخوة :

بقي الإمام في زاويته متعبداً زاهداً ذاكراً حتى رحل إلى الله سنة ٥٨٥ هـ ودفن بزاويته وقبره هناك هناك ، فمن أراد أن يجتمع به هناك فليبق هنا هناوما أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ ، الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله .

المصادر :

١. شذرات الذهب ٦ / ٣٠٠
٢. الأعلام للزركلي ٤ / ٢٢١
٣. وفيات الأعيان ٣ / ٢٥٤
- ٤- جامع كرامات الأولياء ٢ / ٢٩٥

(٧١٠)

الإمام عقيل المنبجي /

٥٥٥٥ . ٤٥٠

الحمد لله الذي تحيرت في بحار عظمته قلوب العارفين ، وتنزهت في بستان وصله
نفوس العابدين ، وطاشت بنسيم أنسه صدور العاقلين ، وتلاشت بكشف قدسه
أرواح المحبين.

سبحانه وتعالى لم يزل سمياً بصيراً فتبارك الله أحسن الخالقين .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة أتخذها حجة وابتغي بها جنة
وحريراً.

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله بين يدي الساعة شاهداً ومبشراً ونذيراً
وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، فبلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ، وجاهد
في الله حق جهاده حتى أتاه اليقين .

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله وأصحابه وسلم
تسليماً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

عجبت فيما مضى يوم تحدثت عن الإمام عدي بن مسافر أحد أولياء الأمة
وذكرت بعض كراماته كيف أن بعض الإخوة خطر له أن هذه الغيبات لا تحصل
للأولياء بل للأنبياء .

ومن هو الذي قال للأخ المعترض إنه يمكن للأنبياء أن يعلموا الغيب بدون إعلام

الله لهم !؟

علينا أن نعرف أن العلم علمان : علم تفرّد الله تعالى به ، وعلم أعلمه لأتبيائه ورسله وأوليائه وملائكته ، إذا علمنا هذا عرفنا أن الأنبياء ومن على قدمهم لا يطلع عليهم أنهم يعلمون الغيب ، إذ لصفة لهم يقتدرون بها على الاستقلال بعلم الغيب ، هذا أولاً .

وثانياً : هم ما علّموا وإنما علّموا . هم ما علموا غيباً مطلقاً ، ولكن علموا غيباً شاركهم فيه الملائكة الكرام

وثالثاً : على الأخ المعترض أن يعلم أن إعلام الله تعالى للأنبياء والأولياء ببعض الغيوب أمر ممكن لا يستلزم محالاً بوجه ، فإنكار وقوعه عناد ، ومن البدهة أنه لا يؤدي إلى مشاركتهم له تعالى فيما تفرّد به من العلم الذي تمدّح به واتصف به جل جلاله وهذا هو بالضبط معنى الآية القرآنية على موجات سورة النحل (٥٦) :

﴿ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ أتعرفون ماذا قال الإمام النووي رحمته الله في فتاويه في تفسير هذه الآية ؟ قال : "معناها لا يعلم ذلك استقلالاً وعلم إحاطة بكلّ المعلومات إلا الله ، وأما المعجزات والكرامات فبإعلام الله لهم علّمت ، هل لاحظتم مدى عظمة هذا الكلام : وأما المعجزات والكرامات فبإعلام الله لهم علّمت .

ولذلك يقول الإمام النبهاني في كتابه العظيم شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق صلّى الله عليه وآله (ص ٢٧٩) يقول : "أما علم الغيب فهو مختصّ بالله تعالى بالأصالة ، وقد يُطلع صلّى الله عليه وآله على غيبه من يشاء من عباده ، كما قال ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول ﴾ (الجن ٢٦).

وهذا الإمام القرطبي رحمته الله يقول : معنى هذه الآية : لا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يظهره ما يشاء من غيبه ، لأن الرسل مؤيدون بالمعجزات ،

ومنها الإخبار عن بعض المغيبات كما ورد في التنزيل : ﴿ وَأَنْبِئْكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ (آل عمران ٤٩) .

ثم يبين لنا الإمام ابن حجر الهيثمي في فتاويه (٣١٠) : أن علم هؤلاء القوم (يعني الصوفية) لا يحصل بمحبة الدنيا ولا ينكشف إلا بمجانبة الهوى ، ولا يدرس إلا في مدرسة التقوى ، قال تعالى ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ ﴾ (البقرة ٢٨٢) .

رجال لهم علم بما جهل الورى	لهم صار مكشوفاً فانمحي حجابُهُ
فأسرار غيب عندهم علمُ كشفها	وقد سكرُوا مما يطيب شرابُهُ
أولئك هم أهل الولاية نالهم	من الله فضلُهُ وتوابعه
ملوك على التحقيق ليس لغيرهم	من الملك إلا اسمه وعقابُه

ونحن اليوم . إخواني . مع أحد العارفين بالله بل سيدهم في عصره ، بركة الإسلام ، انتهت إليه تربية الشيوخ ، هو من بلادنا الشامية وأكابر مشايخها وعظماء العارفين ، صاحب الكرامات الظاهرة والأفعال الخارقة ، لُقّب بالطيار ، لأنه كان ينتقل بين البلاد طائراً بلا طيارة ، طار في الهواء والناس ينظرون إليه حتى حط في منبج ، فجاء إليه الناس أفواجا ، فأعطى العهود وأقام في خدمة الملك المعبود .

إننا مع سيدنا عقيل بن أحمد بن عمر المنبجي يصل نسبه إلى سيدنا عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما .

ومع الحلقة الواحدة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام عقيل المنبجي .

ﷺ أرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد سيدنا عقيل في بلدة البطائح في أرض العراق بين واسط والبصرة سنة ٤٥٠ هـ وتلقته يد الشيخ عبد الرحمن مسلمة السروجي (ت ٤٦٦ هـ) أحد العارفين بالله في عصره ، وهذا الشيخ انتهت إليه تربية الشيوخ في العراق . أخذ الفتى ونشأه علمياً ولقنه الذكر وأشرف على تعليمه وكان في بداية أمره تأخذه الأحوال من الذكر فيأتي شيخه فيخبره فيقول له : لا تلتفت إلى شيء من الأحوال وعليك بالعلم والعمل ، طريقنا هذا جد الجد .

فبقي الشيخ عقيل المنبجي سنوات قاربت الستة عشر عاماً يدرس ويعمل حتى أصبح عالماً من العلماء الأفذاذ الربانيين ، واستأذن شيخه مرة لزيارة أمه برّاً بمهاذن له وقال :

. يا عقيل سيحدث لك في الطريق أمر عجيب فاثبت له ولا تجزع .

فودع شيخه وسار إلى أمه ، وفي الطريق سمع صوتاً من جهة السماء فرفع رأسه وإذا بنور ساطع مثل السلسلة تداخل بعضها في بعض ، فالتفت عن يمينه فأحسَّ برودتها كالثلج البارد في ظهره ، فلم يجزع بل تثبت الله تعالى قلبه .

وحين رجع إلى شيخه أخبره بما جرى فضمه إلى صدره وقال: يا عقيل الآن تمت عليك النعمة ، أتعلم ما هذه السلسلة؟ قال :لا قال :هذه سلسلة الطريق وسنة رسول الله ﷺ ، فالذي يلزمك يا ولدي تربية الفقراء والمريدين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .والآن قد وهبتك (أي أجزتكَ) فخذ هذه السبحة وهذا التاج وهذا الدلق (ثوب) وهذه العكاز وهذه السجادة (هذا ما يسمى بالخرقة الصوفية)وسر إلى حيث ما أردت ، يا عقيل ! الوصية في طريقك ، لأنه طريق السنة والجماعة ولا تجعل فيه رخصة ولا بدعة ...

وهكذا غادر سيدنا عقيل العراق بعد أن دعا له شيخه مسلمة ، وسار إلى هنا، إلى حران في الغوطة حيث بطل آخر من أبطال الأمة هو شيخ الشيوخ سيدنا حياة

بن قيس الحراني (ت ٥٨١ هـ) أحد الأولياء بدرجة سيدنا عبد القادر الجيلاني رضي الله عنهما ، فلما رآه استقبله ورحب به وهنأه بالخلافة ، وكان طيلة إقامته عنده سبع سنين يأمره بالأذان والذكر معهم ، لا يفارقه في كل صباح ، حتى أذن له بالرحيل إلى الخلوة والعزلة في رؤوس الجبال .

والعزلة . يأسادة . وردت السنة في فضلها والندب إليها وحرض عليها جميع الشيوخ والسالكين والعارفين بالله تعالى المرشدين إليه ﷺ . فمن مدرستي البخاري ومسلم عن سيدنا أبي سعيد الخدري قال : قال رجل : " أي الناس أفضل يا رسول الله ؟ قال : مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى قال : ثم من ؟ قال : ثم رجل يعتزل في شُعب من الشعب يعبد ربه " .

ولهذا قال سيدنا الإمام الجنيد : " من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس " . وقال سيدنا سفيان الثوري : من خالط الناس دارهم ، ومن دارهم راءاهم ، ومن راءاهم وقع فيما وقعوا وهلكوا فيما هلكوا ، والله الذي لا إله إلا هو لقد حلَّت في زماننا " . ولما سمع أحد العارفين المتأخرين بهذه العبارة قال : إن كان حلَّت في زمانه فقد وجبت في زماننا .

لكن العلماء بالله نصّوا أن من آداب العزلة أن يكون صاحبها عالماً ليؤدي فرضه ، ولا يستهويه الشيطان بوساوسه .

وتذكروا . أيها الإخوة . أن سيدنا عقيلاً كان من العلماء قبل الخلوة . ساح في رؤوس الجبال ، وكان يعبد الله في الغار ولم يكن له غار يعبد الله فيه كسيدنا مُحَمَّد ﷺ ، لم يكن فتحه كاملاً ونفسه صافية .

كان سيدنا عقيل يعبد الله تعالى في الغار فتأتيه الذئاب والغزلان والسباع بكل اطمئنان تتبارك بأنفاسه وعبادته ، حتى أُمر بالسير إلى منبج بلدة الشاعر البحري .

أيها الأحبة والصحب : هيا الله سيدنا عقيلاً ليكون إمام أهل منبج وما حولها ، تسلم فيها دقة التربية في المنطقة ، وهرع إليه أهل الله من كل صوب ، منهم أربعون ولياً من رجال الشام الأكابر ، اسمعوا أسماء بعضهم لتتبارك بذكرهم : سيدنا عدي بن مسافر والشيخ رسلان الدمشقي والشيخ قضيب البان الموصلبي .

هرعوا إليه ليعلمهم الصدق، ويربهم على العمل بطاعة الله وذكره ، ويرغبهم في طريق الله والتصوف ويدرسهم دينهم ويروي لهم من خلال ذلك كرامات الأولياء كل صباح ومساء . وكان يقول لهم :

- أنا شيخ الطرائق ، أنا شيخ الحقائق ، أنا شيخ من لا شيخ له ، وأنا وسيلة من توصل بي إلى الله تعالى .

قام رجل من مريديه مرة يسأله : ما علامة الرجل الصادق ؟ فقال : لو قال لهذا الجبل تحرك لتحرك . قال : فتحرك الجبل .

وقام آخر فسأل : ما علامة المبارك على أهل زمانه . فقال : لو وكز برجله هذه الصخرة لتفجرت عيوناً . فتفجرت صخرة كانت بين يديه عيوناً ، ثم عادت كما كانت هكذا كان سيدنا عقيل المنبجي شيخ أهل الشام ، ولكي تتفجر ينابيع رحمة الله تعالى في الشتاء القادم أدعكم لتسألوا الله تعالى بسيدنا مُحَمَّد ﷺ وأهل الله أن يبارك لنا في الشتاء القادم ويفجر الأرض عيوناً ويسقينا بماء منهمر .

المصادر :

- . إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء مُجَّد راغب الطباخ دار القلم ١٤٠٨هـ
- . ثلاثة الجواهر في مناقب الشيخ عبد القادر. المطبعة الحميدية ١٣٥٦هـ للتادفي .
- . الكواكب الدرية في تراجم السادة الصوفية للمناوي ١/٦٨٨. دار صادر ١٩٩٩.
- . نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية أرباب المقامات العالية لليافعي مطبعة البابي ١٩٩٠.
- . بحجة الشيخ عقيل المنبجي . عقيل عبد الرحمن العمري . ت باسم المحمد .
- . شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق للمنبهاني . دار الفكر ١٩٩٠.
- . تفسير الإمام القرطبي .

(٧١١)

الإمام عقيل المنبجي / ٢

٤٥٠ . ٥٥٥ هـ

الحمد لله مجلي السماء ببيدع المصاييح ومغذي الملائكة بحلاوة التسبيح الذي شهدت بتوحيده عجائب المصنوعات ، ونطقت بتحميده غرائب المبدعات ، وسبح له الخلق علماء وأولياء جماد وإنس وجان باختلاف اللغات ، فسبحان من لا يساويه أحد في الأرض والسموات .

أحمده وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة باسقة الفروع .
وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله أرسله من أرجح العرب ميزانا وأوضحها بياناً ، وأعلاها مقاما ، وأحلاها كلاما ، وأوفاهها ذماما ، فأوضح الطريقة ونصح الخليفة ، وشهر الإسلام ، وكسر الأصنام ، وأظهر الأحكام ، وحذر الحرام ، وتابعه على ذلك الأئمة الأعلام .

اللهم فصل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه البررة الكرام ، وعلى أزواجه وذريته في كل محفل ومقام ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

عندما أتحدث عن كرامات الأولياء يستوقفني قوله تعالى عن الولية الطاهرة السيدة مريم عليها السلام ، والتي قال فيها رب العزة والجلال : ﴿ كَلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ﴾ قال المفسرون : وجد سيدنا زكريا عندها فاكهة الشتاء في الصيف ، وفاكهة الصيف في الشتاء ، ولذلك لما سأها ردت عليه فقالت ﴿ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ يُرِزُقُ مِنْ يَشَاءَ بَغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

ويستوقفني أيضاً ما فعلت أم موسى بولدها وقد ألهمها الله تعالى أن تلقيه في اليم ، وقصة ذي القرنين وتمكين الله تعالى له ما لم يمكنه لغيره ، وقصة أصحاب الكهف ﷺ ، وقصة آصف بن برخيا مع سيدنا سليمان حين أتى بعرش بلقيس من اليمن إلى فلسطين.

وكل هؤلاء ليسوا بأنبياء بل أولياء ، وهو في القرآن الكريم لا شك فيه ولا امتراء ، فإذا ضمنا إلى هذه الآيات ما ورد في السنة المطهرة ، كحديث (ق) جريج الراهب الذي كَلَّم الطفل في المهد ، وحديث (ق) أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرة ثم انفرجت ، وحيث ضيف الصديق أبي بكر المخرّج في الصحيحين ، وبركة الطعام حتى صار بعد الأكل أكثر مما كان قبله بثلاث مرات ، وإخبار الصديق أبي بكر ﷺ عن حمل امرأته أنه أنثى ، فكان ذلك كرامة عند ربه.

وما صح عن الفاروق أنه قال : يا سارية الجبل ... في حال خطبته يوم الجمعة فبلغ صوته إلى سارية في الصين ، فكان لسيدنا عمر ﷺ كرامتان في ذلك : إحداهما : ماكُشف له عن حال سارية وأصحابه المسلمين وحال العدو .

والثانية : بلوغ صوته إلى بلاد بعيدة .

والحديثان المتفق على صحتهما في سيدنا سعد وسعيد رضي الله عنهما في إجابته دعوة كل واحدة منهما ، وحديث البخاري في سيدنا خبيب في قطف العنب الذي وجد في يده يأكله في غير أوانه ، وحديث البخاري في سيدنا أسيد بن حضير وعباد بن بشر اللذين خرجا من عند سيدنا رسول الله في ليلة مظلمة ومعهما قضيبان من الشجر أضاء لكل منهما الطريق ، وكذا سيدنا العلاء بن الحضرمي الذي كان في غزاة وبينه وبين الموضع قطعة من البحر فدعا الله تعالى باسمه الأعظم فمشى هو وجيشه على الماء .

هؤلاء كلهم أولياء الله تعالى ، بل هي من قبيل الممكنات ، ولذلك اسمعوا ماذا يقول إمام الحرمين الجويني في كتابه الإرشاد : " ما صار إليه أهل الحق : انخراق العادات في حق الأولياء " والكرامات من جنس المعجزات لأن كليهما دلالات على الصدق ، فمن ادعى النبوة دلت المعجزة على صدقه وصحة دعواه ، ومن أشار إلى الولاية دلت الكرامة على صدقه في حالته . فالفارق بينهما تحدي النبوة فقط .

أيها السادة : هذه المقدمة لابدّ منها ، لأننا اليوم مازلنا ننزل زائرين على شيخ الأولياء العارفين الذي اختار الله له منبج سكناً وأكرمه بأنواع الكرامات التي دلت على صدقه ، إننا مع سيدنا عقيل المنبجي عليه السلام ومع الحلقة الثانية والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتربوا عن الإمام عقيل المنبجي .

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة إيمان : طار صيت الإمام عقيل في كل مكان ، واشتهر ذكره في كل مجلس وخاصة أن مريديه انتشروا في بقاع الأرض ، منهم الأعلام والعلماء والقضاة والصالحون ، وكان حفيده أحمد بن سويدان قاضي قضاة عجلون يكثر ذكره في مجالسه ويتحدث عن علمه وكراماته ، فقال العلماء الذين ذكره أمامهم وهم من حلب : يا أحمد لا بد أن نزوره وأن نمتحنه بسؤالات من الفقه والتصوف .

فسار القوم حتى وصلوا منبج ، فاستقبلهم الشيخ عدي بن مسافر عليه السلام وقال للشيخ أحمد : ما شأن هؤلاء العلماء والفقهاء ؟ فقال له : جاؤوا لزيارة الشيخ والسلام عليه . فقال الشيخ عدي : يا أخي في هذا الوقت قد ذكرك الشيخ عقيل وذكرهم وقال : قادم علينا علماء فقهاء من حلب ، جاؤوا يسألونني ويمتحنوني ، وإني قد لجمت كل واحد منهم بلجام (لا يستطيعون السؤال) .

يقول الراوي يا سادة يا كرام: فدخلوا على الإمام عقيل وسلموا عليه فرد عليهم السلام ، وأشار لهم بالجلوس في جهة جانبه الأيمن . وبقي يتكلم ويدرس ، ثم التفت إليهم فقال: ماذا تسألون يا علماء حلب وفقهاءها؟ قال: فما قدر أحد منهم أن يتكلم بكلمة. وهنا قال الشيخ عقيل للذي على يمينه: أما جئت تسألني عن كذا وكذا، والتفت إليهم واحداً واحداً فأعطى كل واحد سؤاله مع جوابه ، فقاموا جميعاً إليه يطلبون منه السماح ويستغفرون الله تعالى على اعترافيهم .

وأقيم مجلس السماع (الإنشاد والحضرة) واشتد السماع فصار الفقهاء يسمعون الدفوف وهي تقول: الله الله. فقام أحد الفقهاء فدخل في وسط الحضرة، وجعل يدور ويتمايل في السماع .

فقال له الشيخ عقيل: ما بالك تدور؟ فقال الفقيه: كان عندي مسألة مشكلة علي منذ زمان أطلعني الله عليها الآن فتمايلت بذلك سروراً فلم أتمالك نفسي من الطرب . فقال الشيخ عقيل: - يا بطل هذا من أجل فرحك في مسألة ، فكيف تنكر على من كان حبه وفرحه بالله تعالى .

فقال أحد المريدين: سيدي هذا الوجد الذي يحدث للمريدين ما شأنه؟ فقال: الوجد سرٌّ من أسرار الله تعالى ، تحركه رياح الأنس من بحار القدس ، لا يقع على كيفية بل يتفرق على الأعضاء ، فما وقع في اليد كان منه التصفيق ، وما وقع في القلب كان منه البكاء ، وما وقع في الرجل كان منه الرقص ، وما وقع في الروح كان منه الصراخ ، وما وقع في السويداء كان منه الغشيان ، فهذه كلها أسرار الوجد .

فقال الشيخ أحمد بن سويدان خليفته: لم لا تتحرك يا سيدي في السماع ، فقال: يا أحمد الجواب في قوله تعالى ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي قمرٌ السحاب﴾ فقال الشيخ أحمد: ما معنى ذلك يا سيدي؟! فقال: يا أحمد القوي لا

يتحرك في غالب الأحوال وإنما يتحرك ضعيف الحال ، كما قال الإمام الجنيد : " إن حركات المريدين لضعفهم وضعف قوتهم ". فقيل للشيخ عقيل : إن بعض الناس تنكر علينا .

فقال الإمام : والله لا ينكر إلا كل أعمى قلب :

السعادة لهؤلاء السادة ، أينكر عليهم التحلي بمحاسن الصفات والتخلي عن مساوئها ، وطهارة القلب وجلاله من الصدا ، أم مخالفة النفس الأمانة بالسوء ، وتركها ونهيها عن الهوى ، أم الجد والاجتهاد (في العبادة) ومواصلة الأوراد ، واستغراق الأوقات بالذكر ومراقبة المولى ، أم (ينكر عليهم) حضور القلب ونفي الغفلة عند مذموم الخطرات ، أم الإقبال على الله تعالى ، والإعراض عن سواه من جميع المخلوقات ، أم العمل بعزائم الشريعة المشتملة على مقامات اليقين ، التي هي عندهم التوبة من الغفلة عن الله تعالى ، أم الأحوال الفائضة عليهم من غيظ الفيض ، والمواهب السننية كالحبة لله والشوق إلى الله والأنس بالله والهيبة لله ، أم ينكر المكاشفات وسائر الكرامات ، فليس ينكر شيئاً من جميع المذكورات إلا كل محروم النوال بعيد عن طريق الخير ، جامد غير ذائق ولا معتقد ولا مصدق بما خص الله به الرجال .

أيها الأحبة والصحب :

علم المريدون للإمام أنه من المقربين إلى الله تعالى ، وأوصاهم الشيخ إذا أصابتهم حاجة أن يتوسلوا إلى الله تعالى به فيستجب لهم وفي هذا يقول العارف بالله الولي قضيب البان الموصلية (ت ٥٧٠ هـ) أنه كان في بعض أسفاره فأدركه شيء من الجوع والعطش ، فوقع في باله وخاطره قول شيخه سيدنا عقيل (إذا كنتم في سفر فتوسلوا إلى الله تعالى بي تجدونني) فتوسلوا إلى الله تعالى به فإذا هو بإنسان واقف على صخرة يقول له : تعال فسار نحوه فإذا هو الشيخ عقيل وإذا معه كوز

ماء ورغيفان . وقال له : يا قضيبي البان لا بأس عليك كل واشرب (باسم الله) .

وهذا سيدنا عدي بن مسافر عليه السلام يقول : خرجت من أهلي إلى زيارة شيخي الشيخ عقيل ، فلما قدمت منبج وجدت الشيخ يزور قبر نبي الله يونس ، فمضيت إليه وسلمت عليه وقبلت يديه ، فلما جلست إليه قال لي : يا عدي ! فقلت لبيك يا سيدي . قال : إذا كان لك صاحب وهو ولي الله تعالى أو شيخ ، ووقعت في أمر مهم فاسأل الله به فإنه يستجاب لك ، فلا تعتقد أن ذلك في حياتي فقط ، ولكن في حياتي و بعد مماتي ولكن بشرط أن تكون مظلوماً لا ظالماً . يقول الشيخ عدي بن مسافر ثم قصدت من بعد زيارته زيارة الشيخ علي الكردي (أحد العارفين بالله وهو أبو الحسن القرشي ت ٦٢١ هـ) فقال : إيش سمعت من شيخك الشيخ عقيل ؟

قال : فأخبرته . فقال يا عدي إن شيخك عقيلاً من المدللين على ربه وإنه لصادق فيما قال ، فاسأل الله تعالى به في حياته وبعد مماته فإنه يستجاب لك .

إخوتي في الله : آخر ماعهد المريدون عن شيخهم سيدنا عقيل حجه سنة ٥٥٥ هـ وزيارة سيدنا المصطفى صلى الله عليه وسلم مع شيوخ عصره سيدنا عبد القادر الجيلاني وسيدنا حياة بن قيس الحراني وسيدنا أحمد الزعفراني ، ومعهم شيخ الأولياء وسيدنا الإمام أحمد الرفاعي عليه السلام جميعاً ، وهناك شهد وحضر كرامة مد اليد التي لثم بها السيد الكبير الرفاعي يد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الحجاج قد زادوا عن تسعين ألفاً ، قالوا : لما أشرف سيدنا الرفاعي على المدينة المنورة ترجل مطيته ومشى حافياً إلى أن وصل إلى الحرم الشريف ووقف تجاه الحجرة النبوية العطرة

وقال :

. السلام عليك يا جدّي .

. فقال له رسول الله : وعليك السلام يا ولدي .

وهنا تواجد الإمام الرفاعي لهذه المنحة العظيمة والنعمة الكبرى وحنّ وأنّ وجثا
على ركبتيه مرتعداً وخاطب صاحب الحضرة ﷺ
في حالة البعد روحي كنت أرسلها تقبّل الأرض عني وهي نائبتي
وهذه دولة الأشباح قد حضرت فامدد يمينك قد تحظى بها شفتي
فمد رسول الله ﷺ يده الشريفة النورانية من روضته الزهراء فقبلها سيدنا أحمد
الرفاعي والناس ينظرون ، وأقبل إليه أهل الله والحجيج يبائعون سيدي أحمد ، وممن
بايعه سيدنا عقيل المنبجي ، الذي ختم حياته بهذه المكرمة ، بعد أن عاد إلى منبج
وسكنها أربعين سنة وهو بعد ما زال هناك ، يزار هناك كما يتوسل به هنا ، وما
أدراك ما هنا ، هنا مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

المصادر:

- . الإصابة لابن حجر العسقلاني .
- . جامع كرامات الأولياء للنبهاني دار الفكر ١٩٩٢ .
- . حقائق عن التصوف عبد القادر عيسى مكتبة العرفان حلب ١٩٩٣ .
- . حياة الصحابة للكاندهلوي دار الريان للتراث القاهرة ١٩٨٧ .
- . الرسالة القشيرية لأبي القاسم القشيري دار الخير ١٩٩١ .
- . شواهد الحق في الاستغاثة بسيد الخلق للنبهاني دار الفكر ١٩٩٠ .
- . طبقات الأولياء لابن الملقن مكتبة الخاني القاهرة ١٩٩٤ .

(٧١٢)

الإمام محمد الجزولي

(٨٠٧ . ٨٧٠ هـ)

الحمد لله الذي أحيا قلوب المؤمنين باتساع رحمته ، وألهمهم من حسن التوسل ما يدفعون به عظيم أخذه وعقوبته ، ووهب لهم من حكايا الصالحين والأولياء ما يتوصلون به إلى منازل جنته ومغفرته .

فسبحانه من إله شرفنا بملة التوحيد ، وأرسل لنا سيد الخلق والعبيد ، وجعل لنا صلاتنا عليه شفيعاً لنا بين يديه ، فمن أراد تكفير الخطايا والزلات ، وبذل العطايا والصلوات ، والحلول في أعلى الدرجات فلكثير على سيدنا محمد من الصلوات

أدم الصلاة على النبي محمد فقبولها حتماً بغير تردد أعمالنا بين القبول وردّها إلا الصلاة على النبي محمد وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، يشاركه شيء وكل الأشياء خليقته ، من قابل إحسانه بالإساءة نادى عليه شقوته .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيه وخليله ، بشر بطاعته المتقين ، وأنذر بمعصيته المجرمين حتى قامت على الخلائق حجته :

نبي الهدى ضاقت بي الحال في الورى وأنت لما أمّلت فيك جدير
فسل خالقي تفريج كربى فإنه على فرجى دون الأنام قدير

اللهم صلّ وسلم وبارك على سيدنا محمد سيد الكائنات وخير البريات الحائز لأعلى
الكمالات فبه ترفع الدرجات وتمطر الرحمت وتنال الخيرات ، وهو الواسطة في نيل
كل خير في الحياة وبعد الممات .

اللهم زده شرفاً على شرفه الذي منه خلقتة . وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام

كنت وقفت معكم قبل حج بيت الله الحرام عند ملف الشخصيات الإسلامية
قبل أن نرد على أعداء المرأة الذين يريدونها أن تنحرف عن جادة القرآن والسنة
بحجة الحرية الشخصية .

وها نحن اليوم نعود بحمد الله تعالى (والعود أحمد) بعد أن ردّ سبحانه هؤلاء
بغیظهم لم ينالوا خيراً إلى الحديث عن تلك الطبقة التي حملت الراية بأمانة وأدوها
بأمانة، نعود إلى عصر المخلصين الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه لنكمل ما بدأناه
إلى تمام المئة الأوائل إن شاء الله تعالى، ريثما تتابعون عليّ اقتراحاتكم عن الملف
القادم الذي تريدون مني الحديث عنه ، فأنا بانتظار اقتراحاتكم لأنها غالية على قلبي
غلاوة أصحابها.

إخوة الإيمان : أزور اليوم مع حضراتكم علماً من أعلام الشخصيات الإسلامية
رزق كتابه القبول والاشتهار ، وأعطي لكتابه ما لم يعط لغيره من الشروح والحواشي،
كتاب ولعت به العامة والخاصة به عن الشيوخ المغاربة والمشاركة، بل إن بعضهم
رأى النبي ﷺ يناوله هذا الكتاب.

هذا الكتاب حفظه أهل الله عن ظهر قلب، واهتم به العلماء الأخيار بعد أن لمسوا بركته، ونالوا به منازل الأبرار، أتعرفون بماذا ؟ بكثرة الصلاة والسلام على النبي المختار.

فنحن اليوم مع سيد طريقته مبنية على كثرة الصلاة على النبي، والمواظبة على كتاب دلائل الخيرات، وفضل على عصره بكثرة الصلاة على النبي وإعداد المريدين للجهاد في سبيل الله، مما أعطى لطريقته نكهة خاصة .

نحن اليوم مع ولي كان يردد لمريديه : عليكم بذكر الله العظيم والصلاة على سيدنا رسول الله وزيارة الأولياء، فبذكر الله تطمئن القلوب ، وبزيارة أولياء الله تعرف الطريق إلى الله تعالى.

إننا مع أحد أعلام الأمة وقطب وقته وولي عصره سيدي مُحَمَّد بن سليمان الجزولي الحسني المغربي صاحب كتاب دلائل الخيرات.

ومع بداية الحلقة الرابعة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتعرضوا عن الإمام مُحَمَّد الجزولي رضي الله عنه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد سيدنا أبو عبد الله مُحَمَّد بن سليمان الجزولي في المغرب العربي من أسرة تنتسب لآل بيت رسول الله من جهة جدي سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهما والجزولي نسبة إلى قبيلة من البربر في المغرب.

ولد سنة سبع وثمانئة هجرية على التقريب، في دار بقي العالم الإسلامي يتبارك بها حتى اليوم، والتبرك لا ينكره إلا أعمى القلب والبصيرة ذلك أنه بذكر الصالحين

تتنزل الرحمات، فكيف ببيوتهم التي لا زموها، يقرؤون فيها القرآن ويذكرون الله تعالى على كل حال آناء الليل وأطراف النهار.

هكذا كان شأن هذا الإمام ، إذ التحق بأحد جوامع فاس وزواياها فحفظ القرآن واشتغل بطلب العلم وحفظ كتباً كثيرة وألف بها رسائل.

وكانت زوايا التصوف ملجأ العلماء أثناء الفتن الحاصلة في عصره، حيث يجدون الطمأنينة وراحة البال والقناعة بما قسم الله تعالى.

كان يخلو في غرفته التي سكنها في المدرسة فلا يُدخل عليه أحداً ، حتى ظنوا أن فيها مالا ، وأرسلوا لأبيه يخبرونه ، فجاء ودخل عليه الغرفة فوجده قد كتب على حائط غرفته : الموت ، الموت ، الموت .

فكان الإمام الجزولي يربي نفسه بنفسه ، فَمَنْ جعل الموت بين عينيه ينشأ مخلصاً صادقاً في حياته ، فكفى بالموت واعظاً .

إخوتي في الله: نشأ الفتى زاهداً في الدنيا طالباً للعلم إلا أن فيه خصلة جعلته في الأوج بين علماء عصره ، إذ قرأ في البخاري أن السيد الأعظم عليه السلام يقول: (إن أولى الناس بي أكثرهم عليّ صلاة) فراح يكثر من الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ثم جرت له حادثة دعت به إلى أن لا يفتّر بالصلاة على النبي في جميع أوقات فراغه، بل كانت هذه الحادثة سبباً في تأليف كتابه دلائل الخيرات، إذ إنه قام ليتوضأ في ليلة فلم يجد الدلو الذي سيخرج به الماء في البئر، فبينما هو كذلك إذ نظرت صبية من مكان عالٍ فقالت له: من أنت ؟ فأخبرها. فقالت له: . أنت الرجل الذي يثنى

عليك بالخير، وتتحير فيما تخرج به الماء من البئر؟! وبصقت الصبية في البئر ففاض ماؤها حتى ساح على وجه الأرض .

وتوضأ الشيخ وهو منذهل فلما فرغ ناشدها الله وأقسم عليها لتقول له بم نالت هذه المرتبة . فقالت الفتاة بكلمتين : بكثرة الصلاة على النبي ﷺ وهنا عاهد الله تعالى تعظيماً لنبيه الكريم أن يؤلف كتاباً في الصلاة على النبي ﷺ وتوجه إلى خزانة كتب في منطقة فاس في أحد المساجد، وجمع كل ما روي عنه ﷺ من صلوات، وعن غيره من فضلاء أئمة.

وبقي يتابع عمله فيه حتى وهو منتقل بين البلدان يطوف بين الحجاز ومصر والقدس الشريف بحثاً عن إمام الوقت الشيخ العارف بالله ، لكنه وبعد سنوات سبع لم يعثر على ضالته ، فعاد إلى المغرب بعد أن أدى مناسك الحج وزار الحبيب الأعظم ﷺ وبقي مجاوراً في المدينة ثلاث سنوات.

عاد الإمام ليجد أهل بلده متخصصين لمقتل واحد منهم، فحاول إصلاح ذات البين وقال لهم: أنا أتحمل قتلته ، فاستحيوا منه، وكان من عادتهم أن إخراج القاتل من بينهم شرط للاصطلاح ، وعاود الإمام الغربية فخرج إلى طنجة، لكن أهل الله ردوه إلى بلده لتدريس الشريعة والتف حوله عدد من طلاب العلم نبغوا به ، منهم أحد علماء عصره الشيخ زروق الفاسي (٨٤٦ . ٨٩٩ هـ) وهذا التلميذ هو الذي دل الإمام الجزولي على شيخ وقته في المغرب الشيخ محمد أمغار الصغير (ت أواسط القرن التاسع) .

يا أحباب رسول الله : هذه المرحلة من أهم مراحل حياة الإمام ، ولذا اسمحوا لي أن أنتقل بحضراتكم إلى هناك ، إلى شواطئ المحيط الأطلسي حيث ملتقى البحرين إمامنا " الشيخ أمغار (فترضوا عنهما) .

الشيخ محمد أمغار كانت أسرته تتوارث الصلاح والتقوى كما يتوارث الناس المال ، كان من المتمسكين بالسنة ، وله قدم راسخة في علم القوم والعربية ، وكان له من الأتباع قرابة اثني عشر ألفاً أو يزيد ، كلهم يلازمون الصلاة على سيدنا رسول الله ﷺ .

هناك أخذ الإمام الجزولي على شيخه الورد الشاذلي ، ودخل الخلوة للعبادة ، أتدرون كم يوماً خلا بربه عز وجل ؟ نحو أربعة عشر عاماً ، يراقب الله تعالى في جميع أحواله واقفاً عند حدوده ، عاملاً بكتاب الله وسنة رسوله ، إلى أن اشتهر بالصلاح وظهرت منه الكرامات وتاب على يديه خلق كثير .

يخيم في كل يوم القرآن بكامله ، ويقرأ كتابه دلائل الخيرات ، ويتكلم عن فضل الصلاة على النبي ﷺ حتى انتشر ذكره في الآفاق ، وملاً الأسماع وأخذ في تربية المريدين بعد أن أذن له شيخه بذلك .

أريد منكم اليوم أن تحضروا معي درس هذا الإمام لتروا مدى النور والحكمة اللذين آتاهما الله إياه ، أدعوكم جميعاً لحضور درس التوبة ، فهيا إلى هناك لعل الله يرزقنا توبة نصوحاً ، يقول سيدي الإمام محمد الجزولي :

" للتوبة تسعُ علامات وهي الحسرة والندامة والإنابة والخشوع والتواضع والابتغال والمداممة على آيات الذكر ، والرضا بالقضاء وحسن الظن بالمولى عز وجل ."

واعلم يا أخي في الله . أنَّ سبعة تقطع عن الارتقاء بالتوبة وهي: الحقد والحسد والعُجب والرياء والكبر وحب المحمدة ولذّة الرياسة .
ومن كان في قلبه ثلاثة أمور وهو يدعو إلى التوبة فهو زنديق : الافتخار بالعلم .
وسوء الخُلُق . وسوء الظن بالخلُق .

ومن شرط التائب أن يقتدي بشيخ عالم بالظاهر والباطن ، ويعدّ المشي إليه نوراً ورحمة وسراً في القلوب ، الشيخ الواصل حبل الله في أرضه ، من تعلق به وصل .
وإذا لازم الشيخ وجب أن يتأدب معه بعشرين أدباً :

خمسة في حال الجلوس : وهي السكينة والوقار والهيبة والحياء والخوف .
وخمسة في حال الغيبة : وهي المراقبة نحوه ، والافتقار إليه والتواضع والاستمساك بعنانيته ، والمداممة على ذكر فضائله في قلبه بالتعظيم .

وخمسة في حال ذكره : وهي النظر إليه والرجاء فيه والاستنصار ببركته والنظر فيما بينك وبينه في العقيدة .

وخمسة في حال المحبة : وهي مداومة الحب ومداومة الشوق والحمى نحوه والهيم والاندهال من الاشتياق إليه .

وهكذا . معشر السادة . حضرت وإياكم درس هذا الإمام الذي كثر مريدوه حتى بلغوا ألوفاً ، كلما دخل قرية وكثر مريدوه أخرج منها حتى قضى سبع سنوات وهو ينتقل بين البلدان بالدعوة إلى الله تعالى حتى خاف منه أحد الوزراء فبعث إليه من يدس له السم في طعامه ، فقام الإمام ليصلي فما إن سجد السجدة الأولى في الصلاة حتى قبضه الله إليه ساجداً عام سبعين وثمانمئة (٨٧٠ هـ) ودفن بجوار مسجد أسسه هناك ، وقام أحد تلامذته وكان سيافاً فقتل كل من كان سبياً في سم شيخه .

أيها السادة الأعزاء : كنت أريد أن أسدل الستار على حياة هذا الإمام ، لكنّ مشهداً عجيباً حدث بعد وفاته بستين سنة يدل على كرامته عند ربه إذ أن سلطان مراکش أبي إلا أن يعود الجثمان إلى مراکش فأمر بحمل الجثمان إليه ، فلما فتحوا قبره رأوا الإمام كما هو كأنه دفن الآن .

حفظت أمتنا الأرض جسده الطاهر كما تحفظ أجساد الأنبياء والشهداء ، وقد مات شهيداً مسموماً ، وهو أحد الرجال السبعة في مراکش الذين منهم القاضي عياض وسيدي عبد العزيز الدباغ ، وتواترت أن رائحة المسك تشم في قبره من كثرة الصلاة على النبي ﷺ وهكذا كل مجلس يصلى فيه على الحبيب الأعظم تصعد منه رائحة مسكية فتبلغ عنان السماء فتقول الملائكة : إلهنا وسيدنا ما هذه الرائحة المسكية ؟ فيقول الله تبارك وتعالى :

. يا ملائكتي هذا مجلس صُلِّي فيه على حبيبي مُحَمَّد .

عَوْد لسانك كثرة الصلاة على مُحَمَّد خير ما به قد اشتغلا
فهو المصيد به أيها الرجل فاصطد به الخير لا تصطد به الحيلا
من في صحيفته من الصلاة على مُحَمَّد قدر سطر يعدل الجبلا

من أدعية الإمام

اللهم امنن علينا بصفاء المعرفة وهب لنا تصحيح المعاملة بيننا وبينك على السنة
والجماعة وصدق التوكل عليك وحسن الظن بك وامنن علينا بكل ما يقربنا إليك
مقروناً بالعفو في الدارين يارب العالمين .

يارب أظننا في ظلّ عرشك يوم لا ظلّ إلا ظلك ، يارب اكفنا بك أنت الكافي
من كل شيء ولا يكفيني عنك شيء ، يارب لا تحرمنا كرمك فأنت الكريم الأكرم
يارب ملكني نفسي ولا تسلطها علي فإنك أنت الله الملك الفعال .

يارب عدلك حق وقوتك صدق فاجعلني من الذين وعدتهم مغفرة وأجرأ
عظيماً يارب لا أرجوا أحداً سواك فأنت رجائي ومقصودي يا من يهدي من
يشاء إلى صراط مستقيم اهدنا أوضح السبل إليك ودلنا عليك بجاه أنبيائك
وأصفياك.

يارب نجنا من فتنة الطاعة ومن شر العصيان يارب صبرنا على طاعتك وعن
معصيتك واجعلنا من الصابرين في البأساء والضراء بمنك ، يارب ضاقت علينا
الأرض بما رحبت وضاقت علينا أنفسنا وأيقنا ألا ملجأ منك إلا إليك ، يارب

عفوك أعظم من ذنوبنا وأوسع فاعف عنا بجودك وعفوك يارب أغني بحلالك عن
حرامك وبطاعتك عن معصيتك وأغني بك عمن سواك فإنك أنت الغني المنان .
يارب افتح لنا أبواب رحمتك وأبواب فضلك وافتح قلوبنا بنور معرفتك حتى لا
نعرف أحداً سواك ولا نرى في الوجود إلا إياك .

يارب طهرنا من كل وصف يمنعنا عنك وعن الوصول إليك واضرب روحي إلى
حضرة قدسك يارب طهرنا من آفات إبليس وجنوده وحل بيننا وبينه وبين من يريد
أن يمنعنا عنك ، يارب أشهدنا عظمتك وكبرياؤك وارزقنا الشهادة يارب هون علينا
السلوك إليك وهب لنا نوراً نتهدي به إليك .

المصادر :

- | | |
|----------------------------|---|
| ابن الزيات | . التشوف إلى رجال التصوف |
| مُحمَّد بن مُحمَّد مخلوف | . شجرة النور الزكية في طبقات المالكية |
| د. حسن حلاب | . مُحمَّد بن سليمان الجزولي |
| العباس بن إبراهيم التعارجي | . الإعلام بمن حلّ مراكش وأغمات من الأعلام |
| مُحمَّد المهدي الفاسي | . ممتع الأسماع في ذكر الجزولي والتبّاع ومالهما من الأتباع |
| الشيخ يوسف النبّهاني | . الدلالات الواضحة على دلائل الخيرات |
| عبد المغيث بصير | . التعرف الشمولي بالإمام الجزولي |
| ١٩٧٦ | . ألف سنة من الوفيات ص ٢٥٧ : دار المغرب للطباعة والنشر الرباط |

(٧١٣)

الملك المظفر ملك إربل

الحمد لله الذي الذي أطلع كواكب سعود المصطفى فطلعت ، وألمع بوارق وجوده فلمعت ، وبث أنوار أقمار شهوده فتألأت وسطعت ، وقطع آمال الكفار من مرادهم فانقطعت ، وأذل ملوكهم بعزه فذلّت لهيبته رقابهم وخضعت ، فالأنس بقدمه قد تأنست وارتفعت ، والجن من استراق السمع قد منعت ، والأفلاك قد سجدت وركعت ، وآمنة قد فازت بما حازت حين لجمال هذا الحبيب وضعت ، وحليمة الحليمة تشرفت له إذ أرضعت ، وألسنة المداح قد أثنت بشكره في الآفاق وأسمعت فيا رسول الله :

إني أتيتك وافداً عن أمة	بالشام ترجو كل خير للورى
حلت بها الأهواء في أرجائها	وتقطعت والأمر صار منكرا
أدرك أبا الزهراء قوماً فرّقوا	وأغث بإذن الله شعبك بالعري
صلى عليك الله يا خير الورى	صلى عليك الله ربي مكررا

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له المستحق لكمال النعوت والصفات ، المسبّح بصنوف اللغات ، المحمود على جميع الأفعال والحالات ، حمداً دائماً على ممر الأوقات والساعات .

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله استخرجه من أشرف الآباء والأمهات ، وابتعثه بالمعجزات البالغات والآيات والحجج الواضحات وختم به النبوة والرسالات ، فمن أراد أن يكون حبيباً للحبيب فلكتثير عليه من الصلوات .

اللهم صلّ وسلم وبارك وعظم على سيدنا ومولانا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه
وعترته وأنصاره وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد: فيا معشر الإخوة الكرام :

أعجبني جداً الحديث عن الملوك الشباب الذين حملوا الراية الإسلامية بصدق
وأمانة ، لذلك جئتكم اليوم بملك شقيق للسلطان مُحَمَّد الفاتح ليس شقيق النسب
وإنما شقيق الدين والأدب ، شقيق العدل والجهاد ، شقيق الاتباع والمحبة لسيدنا
رسول الله ﷺ .

هو سيد كريم كان من أدين الملوك وأجودهم وأكثرهم براً ومعروفاً على صغر
مملكته ، لم يكن في الدنيا شيء أحب إليه من الصدقة والبذل ، لا للشعراء ، فما
كان للشعراء منه حظ ، ولكن للفقهاء والفقراء والوعاظ والمحتاجين ، تراه على طول
حياته يجلس العلماء ويديني مجالسهم ويستسلم لهم ، ويهش للوعظ ويصغي للفوائد .
ولا تسأل عن أخلاقه العالية فهو كثير التواضع ، حسن العقيدة ، سالم البطانة ،
شديد الميل إلى أهل السنة والجماعة ، لا يتفق عنده من أرباب العلوم سوى الفقهاء
والمحدثين ، وله ميزتان عظيمتان لم تكن لأحد من قبله :

أما الأولى : فهي أنه أول من أجرى الماء إلى جبل عرفات ليلة الوقوف بعرفة ،
ودفع فيه أموالاً طائلة ، وجعل بجبل عرفة مصانع للماء (صهاريج) يستسقي منها
الحجاج فجراه الله خير الجزاء .

وأما الثانية : فهي أنه أول من احتفل بالمولد النبوي الشريف بشكل يقصر
الوصف عن الإحاطة به لشدة محبته لسيدنا رسول الله ﷺ سبق بها مهرجانات
الاحتفال بمولد سيد البرية .

وهو على هذا وذاك فارس شجاع ، كانت له اليد الطولى مع صلاح الدين الأيوبي وصاحب حماه (والي حماة) في النصر بموقعة حطين ، أما صلاح الدين فلا يخفى على أحد ، وأما ملكنا اليوم فهو الملك المظفر الذي لجرأته في الحرب ومعرفته بفنون القتال لقب بالذئب الأزرق ، إذ ما عرف الهزيمة قط .

إننا معشر الإخوة الكرام مع الحلقة الثامنة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الملك مظفر الدين :

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه .

إخوة الإيمان : ولد الملك المظفر (واسمه كوكبوري بن علي) بقلعة الموصل سنة ٥٤٩ هـ من أصل تركماني ، وكان والده أميراً من أمراء التركمان يتصف بالقوة المفرطة والجرأة البالغة ، وكان من قواد آل زنكي ، فتح الفتوح الجليلة وولي أعالي العراق والجزيرة ، ولما كبر وقارب المئة تنازل عن حكم عدد من المناطق وأبقى لنفسه مدينة إربل قرب الموصل شمال العراق ، وحين توفي سنة ٥٩٣ هـ تولى ابنه الملك المظفر هذا إربل وكان عمره أربع عشرة سنة .

لكن قائد جنده تعصّب عليه بعد مدّة ، واعتقله وأقام أخاه يوسف مكانه ثم أخرج الملك المظفر من البلاد ، فإلى أين توجه ؟!

توجه إلى السلطان صلاح الدين جندياً مجاهداً في سبيل الله ، فحظي عنده و لشجاعته وحنكته الحربية زوجه أخته . وجعله يده اليمنى إذ شهد مع صلاح الدين مواقع الجهادية ، وأبان فيها عن نجدة وقوة نفس وعزيمة صادقة ، ولما تضعضع الجيش الإسلامي غداة معركة حطين وكاد ينكسر ويتمزق رأينا كيف ثبت الملك المظفر مع صاحب حماه والسلطان صلاح الدين ، ثبتوا في قطعة من الجيش وتلقوا

بصدورهم هجمة الإفرنج ثم ردّوها كما تتلقى صخور الشاطئ الموجه العاتية العالية ثم تردّها ، وعاد بذلك الجيش الإسلامي إلى مواقعه بالنصر الأبلج في موقعة حطين الذي لا تزال تتحدث حديثه العصور .

إذا بقدر الله يتجلى بموت أخيه يوسف ، فالتمس المظفر من صلاح الدين أن يعيد إليه إربل ، فدفعها إليه سنة ٥٨٦ هـ .

فكيف سار الملك بأهل إربل ، هل جمع المال من حلّه ومن حرامه وأرسلها إلى بنوك سويسرا ، هل كان متكبراً وقد دخلها بعد أن أُخرج منها ؟

إن درس الملك المظفر درس لكلّ ملوك الأرض وحكام الدول ، إنّ سيرة الملك المظفر في السلم أعظم من سيرته في الحرب ، هناك النجدة والثبات والظفر ، وفي السلم العدل والإحسان والكرم ، وليس ذلك عجباً ولا نادراً في ذلك العصر ، فإن الناس على دين ملوكهم ، ومتى صلح الرأس صلحت الجوارح ، ومتى كان السلطان مثل صلاح الدين كان الأمراء مثل الملك المظفر .

إننا نسمع عن لينين وخرشوف وزعيم الإلحاد في العالم ماركس ، بأنهم كانوا ينادون بالعدالة الاجتماعية ، نعم نادوا بها ولكنهم كانوا يملكون كل شيء وشعوبهم تموت جوعاً ، يتنعمون بكل نفيسة وشعوبهم لا يجدون ما يسدّ رمقهم ، كلهم كذابون على شعوبهم ، من أراد أن يعرف العدالة الاجتماعية على حقيقتها فليقرأ لأتباع سيدنا محمد ﷺ .

إخوتي في الله : مازلت أنقل لكم هذه الأنباء من شهود العيان الذين كانوا في عصر الملك المظفر ، فقد بلغت العدالة الاجتماعية عنده أوجها فلم يسمع عن ملك من الملوك صنع مثلما كان يصنع ، وقد ترجمه عدد من المؤرخين فلا أدري أكنت أقرأ سيرة ملك من الملوك أم رئيس جمعية خيرية ، فلم يكن في الدنيا شيء

أحبَّ إليه من الصدقة ، فاسمحو لي . أيها السادة . أن أتقل بحضراتكم من هنا إلى هناك ، إلى شمال العراق فرج الله عنها لأشهد معكم هذه المشاهد التي لم نسمع عنها إلا نادراً :

فقد بنى المدارس الشرعية وعيَّن فيها فقهاء من الشافعية والحنفية، ونفقة الطلاب والمدرسين على حسابه الخاص . وبني مشفى كبيراً وداراً للنساء الأرامل وداراً للصغار الأيتام ، وداراً للعميان والمرضى أصحاب المرض المزمن ، وداراً للملاقيط ووضع فيها مرضع ، وكل مولود يلتقط يحمل إليه فيرضعنه ، وكان يقوم عليها بجولة تفتيشيه مرتين في الأسبوع يتفقدهم ويقدم لهم والكسوة والدنانير هذا على الصعيد العلمي والاجتماعي والصحي ، أما على الصعيد اليومي فكان له في كل يوم قناطير مقنطرة من الخبز يفرّقها على الفقراء والمساكين في عدة مواضع من البلد ، وكانت له دار ضيافة للمسافرين والحجاج ، كلما قدم إليها أحد نزل معزلاً مكرماً (الضيف ضيف الله) ، فإذا ما غادر زوّده بنفقه تليق به وبأمثاله .

وعلى صعيد الجهاد في سبيل الله : كان له أمناء يسرون إلى بلاد الكفار يفتكّون الأسرى المسلمين من أيديهم .

معاشر المسلمين : هذا غيض من فيض ، وكأنه شيء من الخيال لكنه حقيقي وواقعي ، والأدهش من هذا ، والوصف الذي يقصر عن الإحاطة به هو احتفاله بمولد سيدنا محمد رسول الله ﷺ . والاحتفال بالمولد يا سادة مشروع ومطلوب تعظيماً لهذا النبي الذي وصفه ربه عز وجل بقوله ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾ وكيف لا يحتفى به وقد احتفى القرآن بولادة سيدنا موسى وسيدنا عيسى عليهما الصلاة والسلام وقد كان ﷺ يصوم يوم الاثنين والخميس فلما سئل كما في مدرسة الإمام مسلم . لماذا تصوم الاثنين ؟ قال: " ذلك يوم ولدت فيه " وكيف لا

يحتفل بيوم مولده وهو الرحمة المهداة التي قال عنها رب العزة والجلال ﴿قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا﴾

وقد قدم رسول الله ﷺ المدينة فوجد اليهود يصومون عاشوراء فقالوا : إنه اليوم الذي نجى الله فيه موسى من فرعون فقال رسول الله : " نحن أولى بكم من موسى " . فصامه وأمر الناس بصيامه . فإذا كان موسى قد نجاه الله من فرعون فاتخذ رسول الله يوم نجاته عبادة ، فكيف بمن نجى الله به الكون كله من أوثان كانت تعبد في الأرض وشرك ووثنية

لقد ضرب الصحابة أيها الأخوة أروع الأمثلة باحتفالهم بسيد الخلق وحبيب الحق ﷺ ، ها هو سيدنا عبد الرحمن بن عوف يصرح التصريح التالي فيقول :
" كنا نتدارس سيرة رسول الله ﷺ كما نتدارس القرآن " وكان الصحب الكرام يتداعون بعضهم إلى بعضهم ويقولون : (تعالوا بنا نؤمن ساعة) ، تعالوا يجلس بعضنا إلى بعض نتذكر ما كان عليه رسول الله ﷺ ليزداد الإيمان في قلوبنا"
إن الاحتفال بمولد خير البرية وهو بعد أسبوع من الآن يذكرنا كم نحن مبتعدون عن السنة النبوية الشريفة ، ويدعونا للاقتداء والانتصار لهذا النبي المختار .

إن هذه الأشعار يا سادة ((الأناشيد الدينية)) غير المصاحبة لآلات اللهو المحرمة والتي تمدح سيدنا رسول الله ﷺ هي من عين السنة النبوية ، فكم وقف الشعراء أمام الحبيب الأعظم ينشدون المديح الشريف كسيدنا عبد الله بن رواحة وسيدنا حسان بن ثابت وسيدنا كعب بن زهير وغيرهم والنبي يسرّ بهم ويشيبهم على مديحهم ، بل إن أهل المدينة كلهم استقبلوا القادم العظيم من مكة ومعه صاحبه الصديق يضربون بالدفوف وهم ينشدون :

طلع البدر علينا	من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا	ما دعا الله داع

وانطلقت ألسنة الجواري من بني النجار وهن ينشدن بحضور رسول الله ﷺ ويقولن :

نحن جوار من بني النجار يا حبذا محمد من جار
وارتجز الصحابة الكرام في أثناء بناء المسجد النبوي الشريف والنبي يسمعهم ويقرهم
وهم يقولون :

لئن قعدنا والنبي يعمل فذاك منا العمل المضلل
بل كان يحرض سيدنا حسان بن ثابت على إنشاد الشعر الإسلامي ضد معسكر
الشرك ويقول له : " اهجمهم وروح القدس يؤيدك "
لكن يشترط في هذه الأناشيد . يا سادة . شرطان :

الأول : ألا يوصف رسول الله بالصفات التي تخرجه عن العبودية ، أي بالصفات
التي هي من حق الله تعالى ، فقد أنشدت الجواري بين يديه مرة إنشاداً فإذا بهن
يقلن : وفيما نبي يعلم ما في غد . فنهاهن ﷺ عن هذا الكلام .

الشرط الثاني : ألا يصاحبها آلة لهو محرمة كما يفعل بعض الفساق من المنشدين
في المفسديون والحفلات (عليه من الله ما يستحق)

بل هناك **شرط ثالث :** وهي ألا يكون فيها اختلاط بين الجنسين (الذكور
والإناث) فإنه محرم (محرم سماعه ومحرم حضوره)

أيها الأحبة والصحب : إن الإنشاد الديني يحبه رسول الله ، يحبه ، يحبه على رغم
أنف المعاند ، وهو القائل في مدرسة البخاري : "إن من الشعر لحكماً" .
والدليل أيضاً أن سيدنا رسول الله ﷺ لما ألقى سيدنا كعب بن زهير قصيدته
العصماء :

بانت سعاد فقلبي اليوم متبول متيم إثرها لم يفد مكبول
وحين وصل إلى قوله :

إن الرسول لنور يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول

قام رسول الله ﷺ من شدة سروره بهذا الشعر فخلع جبته وألبسها كعب بن زهير بل كان سيدنا النبي ﷺ يمتدح بذكر يوم مولده ويقرر هذا المديح وإليكم الدليل:

وقف سيدنا العباس أمام النبي ﷺ عندما رجع من غزوة تبوك وقال له :
يا رسول الله إني أريد أن امتدحك فقال رسول الله : ((قل لا يفضض الله فاك))
فألقى العباس أمام النبي أبيات من الشعر قال فيها :

إنك كنت في صلب آدم طيباً عندما خلقه الله تعالى وأدخله الجنة ثم نقلك الله من
أصلاب الأنبياء إلى أرحام النساء الطيبات حتى وصلت إلى نوح فنجاه الله من
الغرق لأجلك ، ثم انتقلت إلى إبراهيم فنجاه الله من الحرق لأجلك ، ثم نزلت في
أصلاب الأطهار من قريش في البيت الحرام ، ومما قاله محتفلاً بيوم مولده الأغر
مخاطباً أشرف خلق الله :

وأنت لما ولدت أشرقت الأبر
ض فضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي
النور وسبل الرشاد يخرق

بالله عليكم أليس هذا احتفالاً بمولد النبي الأكرم ؟ وأمام من ؟ أمام النبي
الأعظم ﷺ ، هل اعترض عليه النبي ؟ لا ، بل سر سروراً كبيراً من عمه العباس
وقال ﷺ : لا يفضض الله فاك .

إن الفرح بسيدنا رسول الله وتقديم الطعام في حبه قرينة إثر قرينة والنبي يقول (م) (من)
سنّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة) :

١ . قال الصحابي الجليل ابن مسعود رضي الله تعالى عنه :

ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن ، وما رآه المسلمون قبيحاً فهو عند

الله قبيح "

٢ . قال الإمام السيوطي في كتابه الحاوي للفتاوى :
يستحب لنا إظهار الشكر بمولده ﷺ والاجتماع واطعام الطعام ونحو ذلك من
وجوه القربات وإظهار المسرات .

٣ . قال العلامة ابن عابدين : " صاحب الحاشية الشهيرة :
فالاجتماع لسماع قصة صاحب المعجزات عليه أفضل الصلوات وأكمل
التحيات من أعظم القربات لما يشتمل عليه من المعجزات وكثرة الصلوات .
٤ . قال الحافظ العلامة ابن حجر العسقلاني :

قال تعليقاً على حديث الصحيحين " فأنا أولى بموسى منكم فصامه وأمر
بصيامه " فيستفاد منه فعل الشكر لله تعالى على ما منّ به في يوم معين في
إسداء نعمة أو رفع نقمة ، ويعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة ، ثم
قال : وأي نعمة أعظم من بروز هذا النبي ﷺ نبي الرحمة في ذلك اليوم وعلى
هذا فينبغي أن يقتصر فيه على ما يفهم الشكر لله تعالى من التلاوة وإطعام
وإنشاد شيء من المدائح النبوية المحركة للقلوب وإلى فعل الخير والعمل للأخرة .
٥ . قال الإمام الحافظ المفسر السيوطي رحمه الله تعالى في تفسير آية (قل بفضل
الله وبرحمته ..) ناقلاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه " فضل الله العلم ورحمته
مُحَمَّدٌ ﷺ "

٦ . عن معاوية رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ خرج على حلقة من أصحابه فقال: ما
أجلسكم ؟ ، قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومنّ به
علينا ، قال : الله ما أجلسكم إلا ذلك ، قالوا : الله ما أجلسنا إلا ذلك قال :
أما إني لم أستحلفكم تهمة لكم ولكنه أتاني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم
الملائكة " (رواه مسلم والترمذي والنسائي)

إن من يبدع المحتفلين بالمولد فإنه يبدع كبار علماء الحديث النبوي الشريف وهم
أعلم بالبدعة من غيرهم

هؤلاء الخراصون يتهمون سيدنا ابن حجر العسقلاني شارح البخاري وأمير
المؤمنين وابن كثير تلميذي ابن تيمية بالابتداع، إنهم يتهمون الحافظ السيوطي
وقبله الإمام العراقي وابن حجر الهيتمي شيخ علماء مكة بأنهم مبتدعون لاسمح الله
فهؤلاء جميعاً ألقوا في المولد النبوي الشريف
إذا كان هؤلاء مبتدعين فنحن مبتدعون (خسئوا والله بل هم الذين مرقوا من
الدين)

فكرر رعاك الله ذكر محمد ففي ذكره العيش المهناً والأنس
فكل له عرس بذكر حبيبه ونحن بذكر الهاشمي لنا عرس

فما رأيكم . أيها الإخوة . أن نحضر عرس سيدنا محمد ﷺ الذي يقيمه الملك
المظفر ؟ والله ما هو بعرس فقط ، ولكنه مهرجان عظيم ، مهرجان المولد النبوي
الأول ، أنقله لكم من شاهد عيان هو المؤرخ ابن خلكان صاحب وفيات الأعيان
بعد أن تصلوا على سيد ولد عدنان ﷺ .

يهياً لهذا الاحتفال قبل شهر أو أكثر ، وتبنى له الغرف الخشبية المزينة بالستائر
والأعلام والأضواء ، سرادقات أعجوبة ، أكثر من مئة غرفة ممتدة ويفعل مثل فعل
الملك القواد ورجال الدولة .

ويتوافد الناس من كل مكان إلى أرض إربل حتى يصير مثل أرض المحشر ويعدّ
كل خطيب أحلى خطبة ، وكلّ شاعر أحلى ما عنده في مديح النبي ﷺ ويأخذ
الناس عطلة بمناسبة هذه الاحتفالات ، كلّ الناس يوقفون أعمالهم ويبدأ المهرجان (
الذي يعمل سنة في الثامن من شهر ربيع وسنة في الثاني عشر منه للخلاف الوارد
في يقين يوم مولده ﷺ) .

يبدأ المهرجان بسوق عدد هائل من الإبل والبقر والغنم يتقدمها الأناشيد الدينية وقرع الدفوف وكأنها تزف على شرف الحبيب الأعظم لله عز وجل ، فتذبح كلها ويعد لحمها للولائم التي لم يشهد مثلها أحد من الملوك بهذه المناسبة.

ويخرج الملك بعد صلاة العشاء وبين يديه الشموع العظيمة والمشاعل والناس حتى ينتهي إلى مكان الاحتفال ، وقد نصب له برج كبير يجلس عليه مع رؤساء دولته والعلماء والصوفية . ثم يمر العرض العسكري بين يديه للجيش بفرسانه ورجالاته وأعلام راياته وطبوله ، ثم يمر طلبة المدارس والمنشدون ويستقرون في مكان الاحتفال . ثم يقوم الخطباء والوعاظ يذكرون سيرة الحبيب الأعظم ﷺ رجل من العلماء الصالحين (اسمه ابن دحية) قد ألف رسالة في المولد النبوي الشريف فألقاها في الاحتفال سَمّاها (التنوير في مولد السراج المنير) فكافأه الملك عليها ألف دينار ، وكان إذا أعجبه قصيدة شعر أو إنشاد منشد خلع على صاحبها الخلع والعطايا . ثم يبدأ الإنشاد ومديح النبي ﷺ ويقوم الذاكرون بالذكر ويكثرون من الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ ، وتكون أيام كلها محبة وتوقير وتعظيم لسيدنا ومولانا ﷺ .

فيا أمة الحبيب الأعظم : ها هو شهر المولد النبوي الشريف ، وها هي نسمات هواه ومحبه تهب علينا فمن هو الذي سيحتفل بهذا النبي الكريم محبة به علينا أن نظهر للغرب في هذا العام كم المسلمون يحبون نبيهم ورسولهم وكم يعظمونه، لا تدعوا وسيلة تظهر ذلك إلا فعلتموها لتكونوا كسيرة هذا الرجل الصالح الذي كان أعدل الملوك في الرعية ، ومن نماذج الحكم الصالح وكان حقاً تلميذاً من تلاميذ سيدنا محمد ﷺ في هذه المدرسة هنا وما أدراك ما هنا ، هنا

مدرسة سيدنا محمد ﷺ الجالس فيها عليه أن يرفع التحية إلى النبي الأعظم وتحتنا
إليك يا سيدي :

الصلاة والسلام عليك

المصادر :

- سير أعلام النبلاء ٢٢/٣٣٤.
- النجوم الزاهرة ٦/٢٨٢
- شذرات الذهب ٧/٢٤٣
- وفيات الأعيان لابن خكان ٤/١١٣
- رجال من التاريخ للطنطاوي ٢٦٧
- تاريخ المئة الأولى الهجرية للمؤلف

(٧١٤)

الإمام البوصيري

٦٠٨. ٦٩٦ هـ

الحمد لله على النجم المبارك الذي هوى ، نورالعيون هو ، صاحب أعلى اللوا
ماحاز من الجمال وما حوى ، من فنا الدنيا سرى ، سر الوجود المجتبى ، نعمة
الباري النبي المصطفى .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له مثل النبي لم يخلق في كل الأكوان
مطلقاً ، من قدره قد رقا .

وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله سيد السادات مجلى نور الله في المرآه ،
طاب الفرح بميلاد أطيب المخلوقات ، يامن إذا المكسور ناجاه جبر ، يا صادق
الوعد الأبر ، أنت رجائي في المقر ، أنت النبي المنتظر في الشفاعة والمستقر .
اللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه سادات البشر،
وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

نحن اليوم مع إمام وفارس ، ليس فارس قتال ولكنه فارس شعر ، إذا ذكر شعراء
المديح النبوي فهو فارس هذه الحلبة بلا منازع ، إمام البلاغة والمديح ، أتى بآية من
آيات الفن ، ووردة في جبين الأدب العربي ، ونظم قصائد فيها من الجمال
والتصوير الأدبي ما جعلها غرراً في جبين الدهر ، ومن قصائده قصيدة ذاع صيتها
وبقيت خالدة حتى اليوم ، قصيدة عريقة المقام راسخة القدم في مديح سيد البرية
وصحابته وبيان فضل الشريعة الإسلامية السمحاء ، حاكي فيها قصائد جهابذة
الشعراء في العصر الإسلامي كسيدنا حسان بن ثابت وكعب بن زهير ، ووقع إجماع
الأدباء العلماء والأولياء على أن قصيدته أفضل مدائح الرسول العربي ﷺ .
ولمكانة هذه القصيدة صارت إنموذجاً للشعراء بعده ينسجون على منوالها
ويحرصون على مجاراتها .

إننا مع صاحب قصيدة البردة في الشعر الإسلامي سيدنا الإمام العارف بالله الأديب البليغ والشاعر المجيد والصوفي المتحقق سيدنا شرف الدين محمد بن سعيد ابن حماد البوصيري المصري .

ومع الحلقة التاسعة والسبعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لترضوا عن الإمام محمد البوصيري :
ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد مولانا الإمام البوصيري سنة ٦٠٨ هـ في مدينة بوصير في مصر ، وأصله يعود إلى المغرب العربي ، وتلقته أيدي علماء عصره تثقفه وحبب الله إليه الأدب والشعر خاصة وشيخه في الأدب والنحو واللغة سيدنا الإمام أبو حيان التوحيدي ، كما لزم الإمام الفتح بن سيد الناس من أكابر الأئمة والحفاظ والإمام المعز بن جماعة ، وما زال مكباً على الدراسة حتى اتسعت معارفه وأتقن العلوم بأسرها ، وبرع في صنوف الآداب فأجاد صناعته المنظوم والمنثور وبذّ أقرانه في فنون الشعر والبديع دروس المذهب الشافعي حتى برع فيه وصار يفتي به وقرّ به السلطان الظاهر بيبرس وولاه بعض الوظائف ثم اعتزل الوظائف كلها وانطلق إلى مدينة الاسكندرية حين سمع بسيدنا أبي العباس المرسى (أحمد بن عمر) تلميذ سيدي أبي الحسن الشاذلي رحمه الله ورضي عنه ، فلأزمه وانقطع على يديه إلى التصوف ، ومال إليه ودرس آداب الطريق وأسراره وحضر في مجالسه وأخذ عنه علوم الحقيقة ، ونشأت بينهما محبة ظهرت في شعره وبدت عليه إشارات الولاية ، وظهرت عليه بركة أهل التصوف حتى فاق أهل زمانه ، فلما توفي شيخه أبو العباس المرسى قام بتدريس العلم مكانه وترقى إلى درجة الإفتاء حتى لقب بلقب شيخ علماء الاسكندرية .

ونام ليلة فرأى حصار عكار وفتحها ، ورأى في منامه أن السلطان الظاهر يهاجم عكا ويفتحها ، ويساعده على ذلك شاب أسمر دمشقي يرمي أبراج القلعة الخشبية التي صنعها العدو بالنار فتحرقها .

فما إن انتبه حتى أسرع إلى السلطان الظاهر وأخبره بهذه الرؤيا وكان السلطان يهتم لفتحها فاستبشر بالرؤيا وراح يبحث عن الشاب الدمشقي حتى عثر عليه

وكلفه بصناعة شيء صنع لأول مرة ألا وهو النابالم ، مادة تلتصق بالشيء فتحرقه ،
وفعلاً حاصر السلطان عكا وهاجم القلاع الخشبية ورمها بالنابالم فاشتعلت
واحتوت الأبراج واحدة تلو الأخرى وكبر المسلمون وازدادت حُظوة البوصيري عند
الناس والسلطان .

إخوتي في الله : لما بلغ الإمام هذه المرتبة من الولاية امتحنه الله ببلاء شديد ألا
وهو مرض الفالج ، فمكث الإمام في بيته وأحضر له السلطان الأطباء فأعياهم
معالجته ، وهو صابر محتسب راضٍ بقضاء الله وقدره لأن (أشد الناس بلاء الأنبياء
ثم الأمثل فالأمثل) .

وبدا ينظم قصيدة يستشفع بالنبي إلى الله تعالى أن يعافيه ، وكان كلما نظم أبيات
يكررها بدأها بقوله :

أمن تذكر جيران بذي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بفم

حتى أتمها مئة وستين بيتاً ، وفي ليلة قرأها كاملة وبكى ودعا وتوسل بالنبي ﷺ :
يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيف رسول الله جاهك بي إذا الكريم تجلى باسم منتقم
ما سامني الدهر يوماً واستجرت به إلا ونلت جواراً منه لم يضم

ويختتم البوصيري قصيدته المدحية بالتوسل بجاه النبي ألا يخيب الله رجاءه أن يغفر له
ولسائر المسلمين قائلاً :

يارب بالمصطفى بلغ مقاصدنا واغفر لنا ما مضى يا واسع الكرم
واغفر إلهي لكل المسلمين بما يتلوه في المسجد الأقصى وفي الحرم
بجاه مَنْ بيته في طيبة حرم واسمه قسم من أعظم القسم

قصيدة نظمها بحب ملاً حنايا هذا الإمام وصدق بتوسله إلى الله تعالى وبنام
تلك الليلة فيرى سيدنا النبي ﷺ ، رأى نفسه يلقي القصيدة أمام السيد الأعظم ،
وشاهد السرور قد اعتري الحبيب الأعظم ، ورآه يتميل سروراً ، فلما وصل

البوصيري إلى قوله : (فمبلغ العلم فيه أنه بشر) وقف البوصيري وأرتج عليه فقال له سيدنا رسول الله ﷺ : قل (وأنه خير خلق الله كلهم)

وقام سيدنا رسول الله ﷺ يمسح على وجهه بيده المباركة وألقى عليه بردته ، فانتبه الإمام البوصيري من نومه فرأى نفسه وقد عافاه الله تعالى وقام يمشي على رجله ، فسماها بالبرأة لأنه برئ بها من علته وزاد بها وزاد عليها :

كم أبرأت وصباً باللمس راحته وأطلقت أرباً من ربة اللمم

أيها الأحبة والصحب : خرج الإمام من بيته فجراً فصار الناس يهتفون بشفائه فلقيه بعض الأولياء فاستوقفه وهنأه وقال له : أريد أن تعطيني القصيدة التي مدحت بها رسول الله فقال : أيها . قال : أمن تذكر جيران بذي سلم والله لقد سمعتها البارحة وهي تنشد بين يدي رسول الله ﷺ ورأيت رسول الله ﷺ يتميل وأعجبته وألقى على من أنشدها بردة . فقال : أنا هو الذي ألقيت عليه البردة .

وصار الإمام البوصيري كثير الاجتماع بسيدنا النبي ﷺ في المنام واليقظة وكانت رائحة الإمام البوصيري لاجتماعه بالنبي الكريم تصدر عنه رائحة طيبة مسكية يشمها الكبير والصغير .

وتسامع الناس بالقصيدة وصارت تتلى في كل فرح ومولد ويستشفى بها من الأمراض وكم شفى الله بسببها أناساً كان اليأس قد بلغ من شفائهم ، وتابع الإمام البوصيري مديحه للحبيب الأعظم منظم قصيدة على حرف الهمزة تدعى الهمزية بدأها بقوله :

كيف ترقى رقيق الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء
لم يساووك في علاك وقدحا ل سناً منك دوها وسناء

ويستبد به حب سيدنا رسول الله الذي كان أساس قصائده كلها فيخاطب
رسول الله ﷺ :

هو الحبيب الذي ترجى شفاعته	لكل هول من الأهوال مقتحم
فاق النبيين في خلق وفي خلق	ولم يدانن في علم ولا كرم
فإن فضل رسول الله ليس له	حد فيعرب عنه ناطق بفهم
فانسب إلى ذاته ما شئت من شرف	وانسب إلى قدره ما شئت من عظم

معشر الإخوة :

أستطيع أن أقول : إن حبَّ النبي الأعظم ملاً علياء سماء حياته وكان مخلصاً في
نظم قصائده فإذا بها كالحشيم واشتهرت في العالمين الإسلامي والغربي حتى ترجمت
إلى عدد من اللغات.

وقام السلطان عبد الحميد فأمر بخطها على القباب الداخلية للحرم النبوي
الشريف وقد شاهدتها بنفسي قبل أن تقوم الحركة الوهابية بطمس معالمها وانظروا إلى
رؤوس هذه الشبايبك لتروا أبيات البوصيري تزين هذه الشبايبك بالزخرفة
والسراميك.

وعارضها الشعراء في كل عصر وجبل منهم أمير الشعراء أحمد شوقي .
لكن كل المعارضين لقصيدته ماتوا هم وقصائدهم وبقيت قصيدة البوصيري واسمه
حياً حياة أبدية لشيء واحد فقط وهو حبه الصادق لسيدنا محمد ﷺ بقي حبيبه في
حياته وعند انتقاله إلى الدار الآخرة سنة ٦٩٦ هـ وعاش فقيراً ومات فقيراً وحشره
الله في زمرة المساكين تحت لواء سيد المرسلين تذكروا أنه ختم قصيدته بقوله :

وهذه بردة المختار قد ختمت	والحمد لله في بدء وفي ختم
أبياتها قد أتت ستين مع مئة	فرّج بها كربنا يا واسع الكرم
أبياتها قد أتت ستين مع مئة	اشف بها مرضانا فإن يا واسع الكرم
أبياتها قد أتت ستين مع مئة	ارحم بها موتانا يا واسع الكرم
مولاي صلّ وسلم دائماً أبداً	على حبيبك خير الخلق كلّهم

(٧١٥)

الإمام ابن عطاء الله السكندري

ت ٧٠٩ هـ

الحمد لله الذي فجر ينابيع الحكمة من قلوب الصادقين فجرت وفتح لها أسماع
المحبين والراغبين فسرت ، ونورَ بها بصائر المتوجهين والطالبن فأبصرت .
أحمده حمد معترف بمنته في حمده ، وأشكره شكر عارف بإحسانه ورفده ،
وأستغفره من كل ذنب في هزل العمل وجده ، وأستعينه استعانة من علم أن كل
شيء من عنده .

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له من وقف ببابه الكريم أنجح وملك ،
ومن استند لجناحه العظيم أفلح وسلك ، من حاد عن منهجه القويم خسر وهلك ،
وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله المصطفى المختار والخيار من الخيار
المختص بجميل المآثر وجليل المفاخر وعظيم الذخائر ، المنعوت بفاخر المحامل وكامل
المقاصد وظاهر العوائد أرفع خليقته وأنفع بريته وأجمل ذوي طريقته يا رسول الله
وراءك نمضي :

وراءك يا رسول الله نمضي ويتبع صفنا للمجد صفٌ
على رغم المعاند والمعادي لواء محمد أبداً يرف

اللهم صل وسلم على سيدنا محمد نبيه الكريم وعبده ، وعلى آله وأصحابه
وذريته وكافة أهل وداده ، صلاة تؤدي بها ما وجب من تعظيم قدره ومجده وأسلم
عليه وعليهم تسليماً كثيراً

أما بعد : فيا معشر الإخوة الكرام :

أحب دوماً أن أعرفكم على أعلام الشخصيات الإسلامية ، لأن أبطال الأمة — والله الحمد — لا يعدون ولا يحصون ، ولكننا نزور كل أسبوع الأعلام منهم والمميزين الذين تركوا بصمات في التاريخ لا ينكرها إلا كل أعمى قلب وبصيرة.

ونحن اليوم مع رجل من هؤلاء الأعلام هو واحد من شيوخ خمسة كانوا في عصر واحد أجمعوا على الاقتداء بهم لأنهم جمعوا بين علم الظاهر والباطن ، جمع بين رئاسة علماء الشريعة ورئاسة علماء الحقيقة .

نحن اليوم مع تاج الدين وترجمان العارفين ، مالكي المذهب الاسكندري داراً ، القاهري مزاراً ، يعد أبرز ممثلي التصوف الشرعي المصري في القرن السابع الهجري ، بل أعجوبة زمانه في التصوف عجن ذاته بقواعد التصوف والزهد ، هو أحد أفراد سلسلة الذهب في التصوف وإمام في التفسير والحديث والأصول ، متبحر في الفقه ، كم من تائب على يديه تاب ، وتغيرت أحواله السيئة وأصلح وأتاب ، وكم من غافل تيقظ ، وجاهل به تبصّر ، جعل منذ نشأته الإخلاص رائده ، والصدق والاستقامة منهجه ، فبؤاه الله مكانة علمية مرموقة ، وجعله نبزاً يقتدى به .

إننا مع الشيخ القدوة شيخ الطريقتين وإمام الفريقين العارف بالله تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عطاء الله السكندري صاحب الحكم المشهورة ، ومع الحلقة السادسة والثمانين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا عن الإمام ابن عطاء الله السكندري

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : ولد إمامنا ونشأ في الإسكندرية في النصف الثاني من القرن السابع الهجري، نشأ طالباً فذاً للعلوم الشرعية من تفسير وحديث وفقه وأصول والعلوم العربية، وكان في أثناء دراسته يقابل الصوفية فينكر عليهم إنكاراً شديداً ويتعصب لعلوم الفقهاء ، وربما قال في الصوفية قولاً عظيماً، ثم جذبت العناية بعد أن صار إماماً من أئمة الإسلام ومدرساً في الجامع الأزهر ، سمع عن سيدنا المرسى أبي العباس (أحمد بن عمر ، ت ٦٨٦ هـ) علامة زمانه في العلوم الإسلامية وخليفة سيدنا أبي الحسن الشاذلي (ت ٦٥٦ هـ)، قطب من أقطاب عصره، قال عنه سيدنا أبو الحسن الشاذلي: " إنه أعلم بطرق السماء منه بطرق الأرض، منذ عرف الله لم يحجب عنه " وكان سيدنا أبو العباس عليه السلام نفسه يقول: " لو احتجبت من رسول الله ساعة ما عددت نفسي من جملة المؤمنين " أتدرون لماذا ؟ لأنه كان يصلي على النبي ﷺ كل يوم خمسين ألف مرة

سمع بهذا الإمام ابن عطاء الله فقال لنفسه : أريد أن أنظر هذا الرجل ، فصاحب الحق له إمارات لا يخفى شأنه ، فأتى مجلسه فوجده يتكلم في درجات السالكين إلى الله تعالى ، سمعه يقول :

الأولى في درجات السالكين إلى الله تعالى : الإسلام : وهو درجة الانقياد والطاعة والقيام بمراسيم الشريعة .

وثانيها : الإيمان : وهو مقام حقيقة الشرع بمعرفة لوازم العبودية .

وثالثها : الإحسان : وهو مقام شهود الحق تعالى في القلب .

وإن شئت قلت : الأولى عبادة . والثانية عبودية والثالثة : عبودة

وإن شئت قلت : الأولى شريعة . والثانية : حقيقة . والثالثة : تحقيق .

فما زال يقول : وإن شئت قلت ، وإن شئت قلت .. حتى بهر عقل ابن عطاء الله وسلب قلبه .

وهنا أدرك ابن عطاء الله أن الإمام أبا العباس المرسي إنما يغترف من فيض بحر إلهي ومدد رباني فأذهب الله ما كان عنده ، وعاد إلى بيته وتفكر ليلته بالكلام الذي سمعه ، كلمات لمست شغاف قلبه ، لم يكن يدري هذه المعارف ، فأراد أن يستزيد منها ، فما أصبح الفجر حتى أسرع إلى المسجد ، فتلقاه الإمام أبو العباس ببشاشة وإقبال ، وخجل ابن عطاء الله من عداوته السابقة واستصغر نفسه أن يكون أهلاً لذلك الاستقبال ، فكانت أول كلماته أن قال :

. يا سيدي ... أنا ... والله ... أحبك .

فقال سيدنا أبو العباس : أحبك الله كما أحببتني .

إخوتي في الله : جلس ابن عطاء الله إلى الإمام وهو يدرّس بعد الفجر بكل انتباه وتمعن ، سمعه هذه المرة يقول :

أحوال العبد أربع لا خامس له : النعمة والبلية والطاعة والمعصية ، فإن كنت في النعمة فمقتضى الحق منك : **الشكر ﴿ واشكروا لي ولا تكفرون ﴾**

وإن كنت بالبلية فمقتضى الحق منك : **الصبر ﴿ فصبر جميل ﴾** وإن كنت بالطاعة فمقتضى الحق منك : **شهود منته عليك ﴿ وما بكم من نعمة فمن الله ﴾**

وإن كنت بالمعصية فمقتضى الحق منك : **وجود الاستغفار ﴿ واستغفروا الله ﴾**

قام ابن عطاء الله من مقام شيخه وكأنما كانت الهموم والأحزان ثوباً نزعته عنه ، ثم صار يكرر زيارته إليه ، لقيه بعد ذلك فسأله : . كيف حالك ؟

فقال : أفئتش عن الهم فلا أجده .

وهنا قال سيدنا أبو العباس : عرفت فالزم . فو الله لئن لزمت لتكونن مفتياً في المذهبين (الشريعة والحقيقة) وقال لمن حوله : . والله لا يموت هذا الشاب حتى يكون داعياً يدعو إلى الله تعالى (فراصة صادقة) .

معاشر المسلمين : ولزم ابن عطاء الله أستاذه اثنتي عشرة سنة حتى مات ، وصدقت فراسة شيخه به ، إذ صار من بعده شيخ الطريقة الشاذلية ، وجند قلمه للدعوة إلى طريق الله ، وكتب درراً صارت أنجماً ومعالم تهدي طريق السائرين إلى الله ، وكتابه الحكم مجموعة من الأدب العالي الرفيع والفكر الصوفي لمعراج الروح تضع ابن عطاء الله في صحاف أعلام الأدب الفصيح البليغ ومن عيون النثر الصوفي ، كما يعد كتابه الآخر المناجاة العطائية من روائع الأدب الصوفي ، ظهرت فيها شخصيته كمرب ومعلم يتوجه بإرشاداته للمريدين والطلابين ، فاسمحوا لي . أيها الإخوة . أن أنتقل بكم إلى هناك إلى الجامع الأزهر في مصر يوم أن كان أزهر ، هناك حيث يجلس الإمام على كرسیه والناس حوله يستمعون إليه بشغف قلّ نظيره ، تعالوا لأسمع معكم درراً وحكما لم ينطق بمثلهما أحد من قبل من الأولياء ، اسمعوه وهو يقول :

" أصل كل معصية وغفلة وشهوة ، الرضا عن النفس ، وأصل كل طاعة ويقظة وعقّة عدم الرضا عن النفس ، وإذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقا "

" مطلب العارفين في الله الصديق في العبودية والقيام بحقوق الربوبية "

" بالشكر والذكر والدعاء يصل العبد إلى الله تعالى "

" نعمتان ما خرج موجود عنهما ، ولا بد لكل مكوّن منهما : نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد ، أنعم عليك أولاً بالإيجاد ، وثانياً بتوالي الإمداد .

" متى أطلق لسانك بالطلب فاعلم أنه يريد أن يعطيك "

" و" لا يكن تأخر أمد العطاء مع الإلحاح بالدعاء موجباً ليأسك ، فهو قد ضمن لك الإجابة فيما يختاره لك لا فيما تختاره لنفسك وفي الوقت الذي يريد لا في الوقت الذي تريد " .

أيها الأحبة والصحب : وما زال الإمام يعظ ويذكر ويتكلم في علوم الشريعة وعلوم الحقيقة : توحيد ، فقه تصوف ، وتنبيه على الآفات المهلكة : كالكبر والعجب والرياء ، وذكر الأدوية النافعة في ذلك حتى صار عدد الحكم / ٢٦٤ / حكمة .

وما زال يرقى المريديه بهذه المعارف والعلوم حتى وصلوا إلى دقائق التوحيد ومدارج السالكين . وكان تلامذته يقولون :

- كنا ندخل على الإمام وفي نفوسنا أسئلة نريد أن يجيبنا عليها ، فإذا به في الدرس يجيبنا عن هذه الأسئلة بعينها فيقول :

لو سأل سائل كذا كانت الإجابة عنه كذا ..

إن أستاذاً هذا شأنه كيف تريدون لتلامذته أن يكونوا ، نعم ، صار تلامذته أئمة الدنيا عرفنا منهم الإمام تقي الدين السبكي قاضي القضاة .

وحين أُلِّف ابن تيمية رسالته في العقيدة الحموية والواسطية ثار عليه العلماء وعلى رأسهم ابن عطاء الله السكندري ، لأنه تحدث فيهما على تجسيم الله تعالى وقال فيهما : إن اليد والقدم والساق والوجه صفات حقيقية لله تعالى ، وأنه مستو على العرش بذاته ... وتكلم عن الصحابة الكرام فقال عن سيدنا علي إنه حاول الخلافة مراراً فلم ينلها وأنه قاتل للرئاسة لا للديانة ، و أنه أسلم صبيّاً والصبي لا يصح إسلامه على قول ، كما تكلم عن بعض الصحابة ، وأنكر التوسل بالنبي ﷺ وذكر طامات أخرى... " مما حدا بالعلماء أن يثوروا عليه ، وممن ثار عليه ابن عطاء الله والتقي السبكي واستعدوا عليه السلطان ، فخيره بين الإقامة بدمشق أو القاهرة بشروط أو الحبس ، فاختر ابن تيمية الحبس فحبس نحو أربع سنين حتى خمد ذكره بين معارضيه .

معاشر المسلمين : كانت حياة ابن عطاء الله رضي الله تعالى بالكلام البليغ والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسنة حتى توفاه الله في القاهرة سنة ٧٠٩ هـ / وخرجت مصر في جنازته ، وخرج الصوفية العلماء والمريدون خلف شيخهم وسيدهم وصار شعارهم من بعد :

ما لذّة العيش إلا صحبة الفقرا هم السلاطين والسادات والأمرا

المصادر :

- البدر الطالع ١٠٧/١
- النجوم الزاهرة ٢٨٠/٨
- شجرة النور الزكية ٢٩٢/١
- الموسوعة الصوفية ٢٩٥
- الطبقات الكبرى للشعراني ٢٠/٢
- جامع كرامات الأولياء ٥٢٥/١
- طبقات الشافعية للسبكي ٢٣/٩
- حسن المحاضرة للسيوطي ٤٢٩/١
- شذرات الذهب ٣٦/٨
- الأعلام للزركلي
- الدرر الكامنة لابن حجر ٢٧٣/١

(٧١٦)

الإمام عبد الله الياقيني

(٦٩٨ . ٧٦٨ هـ)

الحمد لله الذي أحيا بالعلماء الأولياء هذا الدين ، ونفع بهم المريدين ، وفقهم لصالح الأعمال ، وحفظهم في الأقوال والأفعال ، وصفى لهم الأحوال ، وقلوبهم بذكره أحيا ، ومن الأرجاس والأكدار طهر وجلا ، ونشر لهم أعلام ولايته ، وكلاهم بحسن كلاءته، وصرفهم في المملكة وولى ، وشوقهم إلى النظر لوجهه الكريم ، فزهدوا في الدنيا والآخرة ، فهم الناطقون بالحق عن الحقيقة ، والمرشدون إلى سلوك الطريقة :

ملوك على التحقيق ليس لغيرهم من الملك إلا اسمه وعقابه
أولئك أهل للولاية نالهم من الله فيها فضله وثوابه

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، كشف لأوليائه السر المكنون ، وفتح لهم العلم المصون ، شربت أرواحهم راح محبته في حضرة القدس ، فسكرت عند مشاهدة الجمال على بساط الإنس ، فهم الأصفياء المحبوبون والجلساء المقربون :

فأجسامهم في الأرض قتلى بجبه وأرواحهم في الحجب نحو العلى تسري

وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله سيد الأصفياء ، وأمير الأنبياء ، وخير من مشى تحت أديم السماء ، من أكثر من الصلاة عليه صار من الأولياء .

اللهم صل وسلم وبارك وعظم على سيدنا محمد وعلى آل سيدنا محمد وعلى أصحاب سيدنا محمد ، وعلى أزواجه أمهات المؤمنين ، وأنزلهم في مقعد صدق عندك

يا مليكننا المقتدر وفي رحمتك يا أرحم الراحمين ، وعَجَّل فرجنا بحقهم وحق من جعلته
رحمة للعالمين ، وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد فيا معشر الإخوة الكرام :

لماذا كان أفضل العلماء هم العارفين بالله ؟ ولماذا علماء الحقيقة أفضل من
علماء الشريعة ؟

سؤالان أسألهما اليوم لأجيب عنهما بعونه تعالى من خلال شخصيتنا اليوم .
العلماء . يا إخوتي وأحبتي إنما يشرفون على قدر شرف علومهم ، وشرف العلوم
إنما على قدر شرف متعلقاتها ، فعلم المعارف المتعلقة بالله تعالى أشرف العلوم ،
وأصحابها أشرف العلماء ، وبعدها علم الفقه لتعلقه بأحكام الله تعالى وشرعه الذي
تعبّد به عباده .

وجميع العلوم وسيلة إلى هذين العلمين المشتملين على معرفة الله تعالى ومعرفة
عبادته ، لأن الخلق إنما خلقوا لمعرفة الله وعبادته ، كما قال عز وجل ﴿ وما خلقت
الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ . ثم العابد مفتقر إلى معرفة المعبود ومعرفة كيف يعبد
هذا أولاً ، وثانياً أشرف العلوم لا تنال بالكسب وإنما تنال بالوهب ، فالعلوم الوهبية
أو اللدنية أفضل العلوم ، وأصحابها أفضل العلماء ، والدليل على ذلك من أوجه :
الأول : من المعقول: أن المعارف والعلوم اللدنية يُخَصّ الله بها الولي والصدّيق ،
والعلوم الظاهرة ينالها الصالح والزنديق .

الوجه الثاني : من كتاب الله تعالى الذي قال عن سيدنا الخضر ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ
لَدُنَّا عِلْمًا ﴾

الوجه الثالث : فضّل رسول الله ﷺ سيدنا أويساً القرني على طبقة التابعين
لشغله وولاه بمحبة الله تعالى .

لذا . أيها المحتفلون كل جمعة بواحد من هؤلاء الأفذاذ ، لهذا علماء الحقيقة أفضل من علماء الشريعة ، أتعرفون لماذا ؟

لأن علماء الحقيقة علماء بالشريعة وزيادة علماء بالحقيقة ، الحقيقة نهاية عزائم الشريعة ، الحقيقة مشاهدة أسرار الربوبية للعلماء بالله الذين كُشِفَ لهم الغطاء فشاهدوا الجمال الأسنى ، وسكروا بمحبة المولى وهاموا بأسمائه الحسنى وهم يرددون :

يا عين سحِّي أبدا يا نفس موتي كمدا
ولا تحجي أحدا إلا للليل الصمدا

واليوم أعرفكم بضيف من هؤلاء ، شيخ الطريقتين وإمام الفريقين ، منقطع القرين في الزهد ، شدَّ الرحال إلى المساجد الثلاثة لطلب العلم ، نزيل الحرمين الشريفين ، نطقه الشعر ، وقوله السجع ، أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن سيدنا الخضر حي ، وألَّفَ في حياته كتابه : نشر الروض العطر في حياة سيدنا أبي العباس الخضر ، وكان يقول ويردد : إن لم تقولوا أن الخضر حي غضبت عليكم .

نحن اليوم مع عالم الحجاز اليميني المكي ، الذي قيل فيه وهو بعد حي : الحمد لله الذي افتتح المذهب بالإمام الشافعي واختتمه بالإمام اليافعي
استقبلوا ضيفكم الإمام سيدنا عبد الله بن أسعد اليافعي .

ومع الحلقة الثانية والتسعين من سلسلة الشخصيات الإسلامية من جامع الدرويشية ، ومع بداية هذه الحلقة أدعوكم جميعاً لتتروا على الإمام عبد الله اليافعي :

ﷺ وأرضاه وأرضانا معه

إخوة الإيمان : شاء الله تعالى أن يعطر الكون في نهاية القرن السابع الهجري ، وفي عدن اليمن حيث ولد سيدنا عبد الله اليافعي ، ولد كما يولد الأولياء يستنشقون عبير الإيمان ، فعزفت نفسه عما يشغل به الأطفال من اللعب ، ولما رأى والده عطر

التقوى ينشر عقبه على سفوح بلده ، أرسله إلى عدن وفتيها الإمام الحرّازي (أحمد بن علي) وعلامتها الشيخ البصّال (مُحمَّد بن أحمد) .

(وما اتخذ الله من ولي جاهل ولو شاء أن يتخذ له علمه) ، ولم يشتغل بشيء غير القرآن والعلم حتى برع فيه ، وحفظ السيد الإمام المتون في الفقه والنحو ، وقضى الله له علماً ولياً هو الشيخ علي الطواشي ، فلازمه في التربية والسلوك ، ورقاه حتى صار له طبعاً وديناً ، لكنه صار يتردد : هل ينقطع للعلم أو للعبادة والذكر ، واهتم لذلك ففتح أحد كتبه يوماً لينظر فيه على مقصد التبرك والتفأل فوجد فيه ورقة لم يكن رآها قبل ، وإذا مكتوب عليها هذه الأبيات :

وَكِلِ الْأُمُورَ إِلَى الْقَضَا	كُنْ عَنْ هُمُومِكَ مُعْرِضَا
وَلِرَبِّمَا ضَاقَ الْفَضَا	فَلِرَبِّمَا اتَّسَعَ الْمُضْطِيقُ
لَكَ فِي عَوَاقِبِهِ الرِّضَا	وَلِرَبِّ أَمْرٌ مُتَعَبٌ
تَنْسَى بِهَا مَا قَدْ مَضَى	وَأَبْشُرْ بِعَاجِلِ فَرْجَةٍ
ءَ فَلَا تَكُنْ مُتَعْرِضَا	اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ

إخوتي في الله : هدأت نفس الإمام وسكن ما عنده من الهم ثم شرح الله صدره أن يلازم العلم الشريف فاستأذن أشياخه للسفر إلى بيت الله الحرام ، فسكنها عشر سنين ، يشتغل فيها بالعلم ، ويتجرد للعبادة والذكر ، ثم توجه إلى طيبة الحبيب الأعظم ﷺ وقال : لا أدخل المدينة حتى يأذن لي رسول الله ﷺ فوقف على باب المدينة أربعة عشر يوماً يصلي على النبي ﷺ وناداه قائلاً :

وَمَنْ جُودَهُ خَيْرُ النُّوَالِ يُبَلِّ	أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا أَكْرَمَ الْوُورِ
وَدَجَلَةٌ تَجْرِي وَالْفَرَاتِ وَنِيلِ	وَمَنْ كُفَّهُ سَيِّحُونَ مِنْهَا وَجَيْمُحْنَ
وَأَنْتَ الَّذِي فِي الْمَكْرَمَاتِ أَصِيلِ	مَدَحْتُكَ أَرْجُو مِنْكَ مَا أَنْتَ أَهْلُهُ
عَطَا مَا نَحْ مِنْهُ الْجَزَاءُ جَزِيلِ	يَا خَيْرَ مَدُوحٍ أَثْبَثَ شَرِّ مَا دَحِ

فرأى رسول الله في المنام فقال له :

- يا عبد الله أنا في المدينة نبيك ، وفي الآخرة شفيحك ، وفي الجنة رفيقك . واعلم أن في اليمن عشرة أنفس من زارهم فقد زارني ومن جفاهم فقد جفاني فسأله : من هم يا رسول الله ، فعددهم له ، وعدّ منهم شيخه علياً الطواشي . ثم استأذنه بالدخول إلى المدينة فقال له : ادخل إنك من الآمنين . ثم زار الحبيب الأعظم وكانت ساعة من ساعات الزمن المرضية عند أعتاب سيد الكائنات .

وأعظم ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الخيام من الخيام

حدّث الإمام قاضي القضاة مجد الدين الشيرازي فقال : رأيت في المنام وكان معي أجزاء من كتب الحديث ، وأنا أفكر في نفسي فيمن أذهب للسمع عليه ، وكان إذ ذاك بمكة من الشيوخ المسندين جماعة معظمون مقدّمون في أكثر النفوس على الإمام الياضي ، فسمعت صوتاً من جميع جهاتي وهو يقول : ليس عند الله أعظم قدراً من الياضي فقلت في نفسي : لعل المراد أعظم قدراً في أهل مكة .

فسمعت القائل يقول : ولا في الشام ولا في مصر فمضيت أسير وقلت : هذه رؤيا منام ولا بد لها من تعبيرها ، فما سرت خطوات حتى رأيت شخصاً واقفاً على طريقي غلب على ظني أنه سيدنا إبراهيم الخليل فسلمت عليه وذكرت له رؤيائي فقال : تعبيرها أن الياضي يشتهر حتى يصير مثل الشمس ثم يموت .

وهناك بجوار الحبيب الأعظم ينظم قصائده العلمية ، فإن لإمامنا قصائد في العلوم الشرعية منها ثلاث قصائد نظم بها المسائل المعتمدة في عقيدة أهل السنة والجماعة ، ومنها قصيدة جمع فيها عشرين علماً من العلوم ، لم يأت قبله أحد بمثل ما أتى به

أستطيع أن أقول . أيها السادة . أن من ألزم نفسه آداب السنة نور الله

قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب الأعظم في أوامره وأفعاله وأخلاقه ، خذوا هذا الدرس اليوم واكتبوه بحروف من نور على قلوبكم : من

أَمَرَ السُّنَّةَ عَلَى نَفْسِهِ قَوْلًا وَفِعْلًا نَظَقَ بِالْحِكْمَةِ ، وَالِدَلِيلِ : قَوْلُهُ تَعَالَى :
﴿ وَإِنْ تَطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ يَا سَعْدُ مِنْ صَلَّى عَلَيْهِ .

مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ : بَقِيَ الْإِمَامُ يَتَرَدَّدُ عَلَى الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ مَعَ زِيَارَتِهِ لِلشَّامِ وَبَيْتِ
الْمَقْدَسِ وَسَيِّدِنَا الْخَلِيلِ إِبْرَاهِيمَ ، لِيَنْهَلَ مِنْ عُلُومِ أَوْلِيَاءِ أَهْلِ زَمَانِهِ ، وَيَحْجِ كُلَّ عَامٍ
لَا تَفْتَهُ حَاجَةً ، وَيَصْرِفُ أَوْقَاتَهُ فِي وَجْهِ الْبِرِّ ، مُرْتَفِعًا عَلَى أَبْنَاءِ الدُّنْيَا ، زَاهِدًا فِيهَا ،
يُرِي الْمُرِيدِينَ وَيُدْفَعُ عَنْ عَقِيدَةِ الْأَشَاعِرَةِ الْكَرَامِ ، وَيَذِمُّ أَعْدَاءَهُمْ حَتَّى اشْتَهَرَ صَيْتُهُ فِي
التَّصَوُّفِ وَأَصُولِ الدِّينِ ، وَعَارَ عَلَيْنَا أَنْ يَزُورُنَا هَذَا الْإِمَامَ الرَّبَّانِي وَلَا نَسْتَمِعَ لِدَرْسِهِ ،
فَتَعَالَوْا بَنَاءُ نَحْضُرْ وَلَوْ دَرْسًا وَاحِدًا نَغْدِي بِهِ أَرْوَاحَنَا وَقُلُوبَنَا وَعُقُولَنَا مِنْ وَاحِدٍ مِنْ أَفْذَاذِ
الْأُمَّةِ الْكَرَامِ :

نَجَابُ فَتِيَّةٍ غُرَّ كَرَامُ مِنْ الْعِلْيَاءِ فِي أَعْلَى مَكَانٍ
بَحَارُ الْعِلْمِ أَوْتَادُ لَأَرْضِ مَلُوكِ الْخَلْقِ أَقْمَارُ الزَّمَانِ

اسْمَعُوهُ وَاسْتَبْشِرُوا بِالْخَيْرِ فَإِنَّ الدَّرْسَ فِي مَقَامِ الرَّجَاءِ يَقُولُ :

إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ ﴿ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ ﴾ وَيَقُولُ سُبْحَانَهُ ﴿ وَرَحْمَتِي
وَسَعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ " لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ كَتَبَ فِي كِتَابٍ فَهُوَ عِنْدَهُ
فَوْقَ الْعَرْشِ إِنْ رَحِمْتِي تَغْلِبُ غَضَبِي " وَفِي رِوَايَةٍ " غَلَبَتْ غَضَبِي " وَفِي رِوَايَةٍ سَبَقَتْ
غَضَبِي " رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ ، " وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاكِيًا عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ "
وَعَزَّتِي وَجَلَالِي وَكِبْرِيَائِي وَعَظَمْتِي لِأَخْرَجَنِي مِنْهَا مَنْ قَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ " رَوَاهُ
الْبُخَارِيُّ ، وَقَالَ ﷺ " يُخْرَجُ مِنَ النَّارِ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ " رَوَاهُ
التِّرْمِذِيُّ وَقَالَ حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ وَقَالَ ﷺ : " اللَّهُ أَرْحَمُ بِعَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذِهِ
بَوْلْدِهَا " رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ

وأما حقيقة الرجاء فقال بعضهم : تعلق القلب بمحجوب سيحصل في المستقبل ،
وتكلم الشيوخ في الرجاء فقالوا : الرجاء حسن الطاعة . وقيل : قرب القلب من
ملاطفة الرب " .

ثم أخذ الإمام في حكايات الصالحين عن الرجاء : وقد حكى عن إبراهيم بن
أدهم فقال : كنت أنتظر مدة من الزمان أن يخلو المطاف بمكة لي ، حتى إذا كانت
ليلة ظلماء شديدة المطر فخلا المطاف فدخلت ورحت أدعو : اللهم اعصمني
واحفظني عن المعصية ، فسمعت هاتفاً يقول : يا ابن أدهم أنت تسألني العصمة وكل
الناس يسألون العصمة فإذا عصمتكم فلمن أرحم وعلى من أتكرم ؟

وراح يتابع حكايات الصالحين ثم أيدّ كلامه بالشعر وذكر قول الإمام الشافعي



ولما قسا قلبي وضافت مذاهي	جعلت الرجا مني لعفوك سلما
تعاطمني ذنبي فلما قرنته	بعفوك ربي كان عفوك عظما
فمازلت ذا عفو عن الذنب لم	تزل تجود وتعفو منةً تكرما

وقام فتى من الحاضرين يسأل الإمام أنه لا يحفظ دروسه كما ينبغي وطلب منه
شيئاً يعينه على الحفظ فقال له الإمام : عليك بأوائل (سورة البقرة ألم ... المفلحون)
فإنها تزيد في الحفظ وتقوي النفس وتثبت العلم في القلب وتعين على المعرفة . (٢٧
الدر النظيم في خواص القرآن العظيم)

وقام آخر فقال له : يا إمام قد قُدر علي رزقي فهل من ذكر أقوله ؟ فقال
الإمام : أكثر من ذكر اسم : (الكريم الوهاب ذو الطول) لا يستديم على ذكره من
قُدر عليه رزقه ومسئله حاجة إلا يسّر الله عليه رزقه ، والاسم (الباسط) إذا ذكر وحمل
أثر سعة الرزق وتفريج الكرب وراح الناس كل منهم يسأله كيف يقضي الله له حاجة

وتكاثر عليه الناس فقال لهم : من كان له حاجة مهمة فليكتب في رقعة : (بسم الله الرحمن الرحيم . من عبده الذليل إلى ربه الجليل ربي ﴿إِنِّي مُسْنِي الضَّر وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء ٨٣) ثم يرميها في نهر جار ويقول : إلهي بسيدنا مُحَمَّد وآله الطيبين اقض حاجتي (ويذكرها).

وهكذا ملأ القرآن حياة الإمام يصف الدواء من القرآن وأسماء الله الحسنى ، بل ألف كتاباً في ذلك سمّاه الدر النظيم في خواص القرآن العظيم .

أيها الأحبة والصحب : قال العارفون بالله في عصر الإمام : لم يمت الإمام عبد الله اليافعي حتى نال القطبية وشهد له أهل الأبطح بمكة أنه فضيل مكة وفاضلها وعالمها وعاملها، ولقد توفاه الله بمكة سنة ٧٦٨ هـ ودفن بجوار العارف الرباني الفضيل بن عياض رحمهما الله تعالى .

وبيعت حوائجه المتواضعة بأعلى الأثمان للتبرك بها هنا وهناك ، وما أدراك ما هنا، هنا مدرسة سيدنا مُحَمَّد ﷺ الجالس فيها عليه أن يصلي على النبي :

الصلاة والسلام عليك يا سيدي يا رسول الله

المصادر :

- ١ . طبقات الصوفية للمناوي ٣٥/٣
- ٢ . جامع كرامات الأولياء ٢٥٠/٢
- ٣ . النجوم الزاهرة ٩٣/١١
- ٤ . طبقات الشافعية الإسنوي (٣٣٠/٢)
- ٥ . الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني ٢٤٧/٢
- ٦ . شذرات الذهب لابن العماد ٢١٠/٦
- ٧ . طبقات الشافعية للسبكي ٣٣/١٠
- ٨ . معجم المؤلفين لكحاله ٣٤/٦
- ٩ . البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع للشوكاتي ٣٧٨/١
- ١٠ . نشر المحاسن الغالية في فضل المشايخ الصوفية للإمام عبد الله اليافعي .

(٧١٧)

سيدنا الإمام الرواس

(١٢٢٠ هـ — ١٢٨٧ هـ)

الحمد لله الذي اصطفى الأولياء، فجعلهم نواباً للأنبياء، واستودع خزائن قلوبهم الطاهرة جواهر الإكرام.

وأصلي وأسلم على هذا النبي الكريم، السيد السند العظيم سيدنا ومولانا محمد عروس حضرة الغيب، الميراً من الدنس والعيب، وعلى آله وصحبه أجمعين، وأدركنا يا رب بحقهم بغايتك، وارحمنا برحمتك والطف بنا حرمةً لوجه نبيك، وسلم تسليماً كثيراً.

أما بعد : فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته أيها الأخوة المشاهدون :

هل سمعتم بشيخ الزمان ومرشد العصر والأوان ، الذي رأى رسول الله في منامه وسماه غريب الغرباء، ورآه فسماه الرواس أي رئيس الأولياء، سيد لا يضاهيه في زمنه ند في علوم الشريعة الغراء، ولا يباريه سابق في معاريج الطريقة السمحاء.

تمكن من اتباع الشرع العظيم في الأطوار والأفعال والأقوال والأحوال، ورسخت قدمه في منزلة الاتباع رسوخ أشمخ الجبال، انقطع عن الدنيا راضياً بالقليل الذي يسد الرمق، وتباعد بقلبه وقالبه عنها، عاش حياته في الدعوة والنصيحة لا بفضاظة ولا بغلظة ولا جفاء ولا تفوق أو علو، يرضى الله ويغضب الله كجده سيدنا رسول الله إذا تكلم سلب الألباب لعذوبة كلماته ووافر كمالاته، وإذا سكث أهاب الأعين كأنه الأسد في غابه، أو المرتضى (جدّه الأعلى) في محرابه ، يتدفق علماً وحلماً وإيماناً وعرفاناً

حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر

كان يضم تحت جناحه الطرق الصوفية جميعها ويدعو إلى عدم التعصب لطريقة أو لمذهب.

كان له رأي شديد في المحاكم، ويقول أهم شيء في عقيدتنا المحافظة على ولي الأمر وعمله من المساس به أو غشه، وأن نجتمع الأمة خوله، وندعو له سرّاً وجهراً.

قال لولده الروحي أبي الهدى : وإياك وشق عصا الأمة أو أن ينفك قلبك عن ولي الأمر، لأنه الله تعالى مسح على جبين ولي الأمر فلا يسمح بالاعتداء عليه فإن حرمة بحرمة الأمة (مصداق ذلك قوله ﷺ السلطان ظل الله في أرضه)

لا شك أنكم أصبحتم بشوق لمعرفة هذا السيد الشريف الذي دانت له فضلاء الدهر، وهذا العالم الذي لم يُسمع بمثله في العصر، إنه شافعي المذهب رفاعي المشرب محمدي المنهج والمطلب

إنه سيدنا وأستاذنا الإمام بهاء الدين محمد بن علي الشهير بالرواس الصيادي الرفاعي الذي يصل نسبه إلى سيدنا السبط الحسين بن سيدتنا فاطمة الزهراء بنت سيدنا ومولانا محمد صلى الله عليه وسلم وإحدى جداته السيدة زينب بنت سيدنا ومولانا الإمام أحمد الرفاعي رضي الله عنه ، وله طرف في أم أحد أجداده يصل نسبه إلى سيدنا عبد القادر الجيلاني ثم إلى سيدنا الحسن بن علي رضي الله عنهم جميعاً وفي هذا يقول:

أنا الحمد لله ربي وارث	منظور سر العبا في بردتي
لأبي السبطين من زهراته	قد تعالى نسي من أبوي
يا لقومي إن رأيتم صادقاً	قصده الله فدلوه علي

إخوة الإيمان : ولد هذا الإمام العلم بالبصرة سنة ١٢٢٠ هـ وشبّ في مهد الفضل والسيادة بين أبويه الطاهرين فأقرأه السيد علي أبوه القرآن وشغله بطلب العلم، فلما بلغ من العمر ثلاث عشرة سنة أصاب أرضهم الطاعون فتوفي أبوه وأمه وإخوته وبقي يتيماً، فقام على تربيته خاله لأمه السيد عبد الله من السادة الرفاعية رضي الله عنهم.

فلما بلغ الخامسة عشرة جذبته النفحات الربانية فقام إلى السياحة وبدأ هجرته إلى مدينة النبي صلى الله عليه وسلم مع خاله المربي فجاور في المدينة سنتين ثم حج واعتمر وأقام بمكة سنة، كل ذلك وهو يطلب العلم في الحجاز، ثم رجع إلى المدينة المنورة حيث توفي خاله وبقي وحيداً ليس له سوى الله تعالى .

وجاء الإذن له بالسفر إلى مصر ليتابع تلقي أنواع الفنون العالية على المشايخ الأكابر الكمل منهم الشيخ الأمير والشيخ ثعلب وأقام في الأزهر ثلاث عشرة سنة حتى برع في كل فن وتبحر في كل علم ، مع الزهد العظيم والعبادة الوافرة وحسن الخلق حتى اعترف له مشايخه بالصلاح والكمال .

وحتى قال من ترجم له : إنه حفظ الكتب الستة في الحديث النبوي بأسانيدھا وحفظ المتون وكتب الأصول والفروع وكتب الشعر والأدب ومن كلام القوم ما لا يتأتى حفظه لغيره بقرن من القرون، وأولوا ذلك بأنه كان محض نفة خاصة من جده سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وفي سنة ١٢٥١ هـ أي بعد ست عشرة سنة من الغربة عن بلده العراق عاد إليها ماشياً لا يعرف الناس ولا أحد يعرفه، فترل على ابن عمه شيخ الطريقة الرفاعية السيد إبراهيم مفتي البصرة، وبايعه على الطريقة ثم ذهب لزيارة جده سلطان الأولياء المشرف بلثم يد جده سيد الأنبياء أعني به مولانا الإمام الشيخ أحمد الرفاعي، فالتقت الروحان بأنواع الحنان :

وقام إزاء الباب بالذل خاشعاً وفي سدة التصريف فهو المصلد
فلله من صدر طوى بحر همه غدت عنه آيات الخوارق تصدُر
تصاغر للباري وحين فيوضه تموج يقول القوم: الله أكبر

وراح يتاجي جده شعراً وثرأً وانعطفت روح جده بالمسامرة على حفيده فخاطبه وسمعه في سره يقول : ((أيها الولد المبارك، المؤيد بتأييد الله، والمملووظ بنظر رسول الله، تحقق بالصدق في توحيد ربك لا إله إلا الله (كل شيء هالك

إلا وجهه) وتَمَكَّنْ باتباع نبيك صلى الله عليه وسلم فهو الرحمة الشاملة لـذرات
العوالم، الإمام المتبع المطاع، الذي من تمسك به اهتدى، ومن انحرف عن طريقه
ذلّ وضلّ، وإياك ومخامرة الدعوى، والانطلاق مع رعونة الشطح، وانطرح
ترهات المتصوفة الذين يخوضون لُجَجَ القول بالوحدة المطلقة ويأخذون بما يُشَمُّ
منه رائحة الحلول، فكل ذلك باطل ومحال، واجعل الذكر سلاحك، والصلاة
والسلام على النبي الكريم جناحك ونجاحك ﴿ولا تقفْ ما ليس لك به علم﴾
ولا تتعد حد الشرع، حكم نبيك في أقوالك وأحوالك، ولا تنس المراقبة الإلهية،
فإن حقوق الله تطلبك في كل طرفة عين، وازهد في الدنيا الفانية .

إخوتي في الله :

هذه بشارة سيدنا أحمد الرفاعي بسيدنا الرواس

وإذا القوم أهل الله بشر بعضهم بشيء ترقب يا بُني ظهوره
فأخبارهم من نور حضرة ربهم ولا بد أن الله يُكْمِلُ نوره

أيها الأحبة والصحب :

ساح الإمام الرواس في الأرض إلى بلاد الله فزار إيران والهند وإندونيسيا وأثناء
ذلك لم يترك ولياً في الأرض إلا زاره، ثم عاد إلى الحجاز، وحج وزار جده سيدنا
رسول الله ﷺ وسأله قائلاً دلي على الحق، فقال ﷺ : القرآن فيه مطلوبك .

ثم اتجه إلى متكين في حماه وزار مرقد جده السيد عز الدين أحمد الصياد
الرفاعي بن ممهد الدولة عبد الرحيم فوصلها سنة ١٢٧٠ هـ ونزل على ابن عمه
السيد حسن وادي المكارم والد سيدنا أبو الهدى الصيادي الذي أصبح وارث
الإمام الرواس بعد ذلك وشيخ السلطان عبد الحميد .

و رأى النبي الأعظم ﷺ فقال له جدد جدد جدد

فأمره بالأولى بتجديد الأمة أن يجدد للأمة أمر دينها بحكمة وعلومه الشرعية.
وبالثانية أن يجدد طريقة الإمام الرفاعي فهي طريقة السلف الصالح أهل بيت النبي
ﷺ وأصحابه ، وبالثالثة أن يجدد الطرق الصوفية فقد طمستها البدع القولية
والاعتقادات الرديّة .

واذهب إلى ولدي أحمد الرفاعي فإنه ينتظر كإن وصلت إليه فسلم لي عليه .
ثم عاد إلى العراق ونزل على جده الكبير سيدنا الإمام الشيخ أحمد الرفاعي
وهناك انبجحت الشمس الساطعة من النور المحمدي في حضرة جده الأكبر حيث
أمر أيضاً بتجديد الطرق المحمدية الأحمدية الرفاعية.
هذه الطريقة تلزم المريد أن يقوم بما فرض الله تعالى عليه من الأعمال، والعمل
مهما أمكنه بالنوافل والمثوبات والتباعد عن المنهيات والتخلق بأخلاق سيد
المخلوقات .

فماذا يقول من يعترض على الصوفية في هذه المبادئ ؟

فوالله ما تمسك بهذه المبادئ أحد وذلك أو هان وسينشر الله عليه لواء الأمان،
يقول سيدنا أبو الهدى الصيادي خليفة مولانا الإمام الرواس (الذي لما بلغ سن
السادسة عشر طار قلبه إلى الله فاستأذن من والده السيد حسن أن يذهب إلى
شيخه فعرفه شيخه فعانقه وأقام عنده شهراً ولقنه مع الطريقة المذهب الحنفي):
(تربّع على بساط الأمن في سدرّة البركة في مهد العناية المحمدية، لا تخف
منازعاً، أنا معك ياذن الله، إن كنت حياً فحاضري، وإن كنت ميتاً فحاضري
وحينئذ بيني وبينك شبر من تراب، من حجبه عن محبيه شبر تراب فليس برجل
كن في أمان الله) .

يقول سيدنا أبو الهدى الصيادي (فكنّت إذا أصابني هم أو غم أزاله الله تعالى
عني ببركته) وأصابني مرة همّ وغمّ في أثناء خدمتي له وحاولت أن أخفي

علامات الكدر في حضوره المبارك، فنظر إلي وتبسّم وقال : فتح علي الآن بيتين خطاباً لك، وأنشد :

إنّ باديك الذي أكننته هو بادٍ ظاهرٌ في حاضرك
أجلُّ قلباً في حمائنا نحن قمنا بالذي في خاطرك

قال : فوالله ما عرفت كيف أزال الله ذلك الهم ببركته رضي الله عنه.
ورأى بعد أن بلغ الخمسين من عمره الشريف جده وسيد الوجود ﷺ ومعه الأنبياء والمرسلون كلهم حوله، فأقبل حتى قبل قدمي جده النبي ﷺ فبش بوجهه، وقال لمن حوله من الأنبياء (هذا ولدي الأشعث الأغبر منتظر النوبة المحمدية، هذا غريب الغرباء محمد مهدي باركوا عليه . فقام كل منهم وبارك عليه ودعا له) .
ونزل متراً على أحد أبناء عمومته من الصالحين ومعه رجلان فلم يعرفوه فأكرمهم على عادة العشائر، فلما جاء وقت النوم هيئوا لهم محلاً للنوم فناموا، فما أن انقضى نصف الليل حتى جاءت زوجة صاحب البيت توقظ زوجها وتشير إلى محل نزول سيدنا الرواس، وإذا بعلم من نور غز في الأرض عند رأسه المبارك وصل إلى عنان السماء، فجعلنا ينظران ويكيان وحصل لهما حال عظيم ، فانتبه الإمام فبمجرد انتباهه غاب هذا النور ، وقاما يقبلان قدمي الإمام ويحلفانه من هو، فأخبرهما أنه ابن عمهما فبايعاه على الطريق .

يقول خادمه : توجهنا نحو بغداد وظهر في طريقنا أسد فذكرت ذلك لسيدي رضي الله عنه فلم يلتفت، فتثبت ومشيت ثم غلبني خوف البشرية فأعدت ذلك لسيدي وكررت فضحك ثم قال : إنه ليخاف منا بإذن الله، إيه يا مبارك تدبر الفرق بين أسد البر وابن أسد الله، ثم حدّق بصره بالأسد، فوالله الذي لا إله إلا هو ضرب البر والعجاج وراءه وهو هارب وكأنّ خيل الله وأسودّه كلّها تطلبه .

وقال أيضاً : كنا أربعة في خدمة السيد بجانب الفرات فطغى علينا الماء حتى خفنا الغرق، فنادوا: يا ولي الله توسل إلى الله بآبائك الطاهرين وبقرهم من الله

لعلَّ الله ينجينا من الغرق، قال : فخاض في الماء وقال بسم الله الرحمن الرحيم
تعالوا على إثري ولا تنحرفوا إلى جهة أخرى، وهمهم بكلمات، يقول فسرنا على
الماء حتى قطعنا من جانب إلى جانب وحمدنا الله وشكرناه، وراح الإمام يكي
وهو يقول : قدَّر الله ولطف وهو أرحم الراحمين .

وفي بيت المقدس دخل على قرية بين عين كارم وقلونيا فوجدهم يستسقون
وطلبوا منه السقيا فضرب الأرض بقدمه فنبعت من تحت قدمه نبعة تسمى إلى
يوماً هذا بنبعة الإمام الرواس أو عين الإمام الرواس قال رضي الله عنه :

بنبعة لي ماجت بخوارقات العوائد
تصاد منها العطايا تمد منها الموائد

أيها السادة:

الحديث في ذكر كراماته يطول:

كراماته زُهر النجوم وإنما إذا غاب منها ساطع جاء ساطع

أيها الأحبة والصحب :

لم يتزوج الإمام لأنه ساح في الأرض ونذر نفسه للدعوة إلى الله تعالى فهو
غريب الغرباء ولذلك ليس له ذرية ولكنه ترك لنا تراثاً علمياً صوفياً قل نظيره في
أعلام الإسلام، إذ له مئة ألف بيت في الشعر الصوفي وله من الكتب : بوارق
الحقائق — طي السجل — مراحل السالكين — مائدة الكرم — واردات الغيب
— نور الشروق — فذلكة الحقيقة في أحكام الطريقة تكلم فيه عن سلوك المسلم
في حياته العامة والخاصة وقال : وإني أطالب به المريدين بين يدي ربي عز وجل ،
وله كتب أخرى .

فهل عرفتم اليوم نحن بحضرة من ؟

كنت معكم مع حضرة سيد من العلماء العاملين، وصدر أهل الحقيقة الدين
وبهاء الملة والدنيا والدين، وشيخ الإسلام والمسلمين سيدنا محمد مهدي الرواس
الذي اختاره الله لجواره سنة ١٢٨٧ هـ في بغداد وقبره ظاهر يزار بعد أن جمع
الله له حال وقال الأولياء الكرام .

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

كنت أريد أن أسدل الستار على سيرة هذا الإمام لكنه هالني موقف بعد
تسعين سنة من وفاته، إذ أرادوا فتح شارع هناك سنة ١٩٥٤ م فأرادوا إزالة القبر
فما استطاعت آلياتهم إزالته فأدت الصوفية والعلماء في بغداد وأقاموا ذكر الله ثم
فتحوا القبر الشريف فإذا به على هيئته يوم مات فحملوه ودفنوه في شارع الرشيد
في مسجد السلطان علي والد السيد أحمد الرفاعي .

فمن أراد أن يجتمع فيه هناك فليبق معنا هنا على قناة صوفية مع سادة الأمة
المحمدية جمعنا الله بهم في مستقر رحمته والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

مصادر الحلقة :

وسيلة العارفين للعلامة محمد أبي الهادي الصيادي

حلية البشر (النسخة الأصلية) : عبد الرزاق البيطار

رجال القرن الثالث عشر في الفكر والساسة والأدب : جميل مردم بك

بوارق الحقائق للسيد الرواس .

واردات الغيب للسيد الرواس